مركز دراسات الوحدة العربية

مكتبة
مؤمن قريش
moomenquraish.blogspot.com

الطبعة السابعة

عشرة أعوام مع حافظ الأسد

١٩٩٠ - ٢٠٠٠

الدكتورة بثينة شعبان

عشرة أعوام مع حافظ الأسد

١٩٩٠ - ٢٠٠٠

مركز دراسات الوحدة العربية

عشرة أعوام مع حافظ الأسد

١٩٩٠ - ٢٠٠٠

الدكتورة بثينة شعبان

مكتبة
مؤمن قريش

الفهرسة أثناء النشر - إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

شعبان، بثينة

عشرة أعوام مع حافظ الأسد، ١٩٩٠ - ٢٠٠٠/ بثينة شعبان.

٣٢٠ ص.

ببليوغرافية: ص ٣٠٩ - ٣١٢.

يشتمل على فهرس.

ISBN 978-9953-82-751-3

١. سوريا - تاريخ. ٢. الأسد، حافظ (١٩٣٠ - ٢٠٠٠).

أ. العنوان.

956.91

العنوان الأصلي بالإنكليزية

Damascus Diary:
An Inside Account of Hafez Al-Assad's Peace Diplomacy, 1990-2000

By Bouthaina Shaaban

(Boulder, CO; London: Lynne Rienner, Inc., 2013)

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص.ب: ٦٠٠١ - ١١٣
الحمراء - بيروت ٢٠٣٤ ٢٤٠٧ - لبنان

تلفون: ٧٥٠٠٨٤ - ٧٥٠٠٨٥ - ٧٥٠٠٨٦ - ٧٥٠٠٨٧ (+٩٦١١)

برقياً: «مرعربي» - بيروت
فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (+٩٦١١)
email: info@caus.org.lb
يمكنكم شراء كتب المركز عبر موقعنا الإلكتروني
http://www.caus.org.lb

حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للمركز

الطبعة الأولى: بيروت، كانون الثاني/يناير ٢٠١٥
الطبعة الثانية: بيروت، شباط/فبراير ٢٠١٥
الطبعة الثالثة: بيروت، آذار/مارس ٢٠١٥
الطبعة الرابعة: بيروت، نيسان/أبريل ٢٠١٥
الطبعة الخامسة: بيروت، أيار/مايو ٢٠١٥
الطبعة السادسة: بيروت، حزيران/يونيو ٢٠١٥
الطبعة السابعة: بيروت، آذار/مارس ٢٠١٦

إهـداء

إلى والديَّ رحمهما الله

السيد يونس شعبان والسيدة عبلة العلي

اللذين علماني كيف أحب وأصفح وأعمل من أجل السلام

شكر وتقدير

لم يكنْ لهذا الكتاب أن يكتمل من دون قائمة طويلة من الأشخاص الذين أسهموا في ذلك. أودّ أن أبدأ أولاً بتقديم الشكر إلى السيد الرئيس بشار الأسد الذي شجّعني على وضع هذا الكتاب، وسمح لي باستخدام أرشيف القصر الجمهوري للاطلاع على الوثائق والرسائل التي يُفرج عنها أول مرة.

كما أشكر للسيد وليد المعلم، نائب رئيس الوزراء وزير الخارجية والمغتربين، تكرُّمه بوضع أرشيف عملية السلام تحت تصرّفي أثناء الكتابة.

وإنني أودّ أن أخصّ بالشكر أفراد أسرتي - ابنتيّ ناهد ونازك، وابني رضا، وزوجي خليل جواد، وأحدث أعضاء عائلتي حفيدي نجم الدين الصالح، وحفيدتي بثينة جواد شقوف - الذين كانوا وما زالوا شركائي الأحبة الحقيقيين في كل شيء أنتجته وكل كلمة كتبتها على الإطلاق. لولاهم لما أصبحتُ المرأة التي يعرفها الناس اليوم. لقد جعلوني أكثر قوة وحكمة وقدرة على مواصلة المسير حين بدت الأوقات صعبة، إنْ في سورية أو في الوطن العربي الواسع. كانت طاولة طعامنا في دمشق هي المشهد الذي جرت فيه مناقشاتنا الطويلة اليومية عبر السنين والتي شملت كل ما يخصّ التجارب والمحن المتعلقة بصنع السلام في الشرق الأوسط. كنا نأمل معاً ونُحْبَط معاً، وقد نظرنا معاً إلى عشر سنوات من عملية السلام وشعرنا بالأسف والمرارة تجاه الإخفاق في تحقيق السلام وإعادة الحقوق العربية إلى أصحابها الشرعيين.

ويطيب لي أن أشكر أيضاً الدكتور سامي مبيّض، المؤرخ السوري الذي قام بمراجعة الوثائق التاريخية والمراسلات المتعلقة بعملية السلام. كما أقدم تقديري لكلّ صنّاع السلام في العالم، بغضّ النظر عن إنجازاتهم النهائية، كبيرة كانت أو صغيرة. إن أهم نتيجة خرجت بها من هذه التجربة الطويلة هي أن العمل من أجل السلام واجب مقدس، علينا متابعته في كلّ صراع، لأن البديل بشع ولاإنساني ومؤلم للناس كافة.

ولا يسعني إلا أن أزجي الشكر خالصاً إلى المسؤولين عن أرشيفَيْ وزارة الشؤون الخارجية والمغتربين والقصر الرئاسي جميعهم، وخاصة الدكتور إسكندر لوقا، والأستاذ سعيد أحمد، والأستاذ محمد ديب دعبول (أبو سليم). لقد كان صبرهم ومساعدتهم الكريمة كنزاً لا يقدر بثمن؛ إذ تحملوا الساعات الطويلة التي أمضيتها وأنا أراجع المحاضر والرسائل والوثائق المكتوبة بخط اليد، والسجلات الكتابية للمحادثات الهاتفية. كما أشكر زميلي الدكتور محمد منير صلاحي الأصبحي الذي نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية بحبّ وعناية فائقتين، وكان العمل معه متعة وفائدة؛ فهو غاية في التهذيب والدقة. وخالص الشكر وأجزله أقدمه للأستاذة نبيلة هاشم التي دقّقت اللغة العربية لهذا الكتاب تدقيقاً لا يستطيعه إلا من يعشقون هذه اللغة ويدركون تفاصيل جمالياتها ومصادر غناها، فلها كلّ التقدير. وأخيراً وليس آخراً، أود التعبير عن عميق شكري لمساعِدتي السيدة رغد المحروس، التي عملت معي في إعداد الكتاب لحظة بعد لحظة ويوماً بعد يوم في اللغتين الإنكليزية والعربية، فلها امتناني.

المحتويات

تقديم	.... عبد الإله بلقزيز	١٥
مقدمة	....	٢٣
الفصل الأول	: الطريق إلى مدريد	٣٣
أولاً	: الردّ السوري على غزو الكويت	٣٦
ثانياً	: عملية عاصفة الصحراء	٤٣
ثالثاً	: الاستعداد لمؤتمر مدريد	٤٤
رابعاً	: «دبلوماسية المثانة»	٤٧
خامساً	: الشيطان يكمن في التفاصيل	٥٦
سادساً	: العامل السوفياتي	٦٢
سابعاً	: على هوامش مرحلة ما قبل مدريد	٦٥

الفصل الثاني	: **طوبى لصانعي السلام**	٧١
أولاً	: المؤتمر	٧٨
ثانياً	: الدبلوماسية العقيمة	٨١
ثالثاً	: اجتماع الشرع وروس	٨٤
	١ – الجولة الأولى	٨٧
	• المسار الفلسطيني	٨٩
	٢ – الجولة الثانية: على الطريق المسدود	٩١
	٣ – الاجتماع الثالث	٩٢
الفصل الثالث	: **صعود بيل كلينتون**	٩٧
أولاً	: الجولة الأخيرة في ظل رئاسة بوش	١٠١
ثانياً	: كلينتون والوطن العربي	١٠٥
ثالثاً	: اتفاقيات أوسلو	١٠٧
الفصل الرابع	: **شهر عسل سورية وأمريكا في عهد كلينتون**	١٢١
أولاً	: في الضحى في فندق إنتركونتنتال	١٢٤
ثانياً	: دبلوماسية الأمهات	١٣٢
ثالثاً	: فارس دمشق الذي ترجّل	١٣٦
الفصل الخامس	: **الوديعة التي لم تكن قَطْ**	١٤١
أولاً	: مذبحة الخليل	١٤٦
ثانياً	: وديعة رابين	١٤٧
ثالثاً	: جواب رابين	١٥٥
رابعاً	: قمة الأسد – كلينتون في دمشق	١٥٨

الفصل السادس	: جوهر الصراع: الأرض	١٦٧
أولاً	: لقاء الشهابي - باراك في بلير هاوس	١٧٠
ثانياً	: اجتماع عاصف في اللاذقية	١٧٦
ثالثاً	: حدود ١٩٢٣ و١٩٦٧	١٨١
الفصل السابع	: إرث يوسف العظمة	١٨٣
أولاً	: حقبة بيريز	١٨٧
ثانياً	: ستالينغراد والقنيطرة	١٩٠
الفصل الثامن	: «تفاهم نيسان»	١٩٣
أولاً	: حرب نيسان/ أبريل ١٩٩٦	١٩٧
ثانياً	: محادثات وقف إطلاق النار	٢٠٠
ثالثاً	: سيدي الوزير: الرئيس الأسد مشغول	٢٠٨
رابعاً	: التوصل إلى التفاهم	٢١٢
الفصل التاسع	: محادثات لاودر غير السرِّية	٢١٩
	• الدبلوماسية السرية	٢٢٤
الفصل العاشر	: كارثة شبردستاون	٢٣٥
أولاً	: دبلوماسية الصحف	٢٣٩
ثانياً	: دبلوماسية النساء التي أحدثتها أولبرايت	٢٤٧
الفصل الحادي عشر	: الرجل الذي لم يوَقِّع	٢٥٧
أولاً	: حالة الأسد الصحية	٢٦١

ثانياً : الإخفاق الأخير: جنيف ٢٠٠٠ .... ٢٦٣
ثالثاً : يوم حزين في دمشق
(١٠ حزيران/ يونيو ٢٠٠٠) ٢٧٠

خاتمة ٢٧٣

الملاحق

الملحق الرقم (١) : رسالة من جورج بوش الأب إلى حافظ الأسد،
٣١ أيار/ مايو ١٩٩١ .... ٢٨١

الملحق الرقم (٢) : رسالة من بيل كلينتون إلى حافظ الأسد،
٢٧ أيار/ مايو ١٩٩٣ .... ٢٨٥

الملحق الرقم (٣) : رسالة من بيل كلينتون إلى حافظ الأسد،
٤ تموز/ يوليو ١٩٩٣ .... ٢٨٨

الملحق الرقم (٤) : رسالة من بيل كلينتون إلى حافظ الأسد،
٤ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣ .... ٢٩٠

الملحق الرقم (٥) : رسالة من بيل كلينتون إلى حافظ الأسد،
٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٣ .... ٢٩٢

الملحق الرقم (٦) : رسالة من بيل كلينتون إلى حافظ الأسد،
١٢ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٩ .... ٢٩٤

الملحق الرقم (٧) : محضر المحادثة الهاتفية بين بيل كلينتون وحافظ الأسد،
١٨ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠ .... ٢٩٧

الأحداث المهمة بالتسلسل الزمني	....	٣٠٣
المراجع	....	٣٠٩
فهرس	....	٣١٣

تقديـم

عبد الإله بلقزيز[*]

أربعة أسباب ودوافع حملتني على إجابة طلب د. بثينة شعبان لي كتابةَ مقدّمةٍ لكتابها هذا، بعد ترجمته من الإنكليزية إلى العربية، لنشره في مركز دراسات الوحدة العربية. والدوافع تلك متداخلة (على الأقل في الشعور)، وإن لم يكن عسيراً على المرء وعْيُها منفصلة أو متمايزة.

أوّلها طبيعةُ مادة المخطوطة، وموضوعُها وجنسُها؛ ذلك أن نصّاً يتناول، بالتوثيق والدرس، لحظةً كبيرةً من قضية أكبر، هما لحظة التسوية وقضية الصراع العربي - الإسرائيلي، هو ممّا يستثير شهيةَ واحدٍ مثلي شغَلَتْه المسألتان تيناك، وتابعهما طويلًا متابعةَ قارئ وكاتب. ولمّا كانت مسألة التسوية السياسية للصراع العربي - الصهيوني، قد أخذت من هذا الصراع، الممتد من العام ١٩٤٨، ثلث عمره على الأقل (إن أرّخنا لبداياتها الرسمية بمؤتمر مدريد في العام ١٩٩١)؛ ولمّا كان حصادُها هزيلاً، بل مفجعاً، على الصعيد الفلسطيني، وصِفْرياً بامتياز على الصعيد العربي، وأرباحاً صافية على الصعيد الإسرائيلي؛ ولما كانت المعلومات شحيحة ومتضاربة عن واقع المفاوضات ومجرياتها (في مدريد، وواشنطن، وأوسلو، وجنيف)،

(*) أستاذ الفلسفة والفكر العربي والإسلامي، جامعة الحسن الثاني - المغرب.

وخاصة في الدائرة التفاوضية السورية – الإسرائيلية...، فإن كتاب د. بثينة شعبان يشكل، بهذا المعنى، وثيقةً تاريخية – سياسية في الموضوع، أو مادةً بهذه المثابة. ويزيد من أهمية هذه الوثيقة وقيمتها أن التي كتبتها كانت شاهدة على ما جرى في فصول عملية التفاوض كافة، ومشارِكةً المشاركةَ المباشرة فيها.

ثانيها موقعُ الباحثة السياسي، في عهد الرئيس الراحل حافظ الأسد كما في عهد الرئيس بشار؛ كمترجمة خاصة للرئيس في الأعوام العشرة الأخيرة من عمره – وهي التي يغطيها الكتاب – وكمشاركة في وفود التفاوض السورية في الفترةِ عينها، ثم كمستشارة لدى الخارجية السورية – قبل هذا وبعده – فمستشارة سياسية وإعلامية حالياً للرئيس بشار الأسد. وإذا كان لموقعها الحالي أن يضفيَ على شهادتها صفة الشجاعة الأدبية (= حيث قلَّما اجترأ مسؤول سامٍ في البلاد العربية على فتح ملفات السياسات الخارجية لدولته وهو في موقع السلطة)، فإن موقعها السابق، في عهد الرئيس حافظ الأسد، يزوّد شهادتها بقيمة مضافة؛ إذ ليس قليلاً أن تكون عضواً في وفدٍ مفاوض، وأن تشارك في جلسات التفاوض المُعْلَنَة كافة، فذلك ممّا تتعزّزُ به حُجِّيةُ روايتها للأحداث والوقائع. والأهمّ من ذلك، في ما أحسب، أن ملازَمَتَها الرئيس – خلال عقد من الزمان – والترجمةَ له وعن لسانه في محادثاته مع مَن يستقبلهم من كبار زوّاره الغربيين، والأمريكيين خاصة، ممّن تتصل أسباب علاقتهم بالصراع العربي – الإسرائيلي اتصالَ مصلحة، وضَعَها في المكان الأنسب لمعرفة السياسات الرسمية العليا للدولة. ولعلّها سمعت – في محادثاته المغلَقة مع كلينتون وجيمس بيكر ووارن كريستوفر ومادلين أولبرايت ودنيس روس ومارتن إنديك وآخرين – ما لم يتأتَّ لآخرين من الجسم الديبلوماسي السوري أن يسمعوه.

وثالثها موقعُ الباحثة الأكاديمي؛ فالرواية التي تقدّمها أستاذة جامعية وكاتبة متمرسة غيرُ الرواية التي يقدّمها أيُّ راوٍ آخر للأحداث وإن كان ذا كعبٍ عالٍ في مشهد الأحداث التي رواها. وليس القصد، هنا، أن شهادة الباحث أعلى مقاماً من شهادة السياسي، وإنما القصد أن طريقة روايتها تختلف عندهما؛ فهي عند رجل السياسة شهادة شاهد عيان، وهي عند الباحث شهادة شاهد مقرونة بالتحليل والتعليل. وهي، في مثل هذه الحال، لا تبقى في حيّزها الاعتيادي بما هي رواية، بل قد تفيض عن ذلك إلى حيث قد تصير قراءةً في المرويّ، أو رؤيةً إلى الموضوع التي انتسجت خيوط حوادثه فأصبح مادةً للرواية. صنعةُ الأوّل الخَبر، وصنعةُ الثاني الخَبر والتحليل. لا يُطْلب من

الأول سوى الصدق في النقل، فيقع - لذلك - التحرّي في المنقول لبيان وجه السلامة والدقة فيه. أمّا الثاني فيُطْلب منه الوجاهةُ في التحليل والموقف فضلاً عن الصدق في النقل، ومسؤوليته - بهذا الحسبان - تكون أثقل في الميزان. وما أغنانا عن الحاجة إلى القول إن رواية الأكاديمي للحدث - خاصةً حينما يغتني بخلفيةٍ سياسية كما في حالة د. بثينة - تكتسب، عند قارئها، طعماً خاصاً لأنها لا تكتفي بالسرد، وإنما تزيد عليه بإضاءة التحليل وبقدرٍ، يَعْظُم أو يَقِلّ، من النقد الذي لا فُكاكَ للباحث منه، أو - في أسوإ الأحوال، بالقليل من التبرير الذي يَطْبَعُ كثيرُهُ شهادات السياسيين، خاصة حينما ترتبط الحوادث المرْوية بهم.

ورابعها أن حاجتنا ماسّة إلى تاريخ سياسي موثَّق، وخاصة ممَّن كانوا شهوداً على بعض أحداثه التي لا يُعْرَف من ملابساتها إلاّ العامّ. ويتعلق الأمر، في هذا، لا بالمؤرخين المحكوم عملُهم بسلطة الوثيقة المكتوبة، وإنما بصنّاع أحداث ذلك التاريخ من السياسيين، وممّن هُم في موقع القرار، أو المقرَّبين من صنّاع القرار. والغالب على هذا الحيّز من التاريخ أنه مجهول لدى السواد الأعظم من الناس، لأنه محجوب عنهم وغيرُ مكتوب لأسباب تبدأ بمَرْعمةِ أسرار الدولة ولا تنتهي بجُبن مَن يستطيعون كتابته من الشهود عليه. ولسنا في حاجةٍ إلى التنفيل في القول إن هذه الصفحات الكثيرة المجهولة منه ينبغي أن تصبح معلومة، ومُتاحاً للناس جميعاً أن يقرأوها من دون حرج، لأن الحكم عليها بالإعدام مَظْلَمة فادحة في حقّ الوعي الجماعي، وفي حقّ المواطنة، لما فيه من انتهاكٍ صارخ لها. وقليلٌ هُم السياسيون ورجالُ الدولة في الوطن العربي مَن وضعوا ما في حوزتهم من شهادة على ما عاشوه وعاينوه - في الغرف الضيقة - تحت تصرّف المواطنين؛ فالغالب عليهم الصمتُ والإضراب عن الكلام، سواء أَتَوا ذلك بدافع الخوف من تبعات كلامهم، أو أتوه بدافع النقصان الفادح في حسّ المسؤولية الأدبية لديهم تجاه حقوق الرأي العام في تحصيل المعلومات المباحة التي تتصل بمصائرهم. وحين يُقْدم مسؤولٌ رفيع في دولة - مثل د. شعبان - على تدوين لحظةٍ من تاريخ مَعِيش، ومجهولة وقائع منه لدى العموم، ففي ذلك مبعثُ إغراءٍ شديد بالاهتمام بذلك التدوين، والبناء عليه لسدِّ النقص في هذا الباب.

هذه أسباب دفعتني - إلى جانب صداقةٍ تجمعني بالدكتورة بثينة - إلى كتابة هذه المقدمة تحيةً للجَهد الذي بذلتْه في إعداد الكتاب، الذي لا يخامرني شكّ في أنه سيسُدُّ نقصاً فادحاً نعانيه في هذا النوع من الكتابات التي تنتمي إلى ميدان التأْريخ السياسي،

والتي تقع الشهادةُ موقعَ القلب منها. وفي مُكْني، متجرّداً من اعتبارات المجاملة، أن أعترف لصاحبة النصّ بتفوُّقٍ أدبيّ في مسائلَ ثلاث أتى الكتابُ يميط عنها حجاب السّرد:

المسألة الأولى أن الشهادة لم تُغرِق في السرد الكرونولوجي وإن هي حافظت للوقائع المرْوية على نظامها التسلسلي. بدلاً من ذلك، وُظِّفت تقنيةُ السرد لتجيبَ طلباً منهجياً؛ هو الإمساك بخيوط كل قضيةٍ من الملف التفاوضي، واستيفائها بالتجلية والإيضاح، فضلاً عن الإفادات المعلومية حولها، قبل الانتقال إلى قضية أخرى ومقاربتها على الشاكلةِ عينِها. ولقد وفّرت هذه الطريقة في العرض إمكاناً لتنظيم أشتات التفاصيل في وعي قارئ النصّ. وهكذا قاربتِ الشهادةُ، في بعض وجوهها، أن تكون دراسةً تتوسَّل إفادات (شهادات) تَسُدُّ غياب الوثيقة (علماً أن بعض الشهادات المُفاد بها كان أشبه ما يكون بالمحاضر الشفهية التي تعوّض عن غياب المكتوبة). في شخصية الكتاب، إذن، مزجٌ منهجيّ ناجح بين الوثيقة والرواية والتحليل، وهذا مما يشهد له بالقيمة من الزاوية الأكاديمية؛ فالباحثة لم تَكْتَفِ فيه بدور الراوي، ولا بدور المدوِّن (للوثائق)، بل أَوْسَعَت مساحةَ الكلام للتحليل والقراءة والرأي؛ فكانت الشاهد، وكانت ممثّلة سلطة الاتهام، وكانت القاضي الذي يصدر الحكم. إذا كان العدل من مقتضيات الشهادة/ الشاهد، فليس من العدل أن لا يَحْتَازَ الشاهدُ الحقَّ في الإدلاء بالرأي في الوقائع التي شهد بها، وذلك – على التحقيق – ما فعلتْه الباحثة، فتحرَّر نصّها من أن يظل مجرَّد سرديةٍ سياسية جافة.

المسألة الثانية أن تدوين الوقائع في الكتاب تحرَّى مبدأ الإسناد ولاذَ به في الأغلب. الوثيقةُ المكتوبةُ أدلُّ وأقوى: رسائل متبادلة أكانت أو اتفاقات أو محاضر رسمية أو مكالمات هاتفية مفرَّغة ومدوَّنة... الخ. ولكن الإفادات عن جلسات الحوار، والاجتماعات، وما صَدَر من زيدٍ أو عمرو من كلام في هاتيك المسائل وتلك، ليست أضعف حجَّةً من المدوَّن لأن عليها شهوداً أحياء: من الأقربين ومن الخصوم (الوسطاء)، ومن الأعداء، وفي وُسْع أيٍّ من هؤلاء أن ينفي الروايةَ عنه أو يُبطِلها أو يعدّلها. ولقد يحدث أن لا تتذكر الباحثة تفاصيل جلسةٍ بعينها، فتُعلن الاعتذار لقارئها عن عدم قدرتها على الجزم والقطع في جزئيةٍ ما، إما لأن محضر الجلسة لم يدوَّن، أو لأنه دُوِّن ولم يكن تحت تصرّفها، أو لأن تدوين المحضر تُرِك أمرُه – بالاتفاق – للفريق الآخر ولم يحصل منه السوريون على النصّ (كما تروي في حالة محضر لقاء الأسد

وكلينتون الأخير في جنيف: الذي كتبه دنيس روس ولم يُسلّم نسخةً منه إلى سورية). وحيث سمح الاستمساك بمبدإ الإسناد في الرواية بإمكان إنجاز تحقيقٍ دقيق في الوقائع، سمح - في الوقتِ عينِه - بتصحيح الروايات غير السورية لما جرى في المفاوضات، وتفنيدها أحياناً، وخاصة حينما تصدر من مسؤولين كبار شاركوا في التفاوض، فحجبوا أشياء وأضافوا أخرى قصد التغليط (كما حالة روايات مادلين أولبرايت ودنيس روس و - إلى حدّ ما - كريستوفر روس وبيل كلينتون).

المسألة **الثالثة** أن عضوية الباحثة في الوفود السورية المفاوضة في مدريد وواشنطن وسواهما لم تفرض عليها، في الكتاب، أن تلتزم موقع الشاهد، وهي ما فرضت عليها - قطعاً - موقع المبرِّر والتبريري (إلاّ في ما نَدَر)، بل هي لم تمنعها - وهذا هو الأهمّ - من إبداء رأيٍ نقديّ صريح في خيار التسوية والتفاوض. وكم هي كثيرة المناسبات التي تبرّمت فيها وتأففت من تلاعبات التفاوض وترّهاته، فتساءلت عمّا إذا كان من الحكمة أن يشارك السوريون فيها. لا ننفي عن الكاتبة أنها كانت مؤمنة بـ «السلام» (أو «السلام العادل» كما لم تفتأ تسميه)، ولا أنها كانت شديدة الإيمان بسلامة خيار بلادها الاستراتيجي في استرداد حقوقها وأراضيها المغتصبة كاملة غير منقوصة، لكنها ألقت اللوم على عدم جدّية «الوسيط» الأمريكي وعدم نزاهته، فضلاً عن غياب النية لدى العدوّ في التقدم في المفاوضات، وإبرام تسويةٍ تستعيد بها سورية هضبة الجولان كاملة بعد انسحاب إسرائيل الكامل إلى حدود الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧ لا إلى حدود العام ١٩٢٣ (كما رغب إيهود باراك وأيّده في ذلك الأمريكيون). ومع أنها لجأت أحياناً - وفي ذروة الشعور لديها بعبث المفاوضات والتسوية - إلى التماس الأعذار لبلادها بالقول إنه ما كان يَسَع سورية أن تبدوَ أمام العالم وكأنها المسؤولة عن فشل المفاوضات إن هي توقفت عنها، إلاّ أن ذلك لم يمنعها من رؤية كيف كانت خيارات أخرى في لبنان (=المقاومة) تشق طريقاً أخرى، وتُحْرز من النتائج والمكتسبات ما لا تفتح المفاوضات أفقاً نظيراً له. وهي إنْ لم تكن ترغب في أن تنسُب إلى سورية مكتسبَات المقاومة في حرب «عناقيد الغضب» (نيسان/ أبريل ١٩٩٦)، والتحرير (أيار/ مايو ٢٠٠٠)، و«ما بين الضائقتين» (تموز/ يوليو - آب/ أغسطس ٢٠٠٦)، إلاّ أنها ما أخفت أن بلادها شريكٌ أصيل في تلك الانتصارات؛ وفي ذلك ما يعني - ضمناً - أن سورية تملك أن تستبدل خياراً بآخر إن ثبت لديها عُقْمُ هذا وفائدة ذاك. وهذا - في ظني - ما برّر لها نقدَها الخفيَّ والمعلَن لعملية التفاوض، حتى لا نقول لنهج التفاوض. ولقد تكون مزيّة هذا النقد أنه استقى مادّته من واقع عملية التسوية ذاتها، لا من خارجها،

وبالتالي ما اكتفى بأن يكون نقداً مبدئياً فحسب، بل زاد على ذلك بأن أصبح نقداً واقعياً أو من وحي الواقع.

*

تُطْلِعنا هذه الشهادة التاريخية - السياسية المميَّزة على جملة من حقائق السياسة لا سبيل إلى الإشاحة عنها:

أوّلها أن تسويةً سياسية للصراع العربي - الصهيوني اليوم، بل منذ مؤتمر مدريد، لم تعد ممكنةً إلاّ إذا كان مطافُها الأخير إنتاج «اتفاق» سياسي على شاكلة «اتفاق أوسلو» و«اتفاق وادي عربة» يعطي إسرائيل اللّبّ ويأخذ القشور. وبيان ذلك أن التسوية لا تُنْجِبُ إلا بمقدار ما تُقَدِّرُهُ موازين القوى، وموازين القوى اختلت اختلالاً فادحاً لصالح العدوّ منذ خروج مصر من دائرة الصراع العربي - الصهيوني، بموجب معاهدتيْ «كامب ديفيد»، وتكرَّس الاختلال منذ انهيار التوازن الدولي - بانهيار الاتحاد السوفييتي - والحرب على العراق في العام ١٩٩١. والمستفاد منها - في ما نحسب - أن على سورية أن تعود إلى عقيدتها السياسية التي تمسكت بها طويلاً - منذ كامب ديفيد وإلى العام ١٩٩٠ - ومقتضاها أنْ لا حربَ ولا تسوية ممكنتان إلا بتحقيق توازنٍ استراتيجي. وهذه ليست مقولةً للتعطيل؛ ففي ظلها أمكن سوريةَ أن تدعم منظمة التحرير والمقاومة في لبنان.

وثانيها أن تسويةً ترعاها الولايات المتحدة الأمريكية ليس لها سوى أن تصبّ في رصيد إسرائيل، لأن «الراعي» منحاز - حكماً - إليها، ولا مرجعية تحكم «رعايته» سوى أمن إسرائيل، وليس عنده من هدفٍ للتفاوض سوى التفاوض معتمداً على ما تقرّره مائدة المفاوضات لا ما أقرّه القانون الدولي! التسوية الوحيدة التي قد يُطَمْأَنُّ إلى سلامة شروطها وقواعدها هي، فحسب، تلك التي تجري في إطار صيغة مؤتمرٍ دولي ترعاه الأمم المتحدة، وينصرف إلى تطبيق القرارات الدولية ذات الصلة بالصراع العربي - الإسرائيلي، وكل عودةٍ عن هذا الخيار إلى ما كانت عليه الحال، منذ مدريد، هي إلى المتاهة آيلةٌ لا محالة.

وثالثها أن تجربة التفاوض السورية، منذ مدريد، وعلى نحو ما قدّمت عنها الباحثة إفادات تفصيلية في هذا الكتاب، تُطْلِعنا على مقدار حرص سورية على التمسّك بالثوابت والحقوق الوطنية، والنضال السياسي المستميت عنها، ورفض التفريط بها، على الرغم

من ذلك الكمّ الخرافي من الضغوط السياسية التي تعرَّض لها المفاوِض السوري طوال جولات التفاوض. وسيُكْتَب أن حافظ الأسد كان الوحيد من بين سائر مَن فاوضوا إسرائيل، الذي لم يفوِّت حقّاً من حقوق وطنه إلى العدوّ، ولا سلَّم له باحتلاله شبراً واحداً. لقد وصلت المفاوضات حقّاً إلى التفاوض على أشبار على حدود بحيرة طبريا ثم توقفت لأن العدوّ لم ينتزع تنازلاً من دمشق. ولو سلك العرب السالكون سبيلَ المفاوضات مسلكَ حافظ الأسد ما نُكِبْنا بأوسلو ووادي عربة وعلاقات التطبيع المهينة. قد لا نستردّ أرضاً، لكننا - على الأقل - لا نتنازل عنها طواعيةً. هذا درسٌ نعيه في المغرب جيّداً ويستوطن وعينا الجمْعيّ، لأنه يشكّل ثقافةً للمجتمع والدولة على السواء: لدينا أراض محتلة من قِبل إسبانيا منذ مئات السنين (مدينتا سبتة ومْلِيلْيَة)، لا يستطيع المغرب تحريرهما من الاحتلال الأجنبي لا بالحرب ولا بالتفاوض. ولكنه - مع هذا الامتناع المزمن - لم يتنازل عن شبرٍ واحد منهما، ولم يوقّع في ذلك اتفاقاً ينال من حقوقه الوطنية فيهما، بل استمرّ يتمسك بهما تمسُّكه بأي قطعةِ أرضٍ أخرى في الوطن.

لعلّ ذلك من سمات المجتمعات التاريخية؛ وسورية والمغرب في جملة أكثر تلك المجتمعات عراقة في التاريخ.

مقدمة

في صيف عام ١٩٧١، قابلتُ الرئيس حافظ الأسد أول مرة، من دون أن يخطر ببالي أنني ذات يوم، بعد أكثر من عشرين عاماً، سأعمل معه خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته. كنت فتاة في الثامنة عشرة من العمر من قرية صغيرة قرب حمص، وقد أتممت امتحانات الشهادة الثانوية، وكنت الأولى على محافظة حمص بأكملها، والرابعة على مستوى الجمهورية العربية السورية، وأستعد للذهاب إلى الجامعة. وكان هو رئيس سورية الجديد الجذاب والساحر والقوي، وقد انتُخب للمنصب قبل بضعة أشهر في آذار/ مارس ١٩٧١.

والقصة التالية التي كثيراً ما تحدثت عنها في مقابلات تلفزيونية تحكي أشياء كثيرة جداً عن علاقتي الخاصة بالرئيس الأسد، وسبب تقديره لي، ولماذا رأيت فيه شخصية أبوية مُلْهِمة - ليس لي فحسب، بل للشعب السوري بأكمله. إنه من نوع القادة الذين لا يظهرون أكثر من مرة في عمر معاصريهم، وهو للسوريين مثلما كان ونستون تشرشل للبريطانيين، وأتاتورك للأتراك، وجمال عبد الناصر للمصريين. كنت دائماً أرى أوجه شبه بينه، قائداً تاريخياً، وبين نلسون مانديلا زعيم جنوب أفريقيا، الذي يُعدُّ أيضاً أحد الأشخاص الذين أقدّرهم وأعدّهم مثلاً يحتذى.

في صيف عام ١٩٧١ أصدر الرئيس الأسد تشريعاً يقضي بتوفير منح للطلبة المتفوقين لتمكينهم من التسجيل في الجامعات الحكومية. لكن التشريع لم يخلُ من بعض المثالب. فبالرغم من أنني نلت أعلى معدل في محافظة حمص وكنت الرابعة في سورية بأكملها، لم أكن مؤهلة لنيل منحة، ومن ثمَّ لم يكن باستطاعتي الدراسة في جامعة

دمشق، لأن أبي لم يكن قادراً على تحمل نفقاتها. فقررت، من دون أن يعتريني أي شك على الإطلاق، أن أسعى إلى مقابلة الرئيس، وأن أشرح له وجه الخطأ في المرسوم الذي أصدره. لم يكن والدي يستطيع إرسالي إلى الجامعة إن لم أحصل على منحة، وكل ما كان متاحاً لي هو التسجيل في معهد متوسط. غير أن ذلك لم يكن يلائم طموحي، وهو نيْل شهادة الدكتوراه في الأدب الإنكليزي.

اعتقد والدي أن فكرتي ضرب من الجنون، وهز رأسه غير مصدق أن ابنته الصغيرة تريد مقابلة حاكم سورية الجديد الفريق حافظ الأسد. ومع ذلك أعطاني مبلغاً سخياً من المال ليساعدني في رحلتي. ركبت الحافلة وحدي من قريتنا المسعودية متوجهة إلى حمص، حيث كان المفترض أن يزور الرئيس الأسد الكلية العسكرية في ذلك الصيف. كانت تلك أول مرة أغادر فيها قريتي، وعندما أنظر إلى الوراء أميل إلى الاتفاق مع أبي على أنني كنت جريئة حقاً ومجنونة إلى حدٍّ بعيد.

قبل أن أذهب إلى الكلية العسكرية، حاولت التحدث إلى محافظ المدينة، وأخبرته أنني الأولى في المحافظة كلّها، ولهذا فإنني أستحق منحة كي أدخل الجامعة. وقلت محذّرة: «إن لم تستطع مساعدتي سأتوجه إلى رئيس الجمهورية». أخبرني المحافظ أن من المقرر أن يزور الرئيس الكلية العسكرية في المدينة صباح اليوم التالي، وعرض عليّ أن يصحبني لمقابلته إذا حضرت إلى مكتبه في تمام الساعة العاشرة صباحاً. وصلت في التاسعة والنصف، لكن قلبي غار بين ضلوعي حين اكتشفت أن المحافظ قد غادر مكتبه لاستقبال الرئيس الأسد في مدخل المدينة.

تركت المكتب وأنا مكتئبة أفكر. وكم بدا لي والدي على حق في تأكيده أن التطلع إلى الأعلى وإلى هذا الحد هو الجنون بعينه! أتذكر كيف سرت من مكتب المحافظ إلى محطة الحافلات، وكيف لاحظت أنني في حيرة واضطراب: أأركب حافلة ذلك اليوم وأعود إلى القرية أم أبقى يوماً ثانياً للعثور على طريقة أخرى أصل بها إلى الرئيس؟ وقد أدركتُ أنه ما من أحد بين الأشخاص الذين أعرفهم - أو الذين قابلتهم حديثاً - مستعد لاتخاذ قرار شديد الجرأة لمساعدتي على إنقاذ مستقبلي. كان إحساسي الداخلي الأول صحيحاً؛ فالرئيس حافظ الأسد هو الوحيد الذي سيستطيع مساعدتي وتعديل المرسوم. لكن بقيت مشكلة كيف سأتمكن من مقابلته. أذكر أن عنقي تصلب وأنا أسير مطأطئة رأسي وغارقة في التفكير في مستقبلي الدراسي. ثم رفعت بصري ورأيت حافلة صغيرة (ميكروبص) مكتوباً عليها «سمورا» [وهو اسم

دلع للحافلة]. حدقت إلى الاسم طويلاً وقلت في نفسي إنني سأركب تلك الحافلة أياً كانت وجهتها. وبعد دقيقة صاح رجل واقف بجانبها «كلية» (أي الكلية العسكرية)، فركبتها، وأدهشني أنها خرجت من المدينة وتوجهت إلى مكان مهجور، لا شيء حوله. كان ذلك آخر موقف لها، وانتابتني رغبة البقاء في الحافلة والعودة إلى حمص، ولكن بدلاً من ذلك استجمعت شجاعتي ونزلت.

كان الباب الحديدي الضخم للكلية العسكرية في حمص مغلقاً، وثلاثة ضباط عسكريين يقفون بسلاحهم الكامل بجانب ذلك الباب. نظر الحارس الواقف في الخارج إليّ، ورفع حاجبيه وقد أدهشه أن فتاة صغيرة مثلي تقف بين جماعة من الرجال الضخام المختلفين الذين يرتدون الزي العسكري المزيّن بالنجوم والشرائط. قلت بلهجة قوية وأنا أنطق كلماتي بوضوح وعلى نحو يتجاوز سني حتماً: «أريد مقابلة الرئيس حافظ الأسد». طلب إليّ الابتعاد بإشارة من يده، وكأنه يقول لي: «اسكتي، قبل أن يسمعك أحد!». توسلت إليه، بل إنني أصررت، قائلة إنه إن سمح لي بالدخول، فقد تغير مقابلتي الرئيس حياتي بأكملها. وأخيراً تعاطف الضابط الشاب مع طلبي، وأشار عليّ أن أدخل مجمّع الكلية. ثم سألني ألّا أخبر أحداً كيف دخلت البناء. إنّ أبرز ما أتذكره هو مدى ضخامة المبنى؛ فقد كان مقراً لأجيال وأجيال من الضباط السوريين، ومكاناً لتدريبهم منذ أربعينيات القرن العشرين وحتى اليوم. وغني عن القول إنني لم أهتدِ إلى الطريق، واضطررت إلى طلب إرشادات تدلني على مكان وجود الرئيس. قيل لي إنه سيتناول الغداء عند الظهر «قرب المسبح».

انتظرتُ صابرة تحت الشمس المحرقة عند المسبح، ورأيتُ الرئيس الأسد يقترب عندما انتصف النهار، يصحبه قائد القوات الجوية المرحوم ناجي جميل الذي كان يرتدي لباساً أبيض اللون. وشكّل عناصر الأمن سلسلة تحيط بالأسد، وأحاط بهم كبار معاونيه العسكريين. اندفعتُ متجهة نحو الأسد لكن عناصر الأمن منعوني من الاقتراب منه. ودفعني أحد مسؤولي الأمن بمرفقه من دون أن ينظر إليّ؛ إذ كان ظهره نحوي، وكدت أقع على الأرض. عندها أشار الرئيس الأسد إلى عناصر أمنه أن يبقوا في الخلف، وطلب إليّ أن أتقدم نحوه، فجريتُ بسرعة جعلت رأسي يصطدم بصدره ببعض العنف. تملّكني الحرج لكنني لم أشأ أن أفقد تلك اللحظة الثمينة. تجاهلتُ اصطدامي به وبدأت التكلم بأدب، وحرصت على أن يكون نطقي واضحاً: «سيدي الرئيس، أنا بثينة شعبان من قرية المسعودية. حصلتُ على الشهادة الثانوية، وكنت الأولى في حمص والرابعة في سورية،

لكن المرسوم الذي أصدرتَه حديثاً لم ينصفني. وأبي غير قادر على إرسالي إلى الجامعة، ولذلك فمستقبلي بين يديك!» ولمّا كنت شابة صغيرة، فقد اعتقدت أن المسعودية هي مركز الكون، وأنني بذكر اسمها في التِماسي سأجذب انتباه الرئيس على الفور. والآن وأنا أعود بذاكرتي إلى تلك الحادثة بعد أكثر من أربعين سنة، أقول لنفسي إن الشباب يقومون بأشياء جنونية. نظر الرئيس إلي وابتسم، ثم قال: «لا تقلقي يا بنتي، ستنالين ما تريدين!» وطلب إليّ أن أعود إلى بيتي وأنتظر أن يرِدَني شيء من القصر الجمهوري.

وَرَدَت الدعوة من مكتب الرئيس الأسد أسرع كثيراً مما توقعت. ففي الواقع، أتت في اليوم التالي تماماً. لم يكن لدينا هاتف في البيت، لذلك اتصل القصرُ الرئاسي هاتفياً بمكتب مدير الناحية في جبّ الجرّاح، وطلب حضوري إلى دمشق صباح اليوم التالي لمقابلة الرئيس. وبدأت الاستعداد للرحلة الطويلة إلى العاصمة السورية، التي استخدمت الحافلة فيها أيضاً، وأذكر جيداً أنني كنت أرتدي ثياباً ذات لون أحمر صارخ. كانت تلك أول مرة أسافر فيها إلى دمشق، ولا حاجة بي إلى القول إنني كنت متحمسة جداً لرؤية عاصمة بلادي ومقابلة الرئيس مرة أخرى، ولكن في القصر الرئاسي. غير أنّ والدي لم يكن مرتاحاً لسفري ثانية، وكان قلقاً عليّ لكنه لم يرغب في منعي من ذلك علّني أكون على حقّ.

وصلت إلى قصر المهاجرين الذي يقع في سفح جبل قاسيون، ويتمتع بإطلالة بانورامية رائعة على دمشق. وكان الرئيس الأسد اتخذه مقراً له بعد مدة قصيرة من توليه الحكم عام ١٩٧٠. وقد استخدم الرؤساء السوريون المختلفون ذلك القصر منذ أربعينيات القرن العشرين، وبقي القصر مقراً للأسد حتى عام ١٩٧٨، حين انتقل إلى قصر أكثر تواضعاً في ساحة الروضة، وهو المكان الذي أكتب هذه السطور منه اليوم. أخبرني مدير تشريفات القصر الجمهوري خليل السعداوي، رحمه الله، أنْ ليس لي إلا عشر دقائق أروي فيها قصتي للرئيس من ألفها إلى يائها. أشرت إليه برأسي موافقة، فقد كنت سأقبل بأي شرط لمجرد مقابلة حافظ الأسد مرة أخرى. وقلت في نفسي إن كل ما أحتاجه هو دقيقتان.

دخل الأسد الغرفة التي أُجلست فيها منتظرة. كان طويلاً وآسراً كما رأيته قبل يومين في الكلية العسكرية. كان يرتدي بذلة زرقاء وتشع منه القوة والثقة، مثلما كان يظهر في كثير من الأحيان على شاشة التلفزيون. بدأ بالسؤال عن مشكلتي بالتحديد، وقال: تفضلي يا بنتي، كيف يمكن لي أن أساعدك؟

ولمّا كنت أعيد استظهار القصة في ذهني على مدى أيام، فقد انطلقت بالجواب فوراً ومن دون تردد: «سيادة الرئيس لقد أصدرتَ مرسوماً تشريعياً يمنح الطلاب العشرة الأوائل في البكالوريا العلمية راتباً شهرياً لإتمام دراستهم الجامعية، ومنحتَ الثلاثة الأوائل فقط في البكالوريا الأدبية هذه المنحة الشهرية. وأنا نلت الدرجة الأولى على محافظة حمص في شهادة البكالوريا والرابعة في القطر. والحقيقة أنني كنت أطمح أن أدرس (البكالوريا العلمي) وأختصّ بالهندسة، ولكن ليس هناك فرع علمي في كلّ قرانا، ولذلك اضطررت إلى دخول الفرع الأدبي. ولم أعرف لماذا أعطيتَ المنحة للعشرة الأوائل في العلمي، والثلاثة الأوائل في الأدبي، ولماذا لم تُعطِ الأول في كلّ محافظة مثلاً؟ قد يكون العشرة الأوائل كلهم من دمشق، أو من مدرسة واحدة. أما من نال المرتبة الأولى على محافظة دير الزور مثلاً أو درعا أو حمص فلا نصيب له. وماذا يمكن للطالب أن يفعل أكثر من أن ينال المرتبة الأولى على محافظته؟ ولم أفهم غاية التمييز لصالح الفرع العلمي ما دام الاختصاص العلمي يكاد يكون معدوماً في معظم ريفنا».
وبينما كنت أتكلم وأستفيض في الشرح كي أضمن أنني قد عبّرت عن قضية مهمة غير قابلة للرفض، ساورني بعض الخوف من أنّ هذا رئيس جمهورية، وقد يُزعجه ما قلته أو يعدّه انتقاداً له. وبدأت أسأل الله أن يكون جوابه لطيفاً، وألا يعبّر عن انزعاجه مني. ولكن ما إن صمتُّ ونظرتُ إليه محاولة أن أقرأ قسمات وجهه قبل أن أسمع جوابه، حتى رأيته يأخذ نفساً عميقاً ويقول لي: «معك حقّ». لم أكد أصدّق ما أسمع. الرئيس حافظ الأسد يقول لي معك حقّ، وأنا الطالبة الصغيرة القادمة من قرية المسعودية، والتي ترى دمشق أول مرة، و«معي الحقّ». لقد تعلّمت في تلك اللحظة درساً في الحياة مُفاده؛ أنّ الحقّ لا يعتمد على المناصب، ولا على الغنى، ولا على المكانة، وأننا يجب أن نبحث عنه وننصت لصوته ونكتشفه، فقد يصدر عن أناس لا نتوقع أبداً أنهم يمتلكونه.

بعد ذلك سألني عن قريتي وعن وضع الناس هناك وإنْ كان لدينا كهرباء أو خطوط هاتف في القرية، وأجبته بالنفي مع إيضاحات عن واقع قرى ريف حمص الشرقي؛ الأمر الذي دفعه إلى تمديد المقابلة إلى أربعين دقيقة. كان متشوقاً إلى معرفة السبب في أن قرى سورية لا تزال تعيش في الظلام في النصف الثاني من القرن العشرين. خلال المقابلة قلت لنفسي: «حقاً أنك مجنونة يا بثينة! هذا رئيس الجمهورية. ماذا يمكن أن يدفعه إلى الجلوس معك والاستماع إلى قصصك؟». انتهى اللقاء نهاية ودّية، وقبل أن أخرج، طلب إليّ أن أتصل بالسيد أبو سليم، وأعطى تعليماته أن يتمّ إعلامه إنْ اتصلت بالسيد أبي سليم لطلب أيّ شيء.

أثناء عودتي إلى قريتي في الحافلة، ضبط السائق المذياع على إذاعة دمشق. وكان أول خبر في النشرة الإخبارية هو تعديل الرئيس الأسد مرسومه السابق المتعلق بالمنح المخصصة للمتفوقين الأوائل. شعرت بقشعريرة تسري في أوصالي، فرئيس الجمهورية لم ينتظر يوماً واحداً لتغيير القانون، ولا بد من أنه وقّع المرسوم الجديد فور خروجي من مكتبه! أردت أن أقول لكلّ ركاب الحافلة: «هل سمعتم ذلك؟ لقد غيّر الرئيس القانون بسببي **أنا**!». لكنني تمكنت من ضبط نفسي وانتظرت حتى وصلت إلى المسعودية، حيث بدأت أصرخ فرحة، في الوقت الذي كانت فيه أسرتي وأصدقائي قد بدأوا بالاحتفال، وأطلقوا على القانون الجديد تسميتهم الخاصة: «مرسوم بثينة»!

بثينة شعبان (السابعة من اليسار) وهي طالبة في السنة الأولى في جامعة دمشق، في صورة مع الرئيس حافظ الأسد في عام ١٩٧١

ونتيجة لتعديل القانون، تسجّلتُ في جامعة دمشق في ذلك الصيف، وفيها درست الأدب الإنكليزي. وقد قمت مع مجموعة من زملائي الطلاب والطالبات الذين استفادوا من المرسوم بزيارة أخرى للقصر الجمهوري لنشكر للرئيس الأسد منحنا الفرصة لإتمام دراستنا الجامعية. وبعد ذلك أكملتُ دراساتي العليا التي أهّلتني لنيل شهادتي الماجستير والدكتوراه من جامعة ورويك (University Warwick) في المملكة المتحدة، وكان الأدب الإنكليزي هو مجال تخصّصي أيضاً.

بعد سنوات عديدة، حين كنت أستاذة في جامعة دمشق ومستشارة في وزارة الخارجية، طلب إليَّ الوزير فاروق الشرع أن أرافقه في سيارته لـ «حضور اجتماع مهم».

كان ذلك غريباً؛ فالشرع لم يطلب مني قبل ذلك مرافقته إلى أي اجتماع من هذا النوع. وفي الطريق، أخبرني أن المطلوب هو أن أقوم بالترجمة بين الرئيس الأسد وضيفه. تملّكني الخوف وأنا أفكّر كيف سأقف إلى جانب الرئيس في اجتماع رسمي. وخطرت في ذهني مليون فكرة: ماذا لو أخطأت؟ ماذا لو تلعثمت؟ هل سيتذكّرني؟ ماذا لو خيّبت أمله؟

حين دخلنا، حيّانا الرئيس الأسد من دون أن يصدر عنه ما يدلّ على أنه تذكّر لقاءنا السابق قبل عشرين عاماً. قلت في نفسي، ستكون معجزة إن تذكّر، فلا بد من أنه يقابل عدداً كبيراً من الأشخاص يومياً. لم أكن سوى مواطنة سورية، وواحدة من العدد الهائل من المواطنين الذين قابلهم خلال الأشهر الأولى من توليه الرئاسة. كنت متوترة جداً، وربما ظهر ذلك جلياً على وجهي. لكن الرئيس الأسد، وهو رجل دمث فائق التهذيب، ربّت على كتفي وقال: «لا تخافي يا بنتي. إن أخطأنا، فسنكرر ما قلناه. وليست المسألة خطيرة». وكان استعماله ضمير الجمع المتكلم في قوله «أخطأنا» يدّل على طريقته المهذّبة في القول: «إن أخطأتِ أنت».

وحين انتهى الاجتماع، وبعد مغادرة الضيوف الأمريكيين مباشرة، التفت الرئيس الأسد إليّ وقال: «ماذا كان سيحدث لنا لو أننا لم نرسلك إلى الجامعة؟ كنا سنجلس هنا اليوم من دون مترجم»! لقد تذكّرني! كان أمراً رائعاً من رجل في مركزه وسلطته أن يكون يقظاً وشديد الاهتمام ومراعياً لمشاعر الآخرين. كان ذلك اليوم - وسيبقى - أحد أيام حياتي التي لا أنساها. في ذلك المكان والزمان كسبت ثقة الرئيس واحترامه، كما قال لي في ما بعد، وبقي ذلك مستمراً من ذاك اليوم عام ١٩٩١ وحتى وفاته في العاشر من حزيران/ يونيو ٢٠٠٠.

كان الرئيس الأسد يفخر بي لكوني أستاذة جامعية وكاتبة، وكان دائماً يعامل المفكّرين والمؤلفين باحترام كبير. وأثناء السنوات العشر التي عملت فيها مترجمة له، كان لديّ إحساس داخلي أنه يأمل أن أسجّل الأحداث الحقيقية التي حدثت في تلك المرحلة. لم يقل لي شيئاً عن ذلك قط، ولكن كلما ورد ذكر الأجيال القادمة أو كيف سيتذكّره الناس، كان ينظر إليّ نظرة ذات معنى عميق. وكثيراً ما كان يتحدث عن الأجيال القادمة مؤكداً أنه يريدها أن تتقبل القرارات التي يتخذها وأن تدافع عنها. وحين توفي، بدأت أستعيد تعليقاته على أجيال المستقبل، وكيف كانت عيناه تلمعان وهو ينظر إليّ أثناء إبدائه ملاحظات حول هذا الموضوع، مع أنني أشدد مرة أخرى على أنه لم يقل لي

شيئاً مباشراً إطلاقاً. وأذكر أنني ظهرت على شاشة التلفزيون مع كاتبتنا الروائية الشهيرة كوليت خوري، وقال لي في ما بعد إنه شاهدني على التلفزيون مع كوليت، وإنني كنت ندّاً لها، مع أنها تكبرني سنوات عديدة. وفي ذاك الموقف أيضاً شعرتُ أنه يحتفي بي ككاتبة للسببين المذكورين آنفاً: إعجابه بالأدباء والأديبات، ورؤيته لهم كنزاً ثميناً لسورية.

بعد سنة من وفاته، شاهدته في الحلم. قال لي: «يا بثينة، لماذا لم تكتبي حتى الآن عن المرحلة التي عملتِ فيها معي؟».

أجبت بقولي: «لأنني لم أعرف أين أبدأ وما نوع الكتاب الذي يجب أن أكتبه. هل ينبغي لي أن أكتب عن طفولتك وشبابك وعائلتك وحياتك المهنية؟».

قال: «لا، لا! ليس عليك الكتابة في كل تلك الأمور. يكفي كتاب من أربعة فصول». وأوضح أن هذه الفصول يجب أن تركّز على سورية والغرب، وعلاقته بالغرب، ودوره في عملية السلام، وأخيراً: «حافظ الأسد وبيل كلينتون».

فهمت أنه يريد أن أكتب الحقيقة عنه، وأن أبدّد الأفكار الخاطئة جداً في الغرب عن سمعته، وعن دوره في عملية السلام، وكذلك عن دور بيل كلينتون الذي وثق الرئيس به ثقة كاملة. وهكذا قررت أن أكتب انطباعي الخاص عن عملية السلام السورية - الإسرائيلية، خاصة بعد أن قرأتُ ما كتبه بعض المشاركين الأمريكيين والإسرائيليين. شعرت أنني مدينة لبلدي وللطلاب المهتمين بالشرق الأوسط بتقديم نظرة سورية سجّلتُها بكل ما لديّ من مقدرة، كما شهدتها ووفق أقوى ما أتذكّره منها.

لقد كرّست جهودي لتحقيق السلام في منطقتنا وإنهاء الصراع العربي - الإسرائيلي من عام ١٩٩١ وحتى عام ٢٠٠٠. واضطررتُ إلى معاناة آلام الفراق الناجمة عن البُعد عن عائلتي، وفيها ابنتاي. وفي عام ١٩٩٥ أنجبتُ ابني رضا، وسافرت إلى واشنطن وعمره لم يتعدّ الشهرين. أخذته إلى دار حضانة وكلّمت «ماما نادية»، كما كنا نسمّيها. قبّلتُه وشرحت له أن سبب تركي له هو مسعاي لضمان عيشه في عالم أفضل وأكثر أمناً وسلاماً. كلانا كان يبكي. قلت له، مع أنني أعرف بالطبع أنه لن يفهمني: «أرجوك لا تعتقد أني أم سيئة إذ أتركك هنا. أنا لا أبتعد عنك اليوم إلا من أجل مستقبل أفضل لك وللأطفال الآخرين كافة». ولا تزال دموعه تؤلمني حتى اليوم، كما ستبقى صورة عيون ناهد ونازك الجميلة، وهي تتوسل إليّ ألا أفارقهما، راسخة في ذاكرتي ما حييت. كنت

آمل أن أستطيع القول إنني لا أتركهما إلا لجعل عالمهما وعالم أولادهما جميعاً أكثر سعادة وسلاماً، لكن المحزن أن السلام لم يتحقق لأسباب مفصّلة في هذا الكتاب. يا للضياع! لا ضياع جهود عدد كبير جداً من الأشخاص الذين ضحوا بسنوات من عمرهم في هذا السعي فحسب، بل أيضاً ضياع حياة الناس الذين لا يزالون يُقتلون ويقتلعون من جذورهم ويشرّدون بسبب غياب السلام في المنطقة. عزائي الوحيد هو أنني كرّست كل الوقت وكل الطاقة المطلوبين من أجل هدف نبيل. وآمل ألا تتخلى الأجيال الحالية ولا أجيال المستقبل أبداً عن المحاولة مرة تلو أخرى لإنهاء الاحتلال وإعادة الحقوق المشروعة إلى أصحابها وصنع السلام، متمثلين تماماً بتحيتنا التي تبدأ دائماً بعبارة «السلام عليكم». فالسلام هو أغلى قيمة لنا نحن بني البشر. وأعداء السلام هم أعداء الإنسانية، في حين يعلم الذين يحاولون صنع السلام أنهم، حتى لو أخفقوا، فسيأتي أشخاص آخرون يحملون الشعلة. ونُردّد: «طوبى لصانعي السلام» سواء أَنَجَحَ سعيهم أم لم يُكتبْ له النجاح. المهم هو أن نستمرّ في المحاولة وألا نستسلم أبداً.

الفصل الأول

الطريق إلى مدريد

في يوم من أيام الصيف الحارة في القاهرة صعقنا بالخبر الذي كان من شأنه أن يعيد تشكيل الوطن العربي كله، ويصبح نقطة تحول في تاريخ العالم الحديث. كنت قد سافرت إلى القاهرة بصفتي مستشارة لوزير الخارجية السيد فاروق الشرع لحضور المؤتمر التاسع عشر لوزراء خارجية منظمة المؤتمر الإسلامي التي تضم في عضويتها خمساً وأربعين دولة. حدث هذا قبل مدة قصيرة من تسلّمي منصب المترجمة الخاصة للرئيس الراحل حافظ الأسد، وكنتُ حينئذ أستاذة لمادة الشعر الرومانسي في قسم اللغة الإنكليزية في جامعة دمشق. في ذلك اليوم المصيري، الثاني من آب/ أغسطس عام ١٩٩٠، كانت سيدة الباكستان الأولى السابقة، نصرت بوتو (زوجة السيد ذو الفقار علي بوتو ووالدة الرئيسة بنيظير بوتو) تجلس خلف منصّة الحوار عندما وضع أحد مساعديها ورقة في يدها كُتب عليها: «لقد قام صدام حسين بغزو الكويت!». لن أنسى أبداً التعبير عن الصدمة على وجهها ووجه كل من كان في القاعة ونحن نحاول أن نستوعب هول ما حدث.

كانت هناك روايات مختلفة عن الأسباب التي قادت إلى هذا الغزو، الذي أدّى بعد خمسة أشهر إلى ما يسمّى اليوم بـ «حرب الخليج»، كما هو معروف. كان صدام قد اتهم الكويت بسرقة النفط العراقي عن طريق التنقيب بالحفر المائل، في حين رأى الكثيرون أن سبب هذا الغزو يعود إلى عجز صدام حسين عن تسديد ديونه للكويت، التي تقدّر بـ ١٤ مليار دولار، وقد اقترضها في الأصل لتمويل حرب الثماني سنوات التي خاضها ضد إيران (كانت الكويت حليفاً أساسياً لصدّام في حربه ضد إيران، إذ قدّمت له الدعم المالي واللوجستي). وقد ألقت إحدى الروايات اللوم على السفيرة الأمريكية أبريل غلاسبي التي شّجعت صدام حسين على تنفيذ هجومه، وقالت له إن واشنطن ستعتبر ذلك النزاع شأناً عراقياً ولن تتدخل فيه[1].

---

(١) Ramsey Clark, *War Crimes: A Report on United States War Crimes against Iraq Report to the Commission of Inquiry for the International War Crimes Tribunal* (College Park, MD: Maissonneuve Press, 1992), p. 16.

يقال إن السفيرة غلاسبي قالت له: «ليس لدينا رأي حول الصراعات بين العرب».

وبغضّ النظر عن الأسباب، فقد دخل الجيش العراقي الكويت في الساعة الثانية صباحاً في الثاني من شهر آب/ أغسطس وفاجأ الكويتيين مفاجأة تامة. وبينما هرب أمير الكويت جابر الأحمد الجابر الصباح إلى السعودية، سقط أخوه غير الشقيق الأصغر منه سناً، الشيخ فهد الأحمد الجابر الصباح، قتيلاً بنيران العراقيين.

انتشر نبأ غزو الكويت في الوطن العربي كما تنتشر النار في الهشيم، وتردّدت أصداؤه بقوة داخل غرفة اجتماعنا في القاهرة. ومن الطبيعي أن أعضاء الوفد الكويتي في المؤتمر، انتابهم شعور من الخوف والهلع. ففي غضون ساعات فقط تم احتلال بلادهم بوحشية وتدمير حياتهم كلياً. ما زلت أذكر أحدهم وهو يصرخ غاضباً «لم تبْقَ هناك قيمة لنقودنا بعد الآن... وفقدت حياتنا معناها. ليس لنا بلد بعد الآن!». شعرت بمرارة الاحتلال، فقد شهدته مراراً في حياتي. فالفلسطينيون يرزحون تحت وطأة احتلال غاشم منذ عام ١٩٤٨، ويخضع أبناء بلدي في مرتفعات الجولان السوري لاحتلال إسرائيلي منذ عام ١٩٦٧. وهاهنا ضحايا لاحتلال آخر تطويهم غياهب النسيان من دون مكان يلجأون إليه، فلا صلاحية لجوازات سفرهم وأموالهم وشعبهم برمّته. في ذلك الصباح، ووسط كلّ هذا الجنون، كانت هناك فكرة واحدة تدور في رأسي: السيادة حقّ أساسي وجوهري، وليس في هذا العالم ما هو أقسى من الاحتلال. في الوطن العربي شهدنا الكثير من أشكال الاحتلال من قبل، ولكنها نفّذت جميعها من قبل قوى أوروبية خلال النصف الأول من القرن العشرين. كانت هذه أول مرة تقوم فيها دولةٌ عربية بغزو دولة عربية أخرى واحتلالها!

أولاً: الردّ السوري على غزو الكويت

تمّ تعليق اجتماع منظمة المؤتمر الإسلامي مؤقتاً، ثم استؤنف لإصدار رسالة قوية اللهجة موجّهة إلى صدام حسين، تطالبه بالانسحاب من الكويت. لم يلقَ ذلك البيان، كما الكثير من البيانات الأخرى، أيّ آذان صاغية في بغداد. ومن القاهرة اتصل وزير الخارجية فاروق الشرع هاتفياً على الفور بالرئيس حافظ الأسد في دمشق. كان من الواضح أن الرئيس الأسد منزعج، فهو قد تابع صدام حسين الذي لم يولِّد سوى الخراب والانشقاق في الوطن العربي منذ وصول الأخير إلى كرسي الرئاسة عام ١٩٧٩. وبالرغم من علاقات سورية الشديدة التوتر بصدام (لم تكن لدينا سفارة في بغداد منذ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٠)، فإنّ سياستنا كانت تنطوي على العمل مع الحكومة

العراقية لإقناع مسؤوليها بالضرورة الملّحة والمطلقة للانسحاب من الكويت. فجأة فقَدتْ لائحة الاختلافات الطويلة بيننا وبين صدام أهميتها. وضعنا كلّ الخلافات جانباً، وقلنا المهم الآن هو نزع فتيل الأزمة وتحرير الكويت وحماية العراق. كانت تلك السياسة التي وضع الرئيس الأسد خطوطها الرئيسية وأصرّ عليها هي مناهضة الاحتلال بصرف النظر عن شكله أو ظروفه.

من المعروف أن الرئيس الأسد أرسل إلى صدام حسين رسالة مفتوحة بثّتها إذاعة دمشق في الثاني عشر من كانون الثاني/ يناير عام ١٩٩١ قال فيها: «إنّ أي أذى يصيب العراق هو في نهاية الأمر أذى يصيب بشكل من الأشكال سورية والأمة العربية جمعاء»[٢]. وأضاف الأسد أنه ليس بصدد مناقشة وجه الحق ووجه الباطل في اجتياح العراق للكويت، قائلاً: «هذا ليس مكان مناقشة هذه المسألة ولا أوانه، وإنما المهم في الظرف الراهن هو ما نواجهه من وضع خطر وخطير يهدد العراق». وأعلن: «إنّ حرصنا على العراق بأرضه وشعبه وجيشه كحرصنا على أنفسنا، لأن العراق جزء عزيز غال من أرض العرب وأمة العرب». وأعلن أنه لو تمّ شنّ حرب عالمية على العراق فإنّ «العرب، مجتمعين ومنفردين، وفي مقدمتهم العراق، هم الخاسرون».

وختم الأسد رسالته بالقول: «وقد يقول قائل إن العراق سيكون مستهدفاً بهجوم حتى لو خرج من الكويت. إنني أريد أن أؤكد في هذا الشأن عهداً أخوياً لا شك فيه: أنه لو حدث ذلك بعد الخروج من الكويت، فإن سورية ستقف بكل إمكاناتها المادية والمعنوية إلى جانب العراق في خندق واحد تقاتل معه بكل شدة وبأس إلى أن يتحقق النصر»[٣]. ربما لم يكن مفاجئاً أنّ ردّ صدام حسين كان سلبياً للغاية، وقد نُقل عنه أنه انزعج من مخاطبة الرئيس الأسد له عبر رسالة مفتوحة بدلاً من اللجوء إلى المراسلات السرّية، وكما يتذكر العالم بوضوح فقد رفض - بصفاقة - العرض الذي قدمته سورية.

في الوقت ذاته كان وزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر قد بدأ جولة إقليمية في شهر أيلول/ سبتمبر من عام ١٩٩٠ تهدف إلى انتقاء حلفاء يمكن أن يشاركوا في تحالف تقوده الولايات المتحدة لتحرير الكويت. كان بيكر، الذي ينتمي إلى الحزب الجمهوري، سياسياً أمريكياً محنكاً من ولاية تكساس، فقد شغل منصب كبير الموظفين في البيت الأبيض خلال فترة رونالد ريغان الرئاسية في أوائل الثمانينيات من القرن

(٢) ارجع إلى الخطاب الكامل في أرشيف الإذاعة السورية.
(٣) المصدر نفسه.

العشرين. ومع وصول جورج بوش إلى كرسيّ الرئاسة عام ١٩٨٩ اختاره بوش ليكون وزير خارجيته الموثوق به، وذلك بناءً على صداقةٍ شخصيةٍ تجمع بينهما ويعود عمرها إلى أكثر من ٢٥ عاماً. كانت سورية ضمن برنامج جولة بيكر على الرغم من معارضة أصواتٍ عديدة في إدارة بوش لهذه الزيارة، لأن العلاقات بين دمشق وواشنطن كانت متوترة بسبب الحرب الأهلية في لبنان. كان هناك خلاف قديم وجوهري بين الولايات المتحدة ودمشق حول قائمة طويلة من القضايا. ولكن واشنطن أدركت أنها إذا أرادت النجاح في بناء تحالف مدعوم عربياً فهي تحتاج إلى سورية لإعطاء ذلك التحالف شرعية عربية حقيقية. وقد شرح بيكر في مذكّراته سياسة الدبلوماسية هذه النقطة، وفيها كتب: «شعرتُ بأن رمزية المشاركة السورية كانت أهمّ كثيراً من وجودها الفعلي على الأرض. فبوجود سورية تعزّزت مصداقية شركائنا في التحالف العربي على نحو لا حدود له. ولكن كان في ذهني هدفٌ بعيد المدى، إذ لم تكن هناك وسيلة لدفع عملية سلام شاملة في الشرق الأوسط إلى الأمام من دون مشاركة فاعلة من سورية»(٤).

لقد قيل إن الرئيس بوش كان يرغب في بداية فترته الرئاسية أن يعيد التعاون بين بلاده وسورية، ولكن جورج شولتز، وزير الخارجية الأمريكية في عهد ريغان، أشار عليه بعدم اتباع هذا المسار. وهنا يشرح بيكر قائلاً: «كان بوش يعتقد دوماً أن شولتز قد ارتكب خطأً جسيماً في قطع الاتصالات مع سورية إثر كارثة تفجير ثكنات مشاة البحرية الأمريكية في بيروت عام ١٩٨٣. حين كان بوش نائباً للرئيس الأمريكي كان يرغب في زيارة دمشق خلال رحلته إلى الشرق الأوسط، ولكن مساعديه أثنوه من دون قناعة تامة منه، إذ عبّروا عن خوفهم من ردود الفعل داخل الولايات المتحدة»(٥). وحين قرر بيكر زيارة الشرق الأوسط ضمن تحضيراته لحرب الخليج عام ١٩٩٠، قال له بوش حينها: «أعتقد بأنّ عليك النظر في الذهاب إلى سورية، فأنا لا أريد أن يفوتني المركب مرةً ثانية»(٦).

التقى بيكر الرئيس الأسد في دمشق في شهر أيلول/ سبتمبر من عام ١٩٩٠. وكان وزير الخارجية الأمريكية الأسبق الدكتور هنري كيسنجر يُطلِع جميع وزراء الخارجية الذين تلوه في المنصب إطلاعاً كافياً على لقاءاته المتعددة مع الرئيس السوري بعد

(٤) James A. Baker III and Thomas M. DeFrank *The Politics of Diplomacy: Revolution, War, and Peace, 1989-1992* (New York: G. P. Putnam, 1995), p. 295.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٩٦.

(٦) المصدر نفسه.

حرب تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٧٣. وكان الرئيس نيكسون قد كتب في مذكّراته عن الرئيس الأسد الذي التقاه في دمشق عام ١٩٧٤ قائلاً: «إنه مفاوض صلب، على قدر كبير من الغموض والجَلَد الهائل والكثير من الجاذبية. باختصار هو رجل ذو مبادئ، وفي عمره هذا [٤٤ عاماً حينها] سيكون قائداً يحسب له حساب في هذا الجزء من العالم. من الواضح أنّ هذا الرجل يمتلك حقاً صفات الشخص العبقري من دون أي شك»[٧].

وعندما زار جيمي كارتر سورية بعد سنوات كتب: «لا نعرف إلا قليلاً عن حياة حافظ الأسد الشخصية أو العائلية، ولكن هنري كيسنجر وزير الخارجية الأسبق وآخرين ممن عرفوا الأسد وصفوه لي بالإنسان الذكي جداً، والمتحدّث البارع الصريح في مناقشة أكثر القضايا حساسيةً. وقد دعوت الرئيس السوري لزيارتي في واشنطن، ولكنه أجاب أنْ ليست لديه رغبة أبداً في زيارة الولايات المتحدة. وبرغم هذا الرفض الحازم، ولكن المهذب، كنت عرفت عنه وعن شعبه ما استطعت قبل لقائي به»[٨]. وأضاف كارتر: «خلال زياراتي التالية إلى سورية، كنت أقضي ساعات من الحوار مع الأسد وأصغي إلى تحليله للأحداث في الشرق الأوسط... كان يبدو وهو يتكلم نسخة جديدة من صلاح الدين الأيوبي، وكأن واجبه تخليص المنطقة من الوجود الأجنبي مع الحفاظ على دمشق نقطة مركزية لوحدة عربية حديثة»[٩].

في الوقت الذي جاء فيه بيكر إلى دمشق، كان الأسد قد التقى عدة شخصيات أمريكية، وتمكّن من فهم الولايات المتحدة وعلاقاتها المعقدة مع الوطن العربي على نحوٍ جيد. ويستذكر بيكر أول لقاء له قائلاً: «قلت له إني سمعت أنه مفاوض صعب، ولكن حين يعطي كلمة يمكن الاعتماد على أنه سيلتزم بها»[١٠].

وأجاب الرئيس السوري بابتسامة: «ونحن سمعنا عنك أشياء كثيرة، وتابعنا مواقفك بعناية بالغة. وتوصلنا إلى استنتاج أنك شخص قوي وحازم، وأنك تقول ما تعنيه، وهذا ما يجعلنا نعتقد بأنك رجل مستقيم. ربما كان الأفضل أن نقول هذا عنك في غيابك، ولكن هذه الصفة مهمة. من المهمّ جداً أن يكون المرء مستقيماً. من المهم جداً

(٧) Richard Nixon, *RN: The Memoirs of Richard Nixon* (New York: Grosset and Dunlap, 1978), p. 1013.

(٨) Jimmy Carter, *Palestine: Peace Not Apartheid* (New York: Simon and Schuster, 2006), p. 72.

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) Baker III and DeFrank *The Politics of Diplomacy: Revolution, War, and Peace, 1989-1992,* p. 297.

أن يكون الشخص صريحاً ومباشراً، سواء اتفقنا أم اختلفنا. حين تتوفر هذه الصفات، تتوفر الثقة أيضاً حتى وإن لم يتمّ التوصّل إلى اتفاق. يجب ألّا تكون بيننا أية مسائل خفيّة»[11].

كانت الكلمة السحرية التي شدّد عليها الأسد هي «الثقة». لقد وثق بكيسنجر ثقة في غير مكانها قبل أن يكتشف أنّ وزير الخارجية الأمريكي كان يشجع الرئيس المصري أنور السادات على توقيع سلام منفرد مع إسرائيل. وبعد عدة سنوات، وبعد العمل مع الرئيس الأسد في التسعينيات، يمكنني الجزم بأنه أراد بناء الثقة ذاتها مع بيل كلينتون، ولكن على أسس مختلفة طبعاً. وفي عام ١٩٩٠ أوضح بيكر أموراً ثلاثة:

١ - من وجهة نظر الولايات المتحدة، كان غزو الكويت أخطر أزمة يواجهها العالم في السنوات الأخيرة من الحرب الباردة.

٢ - كانت الولايات المتحدة مصمّمة، وبأيّ ثمن، على منع صدّام من النجاح.

٣ - يجب ألّا يظهر صدّام، حتى بعد هزيمته، بطلاً، لا في أعين شعبه، ولا في أعين العرب.

وأدرك الرئيس الأسد أن الولايات المتحدة في تلك النقطة بحاجة إليه اليوم أكثر من حاجته هو إلى إدارة الرئيس بوش. ولمّا كان الأسد سياسياً فذّاً محنّكاً، فقد قام بتمهيد الطريق للسنوات العشر القادمة من العلاقات السورية - الأمريكية، وذلك من خلال موافقته على إرسال قوات سورية إلى منطقة الخليج العربي. وقوله لبيكر: «سوف نرسل العدد المطلوب منّا»[12].

كان لدى سورية كل الأسباب التي تجعلها ترغب في إخراج صدام حسين من الكويت. ويجب ألا ننسى أن صدام حسين استهل حقبته الرئاسية بصداقات مع القوى العالمية؛ تلك القوى ذاتها التي انقلبت عليه عام ١٩٩٠، وأطاحته في نهاية المطاف عام ٢٠٠٣. ففي عام ١٩٧٦، قام بزيارة رسمية لفرنسا وأقام علاقات وطيدة مع جاك شيراك الذي كان رئيساً للوزارة آنذاك. وكان صدام وشيراك قد التقيا أول مرة عندما قام شيراك بزيارة بغداد في شهر كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٧٤ بغرض التفاوض في اتفاقيات تجارية تتضمن توفير مفاعل نووي. وعندما زار صدام فرنسا في شهر أيلول/

(١١) المحضر غير المنشور لاجتماع الأسد وبيكر، ١٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٩١.
(١٢) المصدر نفسه.

سبتمبر من العام التالي، وكانت تلك الزيارة الوحيدة التي قام بها إلى دولة غربية، قال له شيراك: «أرحب بك صديقاً شخصياً، وأؤكد لك تقديري واحترامي ومودتي»(١٣). وبقي صدام على صلة وثيقة بشيراك عندما وصل هذا الأخير إلى كرسي الرئاسة في فرنسا عام ١٩٩٥ أثناء فترة الحصار الأمريكي للعراق. وفي الثمانينيات من القرن العشرين قام العراق بشراء أسلحة من أطراف فرنسية بقيمة ٢٥ مليار دولار أمريكي، تضمّنت مقاتلات ميراج، وطائرات سوبر إيتندارد، وصواريخ إكزوسيت(١٤). كما اختارت الحكومة العراقية شركات فرنسية لبناء مطار صدام حسين الدولي عام ١٩٨٢(١٥).

تجاوزت العلاقة بين شيراك وصدام المعايير المعتادة في العلاقات العراقية - الفرنسية. وعندما أصبح جاك شيراك رئيساً للوزارة مرة أخرى في عام ١٩٨٦ بعد عقد من خروجه من السلطة، ازدهرت هذه العلاقة من جديد. وفي السنة التالية، ظهرت تقارير تشير إلى أن شيراك قدم عرضاً لإعادة بناء المفاعل النووي الذي دمّرته إسرائيل عام ١٩٨١(١٦). وفي عام ١٩٩٤، فازت شركتا النفط الفرنسيتان توتال وألفا بعقود تقدر بالمليارات لتطوير حقول النفط في جنوب العراق(١٧).

وقد سمح برنامج الأمم المتحدة «النفط مقابل الغذاء» الذي بدأ عام ١٩٩٦ للحكومة العراقية ببيع النفط مقابل شراء الغذاء والدواء وغيرها من الاحتياجات الإنسانية الأخرى. فكافأ صدام حكومة شيراك على دعمها، وسرعان ما أصبحت فرنسا الشريك التجاري الأساسي للعراق، وحافظت على هذا الموقع حتى عام ٢٠٠٣. كما تمتع صدام بعلاقة ممتازة مع الولايات المتحدة حتى عام ١٩٩٠. في البداية، كانت الولايات المتحدة تخشى من صدام، وبعد خمسة أشهر من تسلّمه السلطة وضعت وزارة الخارجية الأمريكية العراق على قائمة الدول الداعمة للإرهاب. ولكن اسم العراق شُطب من هذه القائمة عندما خاضت الحرب ضد إيران، عدوة الولايات المتحدة، في أيلول/ سبتمبر عام ١٩٨٠. وبين عامي ١٩٨٣ و١٩٩٠ باعت حكومة الولايات المتحدة صدام حسين سلاحاً بقيمة ٢٠٠ مليون دولار ليتم استخدامه ضد الإيرانيين(١٨).

---

(١٣) Kenneth Timmerman, «They Met in Paris, Fell in Political Love and Built a Death Machine,» *Los Angeles Times*, 22/12/1991.

(١٤) *International Herald Tribune*, 7/3/2003.

(١٥) Olivier Guitta, «The Chirac Doctrine,» *Middle East Quarterly*, vol. 12, no. 4 (Fall 2005), pp. 43-53.

(١٦) *L'Express*, 13/2/2003.

(١٧) Guitta, Ibid.

(١٨) المحضر غير المنشور لاجتماع الأسد وبيكر، ١٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٩١.

وفي عام ١٩٨٣، أرسل الرئيس رونالد ريغان مبعوثه الخاص دونالد رامسفيلد إلى العراق ليبيعه السلاح ويعطي المال لصدام حسين، وليشكره على حربه ضد آية الله روح الله الخميني. وبين عامي ١٩٨٣ و١٩٩٠ تسلّم العراق اعتماداً قيمته ٥ مليارات دولار من مؤسسة تديرها وزارة الزراعة الأمريكية. وبدأ هذا المبلغ بـ ٤٠٠ مليون دولار عام ١٩٨٣، وأخذ يزداد إلى ما يربو على مليار دولار سنوياً منذ عام ١٩٨٨[١٩].

بينما كانت الولايات المتحدة تدعم صدام حسين بسخاء في حربه ضد إيران، كانت سورية تتمسك بموقفها القائل إنّ تلك الحرب خاطئة وموجهة ضد البلد الخطأ، والأسباب التي دعت إلى شنّها خطأ جملةً وتفصيلاً. لقد آمن الرئيس الأسد منذ اليوم الأول لهذه الحرب بأن صدام حسين كان هو المعتدي، وليس العكس. وبالنظر إلى تاريخ صدام حسين المضطرب، قال القائد السوري: «لقد شنّ حربه ضد إيران من دون أي مبرر، وأراد أن يأخذ كل العرب معه إليها. وبالطبع، كان معظم إخواننا العرب - وربما جميعهم - متحمسين لها. نحن في سورية رفضنا هذه الحرب، بالرغم من أنني حينما بدأتْ لم أكن أعرف بعد أيّاً من القيادات الإيرانية. ولكنني لم أجد أي مبرر لهذه الحرب مع إيران. مضى على صدّام عشر سنوات في السلطة، وجميعها كانت مليئة بحروب دفع ثمنها الشعب العراقي غالياً»[٢٠]. كان هذا هو الشعور نفسه الذي انتاب الرئيس الأسد حول احتلال الكويت، وكان من وجهة نظره احتلالاً غير شرعيّ ويماثل في الوحشية والخطأ الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين.

لكن الوطن العربي كان منقسماً حول طريقة التعامل مع الاحتلال العراقي. لقد رأى بعض القادة أن هذه القضية يجب أن تحلّ تحت العباءة العربية، وألّا تتحكم الولايات المتحدة فيها، على حين قال معسكر آخر بوجوب معاقبة العراق على مغامرته الرعناء من جانب التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة، والذي عرف في ما بعد بعملية عاصفة الصحراء. ولكن الأطراف جميعها بذلت جهداً دبلوماسياً هائلاً لتجنّب العملية الأمريكية في العراق في كانون الثاني/ يناير من عام ١٩٩١. وكان أحد تلك التحركات الدبلوماسية اجتماعاً عُقد في جنيف في كانون الثاني/ يناير عام ١٩٩١، وفيه جرى لقاء بين وزير الخارجية العراقي طارق عزيز، ووزير خارجية

---

(١٩) المصدر نفسه.

(٢٠) محادثة شخصية مع الرئيس حافظ الأسد، حزيران/ يونيو ١٩٩٢.

الولايات المتحدة الأمريكية جيمس بيكر. لم يتمخّض ذلك الاجتماع الذي استمرّ نحو سبع ساعات عن شيء، فقد تعنّت صدام بموقفه الرافض للانسحاب من الكويت المحتل.

خلال تلك الأحداث، لم أكن أنا موجودة في سورية، إذ كنت قد سافرت إلى الولايات المتحدة للتدريس والبحث العلمي في جامعة ديوك بعد أن تلقيت منحة فولبرايت لهذا الغرض. وفي ذلك الوقت دعاني الأستاذ الفلسطيني المرموق الدكتور هشام شرابي من جامعة جورجتاون إلى حضور مؤتمر حول احتلال الكويت. وأذكر أنني قدمت ورقة بحث شرحت فيها أن هذه الحرب الوشيكة ستكون أكثر خطورة من الحرب التي خاضها العرب عام ١٩٦٧، والتي أدت إلى احتلال كامل شبه جزيرة سيناء والضفة الغربية وكامل القدس ومرتفعات الجولان. وبما أنّ هذه أول حرب عربية - عربية في القرن العشرين، فهي ستتسبّب انقساماً غير مسبوقٍ في الوطن العربي، وسوف نشهد تداعياته على امتداد عقود قادمة. واليوم، بعد مضي أكثر من عشرين عاماً، عندما تمرُّ بذاكرتي صور حرب الخليج، يمكنني أن أقول، وبكل ثقة، إن سورية كانت على صواب مطلق في موقفها تجاه صدّام. لقد تصرفنا التصرف الصحيح، وذلك كله من موقف مبدئي هو رفض الاحتلال بأشكاله كافة. فكيف يمكننا أن ندين احتلال فلسطين في وقت نشيح فيه النظر عن احتلال الكويت؟

ثانياً: عملية عاصفة الصحراء

مع إغلاق صدّام كلّ الأبواب في وجه المحاولات المطروحة للتوصل إلى حلّ سلمي للأزمة، اندلعت في ١٦ كانون الثاني/ يناير عام ١٩٩١ حرب الخليج التي شنها ائتلاف مفوض من الأمم المتحدة مؤلف من ٣٤ دولة بقيادة الولايات المتحدة. وكانت الأمم المتحدة قد أصدرت عبر مجلس الأمن القرار الرقم (٦٧٨) القاضي بمنح العراق مهلة حتى منتصف كانون الثاني/ يناير للانسحاب من الكويت، وإعطاء التحالف صلاحية استخدام «الوسائل الضرورية كافة» لإرغام العراق على الخروج من الكويت بعد انتهاء المهلة المحددة. وقام الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب بنشر قوات أمريكية في العربية السعودية، وانضمت مجموعة من الدول بما فيها سورية إلى التحالف. وكانت تلك أعلى درجات التعاون بين سورية والولايات المتحدة منذ بدء العلاقات الثنائية بينهما في أربعينيات القرن العشرين. ساهمت العربية السعودية بـ ٣٦ مليار دولار تقريباً

من أصل كلفة الحرب التي بلغت ٦٠ مليار دولار أمريكي[٢١]. وكان من بين الأقطار العربية التي انضمت إلى التحالف، كل من عُمان، وقطر، والإمارات العربية المتحدة. في حين ساهمت اليابان وألمانيا بـ ١٠ مليارات دولار و٦,٦ مليار دولار على التوالي، ولكن من دون إرسال أي قوات منهما. وبلغ عدد جنود قوات التحالف المرسلة إلى العراق ٩٥٦,٦٠٠ جندي، كانت ٧٣ بالمئة منها قوات أمريكية. لقد فهمتُ من الأبحاث التي أجريتها في السنوات التالية أن عدداً من الأقطار العربية لم تكن مع انضمام سورية إلى ذلك التحالف، وهو موقف تبنّاه أيضاً عدد من المفكرين والكتّاب السوريين ممن كتبوا عريضة تعبّر عن معارضتهم لانخراط سورية في تلك الحرب. لقد كبّدت تلك الحرب قوات التحالف خسارة ٣٩٢ شخصاً من قواتها، ولكنها حصدت أرواح نحو ٢٠,٠٠٠ إلى ٣٥,٠٠٠ عراقي كان بينهم ٣,٠٠٠ من المدنيين[٢٢]. وقد احتاجت إدارة بوش الأمريكية إلى هذا الكمّ المرعب من الموت كي تباشر خطواتها على طريق السلام الطويل في الشرق الأوسط، وتبدأ بالتحضير لمؤتمر مدريد للسلام. وربما لولا اندلاع حرب الخليج تلك لم نكن لنبلغ مؤتمر مدريد أبداً.

ثالثاً: الاستعداد لمؤتمر مدريد

في الساعة الثانية عشرة ظهراً من السادس من شهر شباط/ فبراير عام ١٩٩١، رنّ جرس الهاتف في القصر الرئاسي في دمشق. كان الرئيس بوش الأب هو المتصل، وأراد التكلم مع الرئيس الأسد. في ذلك الوقت، كانت الحرب في الكويت في مرحلتها الأخيرة، وناقش القائدان الوضع في الخليج العربي، وقال الأسد محذّراً: «احترسوا يا سيادة الرئيس من ضرب المدنيين. يجب تسديد الضربات فقط ضد الأهداف ذات الأهمية القصوى لتحرير الكويت»[٢٣]. وردّ الرئيس بوش موافقاً، ووعد ببذل جهود جدّية لتحقيق السلام في الشرق الأوسط فور الانتهاء من تحرير الكويت. وبعد شهر واحد بالتحديد، أي في السادس من آذار/ مارس عام ١٩٩١، توجّه الرئيس بوش بخطاب إلى الكونغرس كثيراً ما يشار إليه على أنه وضع اللبنة لمقاربة جديدة للولايات المتحدة حيال الشرق الأوسط. كان دفع عملية السلام العربي - الإسرائيلي هو النقطة المركزية

---

(٢١) John Peters and Howard Deshong, *Out of Area or Out of Reach?: European Military Support for Operations in Southwest Asia* (Santa Monica, CA : Rand, 1995).

(٢٢) *World Almanac and Book of Facts* (New York: World Almanac, 2009), p. 176.

(٢٣) المحضر غير المنشور لمحادثات الأسد وبيكر، ٦ شباط/ فبراير ١٩٩١.

في برنامج الرئيس بوش، وفقاً لوعده للرئيس الأسد، ويقوم على إعادة الأراضي المحتلة وإعطاء الفلسطينيين حقوقهم. كان لدى بوش تصورٌ لمسارٍ متعددِ الجوانب برعاية كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، مع أنه لم يكن يملك بدايةً أية فكرة عن الشكل الذي سيتخذه المؤتمر ومكان انعقاده وما سيحققه. ولكن الأمر الذي بدا جليّاً للولايات المتحدة في منتصف عام ١٩٩١ هو أن الوقت قد حان للشروع في محادثات جديّة لمحاولة حل الصراع العربي - الإسرائيلي انطلاقاً من النقطة التي فشلت عندها المحادثات التي سبقتها. وبناءً عليه، انطلق بيكر في الفترة الواقعة ما بين شهري آذار/ مارس وتشرين الأول/ أكتوبر من عام ١٩٩١ بجولاته المعروفة باسم «الدبلوماسية المكوكية» في الشرق الأوسط في محاولة لحثّ القادة العرب والإسرائيليين على إجراء محادثات سلام تضمّ الأطراف جميعها أول مرة منذ عام ١٩٤٨. وكتب بيكر قبل بدء جولته مذكّرة إلى الرئيس بوش قال فيها: «أرغب في إطلاعك على ما يدور في ذهني قبل الانطلاق في هذه الرحلة. ليس لديّ توقعات كبيرة، ولكن هناك بعض الحقائق الجديدة التي تجعل التقدم ممكناً، ومن واجبنا تجاه أنفسنا والآخرين أن نبذل جهدنا»[٢٤].

كانت الزيارة الأولى للسيد بيكر إلى سورية بعد الحرب بشهرين في ١٣ آذار/ مارس ١٩٩١، وكان ذلك خلال شهر رمضان المبارك، وفيها التقى الرئيس الأسد في الساعة الثامنة وخمس دقائق مساءً. كان بيكر يحمل في جعبته أربعة مواضيع هي: الأمن في منطقة الخليج، ومصير أسلحة الدمار الشامل في المنطقة، والتعاون الاقتصادي، والصراع العربي - الإسرائيلي[٢٥]. وكان ردّ الرئيس الأسد بأن مسؤولية الأمن في منطقة الخليج يجب أن تقع على عاتق أقطار الخليج نفسها، وعبّر عن دعمه الكامل لإزالة «الأسلحة الجرثومية والكيميائية والنووية» جميعها من المنطقة. لم يغب أبداً عن ذهن الرئيس الأسد، الذي وثق ببيكر بناءً على لقاءاته العديدة به قبل الحرب، أن يذكّر ضيفه الأمريكي بشحنات الأسلحة التي لا تخضع لأيّة قيود، والتي كانت تحصل عليها إسرائيل من الولايات المتحدة وأوروبا. وأشار إلى أن الشرق الأوسط لن يكون آمناً أبداً «ما دامت إسرائيل مدججة بالسلاح. وانتقل الرئيس الأسد وبيكر بعد ذلك إلى الموضوع ذي الأهمية الحقيقية: الصراع العربي - الإسرائيلي؛ ففي النهاية هذا ما جاء بيكر من أجله إلى دمشق. قال الرئيس الأسد لوزير الخارجية الأمريكي: «استناداً إلى

---

(٢٤) Baker III and DeFrank *The Politics of Diplomacy: Revolution, War, and Peace, 1989-1992,* p. 297.

(٢٥) المحضر غير المنشور لاجتماعات الأسد وبيكر، ٦ شباط/ فبراير ١٩٩١.

ما نطّلع عليه من الإعلام عن مواقف الرئيس بوش، نحن نعتقد بأنه مستعدٌ للمساعدة بأقصى ما يستطيع لتحقيق مصالح الشعب الأمريكي. والشعب الأمريكي من الناحية النظرية يرغب في تحقيق السلام، مثله مثل باقي شعوب العالم تماماً. وللأمريكيين مصلحة عظمى في تحقيق السلام في هذا الجزء من العالم، وهذا ما دفع الرئيس بوش إلى تبني هذا الموقف. ونحن نؤمن بأن موقفه صحيح ومنصف ويخدم مصلحة السلام في مجملها»(٢٦).

أخرج الرئيس الأسد محضر اجتماع عقد أخيراً بين وزير خارجيته والقائم بالأعمال الروسي في سورية. ومع أن الجميع كان يعلم أن الاتحاد السوفياتي كان آنذاك قوة عظمى في حالة انحدار، كان الرئيس الأسد يعتقد أنّ بيكر يجب أن يفهم أنّ هذا العالم لا يزال ذا قطبين، وما يزال رأي الاتحاد السوفياتي مهماً، أو يجب أن يكون مهماً، في ما يتعلق بقضية الصراع العربي - الإسرائيلي. والسوريون والروس اتفقوا أصلاً على حل الصراع على نحو «عادل وشامل» على أساس قراري مجلس الأمن الدولي الرقمين (٢٤٢) و(٣٣٨).

أضاف الأسد أن سورية تريد «انسحاباً إسرائيلياً كاملاً وغير مشروط من كلّ الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧، وأن تُعاد هذه الأراضي إلى أصحابها الشرعيين. وتحدث بيكر عن إجراءات بناء الثقة، مشيراً إلى قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الرقم (٣٣٧٩) الذي صدر في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من عام ١٩٧٥، والذي عبّر عن أن الصهيونية «هي شكل من أشكال العنصرية والتميز العنصري». وصوّتت الولايات المتحدة ضد ذلك القرار الذي حظي بتأييد ٢٥ دولة من ضمنها سورية. وحاول بيكر إقناع الرئيس الأسد بضرورة رفض هذه الإجراءات، ولكن الأسد أجاب: «إذا كنت تريدنا القيام بذلك، فإن العرب سوف يخسرون عاملاً مهماً قد يقنع الإسرائيليين بحضور المؤتمر». ولا بد من الإشارة إلى أنه في النهاية، تم استبدال ذلك القرار بالقرار الرقم (٤٦/ ٨٦) الذي أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١. ومنذ تأسيس الأمم المتحدة، وعلى مدى تاريخها، لم يتم إلغاء أيّ قرار سوى القرار الرقم (٣٣٧٩) من بين كل قراراتها الصادرة. وبعد مرور ستة عشر عاماً على صدور القرار (٣٣٧٩)، وقبل تسعة أشهر فقط من إلغائه، بدا واضحاً أن القرار لا يزال ذا أهمية لدى جيمس بيكر. واختتم اللقاء بين الرجلين من دون تحقيق أي تقدم بشأن قرار

(٢٦) المصدر نفسه.

الأمم المتحدة، ولكنهما تبادلا الرأي حول التعريف الحقيقي لكلمة «الإرهاب»، قبل عشر سنوات من الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. وانتهى الطرفان بالتعبير عن أملهما بأنّ مؤتمراً دولياً للسلام قد يعقد قبل مرور وقت طويل.

رابعاً: «دبلوماسية المثانة»

في شهر نيسان/ أبريل من عام ١٩٩١ حلَّ جيمس بيكر ثانيةً في دمشق حاملاً معه هذه المرة رسالة تهنئة من رئيسه بوش إلى الرئيس الأسد بمناسبة عيد الفطر المبارك، وفيها كتب الرئيس بوش: «إنّ دور سورية اليوم سيكون حاسماً. بناءً على تبادل الآراء الذي تمّ بيننا، أجد نفسي واثقاً من قدرتنا على العمل معاً لإحلال السلام في المنطقة»[٢٧]. وأضاف: «لقد أنجزنا معاً خلال الأشهر القليلة الماضية أشياء عظيمةً، وأنا متأكد من أنه ما يزال بمقدورنا التوصل إلى ما هو أكثر من ذلك». كانت زيارة بيكر هذه إلى دمشق تهدف إلى رسم المسارات العديدة لسورية والولايات المتحدة للتقدم إلى الأمام، وكان مفوضاً بشكل كامل من الرئيس الأمريكي لأداء ذلك. ودام الاجتماع الشهير الذي تمّ بين الأسد وبيكر أكثر من اثنتي عشرة ساعة متواصلة، إذ بدأ في الساعة الثامنة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً، وانتهى في الساعة التاسعة والنصف مساءً[٢٨].

تمّ عقد ذلك الاجتماع في القصر الرئاسي في دمشق يوم ٢٣ نيسان/ أبريل ١٩٩١ بحضور وزير الخارجية فاروق الشرع والسفير الأمريكي لدى سورية إدوارد دجيرجيان، الأرمني الأمريكي من أصول سورية. ومحضر تلك المحادثات الماراثونية محفوظ في أرشيف الرئاسة السورية، وهو مكتوب بدقة ومن دون إهمال لأصغر التفاصيل على ١٦٢ صفحة بيد مساعد الرئيس السوري الموثوق به الدكتور إسكندر لوقا. ويعدُّ أرشيف الرئاسة السورية، الذي فتح أمامي لهذا الكتاب، كنزاً للمؤرخين، وإضافةً لا تقدّر بثمن لتوثيق الجانب السوري من عملية السلام في الشرق الأوسط. إن المحادثات المذكورة أدناه، بالرغم من توثيقها في مناسبات عدة من منظور أمريكي وإسرائيلي، لم تُكتبْ حتى اليوم من وجهة نظر سورية. لم تغيّر سورية موقفها قط سواء في كلامها الموجه إلى الأمريكيين داخل الغرف المغلقة أو في كلامها الموجه إلى الشعب السوري المنشور على العلن. كما أن سورية، خلال عقدين من الزمن، لم تعدّل من طلبها لـ «السلام العادل

(٢٧) المحضر غير المنشور لاجتماعات الأسد وبيكر، ٢٣ نيسان/ أبريل ١٩٩١.
(٢٨) المصدر نفسه.

والشامل» أو «سلام الشجعان»، كما وصفه الرئيس الأسد ذات مرة. وكان هذا المطلب على الدوام هو عودة مرتفعات الجولان المحتلة كاملة حتى حدود الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧ وفقاً لقرارات مجلس الأمن ومبدأ الأرض مقابل السلام.

استهلّ بيكر المحادثات بذكر الزيارة التي قام بها إلى الكويت في اليوم السابق، لافتاً النظر إلى الحرائق المدمّرة التي خلّفها الجيش العراقي وراءه لدى إضرامه النار في أنابيب النفط قبل انسحابه من مدينة الكويت، وقال: «لم أرَ في حياتي أبداً دماراً بهذا الشكل»، وأضاف مدّعياً أن ألسنة النيران المجازية والحقيقية «قد تصل إلى إيران وتركيا»[٢٩]. وهنا ردّ الرئيس السوري بموهبته الرائعة في التعبير، والابتسامة تعلو وجهه، قائلاً: «هناك نيران نراها ونيران أخرى لا نراها. وتلك النيران غير المرئية قد تكون أحياناً أخطر من النيران الفعلية». بعد ذلك انتقل بيكر إلى العمل، وأطلع الرئيس الأسد على المحادثات التي تمت مع الفلسطينيين في القدس، والاجتماعات المماثلة التي عُقدت في السعودية ومصر، وقال: «الكل يعلم سيادة الرئيس انه من دونكم، ومن دون سورية، لا يمكن التوصّل إلى حلّ كامل [في الشرق الأوسط]. والرئيس بوش وأنا على استعداد لوضع كلّ ثقل الولايات المتحدة في سبيل حل المشكلات جميعها بما فيها قضية الجولان»[٣٠]. وأردف سريعاً أنه غير مفوض في هذه المرحلة بتقديم أية ضمانات وإنما يمكنه فقط التعبير عن التزام الولايات المتحدة بتحقيق السلام في الشرق الأوسط. وأضاف بيكر أن العقبة الأولى التي تقف في وجه هذا الحل هي حكومة إسحاق شامير الإسرائيلية المتعنّتة الرافضة لأيّ حلّ سلمي مع العرب.

كان رئيس الوزراء الإسرائيلي شامير، الذي أمر شخصياً بزيادة المستوطنات الإسرائيلية في فلسطين المحتلة، يمقت فكرة عقد مؤتمر دولي للسلام. لم يكن هذا غريباً على شخص مثل شامير الذي كان في شبابه عضواً في عصابة شترن العسكرية، وهو بنفسه أمر باغتيال المبعوث الخاص للأمم المتحدة الكونت فولك برنادوت أثناء محادثات وقف إطلاق النار في الحرب الفلسطينية الأولى عام ١٩٤٨[٣١].

١ - كان شامير معارضاً لمشاركة السوفيات في رعاية المؤتمر، فهو يعتقد أن الاتحاد السوفياتي يدعم العرب بقوة.

---

(٢٩) المصدر نفسه.

(٣٠) المصدر نفسه.

(٣١) Amitzur Ilan, *Bernadotte in Palestine, 1948: A Study in Contemporary Humanitarian Knight-errantry* (New York : St. Martin's Press, 1989), p. 194.

٢ - لم يكن شامير يرغب في عقد المؤتمر برعاية الأمم المتحدة، وهو ما أصر عليه الجانب العربي بقوة. وقد كتب بيكر في مذكّراته في هذا الصدد: «لقد كانت إسرائيل ترى على الدوام، ولأسباب معقولة، في الأمم المتحدة عدواً قاتلاً لها لا رادع له سوى الفيتو الأمريكي في مجلس الأمن. وأكد القرار الصادر عن الأمم المتحدة عام ١٩٧٥ الذي ساوى بين العنصرية والصهيونية وجهة النظر هذه»(٣٢). كان السوريون يعرفون ذلك جيداً، وهذا يفسر إصرارهم على رعاية الأمم المتحدة للمؤتمر على أمل أن صدور قرار رسمي من الأمم المتحدة سيرغم إسرائيل على الالتزام بقرارات السلام. وكان أبغض ما يمكن أن يقبل شامير به هو التعرض لضغط الأمم المتحدة ورقابتها لينفذ الاتفاقيات مع العرب.

٣ - لم يكن شامير يريد أن يحضر الفلسطينيون وفداً منفصلاً، كي «يتضاءل تأثير منظمة التحرير الفلسطينية.

٤ - حسبما قال بيكر، كانت أسس انعقاد المؤتمر غير مريحة لشامير. فقرار الأمم المتحدة الرقم (٢٤٢) كان يعني للعرب (ولغالبية دول العالم الأخرى) مبادلة الأراضي بالسلام، وهذا ما تعهد شامير ألا يفعله أبداً(٣٣). وأخيراً، لم يكن شامير مرتاحاً لفكرة حضور الأوروبيين في المؤتمر، فقد كان يعتقد أن الأغلبية الساحقة من الأوروبيين يؤيدون العرب(٣٤). وباختصار، لم يكن أي شيء يتعلق بالمؤتمر مرضياً للإسرائيليين. وهذا ما بدا أن جيمس بيكر يحاول نقله إلى السوريين. ومهما يكن الأمر، فقد أدلى شامير بحديث قال فيه: «لا علاقة للسلام بالأرض. هذه دولة إسرائيل، وهذه أرض إسرائيلية. وليس بوسع أحد تغيير حدود إسرائيل»(٣٥). وعندما سأله أحد الصحفيين المصريين عمّا إذا كان سينسحب يوماً من الجولان، ردّ شامير بحدة: «هل سمعت أن أحداً غيّر حدود دولته؟». وقد أشار الرئيس الأسد خلال الاجتماع إلى تلك التصريحات غير المشجّعة، وقال لـ بيكر: «لا يسعني إلا أن آخذ هذه التصريحات على محمل الجدّ. والإسرائيليون لا يمزحون [حين يقولون أشياء كهذه]»(٣٦). وأردف بأسف: «لو أن هذه المناقشات تمت قبل أزمة الخليج لوافق شامير عليها، ولكنه اليوم يعتقد أنّ العرب

---

(٣٢) Baker III and DeFrank *The Politics of Diplomacy: Revolution, War, and Peace, 1989-1992,* p. 297.

(٣٣) المصدر نفسه.

(٣٤) المحضر غير المنشور لاجتماع الأسد وبيكر، ٢٣ نيسان/ أبريل ١٩٩١.

(٣٥) المصدر نفسه.

(٣٦) المصدر نفسه.

أضعف من ذي قبل، وسيقومون بتنفيذ ما يُطلَب منهم [من قبل الولايات المتحدة]»[٣٧]. وأضاف سريعاً مبتسماً ابتسامته المعهودة: «برأيي، سوف نقنعه بعكس ذلك». ولا بد من أن نتذكّر أن صدام حسين أمطر تل أبيب وحيفا بصواريخ سكود خلال حرب الخليج الثانية، وأن الرئيس بوش والبيت الأبيض توسّلا إلى إسرائيل ألا تردّ بضربات مضادة، وانصاع شامير آنذاك، ولكنه انتظر أن تعوِّضه الولايات المتحدة من ذلك، وقد طُرِح هذا على ما يبدو حين بدأت التحضيرات لمؤتمر مدريد.

وبفضل الضغوط المكثفة التي بذلها بيكر، وافق شامير على مضض على حضور المؤتمر، بشرط أن يتم تنفيذ مطالبه المتعلقة بتمثيل الوفد الفلسطيني فيه. فقد اشترط شامير أن يكون ممثلو الوفد الفلسطيني في المؤتمر حصراً ممن يعيشون في الأراضي المحتلة، وذلك كي يضمن منع منظمة التحرير الفلسطينية، التي كان مقرها في تونس، والتي دعمت صدام خلال أحداث الكويت، من الحضور. ونتيجة لذلك، تمّ توجيه الدعوة إلى الدكتورة حنان عشراوي، والدكتور حيدر عبد الشافي، باعتبارهما مواطنَيْن فلسطينييْن كانا يعيشان في الأراضي المحتلة، ولكنهما كانا أيضاً عضوين في منظمة التحرير. أما ياسر عرفات نفسه الذي أيّد صدام حسين قبل مدة قصيرة، فقد مُنع من الذهاب إلى مدريد بناء على طلب مباشر من شامير. وبحسب قول بيكر، وافق شامير على توقيع وثيقة تتضمن موافقته على حضور مؤتمر «ستكون نتائجه مبنية على أساس القرارين الرقم (٢٤٢) و(٣٣٨) الصادريْن عن مجلس الأمن الدولي»[٣٨].

كتب بيكر في مذكّراته: «كنت أعرف أن أكبر صعوبة سأواجهها بين العرب هي في إقناع الأسد»[٣٩]. وقد كان الأسد واضحاً عندما قال: «فاقد العقل وحده قد يرغب باستمرار حالة الحرب»، ولكنه في الوقت ذاته أكد أن جميع الخيارات تبقى مفتوحة لسورية في حال إخفاق محادثات السلام مع الإسرائيليين. اعترضت سورية على تصريح للولايات المتحدة، وقالت إن الهدف من المؤتمر المقترح هو «جلوس الأطراف جميعاً إلى طاولة التفاوض». وقد صحح الأسد هذا القول قائلاً: «الهدف، يا سيد بيكر، هو تحقيق السلام وليس فقط إحضار كلّ الأطراف إلى طاولة التفاوض»[٤٠]. وطلب

(٣٧) المصدر نفسه.

(٣٨) المصدر نفسه.

(٣٩) Baker III and DeFrank *The Politics of Diplomacy: Revolution, War, and Peace, 1989-1992,* p. 297.

(٤٠) المحضر غير المنشور لاجتماع الأسد وبيكر، ٢٣ نيسان/ أبريل ١٩٩١.

بيكر من الرئيس السوري الالتزام بالعملية، وأن تمتنع سورية عن انتقاد الفلسطينيين المستعدين للتحدّث إلى الإسرائيليين، «والعمل لإقناع منظمة التحرير الفلسطينية بأن تبقى في الظل». ووضع الرئيس الأسد من جهته أربعة شروط، أولها الإصرار على أن يُدعى المؤتمر «مؤتمراً دولياً»، وليس «مؤتمراً إقليمياً»، كما طلب شامير. وبيّن أن تلك التسمية «ستقلّل من أهمية المؤتمر. لذا دعنا نُعطِه حقه». وطلب أيضاً تأكيداتٍ من الدولتين الراعيتين للمؤتمر حول النتائج النهائية، وقال بوجوب بقاء المؤتمر مفتوحاً لإعطاء الدفع المحفّز للمفاوضات. وأضاف أن هذا المؤتمر يجب أن يتمتع بـ «شرعية دولية» و«سلطة أخلاقية»، ويجب أن يعقد تحت مظلة الأمم المتحدة[٤١]. ثمّ التفت إلى بيكر وسأله: «هل هذا مؤتمر ثقافي أو اقتصادي أو سينمائي؟». وأضاف «لا بد من أن يكون له اسم». وكان وزير الخارجية المصري عصمت عبد المجيد قد قال: «المؤتمر هو مؤتمر»، لذا اقترح الرئيس الأسد تسميته «مؤتمر السلام»، لأنه كان يهدف إلى إحلال السلام في الشرق الأوسط[٤٢].

شعر الأسد أن قبوله حدود الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧، أي اليوم الذي سبق حرب الأيام الستة، يحمل أصلاً تنازلاً كبيراً من أجل السلام، وتوقع من الأمريكيين أن يقوموا بشيء في المقابل وبحسن نية. وقد وافق بيكر بدوره على اثنين من شروط الأسد هما ما تعلّق بتسمية المؤتمر، وبتقديم الضمانات المطلوبة لنتائجه النهائية، إذ قال للأسد: «يمكنني ضمان هذين الشرطين ١٠٠ بالمئة». ولكنه أردف بلهجة اعتذارية قائلاً: «لا يمكنني إقناع إسرائيل بحضور مؤتمر دولي برعاية الأمم المتحدة. هذه حقيقة واقعة ولا أستطيع التغلب عليها. وإذا كنت مصرّاً على ذلك، فأنا أعلم بأنني غير قادر على تحقيق ذلك». سأل الأسد وعلامات الانزعاج واضحةً عليه مما بدا وكأنه عجزٌ أمريكي: «لمّا كانت مظلة الأمم المتحدة مناسبة تماماً لحرب الخليج، فلماذا لا نكون هنا كذلك؟»[٤٣]. وهنا اقترح بيكر توجيه دعوة إلى الأمم المتحدة بصفة مراقب للمؤتمر محذّراً: «لست متيقناً من موافقة إسرائيل على هذا المقترح». وبعدها قال للأسد: «لا يمكنني البقاء في هذه المنطقة إلى الأبد [لإيجاد أرضية مشتركة بين الطرفين]. ما الذي يمكن أن تخسره إن حضرت؟». أجاب الأسد بحزم: «سوف نخسر الرأي العام العربي المحلي. لن تكون هذه مجرد مغامرة، بل ستكون شكلاً من أشكال الانتحار.

---

(٤١) المصدر نفسه.
(٤٢) المصدر نفسه.
(٤٣) محادثة شخصية مع الرئيس حافظ الأسد، حزيران/ يونيو ١٩٩٢.

إنه لأمر مقبول أن تتبنى سياسة انتحارية إن كانت ستعود بالنفع على الشعب، ولكنه ضربٌ من الحماقة الحقيقية إن لم تتمخض عن نتائج إيجابية. أنا لا أريد مراقباً من الأمم المتحدة ليجلس في زاوية فحسب، وينقل الرسائل كساعي بريد. يجب أن يكون دور الأمم المتحدة مختلفاً تماماً عن ذلك»[٤٤].

ومن ثم طلب الرئيس الأسد تفسيراً منطقياً وواضحاً لتصميم إسرائيل على تقليص دور كلٍ من الأمم المتحدة والأوروبيين. واقترح بيكر جعل رئيس المفوضية الأوروبية أحد رعاة المؤتمر، وتساءل عمّا إذا كان هذا يُرضي سورية؛ وأضاف مسرعاً: «لا يمكننا دعوة الاثني عشر [عضواً في المفوضية الأوروبية] جميعهم». واقترح الرئيس الأسد دعوة الترويكا (كل من الرئيس السابق والحالي والمستقبلي للمفوضية الأوروبية)، ولكن بيكر السريع البديهة أجاب: «لا أخفيك سراً إن قلت إنه ليس من اللائق للولايات المتحدة أن يمثلها شخص واحد مقابل ثلاثة أشخاص من أوروبا!»[٤٥].

في محاولة من الرئيس الأسد للخروج من الطريق المسدود، أشار إلى لقاءيه السابقين برئيسي الولايات المتحدة ريتشارد نيكسون في دمشق عام ١٩٧٤، وجيمي كارتر في جنيف عام ١٩٧٧. فقال مخاطباً بيكر: «اعتاد نيكسون على أن يجلس هنا تماماً في المكان الذي تجلس فيه، وكان الدكتور كيسنجر يجلس في مكان جمال هلال [المترجم]. كانت النقاشات دوماً عظيمة، وتمكنّا بعد حوار طويل من إقناع نيكسون، وخرج من الاجتماع وهو مؤيد تماماً لموقف سورية. إنه رجل صادق مع نفسه ويحترم قناعاته. بعد ذلك الاجتماع أدلى نيكسون بتصريح قال فيه إن آراءه منسجمة مع موقف الأمم المتحدة من النزاع. وعاد بعدها إلى الولايات المتحدة، وحدثت فضيحة ووترغيت. وفجأة اختفى نيكسون. كانت الحملة التي شنّت ضده سريعة جداً، ونحن نعتقد بأن ذلك له علاقة قوية بموقفه من السلام في المنطقة[٤٦]. وأضاف الأسد أن الأمر ذاته ينطبق على الرئيس كارتر، فقد كان ولا يزال «مهتماً بقضية السلام، ولكنه لم يتمكن من تحقيقه خلال ولايته الرئاسية الوحيدة: «هذه هي تجاربنا مع الولايات المتحدة. وبرأيي نحن اليوم في زمن مختلف وظروف مختلفة. نحن لن نسمح أن تبقى الولايات المتحدة حكراً للإسرائيليين إلى الأبد»[٤٧].

---

(٤٤) المحضر غير المنشور لاجتماع الأسد وبيكر، ٢٣ نيسان/ أبريل ١٩٩١.
(٤٥) المصدر نفسه.
(٤٦) المصدر نفسه.
(٤٧) المصدر نفسه.

في تلك اللحظة من اجتماع نيسان/ أبريل هذا، بدأ بيكر يشعر بالتعب، وأحس بالفتور بسبب الحرارة وعصير الليمون المفرط التحلية ومهارات الأسد التفاوضية. وزيادةً على ذلك، ألقى الأسد قنبلةً أُخرى حين قال: «أنا في الحقيقة لا أستطيع أن أفكر بأيّة دولة في العالم تغدق على دولة أخرى مليارات الدولارات، إضافة إلى قدر كبيرٍ من الأسلحة، ثم تقول إنها غير قادرة على إقناع تلك الدولة بفعل أي شيء. هذه صداقة غريبة جداً فعلاً، ولم يسجل التاريخ مثلها أبداً»(٤٨).

في ذلك الوقت، كانت حكومة الولايات المتحدة تقدم ثلاثة مليارات دولار أمريكي سنوياً إلى إسرائيل، وقبل يومين فقط من اجتماع دمشق المذكور، كان الكونغرس قد رفع المبلغ إلى ٣,٢ مليار دولار(٤٩). قال الرئيس السوري: «أحياناً يستطيع المرء أن يتخذ صديقاً من دون أن يدفع له ثلاثة مليارات دولار، وخاصة حين تكون هذه المدفوعات على حساب المواطن الأمريكي العادي». ومن ثمّ تطرق الأسد إلى الحديث عن عضو الكونغرس بوب دول، الذي كان مرشحاً لمنصب نائب الرئيس جيرالد فورد في انتخابات عام ١٩٧٦. وكان دول قد أثار قبل مدة قصيرة حنق الإسرائيليين عندما قال: «ما المصلحة المصيرية التي تجنيها الولايات المتحدة من إرسال ١,٢ مليار دولار سنوياً دعماً اقتصادياً لنظام يقوده الليكود، الذي كانت الولايات المتحدة ستقابل سلوكياته في الضفة الغربية بحظر اقتصادي، لو كانت صادرة عن ميخائيل غورباتشوف للإبقاء على سيطرته على ليتوانيا؟»(٥٠).

صمّ بيكر أذنيه تماماً عن ملاحظات الرئيس الأسد، وعاد إلى مقولته السابقة مؤكداً أن رعاية الأمم المتحدة للمؤتمر مسألة في غاية الصعوبة. ولكنه، لإرضاء السوريين، اقترح أن تقدم الراعيتان الحاليتان، واشنطن وموسكو، ضمانات أمنية للأطراف جميعها بشأن النتائج النهائية التي سوف يحققها المؤتمر. وليقدم مزيداً من التأكيد للرئيس السوري، قال بيكر إن بلاده مستعدة لجعل توقيع الأمم المتحدة إجبارياً على أي اتفاقية أو معاهدة تتمخض عن المؤتمر. وهذا ما سيعطي للأمم المتحدة دوراً أكبر من «مجرد مراقب عادي، ولكن أقل من راعٍ آخر للمؤتمر»(٥١). لم ينل هذا المقترح إعجاب الرئيس الأسد، فأجاب: «هذا أمر روتينيّ. فأي اتفاقية يتمّ التوصل إليها بين دولتين خلال مؤتمر

---

(٤٨) المصدر نفسه.
(٤٩) المصدر نفسه.
(٥٠) «Words to Remember,» *Washington Report on Middle East Affairs* (March 1990).
(٥١) المحضر غير المنشور لاجتماع الأسد وبيكر، ٢٣ نيسان/ أبريل ١٩٩١.

كهذا تُصادق عليها الأمم المتحدة. أنت في واقع الأمر تقدم لي شيئاً هو لا شيء لأنه موجود أصلاً!»[٥٢].

في منتصف الحوار، طرح الأسد موضوعاً آخر لا يقلّ تعقيداً عمّا سبقه، وهو استمرارية المؤتمر أو استئناف جلساته إن تـمَ إيقافه بسبب إخفاق المؤتمرين في التوصّل إلى اتفاق. واقترح الأسد أن تكون لدى كلّ طرف صلاحية طلب استئناف جلسات المؤتمر، ولكن بيكر قال إن انعقاده ثانية يحتاج إلى موافقة الأطراف المشاركين جميعهم. ورأى الأسد أن عملية متعِبة بهذا الشكل «ستفضي إلى وضع لا نهاية له»[٥٣]. واقترح بيكر اعتماد إعلان هلسنكي ١٩٧٥ (مؤتمر خاص بالأمن والتعاون في أوروبا) ليكون نموذجاً يُحتذى في ما يتعلق بإجراءات المؤتمر[٥٤].

وتجدر الإشارة إلى أن مؤتمر هلسنكي عقد بحضور ٣٥ دولة بما فيها الولايات المتحدة وكندا وكلّ دول أوروبا، باستثناء ألبانيا، وأندورا التي هي دولة صغيرة تقع في جنوب غرب أوروبا. وهنا ابتسم الأسد وقال إن الأوروبيين والأمريكيين يتعاملون بعضهم مع بعض بمعايير مختلفة عن تلك التي يتعاملون بها مع العرب. ووافق من ناحية المبدأ على الاطلاع على ما تمّ الاتفاق عليه في هلسنكي، ولكن بيكر لم يقدم أية وثيقة أو أي شرح لاستكمال مقترحه الأصلي.

وأخيراً أُسقط في يد بيكر، ونظر مباشرة في عين الأسد قائلاً: «سيدي الرئيس، لقد قضيت معك [حتى اليوم] ٢٦ ساعة وجدتُ نفسي خلالها أنني أجيبك دوماً بـ «نعم» عن كل ما تقول». فقاطعه الأسد بلباقة مصححاً: «ولكنك في الحقيقة لا تقول «نعم» سيد بيكر... أنت تقول: «لا»! لقد طلبت منك أن تقول: «نعم» لرعاية الأمم المتحدة للمؤتمر، ولكنك قلت: «لا»»[٥٥]. هزّ بيكر رأسه موافقاً، وقال: «لقد قلت لك: «لا» بخصوص تلك النقطة، لأنني ببساطة لا أستطيع أن أقول: «نعم»، فأنا أعرف أنّ الإسرائيليين لن يوافقوا أبداً». ابتسم الأسد متسائلاً: «أخبرني إذاً أي «نعم» قلتها لي؟». أجاب بيكر: «نعم لاسم المؤتمر، ونعم للضمانات، وثلاثة أرباع نعم لاستئناف العملية. وهذا يُعدّ حوالى ٥٠ بالمئة مما نريده»[٥٦].

---

(٥٢) المصدر نفسه.
(٥٣) المصدر نفسه.
(٥٤) المصدر نفسه.
(٥٥) المصدر نفسه.
(٥٦) المصدر نفسه.

ومع أنّ الأسد كان معروفاً بصلابة شخصيته، فقد كان دائماً يتمتع بروح الدعابة، فأومأ إلى ضيفه بسرعة قائلاً: «لكي نصل إلى الـ ١٠٠ بالمئة، علينا أن نخلع ثيابنا. ونحن في سورية اتخذنا قراراً بألّا نخلع ثيابنا أبداً»(٥٧).

وختم قائلاً: «نحن لا نريد أيّ ضمان لا تريده إسرائيل. أنا أقول ذلك لأنني واثقٌ أننا قادرون على تعزيز عملية السلام، ولسنا خائفين من الثمن. إذا قاموا بالتنفيذ، سنقوم نحن بالتنفيذ. وإن لم يقوموا بذلك، لن نقوم نحن أيضاً. إن لم يكونوا بحاجة إلى ضمانات، فنحن أيضاً لسنا بحاجة إلى ضمانات. وإذا كانت الضمانات غير مطلوبة من قبل إسرائيل، فهي أيضاً غير مطلوبة من قبل سورية»(٥٨).

بقراءة محضر اجتماع الأسد وبيكر، الذي يقدم عرضاً رائعاً لدبلوماسية الصدّ والردّ، لأمكنه أن يكوّن صورة واضحة لكيفية مرور ذلك اليوم الطويل في دمشق. لقد اجتمع اثنان من القادة الجدّيين، وهما مفاوضان متمرّسان كل في بلده، يناقشان مسألةً خطيرةً جداً ببالغ الدقة والاحترام والتفاني لتحقيق الأهداف المرجوة. كان كلاهما يعلم تماماً أنه لن يبقى إلى الأبد، أو على الأقل لن يكونا في منصبيهما إلى الأبد. قال بيكر للرئيس الأسد: «علينا إنجاز مهمة يجب ألا نحتاج للرجوع إليها مرة ثانية أبداً». وكان الرئيس الأسد على دراية تامة بأهمية هذه المحادثات في تاريخ بلاده، لذا حرص على إعلام بيكر بذلك قائلاً: «أنا بحاجة إلى التحدث مع الرأي العام في سورية واستشارة أعضاء حزب البعث وأعضاء الجبهة الوطنية التقدمية [هي تحالف برلماني لأحزاب يسارية تعمل تحت مظلة حزب البعث، أسسها الرئيس الأسد في أوائل سبعينيات القرن العشرين]، ولا يمكن عمل أي شيء في سورية من دون دعمهم». وأضاف الأسد: «إن حواري معهم سيكون أصعب من حواري معك». وفجأةً تصلّبت ملامح بيكر، الذي كان يخشى أنه إذا ظهرت هذه المحادثات للعلن، فإن الضغط الشعبي سيمنع الأسد من حضور المؤتمر. إنه يعرف تماماً أن السوريين مناهضون لإسرائيل إلى أقصى درجة، ولذا وجّه بيكر سؤاله: «هل بإمكانك القيام بذلك بكامل السرّية، ومن دون تسريب أيّ شيء للصحافة؟»، فابتسم الأسد وأجاب: «من المؤكد أنني أستطيع القيام بذلك على نحو أفضل مما تستطيع أنت [في الولايات المتحدة]»(٥٩).

---

(٥٧) المصدر نفسه.

(٥٨) المصدر نفسه.

(٥٩) المصدر نفسه.

علّق بيكر في مذكّراته التي نشرت بعد بضع سنوات من تركه منصبه عام ١٩٩٥ قائلاً: «ما من شكّ في أنّ تلك كانت أصعب مفاوضات أجريتها وأشقّها على الإطلاق». وسرد بعدها نادرته الشهيرة قائلاً: «بعد مرور ست ساعات على بدء الاجتماع ألحَّ نداء الطبيعة على السفير الأمريكي إدوارد دجرجيان. وبينما أسهب الأسد في حديثه المطوّل عن آثام اتفاقية سايكس - بيكو، بلغ الموقف حدّاً حرجاً... فأومأ دجرجيان لوزير الخارجية السوري إيماءة تدل على أنه يحتاج إلى إجراء مكالمة هاتفية مهمة. وأثناء غيابه كشفت للرئيس الأسد عن الماهية الحقيقية للمهمة التي ذهب دجرجيان من أجلها. وقلت «السيد الرئيس! لك أن تتعجب لماذا ذهب السفير إلى دورة المياه لإجراء مكالمة هاتفية مهمة من هناك». وانفجر الأسد ضاحكاً. وبعد ساعة أو أكثر سحبت منديلاً أبيض اللون ولوّحت به للأسد معترفاً: «أنا أعلن استسلامي، عليَّ أن أذهب إلى الحمَّام». ومن هنا كانت صياغة العبارة التي ستظلّ مرتبطة في ذهني بمباحثاتي التي استغرقت ثلاثاً وستين ساعة مع الأسد: «دبلوماسية المثانة»[٦٠].

خامساً: الشيطان يكمن في التفاصيل

حينما تسلّم بيكر رسالة الموافقة من سورية في أيلول/ سبتمبر، طلب من السفير دجرجيان قراءتها مرتين ليتأكد من خلوِّها من أية ثغرة سورية. لقد أكّد الأسد التزامه الشديد بالسلام العادل والشامل، مضيفاً أنه يمكن تحقيق السلام خلال عام أو أقل: «شهرين أو ثلاثة أشهر»، في حال استعداد الإسرائيليين لإعادة الأراضي المحتلة إلى أصحابها الشرعيين[٦١]. كانت سورية تريد من الولايات المتحدة الالتزام بوعودها التي قطعتها بواسطة وزير خارجيتها، مؤكدة أنّ أيّ نكوص من قبل الأمريكيين سيؤدي إلى انهيار عملية السلام بالكامل. كان بيكر منشغلاً بإعداد التفاصيل مع نظيره السوفياتي عندما تلقى المكالمة الهاتفية التي شكّلت اختراقاً من دمشق. وبعدها أرسل مذكّرة إلى الرئيس بوش قال فيها: «ليس هناك أي لَبْس. لقد قبلوا ما طرحناه. أصبح لدينا موافقة وسوف نحاول أن نبني على ذلك». وفي ١٨ تموز/ يوليو، عاد بيكر ثانيةً إلى سورية ليلتقي الرئيس الأسد في اجتماع مدته ساعتان ونصف، وليصف في ما بعد هذا اللقاء قائلاً: «لم يكن ذلك الاجتماع «القصير» يعني للرئيس الأسد سوى عمل بسيط». وفي

(٦٠) Baker III and DeFrank *The Politics of Diplomacy: Revolution, War, and Peace, 1989-1992,* pp. 454-458.

(٦١) المصدر نفسه.

ذلك اللقاء قال بيكر للأسد: «لا يمكنني أن أبالغ في التأثير المفاجئ والعميق الذي أحدثته رسالتك حول العالم. فأنت اليوم في أعين العالم الشخص الذي اختار السلام. لقد أثارت موافقتك قمة مجموعة السبعة في أوروبا! البريطانيون، الفرنسيون، الطليان، الألمان، الكنديون، وحتى اليابانيون، يتحدثون عن ردّكم الإيجابي»(٦٢). وأضاف: «مهما أقُلْ، لا يمكنني التعبير عمّا تشعر به الولايات المتحدة وسائر العالم حيال موافقتكم. لقد وضعت اليوم الكرة في ملعب إسرائيل». وقد تمّ إبلاغ جواب الأسد إلى مؤتمر مجموعة السبعة في اللحظة نفسها التي كان فيها الرئيس ميخائيل غورباتشوف يدخل القمة دخولاً مهيباً. أضاف بيكر بانفعال: «لقد سرقتم الأضواء من غورباتشوف». وردّ الأسد مازحاً: «في الحقيقة نحن فعلنا ذلك عمداً لنسبب بعض المشاكل لغورباتشوف»(٦٣). وكتب بيكر عن ذلك الاجتماع، فأشار إلى أن الأسد توقف عن الإصرار على وجود مراقب من الأمم المتحدة في المؤتمر، إذ قال: «لقد اتضح سريعاً أنه يفضل ذلك، على الرغم من أنه ليس شرطاً لمشاركته». ويبدو أن الهدف من اجتماع تموز/ يوليو في دمشق هو تعبير الولايات المتحدة عن امتنانها للرئيس السوري، وعبّر بيكر عن ذلك بقوله للأسد: «لقد جئت إلى سورية فقط كي أقول «شكراً لكم». لولا موقفكم هذا، لكان انعقاد مؤتمر للسلام مستحيلاً»(٦٤).

انتشر نبأ الردّ السوري في إسرائيل كما تنتشر النار في الهشيم، وأسدل حالة من الاضطراب والإحراج والغضب الشديد بين الإسرائيليين بسبب شعورهم أن حافظ الأسد تفوّق عليهم بدهائه. جاء أول ردّ معلن على تلبية الأسد دعوة الولايات المتحدة لحضور مؤتمر السلام على لسان موشيه آرنز، وزير الدفاع الإسرائيلي وعضو الكنيست عن حزب الليكود، حين قال: «إذا كانت سورية قد وافقت حقاً على المقترحات الأمريكية، فعليهم أن يأتوا ويتفاوضوا معنا»(٦٥).

وكان من الواضح أن هذا الرد لم يرُق الأسد الذي ما فتئ الإسرائيليون يقترحون عليه، وعلى امتداد سنوات طويلة - وتحديداً منذ عام ١٩٧٧، عام زيارة السادات المشؤومة لإسرائيل - أن يقوم بزيارة مماثلة، ولكن من دون جدوى. إلا أنّ بيكر، وجد الردّ الإسرائيلي «مشجعاً»، زاعماً أن ٦٨ بالمئة من الإسرائيليين موافقون الآن على

(٦٢) المحضر غير المنشور لاجتماع الأسد وبيكر، ١٨ تموز/ يوليو ١٩٩١.
(٦٣) المصدر نفسه.
(٦٤) المصدر نفسه.
(٦٥) صحيفة البعث، ٢٠/ ٧/ ١٩٩١.

صيغة «الأرض مقابل السلام»، وقال: «قبل بدء المحادثات بيننا كانت النسبة لا تتجاوز ٤٨ بالمئة»(٦٦).

اجتمع الأسد إلى بيكر في العشرين من شهر أيلول/ سبتمبر ثانيةً، وكان الاجتماع هذه المرة لمناقشة التفاصيل. وكان وزير الخارجية الأمريكي مصطحباً معه كريستوفر روس، السفير الأمريكي الجديد إلى سورية (الذي خلف إدوارد دجرجيان)، وكلاً من دينيس روس، ومارغريت توتْويلر الناطقة باسم وزارة الخارجية الأمريكية. وكان الأسد قد استقبل في شهر تموز/ يوليو عضو الكونغرس الأمريكي وين أوينز، وصاحب المشاريع الخيرية الأمريكي دانيال أبراهام، وذلك في مقر إقامته الصيفي في مدينة اللاذقية الساحلية(٦٧).

وأكّد الأسد لهما نقاطاً أعاد تأكيدها في محادثاته مع بيكر حول ضرورة ممارسة ضغوط كافية على إسرائيل إذا كانت الولايات المتحدة تريد لمؤتمر السلام أن يرى النور. وفي ٢٨ آب/ أغسطس التقى الرئيس الأسد أيضاً عضوة الكونغرس الأمريكي ماري روز عوكر اللبنانية الأصل للغرض ذاته. فقد تحدثت عوكر للرئيس الأسد عن اللوبي اليهودي في واشنطن، ولفتت النظر إلى ضرورة تأسيس لوبي مماثل من جانب العرب بهدف فرض إرادة العرب على صنّاع القرار في الولايات المتحدة. لكن الأسد ورغم معرفته مدى الحاجة إلى مثل هذا اللوبي، كان يعلم أن فرص النجاح ضعيفة إذا ما أخذ بعين الاعتبار الانحياز الأعمى لإسرائيل الذي ساد في الطبقة العليا للسلطة في الولايات المتحدة.

كان الأسد في لقائه التالي مع بيكر في منتصف شهر تشرين الأول/ أكتوبر يحمل في يده نسخة من الدعوة الأمريكية إلى المؤتمر، واعترض على الكلمات: «مباحثات مباشرة وجهاً لوجه بين السوريين والإسرائيليين». وتساءل الرئيس السوري: «أليس كافياً أن تقول محادثات مباشرة؟». كان من الواضح أن الرئيس الأسد راجع نفسه بشأن جلوس وفده «وجهاً لوجه» مع أعداء خاض ضدهم أشرس الحروب عامي ١٩٦٧ و١٩٧٣، وكذلك عام ١٩٨٢. وحاول بيكر بدبلوماسيته المعهودة إقناع الأسد بأن الجلوس «وجهاً لوجه، هو أفضل من الجلوس ظهراً لظهر» [أي أن يتحدثوا إلى الوفد الآخر بدلاً

(٦٦) المحضر غير المنشور لاجتماع الأسد وبيكر، ١٨ تموز/ يوليو ١٩٩١.

(٦٧) المحادثات غير المنشورة بين الرئيس الأسد وضيوف أمريكيين زائرين في اللاذقية، تموز/ يوليو ١٩٩١.

من أن يُحدّث بعضهم بعضاً]. انزعج الأسد، وقال: «كان ينقصنا [أن تضيف] «والجميع يبتسمون»»[٦٨]. كذلك لم يكن راضياً عن تشكيل لجان متعددة الأطراف لمناقشة القضايا الإقليمية كما اقترح الأمريكيون، ما دام الإسرائيليون يحتلون شبراً من الأرض العربية. وسأل الأسد: «ما الفائدة من الحديث حول حقوق المياه وقضايا اللاجئين أو التعاون الاقتصادي في وقت ما تزال فيه قضايا أساسية معلّقة، مثل جنوب لبنان والجولان السوري غير المحرّرين بعد؟». وشدّد الأسد على أن المحادثات المتعددة الأطراف يجب ألا تجري إلا بعد «إتمام المحادثات الثنائية بنجاح. وشرح الأسد ذلك منطقياً بقوله: «لا أريد الدخول إلى هذا الحقل من الألغام الذي لا تفلح فيه كاسحة ألغام. نحن في سورية لا يمكننا الموافقة على أمر كهذا ما لم يكن لدينا شيء ملموس نقدمه لشعبنا. لا يمكننا السير ولو خطوة واحدة في هذا الاتجاه. لا يمكنني حتى خوض حديث بهذا الاتجاه. لأني لو فعلت ذلك سأكون مسؤولاً أمام شعبي»[٦٩].

وليس مستغرباً أن هذا الاجتماع انتهى من دون أية نتائج، واضطر بيكر إلى مغادرة دمشق خالي الوفاض إلا من قائمة طويلة تحمل ١٤ نقطة أراد الأسد تغييرها في رسالة الضمانات الأمريكية. كان بيكر يشعر بضغط هائل، فالمؤتمر كان مقرراً في شهر تشرين الأول/ أكتوبر والوقت آخذٌ في النفاد.

عُقدت جولة سادسة وسابعة في القصر الرئاسي في دمشق في ١٥ و١٦ تشرين الأول/ أكتوبر، وأراد السوريون إجراء بعض التعديلات الأخرى على رسالة الضمانات الأمريكية الأصلية. وجاءت إحدى تلك التنقيحات على لسان وزير الخارجية فاروق الشرع بأنّ القدس يجب أن تعتبر جزءاً من الأراضي المحتلة. وأضاف أنه يجب على الأمريكيين ألّا يعترفوا أبداً باحتلال القدس الذي جرى في عام ١٩٦٧، مشيراً إلى قرار مجلس الأمن الدولي الرقم (٢٤٢). وطلب الأسد أن يتمّ تدوين هذا الكلام بقوله: «يجب أن تقول في نهاية الفقرة الأولى إن المؤتمر يهدف إلى «تأمين الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني بما فيها حقوقهم السياسية»»[٧٠].

لم يكن الرئيس الأسد سعيداً بتمثيل الوفد الفلسطيني في المؤتمر تحت رئاسة الوفد الأردني بحجة أنه لا وجود لدولة فلسطينية تمثلهم. وأضاف: «بغض النظر عن

(٦٨) المحضر غير المنشور لاجتماع الأسد وبيكر، ٢٠ أيلول/ سبتمبر ١٩٩١.
(٦٩) المصدر نفسه.
(٧٠) المحضر غير المنشور لاجتماع الأسد وبيكر، ١٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١.

كيفية تشكيل أي وفد، يجب ألّا يكون هذا سبباً لإطلاق حكم في الحاضر [بخصوص وضع القدس]. إنّ منْع أي موفد فلسطيني من القدس الشرقية هو إجراء يقتل فعلياً حق الفلسطينيين في المطالبة باستعادة القدس المحتلة»(٧١).

كان الأسد متمسكاً بشدة بحقوق أهالي القدس، مؤكداً أهمية رأيهم حول شكل الحكومة في الأراضي المحتلة التي ستنجم عن المؤتمر. ولا بد من التأكيد أن الأسد لم يشعر يوماً، ولا حتى لحظةً واحدة، بأنه يتحدث باسم السوريين فقط. فهو قائد عربي أُعجِب في نشأته بالرئيس المصري جمال عبد الناصر في الخمسينيات من القرن الماضي، وتمسّك بالعروبة بأوسع أشكالها، وشعر بأن عليه أن يدافع عن حقوق كل العرب، وليس السوريين فحسب، وعلى الخصوص حقوق الفلسطينيين. لقد قضى كلّ حياته العملية وهو يحارب اتفاقية سايكس - بيكو التي قطّعت الوطن العربي خلال زمن الحرب العالمية الأولى، وجعلته على ما هو عليه اليوم، ولم يكن سيغيّر مواقفه من أجل إنجاح مؤتمر وإرضاء الحكومة الأمريكية. أثارت ملاحظة القدس غضب بيكر، الأمر الذي استغربه السوريون الذين اعتقدوا أن طلبهم كان واضحاً منذ اليوم الأول. أجاب بيكر بغضب: «أنتم تطلبون مني أكثر مما طلبه الفلسطينيون أنفسهم. وهذا برأيي غير مناسب. سوف نناقش هذا الموضوع خلال المفاوضات، ونحن لا نعترف بضم القدس، ولكنكم تضغطون علينا كثيراً. ربما لا تريدون العملية من أساسها. أنا لا أريد أن أعطي إسرائيل أي حجة لرفض المجيء، ولكن ربما تريدون أنتم إعطاءها تلك الحجة»(٧٢).

وبكل هدوء أخرج الأسد رسالة قديمة من الرئيس كارتر وقرأها بصوت عال. كانت مؤرخة في ٢٧ آذار/ مارس ١٩٧٨، وقال فيها كارتر: «إن الانسحاب من الأراضي المحتلة ينطبق على الأطراف كافة، ويجب أن يكون هناك قرار مشترك لكلّ عناصر القضية الفلسطينية، بما في ذلك حق تقرير المصير»(٧٣).

ورمق الأسد بيكر بنظرة ثابتة، وأخرج رسالة أخرى، وكانت هذه المرة من الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريغان موجهة إلى الأسد، ومؤرّخة في ٢٨ تموز/ يوليو ١٩٨٨. وقرأ الأسد أن سياسة ريغان كانت تسعى إلى «تحسين فرص السلام بين العرب وإسرائيل على الصُّعد كافة. ولا يزال هذا الأمر أولوية قصوى لدى الولايات المتحدة من أجل

---

(٧١) المصدر نفسه.
(٧٢) المصدر نفسه.
(٧٣) رسائل الأسد - كارتر غير المنشورة، ٢٧ آذار/ مارس ١٩٧٨.

الوصول إلى تنفيذ قراري مجلس الأمن الدولي الرقمين (٢٤٢) و(٣٣٨) والمتضمّنيْن مبدأ «الأرض مقابل السلام» الذي هو جوهر القرار الرقم (٢٤٢)، وثانياً ضمان الحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني»[٧٤]. وأكدّ الأسد لبيكر ملوّحاً بالرسالتين في يده: «هذه يا سيد بيكر هي سياسة الولايات المتحدة! وهو ما يقوله الرؤساء الأمريكيون إنه سياسة أمريكا»[٧٥].

في تلك اللحظة، لم يعُد بيكر يدري كيف يتصرف، ورد بحدّة: «هذه رسالة جيدة! إذا كنت لا تحبذ ما نقوم به، وتعتقد بأنك تستطيع استعادة الجولان [من دون الجلوس مع الإسرائيليين]، اذهب واستعدها»[٧٦]. بقي الأسد محافظاً على هدوئه التام إزاء ردّ ضيفه المنفعل، بل في الحقيقة فوجئ بأن يرى دبلوماسياً مخضرماً يفقد أعصابه بهذه السرعة. وسأل الرئيس السوري مساعديه: «ما الذي أغضبه؟ نحن نتفاوض»[٧٧]. وبعدها قال لبيكر بكل هدوء: «أنتم لا تقومون بذلك من أجلنا بالدرجة الأولى. أنتم لديكم مصالح أيضاً». وبسبب خشية الرئيس الأسد من أن تفقد شدة الضغط على وزير الخارجية الأمريكي القدرة على متابعة مهمته، أعطاه أخيراً ما يريد: القبول برسالة الضمانات الأمريكية، من دون ذكر المباحثات المتعددة الآن. وهنا انتهز دنيس روس، الذي كان آنذاك عضواً في هيئة التخطيط السياسي لدى الخارجية الأمريكية، الفرصة ومرّر ملاحظة سريعة لبيكر كتب فيها: «خذ النقود واهرب! لنخرج من هنا»[٧٨].

كان السؤال الأخير الذي يشغل بال الجميع هو مكان انعقاد مؤتمر السلام. لقد أكد أحد عشر وفداً حضورهم، وكان عدد أفرادهم ٧٠٠ مبعوث، وما بين ٦٠٠٠ ـ ٧٠٠٠ صحفي. إذاً لا بد من أن يكون المكان واسعاً ومجهزّاً بشكل جيد، وأن يكون في بلد محايد. ومن البديهي أن يكون الخيار الأول هو واشنطن العاصمة، وهو المكان المفضل للإسرائيليين، ولكن ليس للروس، الذين فضلوا مدينة براغ[٧٩]. وقال الروس إن القاهرة قد تشكل حلاً وسطاً. ولكن شامير رفض انعقاد مؤتمر السلام في عاصمة عربية، بالرغم من أن اتفاقية السلام الإسرائيلية ـ المصرية التي تمّ توقيعها عام ١٩٧٨ كانت تدخل

(٧٤) رسائل الأسد ـ ريغان غير المنشورة، ٢٨ تموز/ يوليو ١٩٨٨.
(٧٥) المحضر غير المنشور لاجتماع الأسد وبيكر، ١٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١.
(٧٦) المصدر نفسه.
(٧٧) المصدر نفسه.
(٧٨) Baker III and DeFrank, *The Politics of Diplomacy: Revolution, War, and Peace, 1989-1992,* p. 507.
(٧٩) المحضر غير المنشور لاجتماع الأسد وبيكر، ٢٠ أيلول/ سبتمبر ١٩٩١.

آنذاك عامها الثاني عشر[80]. أرادت سويسرا هذا الدور، أيضاً، ولكن الوجود القوي للأمم المتحدة في جنيف لم يرق الإسرائيليين. واقترح أعضاء من الفريق الأمريكي مدينة لاهاي مقر محكمة العدل الدولية، آملين، بحسب قول بيكر، أن تكون مكاناً جذاباً للرئيس السوري[81]. أحضروا للرئيس الأسد صوراً فوتوغرافية وخرائط ومخططات لطوابق قصر العدل الدولي، ولكن «جهودهم لم تثمر في ثني الأسد»[82]. فقد رفض حافظ الأسد الفكرة رفضاً قاطعاً، على اعتبار أن هولندا صوّتت مؤخراً لصالح فرض عقوبات اقتصادية على سورية، وليس لسورية سفارة في لاهاي. وقال لبيكر: «إن اختيار بلد حيادي أفضل لنا جميعاً». واقترح الأمريكيون كوبنهاغن أو بروكسل، ولكن الأسد رفض كلتيهما، إذ ليس لسورية سفارة فيهما. ورفض مدينة براغ أيضاً لأنها «غير مناسبة». وانبرى بيكر، الذي بدا متعباً ويائساً، ليسأل الأسد: «ما هو البلد المقبول لديكم؟»[83]. أجاب الأسد: «روما، بون، باريس، جنيف، لندن، لوزان، فيينا، أية مدينة إيطالية ستكون مقبولة». فابتسم بيكر، وقال: «مونتي كارلو؟». واستظرف الأسد النكتة فقال: «حقاً ستكون المفاوضات مقامرة». ثمّ وجّه بيكر سؤاله: «ما رأيكم بمدريد أو لشبونة؟». ففكّر الأسد قليلاً وأجاب: «مدريد أفضل»[84].

سادساً: العامل السوفياتي

عند القراءة عن مرحلة التحضيرات لمؤتمر مدريد لا يمكن للمرء تجاهل الدور المهم الذي أدّاه الاتحاد السوفياتي، والذي كان الأسد قد أكّده لبيكر خلال اجتماع ١٣ أيار/ مايو. إنّ معظم المؤرخين الذين يكتبون عن مرحلة ما قبل مدريد يغفلون في كثير من الأحيان العامل السوفياتي، نظراً إلى أنّ الاتحاد السوفياتي كان في عام ١٩٩١ قوة تنحدر. واليوم عندما أراجع الأمر بعد ٢٠ عاماً يمكنني القول بثقة إنه لولا الروس، فلربما لم يكن لمؤتمر مدريد أن يُعقد، فقبل خمسة أيام من اجتماع الأسد إلى بيكر في ١٣ أيار/ مايو، قام ألكسندر بيسميرتنيخ بزيارة سورية خلال المدة القصيرة التي تولى فيها منصب وزير الخارجية في الاتحاد السوفياتي. كان عالم الصراع العربي – الإسرائيلي

---

(٨٠) محادثة شخصية مع الرئيس حافظ الأسد، حزيران/ يونيو ١٩٩٢.

(٨١) المصدر نفسه.

(٨٢) Baker III and DeFrank, Ibid., p. 511.

(٨٣) المصدر نفسه.

(٨٤) المصدر نفسه.

المعقّد جديداً على بيسميرتنيخ، الذي خلف لتوّه إدوارد شيفردنادزه في منصبه، لكنه أدرك بفضل التعليمات الواضحة التي تلقاها من الكرملين، أن تحقيق السلام في الشرق الأوسط كان أمراً مستحيلاً من دون السوريين. ومنذ اللحظة الأولى، أكّد الروس ضرورة تسمية المؤتمر «مؤتمر سلام» بدلاً من تسميته مؤتمراً إقليمياً، كما اقترح شامير على البيت الأبيض[٨٥].

وأصرّ الروس أيضاً على انعقاد المؤتمر وفقاً لقرارات مجلس الأمن الدولي، وعلى أن تقدّم موسكو وواشنطن أية ضمانات كتابية مطلوبة بخصوص النتائج وعملية إعادة انعقاد المؤتمر. وقال الأسد لبيسميرتنيخ إن إسرائيل «كانت ترغب في مؤتمر احتفالي»، وإنها على ما يبدو مهتمة بعملية سلام أكثر من اهتمامها باتفاقية سلام مع العرب. ونبّه الأسد إلى أنه في حال فشل المؤتمر «ستقول إسرائيل للعالم إن العرب هم المسؤولون عن هذا الفشل، وإن اللوم يقع عليهم. وسيصدق العالم الرواية الإسرائيلية بسبب قوتها في الوصول إلى الإعلام الدولي، وستسود وجهة النظر الإسرائيلية في العالم»[٨٦].

ومما تجدر الإشارة إليه هو أن الأسد كان حريصاً على ألا تخسر بلاده أية فرصة لتذكير العالم بالاحتلال الإسرائيلي للجولان، بغضّ النظر عمّا إذا كانت تلك الفرصة ستؤدي إلى نتائج ملموسة. فمن وجهة نظره كان من واجب سورية أن تحاول.

دوّن بيسميرتنيخ كثيراً من الملاحظات في الاجتماعات التي عقدها في دمشق، وبعدها توجّه إلى إسرائيل لإجراء محادثات مع رئيس الوزراء شامير. وكان هذا الأخير قد وافق مُكرهاً على مشاركة السوفيات في رعاية المؤتمر، ولكنه رفض الالتزام بموعد لاستئناف العلاقات الدبلوماسية بين روسيا وتل أبيب، مؤجلاً الأمر إلى ما بعد انعقاد المؤتمر. وعاد الوزير السوفياتي إلى سورية في ١٤ أيار/ مايو، حيث التقى بيكر الذي كان لتوّه قد اختتم محادثات زيارته الثالثة لدمشق في عام ١٩٩١، وذلك قبل توجه بيسميرتنيخ إلى مصر لإجراء محادثات مع الرئيس المصري حسني مبارك. في ذلك اللقاء، قال الرئيس الأسد مبتسماً: «في الواقع إنه لأمر مشوّق أن يكون وزير خارجية الاتحاد السوفياتي قادماً من إسرائيل، وأن يكون وزير خارجية أمريكا قادماً من سورية»[٨٧]. استظرف بيسميرتنيخ الملاحظة الذكية، وردّ قائلاً: « يبدو أن هذه بداية حقبة

(٨٥) محادثات الأسد ـ بيسميرتنيخ غير المنشورة، ٨ أيار/ مايو ١٩٩١.
(٨٦) المصدر نفسه.
(٨٧) محادثات الأسد ـ بيسميرتنيخ غير المنشورة، ١٤ أيار/ مايو ١٩٩١.

من التناقضات التاريخية»[88]. قبل اجتماع ١٣ أيار/مايو، كان الرئيس الأسد قد أطلع ضيفه السوفياتي على فحوى جميع الجلسات السابقة مع الأمريكيين، موضحاً أن أي طرف يرفض رعاية الأمم المتحدة للمؤتمر سيكون مداناً بأنه عقبة متعمَّدة في طريق تحقيق السلام في الشرق الأوسط. وشكا الأسدُ لبيسميرتنيخ: «كيف يمكن للولايات المتحدة أن تضغط على إسرائيل للانسحاب من الأراضي العربية المحتلة، إن كانت عاجزة عن ممارسة ضغط كافٍ عليها لقبول رعاية الأمم المتحدة للمؤتمر؟ ومن قال إنني يجب أن أقبل ما ترفضه إسرائيل؟» ثم أضاف: «ومع ذلك، سأحاول بذل جهدي [لتحقيق ذلك]، ولكن إذا كانت إسرائيل هي من يقرر صيغة المؤتمر، فهذا بالتأكيد لن يكون الطريق الذي يوصل إلى السلام»[89].

وذكّر الأسد ضيفه بيسميرتنيخ كيف قام الرئيس المصري أنور السادات بالقدوم إلى دمشق قبل زيارته القدس عام ١٩٧٧، وهي زيارة دانها السوريون بشدّة وما زالوا يدينونها بعد مرور ثلاثين عاماً ونيف. كان الأسد يرى أن هذه الزيارة قد أعطت للإسرائيليين أكثر مما يجب، وفي المقابل لم يحصل المصريون إلا على القليل جداً. في ذلك اللقاء الذي جمع الرئيس الأسد بالرئيس أنور السادات في مطار دمشق الدولي، أعطى السادات وعده الشهير باستعادة كلٍ من شبه جزيرة سيناء والجولان. قال الأسد: «شعرت في تلك اللحظة أنني والسادات سنفترق مدة طويلة جداً برغم أننا خضنا الحرب معاً [عام ١٩٧٣]، وكان لدينا في يوم من الأيام قيادة سياسية وعسكرية مشتركة. لم أستطع أن أتفق معه حينذاك لأنه كان على عجلة من أمره للذهاب إلى القدس»[90].

وأشار الأسد إلى أنّ السرعة لا تنتج أبداً قراراتٍ حكيمة. وأضاف: «إذا كان الطريق إلى الجنة يمرّ عبر الإذلال، فنحن نرفض أن ندوسه. وإذا أجبرنا على الخيار بين الخضوع للشروط الإسرائيلية وبقاء الاحتلال على أرضنا، فسنختار الثاني؛ فهذا أسهل من الرضوخ لإملاءات إسرائيل». وبعدها قال الأسد بحزم: «لو أنني كنت مواطناً عادياً لقلت إن سورية من دون الجولان ولكن مع الكرامة، أفضل من سورية مع الجولان ومن دون كرامة. ليس هناك عائلة سورية واحدة لم تقدم شهيداً في صراعنا مع الإسرائيليين»[91].

(٨٨) المصدر نفسه.

(٨٩) محادثات الأسد ـ بيسميرتنيخ غير المنشورة، ٨ أيار/مايو ١٩٩١.

(٩٠) المصدر نفسه.

(٩١) المحضر غير المنشور لاجتماع الأسد ـ بيكر، ٢٠ أيلول/سبتمبر ١٩٩١.

سابعاً: على هوامش مرحلة ما قبل مدريد

لدى قراءة السجلات السورية الرسمية المتعلقة بالمفاوضات التي قادت إلى مؤتمر مدريد، تبرز لنا حقيقتان مهمتان يجب تسليط الضوء عليهما: **الحقيقة الأولى** هي رفض سورية القاطع لأي تدخل سوري في الشأن الداخلي للعراق، بعد حرب الخليج، بالرغم من مباركة بيكر غير المعلنة لمثل هذا الدور. كان الأسد يقول دوماً إن دور سورية في العراق سينتهي في اللحظة التي تتحرر فيها الكويت من الاحتلال العراقي. وكان بيكر قد أشار مرتين على الأقل إلى التمرديْن الكردي والشيعي في العراق، مطلقاً تلميحات بأن سورية قد تكون مهتمة بالاستفادة من هذا الاضطراب لإضعاف عدوها التقليدي صدّام. لكن الأسد رفض أن يسمع أي كلام من هذا القبيل، وقال: «نحن نرفض التدخل بأي وجه من الوجوه في الشأن الداخلي العراقي. هذا الأمر يقرره الشعب العراقي، ونحن لن نتدخل أبداً في أي من القضايا المحلية لدولة عربية ذات سيادة، بغض النظر عمّا إذا كنا نتفق مع حكومتها أم لا. إننا لم نفعل شيئاً كهذا في الماضي قط، ولن نقحم أنفسنا في نشاط من هذا النوع. سورية لا تعمل بهذه الطريقة يا سيد بيكر»[٩٢].

ولطالما أغفل المحللون المهتمون بالشرق الأوسط هذا الموقف، فقد كانوا يحاولون إجراء مقارنات بين حرب عام ٢٠٠٣ وحرب عام ١٩٩١. ولكنّ هاتين الحربين كانتا من وجهة نظر السوريين مختلفتين تماماً، وتمّ خوضهما لأسباب مختلفة جداً، بالرغم من كونهما ضدّ شخص واحد هو صدّام. كانت حرب ١٩٩١ تهدف إلى تحرير بلد عربي هو الكويت، في حين أدّت الحرب على العراق في عام ٢٠٠٣ إلى احتلال بلد عربي هو العراق. الفرق كبير جداً! وفي أثناء المدة الواقعة ما بين عامي ٢٠٠٣ و٢٠٠٨ وجّه العديد من العاملين في إدارة جورج بوش الابن (George W. Bush) اتهامات إلى سورية بالتدخل في الشأن الداخلي للعراق، وتأجيج ما يسمى «التمرّد السنّي». لكن لماذا سيقوم السوريون بذلك في عام ٢٠٠٣ مع أنهم رفضوه في عام ١٩٩١؟ لقد رفضت سورية بجفاء فعل ذلك في وقت تمّ تقديم الغطاء لها، لا بل إنّ الولايات المتحدة شجّعتها عليه. لقد كان مشهد إزاحة صدام من السلطة حلماً سيتحول إلى حقيقة، ولا سيّما أنّ أولئك الذين كانوا يسعون إلى إسقاطه عام ١٩٩١ هم أبناء الشعب العراقي نفسه، وليس الجيش الأمريكي الغازي للعراق. ولكن الأسد كان يؤمن بأن هذا الأمر يقرره الشعب العراقي وحده، وليس عائداً إلى السوريين، ولا إلى الإيرانيين، وبالتأكيد ليس عائداً إلى الأمريكيين.

---

(٩٢) المصدر نفسه.

أما **الحقيقة الثانية** التي يتوصل إليها قارئ [الأرشيف] السوري، فتتعلق بلبنان. في أثناء تلك الاجتماعات كلها التي عقدت بين الأسد وبيكر لم يُذكر لبنان سوى مرة واحدة فقط، وذلك في اجتماع ١٨ تموز/ يوليو ١٩٩١. لقد أُثير الموضوع أثناء مناقشة مواقف وزير الدفاع الإسرائيلي آرنز إزاء الوضع في بيروت. شعر بيكر أن ملاحظات آرنز مشجعة، ولكن الأسد قال: «جميعها سيئة، وخصوصاً تلك التي تتعلق بلبنان»[٩٣]. وأضاف: «ما يحاولون فعله هو تدمير كل شيء في لبنان. لا يريد الإسرائيليون [للحرب الأهلية] أن تنتهي في لبنان». وأجاب بيكر: «نحن نختلف معهم ومع تقييماتهم بخصوص الأوضاع في لبنان. فنحن، كما تعلم، ندعم اتفاق الطائف [الذي تم التوصل إليه في السعودية لوضع حد للقتال الداخلي في لبنان]. نحن ندعم نزع سلاح المليشيات، كلّ المليشيات، ونعارض عرقلة اتفاق الطائف»[٩٤].

وأضاف بيكر: «إن الحكومة اللبنانية [وكانت بقيادة الرئيس إلياس الهراوي آنذاك] تتمتع الآن بوضع جيد لتمارس أعمالها، وهي بحاجة إلى دعمكم. لا تزال هناك بعض المليشيات التي يجب تجريدها من أسلحتها. ونحن لا نفرّق بين مليشيا وأخرى. يجب إيقافها جميعاً - بما فيها حزب الله ومليشيا لحد [مليشيا لبنانية أوجدتها قوات «الدفاع» الإسرائيلية لإدارة القاطنين في جنوب لبنان المحتل وترهيبهم]»[٩٥].

وهنا لم يكتفِ الأسد برفض التعاون مع الأمريكيين بخصوص لبنان في عام ١٩٩١، بل قال أيضاً: «تُظهر المعلومات لدينا أن الحكومة اللبنانية صادرت الأسلحة الثقيلة والمتوسطة لكلّ المليشيات. وحزب الله لا يملك أية أسلحة ثقيلة». وأقحم الوزير الشرع نفسه قائلاً: «ولا أسلحة متوسطة». ابتسم الأسد مضيفاً: «ربما يمتلك سمير جعجع [أمير الحرب الماروني وزعيم القوات اللبنانية] هذه الأسلحة، وأعطى بعضاً منها للَحْد!»[٩٦]. وبعد رفض الأسد المقارنة بين حزب الله ولحد، قال بصرامة: «إن الجيش اللبناني هو وحده القادر على أداء هذه المهمة»[٩٧].

---

(٩٣) المحضر غير المنشور لاجتماع الأسد - بيكر، ١٨ تموز/ يوليو ١٩٩١.

(٩٤) المصدر نفسه.

(٩٥) المحضر غير المنشور لاجتماع الأسد - بيكر، ١٨ تموز/ يوليو ١٩٩١. كان الأسد يشير إلى الجنرال أنطوان لحد، قائد جيش لبنان الجنوبي من عام ١٩٨٤ وحتى عام ٢٠٠٠ حين انسحبت إسرائيل من جنوب لبنان وحُلّ جيش لبنان الجنوبي. بعدها التجأ لحد إلى إسرائيل، حيث لا يزال مقيماً، وحكمت عليه الحكومة اللبنانية حكماً غيابياً بالإعدام.

(٩٦) المصدر نفسه.

(٩٧) المصدر نفسه.

ولا بد من الإشارة إلى أن حزب الله لم يكن حينها يمتلك نصف القوة التي أصبح يمتلكها بعد تحرير جنوب لبنان عام ٢٠٠٠ أو بعد حرب عام ٢٠٠٦. لقد آمن الأسد منذ اليوم الأول بمقاومة حزب الله، ووافق على تفويض حزب الله بتحرير جنوب لبنان من الاحتلال الإسرائيلي. ومما قاله بيكر: «نحن نعلم أنّ الحكومة اللبنانية، لم تكن قادرة على العمل بفاعلية وعلى هذا النحو الجيد لولا دعم سورية [منذ انتخاب الرئيس الهراوي عام ١٩٨٩]. ولهذا سوف نتحدث إلى الإسرائيليين بشأن نزع سلاح لحد. وسوف نستمر في سياستنا الهادفة إلى طرد جميع الأطراف الأجنبية من لبنان، ونزع أسلحة جميع المليشيات». وهنا صحح الأسد قائلاً: «وفقاً لاتفاق الطائف... ولكن عليك أن تتذكّر أن حزب الله هو حركة مقاومة وليس مليشيا»[٩٨].

يفضح هذا الحديث المقتضب بشأن لبنان زيف نظرية المؤامرة التي تعاظمت باستمرار، والتي تزعم أن المحادثات التي تمت بين الأسد وبيكر عام ١٩٩١ منحت سورية الضوء الأخضر للبقاء في لبنان. لم يأتِ ذكر لمثل هذه الصفقة إطلاقاً، ولم تخطر هذه الفكرة ببال الأسد أبداً. ما كان في ذهنه هو قدرة المقاومة اللبنانية على الاستمرار؛ وهو الأمر الذي استمرّ هاجساً لسورية حتى بعد انسحابها من لبنان في نيسان/ أبريل ٢٠٠٥. إن المقولة بأن الولايات المتحدة قدّمت لبنان إلى سورية مقابل انعقاد مدريد هي ضرب من وهم محض، تخيَّله صحافيون إسرائيليون ولبنانيون، وسياسيون وحاولوا عبثاً إثباتها. لقد حملت محاضر الجلسات التي جمعت الأسد وبيكر تسجيلاً لأدق التفاصيل، وبعد قراءتي المعمّقة لما يزيد على ٥٠٠ صفحة من الوثائق لم أجد إشارة واحدة إلى صفقة كهذه. لقد توجه الأسد نحو مؤتمر مدريد، لأنه كان يريد السلام، وليس الحرب، وليس لبنان.

خاتمة

أنهى الأسد المحادثات بقوله: «نحن راضون عن المناقشة. فليس هناك ما يغني عن مثل هذه اللقاءات المباشرة بيننا. ونأمل أن يمكّننا هذا من إنجاز المزيد في المستقبل. فهذا يخدم مصلحة دولنا جميعها، ويخدم السلام في الشرق الأوسط. أنا أريد سلاماً بطريقة حقيقية»[٩٩]. يقول البعض إنّ رغبة الأسد في الذهاب إلى مدريد كانت نابعة

---

(٩٨) المصدر نفسه.

(٩٩) المحضر غير المنشور لاجتماع الأسد ـ بيكر، ١٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١.

من قناعته بأن الاتحاد السوفياتي كان على وشك الانهيار، وأنه كان بحاجة إلى فتح قناة تواصل مع الولايات المتحدة. ويزعم آخرون أنه فعل ذلك لتحريك عملية سلام جادة، مشيرين إلى أن هذا كان طلبه المسبق كي يشارك الولايات المتحدة في «عاصفة الصحراء». ويزعم الكثيرون أن الرئيس الأسد أدرك مع حلول الفترة (١٩٩٠ - ١٩٩١) أن الحرب وحدها لن تجدي نفعاً في استعادة الأراضي المحتلة، وذلك بناءً على وقائع حربيْ عامي ١٩٦٧ و١٩٧٣. ولكنني أخالف كل هذه النظريات، لأنني أعتقد أنني عرفت الرئيس الأسد جيداً. ولا أنسى أنه بمناسبة حرب تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٧٣ قال: «لسنا هواة قتل وتدمير، إنما نحن ندفع عن أنفسنا القتل والتدمير. لسنا معتدين، ولم نكن قط معتدين، ولكننا لا نزال ندفع عن أنفسنا العدوان»[١٠٠].

كان الأسد ضابطاً مرموقاً في القوى الجوية، وقد قاد الجيش السوري في حرب عام ١٩٦٧ بصفته وزير الدفاع حينذاك، لكنه لم يؤمن يوماً بالحروب؛ كان يعرف تماماً ما هي تكلفة الحروب. وهو يدرك إدراكاً كاملاً، يتفوق فيه على الكثيرين غيره في الشرق الأوسط، عواقب الحرب على بلاده، وعلى المنطقة كلها. ولم يدّخر الأسد جهداً لتقليص المسافة بينه وبين بيكر، انطلاقاً من قناعته الراسخة بأن ما يمكن تحقيقه عبر المفاوضات هو بالتأكيد أقل تكلفة، وربما أكثر فاعلية، مما قد تتمخض عنه الحرب. وفي نهاية المطاف كان لدى سورية هدف واحد واضح، هو استعادة الجولان كاملاً وفقاً لقرارات مجلس الأمن الدولي. بعد سنوات، قال الأسد للرئيس الأمريكي بيل كلينتون: «لقد كنت دوماً حريصاً على لقاء كل رئيس أمريكي»[١٠١]. ولطالما كان الأسد يقدّر العلاقة مع الولايات المتحدة، ويتطلع إليها حتى في أوج العلاقات السورية مع الاتحاد السوفياتي. وعندما كان الأسد يتحدث إلى وفد أمريكي، كان يقول لهم: «نحن لا نريد منكم تأسيس علاقة معنا تتعارض ومصالح بلادكم. نحن نريد منكم أن تأخذوا مصلحة بلادكم بالاعتبار - مصلحة الولايات المتحدة وحدها - وليس مصلحة الآخرين [في إشارة منه إلى إسرائيل]»[١٠٢].

ومهما يكن الأمر، لا بد من الإشارة إلى أن الرئيس الأسد لم يعتقد أبداً أن إسرائيل أرادت السلام، ولكنه كان دائماً يقول: «هذه مشكلتهم، أنا من جهتي سأحاول»[١٠٣]. لم

---

(١٠٠) خطاب الرئيس الأسد بمناسبة حرب تشرين، أرشيف إذاعة دمشق، ٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣.
(١٠١) محادثة شخصية مع الرئيس حافظ الأسد، آذار/ مارس ٢٠٠٠.
(١٠٢) المصدر نفسه.
(١٠٣) محادثة شخصية مع الرئيس حافظ الأسد، حزيران/ يونيو ١٩٩٢.

يكن يرغب في ضياع أية فرصة يمكن أن تضع مرتفعات الجولان أولوية قصوى على الأجندة الدولية.

وفي ما يتعلق بي شخصياً، فقد عدت إلى سورية في شهر حزيران/ يونيو من ذلك العام (١٩٩١)، أي قبل مدة قصيرة من موعد انعقاد مؤتمر مدريد الذي بدأ في ٣٠ تشرين الأول/ أكتوبر واستمر ثلاثة أيام. في تلك الفترة كان بعضهم يسأل: «بما أننا ذاهبون إلى مفاوضات سلام، إذاً لماذا لا نطالب بحذف اسم سورية من لائحة الدول الداعمة للإرهاب لدى الولايات المتحدة؟». كان المسؤولون السوريون يعتقدون بأمانة أننا إذا أظهرنا حسن النيّة في الذهاب إلى مدريد، وآلت النتائج في النهاية إلى توقيع اتفاق سلام، فمن الطبيعي والتلقائي أن تحذف الولايات المتحدة اسم سورية من القائمة التي أعدّتها وزارة خارجيتها. أعتقد بأن هذا يعود إلى الاختلاف الجوهري بين ثقافتنا وثقافة الأمريكيين. فالعقلية الأمريكية تعمل وفق مبدأ: ضع شروطك فوراً، وفاوض للحصول على ما تريد. ولكننا – نحن العرب – نشعر بأننا إذا قمنا بعمل، وأثبتنا حسن النيّة، فلا بدّ للطرف الذي يفاوضنا من أن يردّ لنا الجميل عن طريق قيامه بفعل يرضينا حتى وإن لم نطلب ذلك. نحن العرب نتعامل مع القضايا الحساسة وفقاً لمعاييرنا الأخلاقية، أما في عالم السياسة، فالأمر مختلف؛ فالعمل هو العمل [لا تدخل فيه اعتبارات أخرى]. ولهذا يقول الأمريكيون: «كن لطيفاً مع الأشخاص، حازماً مع القضايا». لا يتردد الأمريكيون في طلب ما يريدون.

وأنا هنا لا أطلق أحكاماً بل أسرد حقائق، ولكنني أعتقد جازمةً أننا لو كنا طلبنا من الولايات المتحدة يومها حذف اسم سورية من لائحتها للدول الداعمة للإرهاب، لوافق كل من بوش وبيكر مباشرة، لأنهما كانا يريدان إنجاح مؤتمر مدريد بأي ثمن. قال الكثيرون إنه لولا صدام حسين لما وقعت حرب الخليج. هذا صحيح، ولكن لولا حافظ الأسد لما عُقد مؤتمر مدريد أبداً.

الفصل الثاني

طوبى لصانعي السلام

لن أنسى أبداً الأيام التي سبقت رحلتنا إلى مدريد. كانت أياماً مليئة بالقلق والخوف، ولكن كنا واثقين أننا على الطريق الصحيح. ولم تكن لي – على المستوى الشخصي - فترة عادية أبداً، بل فترةً شديدة الصعوبة. كانت ابنتاي صغيرتين؛ ناهد في التاسعة، ونازك في السابعة من العمر، والأم لا تودّ أن تترك طفلتيها زمناً غير محدود، وتبتعد بنفسها عن عملها الجامعي في أدق لحظاته، إلا لقضية تستحق تلك التضحية. قيل لنا إن الرحلة قد تكون طويلة، وكانت سفارتنا في إسبانيا قد شرعت في إجراء ترتيبات لاستئجار شقق وسيارات لأعضاء الوفد أو شرائها. وطوال مدة المفاوضات التي سبقت مؤتمر مدريد كنا نخشى كثيراً ألا تكون الأمور سهلة أو ألا تثمر كما نشتهي، ولكن كنا نعرف أن سورية مستعدة للتعامل بحسن نية مع إدارة بوش الأب من أجل التوصل إلى السلام في الشرق الأوسط.

حين اتضح أننا سنسافر في أواخر تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١، توجّهت إلى والدتي ووالدي وزوجي وطفلتيّ وقلت لهم: «إنني ذاهبة مع وفد للمشاركة في مفاوضات مع الإسرائيليين». لم يكن من السهل عليَّ، سواء على المستوى العاطفي أو الاجتماعي، أن أنطق بهذه الكلمات. لكنني كنت مقتنعة تماماً أنّ على المرء في بعض الأحيان أن يرتقي فوق مشاعره الشخصية في سبيل تحقيق هدف سام. كانت لديّ شخصياً ثقة لا تهتز بالرئيس حافظ الأسد. ومن الواضح أنه لم يكن متحمساً لمفاوضات سلام، فهو الرجل نفسه الذي حارب الإسرائيليين في الأعوام ١٩٦٧ و١٩٧٣ و١٩٨٢. لكن السياسة هي فن الممكن. ونحن العرب توصلنا جميعاً في عام ١٩٩١ إلى إدراك أن الحروب لا تؤدي إلى أية نتيجة سوى المزيد من الحروب والكثير من الخراب. وخطر لنا أن الوقت ربما قد حان لإعطاء المفاوضات فرصة، وخصوصاً في ضوء التصميم الذي عبّرت عنه إدارة بوش. فلو أن أنور السادات لم يقسّم العرب بعقد سلام منفرد عام ١٩٧٨، ولو أن الوطن العربي لم يتضرر ضرراً لا يمكن إصلاحه بسبب حماقة الحربين اللتين شنّهما صدام حسين على إيران والكويت، لربما اختلف الواقع العربي إلى حدّ ما.

وما أدركناه جيداً هو أن منطق إدارة بوش وحسن نيتها فتحا لنا نافذة ووفّرا فرصة، وكان لدينا الاستعداد للمجازفة آملين أن نعيد فلسطين للفلسطينيين، ومرتفعات الجولان لسورية. وإذا كان حافظ الأسد مستعداً لهذه المجازفة، فمن المؤكد أننا، نحن السوريين، نشاركه ذلك الاستعداد.

كانت ابنتاي أصغر من أن تفهما أهمية ما يجري في الشرق الأوسط في ذلك الشهر، شهر تشرين الأول/ أكتوبر. لكن والديّ انتابهما القلق، كما هو طبيعي لأي أم وأب حنونين. لقد شهد كلاهما الاحتلال الوحشي لفلسطين عام ١٩٤٨، وقاما معاً بتربية أولادهما ليكونوا سوريين مخلصين لوطنهم العربي، وملتزمين التزاماً راسخاً بالقضية الفلسطينية. شعرا بالقلق على سلامتي الشخصية، وعلى هدف مهمتنا، وسمعتنا كمفاوضين. إذا انهارت المفاوضات في مدريد، فكيف ستكون نظرة الناس إلى ابنتهما التي جلست وجهاً لوجه مع عدونا التاريخي؟ لكن ما أدهشنا حقاً هو التفاؤل الذي ساد عامة أفراد الشعب السوري، الذين أتعبتهم عقود من الصراع. أذكر لقائي أشخاصاً في الشارع يبتسمون لي ويربّتون على كتفي ويشجعونني، متمنين لنا النجاح قائلين: «إن شاء الله سيأتي يوم نرى فيه السلام في هذا الجزء من العالم». لقد عانى هؤلاء الناس من الحرب معاناة فوق الاحتمال، وكل عائلة في سورية، كما قال الرئيس الأسد لجيمس بيكر (وزير خارجية الولايات المتحدة)، فقدت فرداً من أفرادها خلال الصراع الذي مضى عليه ثلاثة وأربعون عاماً. وقد نفد صبرهم، وهم محقون في ذلك، ويريدون أن يعيشوا في سلام. وحين أعود بذاكرتي إلى تلك الحقبة، يمكنني أن أقول وأنا واثقة من قولي إن الرئيس الأسد كان يحاول التوصل إلى السلام من أجلهم، وإنه أراد أن يوفر لهم ولأولادهم حياة أفضل، خالية من الصراع والحرب والدمار.

تألف الوفد السوري الذي توجه إلى مدريد من اثنين وعشرين عضواً، وترأسه وزير الخارجية فاروق الشرع. وكنتُ من أعضاء الوفد الذي ضمّ الدبلوماسي المحنك موفق العلاف، سفيرنا في لندن، ومحمد خضور، وسفيرنا في واشنطن وليد المعلم، وسلفه الدكتور رفيق الجويجاتي، والسفراء ماجد أبو صالح، وزكريا إسماعيل، ورسلان علوش، وعبد الودود أتاسي، ومحمد الجزار. وكان من بين الأعضاء أيضاً كلوفيس خوري من وزارة الخارجية، وعدنان طيارة، وفوزي الخطيب من لجنة الهدنة. وشمل الوفد كذلك فاروق الطباع، والدكتور إلياس رزق، والدكتور رياض داوودي، وأحمد عرنوس، مدير مكتب وزير الخارجية. كان هؤلاء نخبة من رجال وزارة الخارجية: إنهم دبلوماسيون

ذوو تاريخ طويل، وذوو مواهب، وشخصيات مرموقة؛ كما كانوا لسنوات عديدة جزءاً من الصراع العربي - الإسرائيلي. وقد جرى الاتفاق مسبقاً على ألا يحضر الشرع سوى جلسة الافتتاح، في حين يتولى المحادثات الثنائية موفق العلاف والمفاوض الإسرائيلي يوسي بن أهارون، مدير مكتب إسحاق شامير. ولا بد من ذكر أن وزيري الخارجية لم يدخلا في محادثات مباشرة حتى عام ٢٠٠٠، عندما التقيا أول مرة في شبردستاون (قرية صغيرة في ريف واشنطن) أثناء رئاسة كلينتون. وقد حضر شامير مؤتمر مدريد للسلام لأنه كان يتولى ملف وزارة الخارجية، إضافة إلى كونه رئيس وزارة إسرائيل.

في يوم سفرنا، توجهنا إلى اللاذقية أولاً لنتلقى تعليمات من الرئيس الأسد حول ما ينبغي أن نفعله وأن نقوله في مدريد. وأتذكر أننا ونحن في طريقنا إلى المطار كان جانبا الطريق مكتظين بلافتات تحمل أقوال الرئيس الأسد: «السلام العادل والشامل خيار سورية». كان الرأي العام يُحَضَّر لمحادثات السلام القادمة، وكان الأسد قد أخبرنا من قبل أنه إذا نسّقت الولايات المتحدة العملية على نحو صحيح، فمن الممكن أن تستغرق المحادثات شهرين أو ثلاثة أشهر أو عاماً كاملاً.

كان الرئيس الأسد في حالة نفسية هادئة ورزينة؛ وكانت تلك المرة السادسة التي أقابله فيها. لقد حدثت **الأولى** في الكلية العسكرية في حمص عام ١٩٧١، وكانت **الثانية** في اليوم التالي في القصر الجمهوري. أما المرة **الثالثة**، فهي زيارة شكر مع طلاب آخرين عام ١٩٧١ أيضاً. وكانت **الرابعة** زيارة ودّية تمّت بعد حصولي على شهادة الماجستير عام ١٩٧٧ في إحدى زياراتي القصيرة للوطن أثناء دراستي في إنكلترا. وأتت مقابلتي **الخامسة** حين اصطحبني وزير الخارجية لأترجم للرئيس عام ١٩٩٠، أما **السادسة** فهي تلك التي جرت في اللاذقية قبل سفرنا مباشرة إلى مدريد. كان يدرك تماماً التحديات التي تنتظرنا في إسبانيا، وزوّدنا بتعليمات مفصّلة: «سنكون مرنين، لكن ليس حين تطرح مسألة الأرض مقابل السلام». وأضاف أن النقطة الأساسية هي وجوب عودة كل شبر من الأراضي السورية إلى أصحابه الشرعيين، بناء على قرارات مجلس الأمن. وإذا وضع على طاولة المفاوضات أي شيء أقل من ذلك، فإن لدينا الصلاحية الكاملة أن نحزم حقائبنا ونعود إلى الوطن. وكان بيكر قد ذكر أن الهدف النهائي لمؤتمر مدريد - إذا كان للسلام أن يتحقق - هو «تطبيع العلاقات» مع إسرائيل. وقد عدّل الرئيس الأسد العبارة وجعلها «علاقات طبيعية» مع إسرائيل. وأضاف الرئيس الأسد أن سلاماً سورياً - إسرائيلياً منفرداً لن يكون مقبولاً، مشدداً على ضرورة حصول الفلسطينيين على

حقوقهم ودولتهم، وعلى تحرر جنوب لبنان، الذي كان يخضع للاحتلال الإسرائيلي منذ عام ١٩٧٨. لا بد من أن يكون الاتفاق شاملاً، وليس مجرد سوري. لم نكن ذاهبين إلى مدريد لنتكلم باسم سورية فحسب، فالأسد أرادنا أن نتكلم باسم الوطن العربي، وأن ننسق جهودنا إلى أقصى حدّ ممكن مع الوفود العربية الأخرى. وأضاف أن الإسرائيليين قد يودّون مصافحتنا والتقاط صور، ثم تحويل أي أمر من هذا القبيل إلى قصة كبيرة، معتمدين على تحكّمهم في وسائل الإعلام الغربية. حذّرنا الأسد أن هذا قد يكون أحد أهدافهم، وطلب إلينا الانتباه والتحرّز من الوقوع في مثل هذا الفخّ.

كانت الخطة الأصلية هي الذهاب في وفد عربي موحد إلى مدريد: أمة واحدة، قضية واحدة، وفد واحد إلى المؤتمر. ولكن حين انهارت تلك الخطة بسبب الخلاف العربي الكبير، بدأنا بتكوين الفريق السوري الذي ترأسه وزير الخارجية. ركبنا طائرة تابعة للخطوط الجوية العربية السورية، وتوجهنا إلى إسبانيا، حيث نزلنا في فندق «الرتز» الفخم في ساحة «دي لا ليلتاد» في وسط مدريد. هذا الفندق هو قصر باروكي ومعلم بارز يقع في قلب مثلث المدينة الذهبي، ويعود تاريخه إلى عام ١٩١٠، حين شُيّد بأمر من الملك ألفونسو الثالث عشر. وفي الأغلب لم يحلم مهندسوه بأن يكون ذات يوم شاهداً على واحد من أكثر المؤتمرات أهمية في تاريخ القرن العشرين. أذكر أنني، يوم وصولنا، وأنا في طريقي إلى بهو الفندق، واجهت شخصاً غريباً عند المصعد. مدّ إلي ذراعه اليمنى، وقال: «مرحباً، أنا من إسرائيل!»، أخذتني حركته على حين غرّة، فأنا لم أتعرّض في حياتي قط لمثل هذا الموقف المربك، وهو أن يُطلَب إليّ مصافحة عدو تقليدي. أدرت ظهري على الفور وهبطتُ بالمصعد إلى البهو. لكن هذا لم يكن شيئاً يذكر مقارنة بما ما كنت على وشك أن أشاهده خلال عملية السلام الطويلة المضنية التي بدأت في ذلك اليوم في مدريد، واستمرت حتى وفاة الرئيس الأسد المبكرة، بعد أقل من تسع سنوات، في ١٠ حزيران/ يونيو ٢٠٠٠.

أجرى الأسد مقابلتين متتاليتين مع محطة «سي. إن. إن». (CNN)، ومجلة **نيوزويك**، إحداهما قبل مدة قصيرة من بدء المؤتمر في ٢٩ تشرين الأول/ أكتوبر، والثانية أثناء المحادثات[1]. وظهرت صورة الرئيس على غلاف **نيوزويك**، وهي تحمل العنوان: «خطته للسلام: حديث مع أسد سورية». بدأت المقابلة بسؤال مباشر وصريح: «هل أنت مستعد للقبول بدولة يهودية في الشرق الأوسط؟» قال الأسد: «ما يمكنني

(١) صحيفة تشرين، ١/ ١١/ ١٩٩١.

قوله هو أن سورية ملتزمة بقرارات الأمم المتحدة جميعها». وقام الصحفي الذي يجري المقابلة بمحاولة أخرى، مشدداً على أن وجود إسرائيل أصبح حقيقة ثابتة في السياسة [الشرق أوسطية]». وتفادى الأسد السؤال قائلاً: «هذا شيء يحتاج إلى نقاش في المؤتمر [في مدريد]». ثم سأله الصحفي عمّ إذا تغيّر شيء داخل سورية جعل قيادتها العليا تقبل بالذهاب إلى محادثات مباشرة مع الإسرائيليين. قال القائد السوري بصرامة: «نحن لم نتغيّر. ماذا حدث ليجعلنا نتغيّر؟ كنا دائماً نطالب بسلام عادل وشامل، وما زلنا نقول ذلك بالضبط». ثم توسع في هذه النقطة: «الولايات المتحدة قوة عظمى وتتحمل مسؤولية خاصة تجاه السلام العالمي. وإذا لم تستطع - بعد كل الدعم السياسي والعسكري الذي قدمته لإسرائيل بأسلوب منهجي - حتى أن تضغط على إسرائيل [لتتنازل]، فإن العقل البشري لا يستطيع استيعاب ذلك»(٢).

وحين سُئل الأسد عن حصول سورية على الأسلحة من كوريا الشمالية، قال: «إن ذلك حدث في سبعينيات القرن العشرين، لكنه لم يبقَ صحيحاً في عام ١٩٩١، نحن نشتري أسلحة دفاعية، على حين تشتري إسرائيل أسلحة للعدوان من الولايات المتحدة». وأضاف أن نفقات سورية العسكرية تقل بمقدار عشرين بالمئة عما تنفقه إسرائيل. ثم علّق تعليقاً بدا أنه رسالة إلى الإسرائيليين وتعليمات إضافية لنا: «ليست إجراءات بناء الثقة هي الطريق لحل النزاع العربي - الإسرائيلي». وأضاف أنّ هناك قرارين للأمم المتحدة يتناولان الصراع، «ويجب تطبيقهما، وهما ٢٤٢ و٣٣٨»(٣).

كان من الواضح أن الرئيس، بالرغم من حذره، يشعر بالتفاؤل بفضل كلّ الضمانات التي صدرت منذ شهر كانون الثاني/يناير عن الرئيس بوش ووزير الخارجية بيكر. وقد أبدى نوعاً من التقدير لكلا الرجلين، فهما صادقان في أقوالهما ويبدو أنهما ملتزمان بالسلام. وقد ذكّرنا الأسد أن «أي شيء تقولونه أو أي شيء تفعلونه سيعلم به شعبنا، وعليكم ألا تنسوا هذا. لا شيء سري في ما يتعلق بمدريد، وليس لدينا ما نخفيه». كان الأسد يكره الصفقات السرية، وقد رفض مراراً أي اتفاقيات «تحت الطاولة» مع الأمريكيين أو مع الإسرائيليين. وقبل أن يودعنا الرئيس بتمنياته الحارة بالتوفيق، ابتسم وقال: «إنني أتساءل في نفسي لِمَ لَمْ نفعل هذا قبل ثلاثين سنة؟».

---

(٢) *Newsweek* (29 October 1991).

(٣) المصدر نفسه.

بعد هذا القول، لا بد من الإشارة إلى وجود اختلاف كبير بين ما قام به العرب في مدريد عام ١٩٩١، وصفقة السلام المنفردة التي عقدها أنور السادات عام ١٩٧٨. لقد كان مؤتمر مدريد جهداً مفصّلاً وجماعياً، ومخطّطاً بطريقة دقيقة، وله نقاط مرجعية واضحة تماماً حظيت بموافقة الرئيس الأسد وملك السعودية فهد بن عبد العزيز، وملك الأردن حسين بن طلال، ورئيس لبنان إلياس الهراوي، وكلٍّ من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. أما اتفاقية كامب ديفيد، فقد كانت حدثاً أحادي الجانب وذا صبغة (درامية) جداً، وكذلك كانت زيارة الرئيس المصري للقدس عام ١٩٧٧. كانت عملية علاقات عامة مثيرةً أكثر مما هي إنجاز جوهري يهدف إلى خدمة مصالح مصر. ولم يؤيد الشارع المصري كامب ديفيد قط، غير أن الشارع العربي كان مستعداً للسلام نفسياً وسياسياً عام ١٩٩١.

ومن اللاذقية أقلتنا الطائرة مباشرة إلى مدريد.

أولاً: المؤتمر

وصل الوفد السوري إلى إسبانيا يوم ٣٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١، لكن الجولة الأولى من المحادثات المباشرة لم تبدأ حتى الثالث من تشرين الثاني/ نوفمبر. وفور وصول الشرع، التقى الرئيسَ بوش ووزيرَ الخارجية بيكر. كان ذلك اللقاء الثاني الذي يجريه بوش مع دبلوماسي سوري، فقد كان الأول مع السفير المعلم في الولايات المتحدة. قال رئيس الولايات المتحدة: «هذه لحظة تاريخية، وستبذل الولايات المتحدة كلّ ما يمكنها للوصول إلى السلام»[٤]. واستعرض ما سبق أن تم تأكيده كتابياً، وهو أن النقطتين المرجعيتين هما قرارا مجلس الأمن الدولي الرقمان (٢٤٢) و(٣٣٨). أما على الصعيد الشخصي، فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي ألتقي فيها رئيساً أمريكياً وجهاً لوجه. لكن قدّر لي في ما بعد أن أقابل الرئيس الأمريكي جيمي كارتر عدة مرات في دمشق، وكذلك الرئيس بيل كلينتون، حين توصل إلى علاقة عمل جيدة مع الرئيس الأسد في تسعينيات القرن الماضي. وبدا الرئيس بوش شخصاً مهذباً. كان رجلاً كبير السنّ متواضعاً وشديد اللطف يحترم مَن حوله ويولي الناس انتباهه. ففي واقع الأمر لا يولي كثيرون اهتماماً بالمترجم، وخصوصاً إذا كان واقفاً إلى جانب شخص مثل

(٤) أرشيف وزارة الخارجية السورية، رسائل من الوفد السوري إلى مؤتمر السلام في مدريد (تشرين الأول/ أكتوبر – تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩١).

حافظ الأسد. لكن الرئيس بوش لم يكن من هذا النوع. وبعد اجتماعنا إليه، أدركنا وجود تفاصيل كثيرة لا تزال بحاجة إلى تصنيف قبل أن يبدأ المؤتمر في مدريد. فعلى سبيل المثال، لم يوافق الإسرائيليون على اجتماع متعدد الفرقاء، وفضّلوا أن يتحدثوا إلى كل وفد عربي على حدة، بل إنهم لم يرحبوا بأن تنزل الوفود العربية في الفندق نفسه. كانوا يريدون عقد اجتماع واحد فقط في مدريد، ثم عقد جولة ثانية في القاهرة، وهذا مختلف جداً عما قادنا بيكر إلى الاعتقاد به خلال زياراته الكثيرة إلى دمشق. كنا نظن أن هذه الأمور جميعها قد حسمت، لكننا واجهنا مفاجأة كبيرة حين جرت مفاوضات مكثفة جداً مدة ثمان وأربعين ساعة قبل جلسة الافتتاح. وكنا دائماً على اتصال هاتفي مع الرئيس الأسد لأن كل قضية كانت مشكلة بحدّ ذاتها.

عُقِد المؤتمر في قصر مدريد الملكي، وكان هذا مكاناً رائعاً لمؤتمر سلام. كانت تتدلى من السقف فوقنا ثماني ثريات مذهلة في قاعة الأعمدة، وجلس ممثلو سورية ولبنان وفلسطين والعربية السعودية والأردن حول طاولة على شكل حرف T، وترأس الجلسة الرئيس بوش، وميخائيل غورباتشوف، والملك خوان كارلوس ملك إسبانيا، مع مراقبين من اللجنة الأوروبية، ومن الأمم المتحدة. وقد كتب بيكر بعد سنوات وهو يعود بذاكرته إلى ذلك الحدث: «قام أعضاء الوفود باستراق النظر أحدهما إلى الآخر وتقييمه، متفادين النظرات المباشرة، وجهدوا في تحاشي أية مصافحة حتى ولو كانت شكلية»(٥). وافقنا على ألا يوضع أي علم قومي على الطاولة، لأن إسرائيل اعترضت على وجود العلم الفلسطيني. كما اعترض شامير حين دخل المفاوض الفلسطيني صائب عريقات وهو يضع الكوفية الفلسطينية الشهيرة بلونيها الأسود والأبيض التي أصبحت رمزاً لأطفال الحجارة في الأراضي المحتلة.

تضاءل إلى حدّ ما شعور الإثارة الذي ولّده الوصول إلى مدريد حين افتتح الرئيس بوش المؤتمر بخطاب يُعدّ تاريخياً، مع أنه لم يذكر صيغة الأرض مقابل السلام، وقد أدهشنا هذا تماماً. وتحدّث الشرع إلى الصحفيين فور انتهاء الجلسة، ملتمساً عذراً معقولاً للرئيس الأمريكي: «إنّ إغفال الإشارة إلى الأرض مقابل السلام لا يعني أن الأمريكيين تراجعوا عن موقفهم السابق، إذ توجد رسالة تأكيدية من الأمريكيين إلى سورية، مبنية على كلا القرارين الرقمين (٢٤٢) و(٣٣٨)»(٦). وتعرضنا لصدمة أخرى

---

(٥) James A. Baker III and Thomas M. DeFrank, *The Politics of Diplomacy: Revolution, War, and Peace, 1989-1992* (New York: G. P. Putnam, 1995), p. 512.

(٦) وكالة الأنباء العربية السورية (سانا)، ٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩١.

حين ألقى شامير خطابه، فقد كان خطاباً سلبياً جداً، واتهم سورية برعاية الإرهاب، في إشارة إلى التزامها الراسخ تجاه الفلسطينيين. وحين أعود اليوم بالذاكرة إلى الوراء، بعد مضي أكثر من عشرين عاماً، لا أجد ما يفسّر شعورنا بالمفاجأة لسماع خطاب شامير. لقد قلت لنفسي: «يبقى الإرهابي إرهابياً. وشامير لم يكن يريد الذهاب إلى مدريد بتاتاً». إن شامير الذي مات بتاريخ ٣٠ حزيران/ يونيو ٢٠١٢، أي بعد واحد وعشرين عاماً من مؤتمر مدريد، سيُسجّل في كتب تاريخ المنطقة مناهضاً وقحاً للسلام مع العرب. وأبرز ما يتذكر الناس عنه هو إخفاقه في تحقيق السلام معهم في مدريد، ولن تُذكر له أية إنجازات على هذا الصعيد إطلاقاً.

بدأ الشرع خطابه بهدوء كبير قائلاً: «إن رغبتنا في تحقيق السلام صادقة. لا بديل للانسحاب الكامل من كل شبر من الأرض العربية المحتلة وضمان حقوق الفلسطينيين»[٧]. ثم أضاف: «لقد جاء الوفد العربي السوري إلى هذا المؤتمر، بالرغم من تحفظات سورية، ليحاول الوصول إلى سلام عادل ومشرف، شامل كل جوانب الصراع العربي - الإسرائيلي وجبهاته. جاء وفدنا مزوّداً باحتياطي لا ينضب من حسن النية والرغبة الحقيقية الجادة في تحقيق السلام». وذكّر الجميع أن إسرائيل «تتبنى أيديولوجيا عقيمة وبالية تقوم على التوسع وبناء المستوطنات [في فلسطين المحتلة والجولان]، وقد تمّ تشريد نحو نصف مليون مواطن سوري من الجولان، لم يتمكنوا حتى الآن من العودة إليه»[٨]. وأضاف أن «الرأي العام العالمي يدرك أكثر من أي وقت مضى، وخصوصاً بعد أزمة الخليج، أن ازدواجية المعايير لم تبقَ مقبولة في هذا العصر».

عند تلك النقطة، كان شامير قد خرج من المؤتمر ليعود إلى إسرائيل، ومن الواضح أنه لم يكن مهتماً بسماع موقف سورية، وهذا يكشف كثيراً عن مدى جدّيته الفعلية. وعندئذ انتقل الشرع إلى الجزء المرتجل التاريخي من خطابه: «كنت أودّ أن أقرأ بياناً خطياً... لكن رئيس الوفد الإسرائيلي... غادر مبكراً غير مكترث بعملية السلام!»[٩]. ثم أخرج وزير الخارجية السوري قصاصة من صحيفة أجنبية صادرة عام ١٩٤٨، عليها صورة شامير، وقد كتب فوقها بأحرف سوداء كبيرة كلمة «مطلوب». وخاطب المؤتمر بصوت رنّان، مفسراً تلك القصاصة: «سأريكم صورة قديمة لشامير... لماذا وزّعت

(٧) صحيفة تشرين، ٣١/ ١٠/ ١٩٩١.
(٨) المصدر نفسه.
(٩) المصدر نفسه.

هذه الصورة؟ وزّعت لأنه كان مطلوباً! هو نفسه اعترف بأنه كان إرهابياً... [فقد] ساهم في اغتيال وسيط الأمم المتحدة [في فلسطين]؛ الكونت برنادوت في عام ١٩٤٨، كما أذكر. هو يقتل وسطاء السلام!». أثارت كلمة الشرع التاريخية مشاعر المندوبين العرب، وشعر الإسرائيليون بغضب عارم، على حين امتلأت قلوبنا - نحن السوريين - بالفخر. أما الأمريكيون، فقد حوّلوا أنظارهم عنا، إذ لم يكن بإمكانهم تحدّي ما قاله الشرع، لإدراكهم أنه صحيح مئة في المئة، وأن إسحاق شامير يستحق ذلك الوصف لأن مؤتمر مدريد كاد يتهاوى قبل أن يبدأ بسبب موقفه المتصلب. وأصبح فاروق الشرع نجم مؤتمر مدريد، وصفقنا له جميعاً بحرارة حين عاد إلى مقعده. كما أن سورية أعلنت أين تقف بصوت عالٍ وواضح: نحن طلاب السلام وصانعوه، وليس الإسرائيليون.

عندما انتهت جلسة الافتتاح بكل ما فيها من إثارة في المحتوى وفخامة في المشهد، عدتُ إلى غرفتي في الفندق لأنال شيئاً من الراحة، وارتميت على أريكة أشاهد ما تقدمه القنوات التلفزيونية عن المؤتمر. اكتشفت أن القنوات فوق كوكب الأرض جميعها، بما فيها القنوات المعارضة لموقف سورية، أظهرت وزير خارجيتنا في نشرتها الإخبارية المسائية. وكان التلفزيون الإسباني شديد الفخر بالأحداث التي قامت حكومته بترتيبها، مع أن الأمريكيين والروس لم يبلّغوها بنيّة عقد المؤتمر إلا قبل أحد عشر يوماً. ووجدت في ما بعد أن التلفزيون السوري غطى محنة المؤتمر بكاملها تغطية ممتازة في الساعة الثامنة والنصف مساءً بتوقيت دمشق، وأن مذيعي الأخبار لدينا كانوا يبتسمون وهم يقرأون الخبر.

ثانياً: الدبلوماسية العقيمة

في الساعة العاشرة والنصف من صباح اليوم التالي، دخلنا في مفاوضات مباشرة مع الإسرائيليين، من دون وزير الخارجية الشرع، ومن دون الأمريكيين هذه المرة. وكانت المرة الأولى منذ ثلاثة وأربعين عاماً، التي كنا نجلس فيها وجهاً لوجه مع الإسرائيليين في الغرفة نفسها حول طاولة المؤتمر. وترأس سفيرنا السابق في الأمم المتحدة، موفق العلاف، الفريق السوري. وقد سبق للعلاف، وهو دبلوماسي قدير، أن شغل منصب نائب المدير العام لمكتب الأمم المتحدة في جنيف، وهو خبير بموقف سورية بكل تفاصيله. تخرّج العلاف في جامعة دمشق، وكان يجيد تحدّث اللغة الإنكليزية بطلاقة، ويفهم طريقة التفكير الغربية، وقد نال أعلى وسام تمنحه الجمهورية النمساوية من المستشار

كورت فالدهايم عام ١٩٨٧. كان إنساناً جدّياً حاد الذكاء وشديد الحذر. وكان شخصاً يريد الوصول إلى نتائج، لكنه بعد الجلسة الأولى رسخ لديه اقتناع تام بأن الإسرائيليين لم يأتوا إلى مدريد للتفاوض الجدّي. كان هناك سببان وراء قدومهم إلى إسبانيا: **أولهما** التخلّص من ضغط الحكومة الأمريكية عليهم، **وثانيهما** اجتذاب اهتمام وسائل الإعلام التي كانوا يأملون في أن تصرف الأنظار عمّا يرتكبونه من فظائع في الأراضي المحتلة. وكان من الواضح أن اهتمامهم انصبّ على عملية السلام، وليس على معاهدة سلام. ولئن أثار خطاب شامير تعجّبنا، فإن طريقة تناول بن أهارون (رئيس الوفد الإسرائيلي المفاوض) للمحادثات المباشرة، أقنعتنا بأننا لسنا أمام شريك سلام جدّي في مدريد.

أول ما قام الإسرائيليون به هو التأكيد أنهم يفاوضون انطلاقاً من خطة شامير، التي كان رئيس وزرائهم قد طرحها في نيسان/ أبريل ١٩٨٩، وكانت من تصميم شامير وموشيه آرنز وإسحاق رابين قبل مدة قصيرة من اندلاع الانتفاضة الأولى. وقد دعت تلك الخطة المؤلفة من أربع نقاط إلى اتخاذ اتفاق كامب ديفيد لعام ١٩٧٨ أساساً تبنى عليه عملية السلام، و«إنهاء مشاعر العداء لدى العرب تجاه إسرائيل ونزوعهم إلى قتالها، وبذل جهود تشارك فيها عدة دول لحلّ مشكلة اللاجئين العرب، وانتخاب موفدين فلسطينيين للتفاوض على فترة مؤقتة من إدارة الحكم الذاتي». كان كل ذلك مرفوضاً تماماً من الجانب السوري، بما في ذلك إصرار شامير على استعمال الأسماء العبرية للأراضي العربية في حديثه عن «انتخابات حرة في يهودا والسامرة». رفض العلاف خطة شامير رفضاً قاطعاً، وقال: «نحن هنا على أساس مبادرة بوش وبيكر ومبادرة الاتحاد السوفياتي، ولا شيء آخر. هذا ما اتفقنا عليه في الأصل، وهذا هو سبب وجودنا هنا!»(١٠).

استمر الاجتماع خمس ساعات من دون أن يحقق أية نتيجة عملية. وإن قدّر للمؤرخين أن يحللوا محضر الجلسة، فسيتوصلون من لهجة الإسرائيليين إلى أن الاجتماع لم يكن يسير نحو أي هدف. كان حواراً مع الطُّرشان، بكل معنى الكلمة، واقتصر الكلام على رئيسي الوفدين المفاوضَين، وندر أن تكلم أحد غيرهما. بدأ بن أهارون المفاوضات على النحو التالي: «نحن هنا لنتحدث، هل تعترفون بحق إسرائيل في الوجود؟». أجاب العلاف بهدوء، وقد فاجأه هذا الانتهاك الحادّ لجدول الجلسة: «لقد أتينا إلى هنا لمناقشة القرارين الرقمين (٢٤٢) و(٣٣٨)». أصم بن أهارون أذنيه،

---

(١٠) أرشيف وزارة الخارجية السورية، محاضر مؤتمر السلام في مدريد عام ١٩٩١.

وتجاهل العلاف تماماً، وقال: «نحن سعداء بوجودنا هنا لبدء المفاوضات مع سورية. فمن المفيد دائماً الدخول في مباحثات مباشرة. وأفضل الطرق لحل المشكلات بين الجيران هي الجلوس معاً والتحدث عن هذه المشاكل. إننا هنا على أساس مبادرة السلام الإسرائيلية لعام ١٩٨٦». بدأ صبر العلاف ينفد وكرّر بحزم: «نحن هنا من أجل القرارين الرقمين (٢٤٢) و(٣٣٨)». رفع بن أهارون عينيه ونظر إلى العلاف، وقال: «لقد وضعنا القرار الرقم (٢٤٢) موضع التنفيذ حين أعدنا شبه جزيرة سيناء إلى مصر!»(١١).

رد الدبلوماسي السوري بتذكير الجانب الآخر: «هذا ليس تطبيق القرار [قرار مجلس الأمن] الرقم (٢٤٢)، الذي يتحدث عن عودة كلّ الأراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧، وليس سيناء وحدها». أذكر أنني كنت أتململ في مقعدي، لكنني كنت أحدث نفسي قائلة: «إهدئي يا بثينة، لا بد للمرء من الصبر!». في كل دقيقة من الدقائق الثلاثمئة التي ضاعت في الاجتماع، كنت توّاقة جداً إلى أن أغادر المكان، ومثلي كان أعضاء الوفد السوري بأكمله. نظر بن أهارون إلينا، وقال: «قبل أن نبدأ المفاوضات، هل يمكنكم أن تخبروني، أتعترفون بي دولة مستقلة؟ إن لم تعترفوا، فما الداعي إلى أن تتفاوضوا مع إسرائيل؟ حين تجلسون وتتكلمون معي، فأنتم تقدمون اعترافاً فعلياً بوجودي!». شعر العلاف بالترقب والقلق اللذين خيّما على الغرفة، وقرر أن يلعب اللعبة الإسرائيلية: «إذا كنت تريد مني حقاً الاعتراف بك، يا سيد أهارون، عليك أولاً أن تخبرني ما هي حدودك؟»(١٢). رفض بن أهارون الإجابة، منتقلاً على الفور إلى سؤاله الاستفزازي الثاني: «إذاً هل نتفق على موعد لاجتماع ثان؟ أقترح أن نوجد قنوات اتصال بيننا. ما رأيكم أن تعينوا سفيراً أو أي شخص آخر من جانبكم، ليتبادل أرقام الهواتف مع شخص من وفدنا؟ سيكون الأمر على هذا النحو كي لا نضطر إلى توسط الأمريكيين كلّما أردنا التكلم مع سورية. يمكننا التحدث مباشرة»(١٣). استشاط العلاف غضباً وأجاب: «إنني أسمع أشياء لا علاقة لها بتاتاً بآداب المفاوضات وأسسها! وأنا لست هنا لأستمع لمثل هذا الجدل». كان العلاف يتمتع بروح دعابة حادة جداً، شديدة السخرية في بعض وجوهها. وقد أضاف بسرعة: «هل لديك أية مسائل أخرى لا علاقة لها بموضوعنا تريد طرحها على الطاولة؟»(١٤). لقد سارت بنا الجولة الأولى من المفاوضات على طريق

---

(١١) المصدر نفسه.
(١٢) المصدر نفسه.
(١٣) المصدر نفسه.
(١٤) المصدر نفسه.

طويلة لم توصلنا في نهاية الأمر إلى أي مكان. اعتبر الأمريكيون أن إنجازاً خارقاً قد تحقق، أما نحن في سورية فقد أدركنا أن المفاوضات التي لم تحقق شيئاً، أدّت إلى فشل مؤتمر مدريد فعلاً. لكن رأي مهندس المؤتمر، جيمس بيكر، كان مختلفاً، فقد كتب في مذكّراته: «بكل ميزان منطقي، كان مؤتمر مدريد انتصاراً مدوّياً. وقيمته التاريخية الدائمة كامنة في محض حدوثه»[١٥]. كما قال بيكر للصحفيين في الثلاثين من تشرين الأول/ أكتوبر: «لا بد لنا من أن نزحف قبل أن نمشي، ولا بد من أن نمشي قبل أن نركض. وأرى أننا اليوم بدأنا جميعاً بالزحف»[١٦].

أنا أعتقد أن الزحف هو فعل بشري يتطلب جهداً عظيماً، يقوم به الناس الخاضعون للاحتلال أو الخوف، أو المختبئون، أو المتعرضون لهجوم. ومع أنني أتفهم التشبيه الذي أورده بيكر، فإنني لا أظن أن أحداً كان بحاجة إلى الزحف إلى مدريد. ويمكنني أن أقول بحزم، بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن زملائي، إن سورية لم تذهب إلى مؤتمر السلام في مدريد زاحفة ولا سائرة، بل كانت، كالجنود في عرض عسكري، تخطو بانتظام وثبات، ورأسها مرفوع، إذ كنا نعرف أين نقف وما نريد تحقيقه. كنا مسلحين بقراري الأمم المتحدة، اللذين كان ينبغي أن يضمنا حلاً قانونياً وعادلاً ودائماً للصراع العربي - الإسرائيلي. فنحن أصحاب أرض محتلة وافق المجتمع الدولي على وجوب عودتها إلى سورية. وكان لنا رئيس حكيم عاش فترة الحرب، وهو يكره الحروب ويريد السلام الذي يراه رسالة نبيلة هو مدين بها لمواطنيه. وكانت هناك إدارة بوش التي أبدت استعداداً لأن تسير المسافة الإضافية من أجل السلام. لكن لسوء الحظ، كانت هناك حكومة إسرائيلية هي ببساطة غير مهتمة، وبدا أنها لم تأتِ إلى مدريد سوى لتقدم «استعراض سلام» لتستهلكه وسائل الإعلام العالمية، في حين كانت تفعل كل ما هو مناقض لدعم السلام في الشرق الأوسط.

ثالثاً: اجتماع الشرع وروس

عاد صنّاع السلام السوريون إلى دمشق في أوائل شهر تشرين الثاني/نوفمبر، وقد خلفوا المؤتمر بكل مثالبه وراءهم، وهم يشعرون بالإحباط لأنهم لم يتوصلوا إلى أي شيء ملموس في مدريد. وقد وصف الأمريكيون المؤتمر منذ ذلك الحين بأنه معلم

(١٥) Baker III and DeFrank, *The Politics of Diplomacy: Revolution, War, and Peace, 1989-1992,* p. 512.

(١٦) المصدر نفسه.

مهم في تاريخ الشرق الأوسط. أما في نظر السوريين، فقد كانت نتائج مؤتمر السلام في مدريد تعادل الصفر في ما يتعلق بسورية. وكما سيثبت هذا الجزء من الفصل، فشلت أيضاً المحادثات التي جرت في واشنطن في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١. ومغزى مؤتمر مدريد، الذي كان له مدلول رمزي كبير لكلٍّ من بيكر وبوش، بدا ضعيفاً لنا نحن السوريين. وبصراحة، ما كان ذا أهمية لنا هو النقطتان المرجعيتان اللتان تمّ الاتفاق عليهما في مدريد، وهما مبدأ الأرض مقابل السلام، والالتزام الدولي بقراري مجلس الأمن الرقمين (٢٤٢) و(٣٣٨). ولكن بعد مدة قصيرة من عودتنا من مدريد، قرر الكنيست ضم مرتفعات الجولان رسمياً إلى إسرائيل، وكأنه يقذف وجوه صنّاع السلام بالتراب. وكانت إسرائيل تعلن ذلك بطرق مختلفة كثيرة: «لقد أجْبَرَنا الرئيس بوش على الذهاب إلى مدريد. لكن ليس لنا أي شأن بعملية السلام التي بدأها البيت الأبيض بقيادة بوش، لأننا غير مهتمين بها إطلاقاً». وقد سمعت الدوائر العليا للسلطة في دمشق الرسالة عالية وواضحة، لكن بالرغم من الردّ الإسرائيلي المفرط في السلبية، لم نفقد الأمل ووضعنا ثقتنا في الرئيس الأسد.

في ٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩١، اجتمع وزير الخارجية الشرع بسفير الولايات المتحدة الجديد إلى سورية كريستوفر روس. كان روس مثل إدوارد دجرجيان، يتمتع بمعرفة جيدة بالوطن العربي، فقد كان سفيراً لبلاده في الجزائر في الثمانينيات من القرن العشرين، ومبعوثاً للرئيس الأمريكي إلى لبنان، ويتكلم اللغة العربية بطلاقة. في ذلك الاجتماع نقل هذا الدبلوماسي الأمريكي تقييم بلاده لمؤتمر مدريد، وعبَّر وزير الخارجية بدوره عن غضب سورية من عملية الضم التي قامت إسرائيل بها حديثاً. وأضاف الشرع أن الرئيس الأسد والشعب السوري يشعران بالرضا عن أداء وفدنا في مدريد[١٧]. ولكن هناك شعور بخيبة الأمل البالغة تجاه الإسرائيليين، وكذلك تجاه خطاب الرئيس بوش الافتتاحي[١٨]. فكما ذكرتُ من قبل، على الرغم من تأكيدات وزير الخارجية الأمريكي، لم يشر بوش إلى مبدأ الأرض مقابل السلام أو إلى قراري مجلس الأمن الدولي الرقمين (٢٤٢) و(٣٣٨). وأوضح الشرع: «تعبيراً عن حسن نيتنا نحو الولايات المتحدة... لم نذكر شيئاً لوسائل الإعلام في هذا الصدد»[١٩].

---

(١٧) أرشيف وزارة الخارجية السورية، محضر اجتماع الشرع - روس، ٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩١.
(١٨) المصدر نفسه.
(١٩) المصدر نفسه.

لكن روس كان ينظر إلى النصف المليء من الكأس، وامتدح مؤتمر مدريد، معتبراً أنه إنجاز دبلوماسي خارق، مع التشديد على الرغبة في المتابعة من حيث توقف المؤتمر. قرأ الشرع الفقرة قبل النهائية من الصفحة الأولى من تقييم الولايات المتحدة لمؤتمر السلام في مدريد، التي ورد فيها: «إننا نعتقد اعتقاداً جازماً أننا سنعبر إلى بداية حاسمة ومرحلة جديدة في الشرق الأوسط إذا قُدّر للمحادثات الثنائية أن تنطلق». وفجأة اعترض وزير الخارجية، مبيناً أن المحادثات الثنائية قد بدأت فعلاً في مدريد. ما الذي يريده الإسرائيليون والأمريكيون أكثر من ذلك؟ لقد أوضح الرئيس الأسد أن المباحثات بين طرف وآخر حول المسائل المتعلقة بالمياه والحدود والأمن لن تبدأ ما لم يتم الاتفاق على المبادئ الجوهرية مع الإسرائيليين. ثم أخبر روس بما قاله بن أهارون لنا في الجولة الأولى من المحادثات في ٣ تشرين الثاني/ نوفمبر، فقد عبّر عن رغبته في التحدث مع سورية مباشرة متجاوزاً الولايات المتحدة. في البداية، لم يبد روس اهتماماً بهذا الأمر، قائلاً إن ذلك كان دردشة غير رسمية، وليس طلباً رسمياً. وأضاف الشرع أنه لو كان الإسرائيليون يريدون السلام حقاً، «فلماذا تضرب إسرائيل جنوب لبنان وتستمر في بناء المستوطنات في فلسطين؟». ثم طرح الشرع موضوع قرار إسرائيل بأن يقتصر استخدام محادثات مدريد على كونها فرصة لمناقشة مكان آخر للمحادثات، واقتراح القاهرة كأفضل خيار: «ما المفترض أن يكون معنى ذلك؟ ليس تغيير المسرح بعد جلسة واحدة هو الشيء الذي اتفقنا عليه، يا سعادة السفير! أرجو أن تنقل هذا مع التشديد إلى السيد بيكر»[٢٠].

من الواضح أن الإسرائيليين كانوا يحاولون إضاعة الوقت للتهرّب من أية محادثات جدّية مع العرب، وذلك بإشغال جميع الفرقاء بموضوع موقع المحادثات، وليس محتواها. أضاف الشرع: «لقد ذهبنا إلى مدريد نحن والمندوبون العرب الآخرون بناء على مبادرة الرئيس بوش. لكن إسرائيل لم تشر إلى صيغة «الأرض مقابل السلام» التي رسم رئيسكم خطوطها العريضة. وبدلاً من ذلك تحدّث الإسرائيليون عن خطة شامير! من الضروري أن يعقد ما تبقى من المؤتمر في دولة واحدة ومدينة واحدة وبناء واحد. ونحن مستعدون للذهاب إلى أية دولة ليست لديها مشاعر عداء تجاه سورية أو تجاه إسرائيل»[٢١].

---

(٢٠) المصدر نفسه.

(٢١) المصدر نفسه.

١ - الجولة الأولى

تقرر في ما بعد أن يتوجه الفرقاء جميعاً إلى الولايات المتحدة لإجراء جولات جديدة من المباحثات في واشنطن العاصمة. وبنظرة استرجاعية، أعتقد أن مدريد كانت نموذجاً أولياً لما ينتظرنا في واشنطن: كلام طنان، وآمال كبيرة، وساعات طويلة من السفر، ومعاناة مشكلات اختلاف الوقت، واللوجستيات المنهكة؛ هذا إن لم يذكر فراق الأهل والأصدقاء. وصل وفدنا برئاسة موفق العلاف إلى واشنطن، وبدأنا جلستنا الأولى مع الإسرائيليين في وزارة الخارجية في الساعة العاشرة من صباح يوم الثلاثاء العاشر من كانون الأول/ ديسمبر. وفي أماكن أخرى من البناء نفسه، كان أعضاء الوفدين الأردني والفلسطيني موجودين، يناقشون مع الإسرائيليين المسارين الخاصين بهم. ومن الضروري الإشارة إلى أن الأمريكيين غابوا عن كل هذه الاجتماعات بناء على طلب مباشر من الإسرائيليين.

استأنف السوريون المحادثات من حيث توقفت في مدريد قبل شهر، أي بقراري مجلس الأمن الدولي الرقمين (٢٤٢) و(٣٣٨). وفعل الموفد الإسرائيلي الأمر نفسه بالإشارة إلى سؤال العلاف عن «أية مسائل أخرى لا علاقة لها بموضوعنا تريد [أي يريد الإسرائيليون] طرحها؟»[٢٢]. قال المسؤول الإسرائيلي: «إذا كنت ستقرر بالنيابة عني ما له علاقة بموضوعنا وما ليست له علاقة، فبإمكاني أن أقرر نيابة عن السوريين ما له علاقة وما ليست له علاقة». ابتسم العلاف، ولم يفقد هدوءه: «هذا شيء أنت تقرره، ولا يعنينا أبداً. كل ما أقوله هو أننا مستعدون لبحث كل ما يتعلق بعملية السلام فقط، بناء على قراري مجلس الأمن الرقمين (٢٤٢) و(٣٣٨)». عندها انتقل بن أهارون إلى شرح مفصل للسبب الذي يجعله يفضل استعاضة مدريد إما بالقاهرة أو بالقدس المحتلة، معبّراً عن أنه «غير مرتاح للموقف العربي». كان من الواضح أنه منزعج من إصرار سورية على «اتفاقية سلام شاملة»، مشيراً إلى أن «فكرة الأرض مقابل السلام هي فكرة تفسيرية وغير ملزمة، ما دامت لم تُذْكَر بحرفيتها في قراري مجلس الأمن الرقمين (٢٤٢) و(٣٣٨)». وفي النهاية، خاطب رئيسَ وفدنا معبراً عن قلقه جرّاء مقابلة أجرتها صحيفتنا اليومية **تشرين** مع العلاف حديثاً، وبالتحديد في ٨ تشرين الثاني/ نوفمبر. واستناداً إلى قول بن أهارون، أساء العلاف اقتباس كلام شامير في المقابلة بأكملها، وأشار إليه بطريقة

(٢٢) أرشيف وزارة الخارجية السورية، محضر الاجتماع الأول في وزارة الخارجية الأمريكية، ١٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١.

مهينة. وأضاف أن تلك المقابلة «تركت علامات استفهام كبيرة في عقول الإسرائيليين، وإن أردت حرباً إعلامية، فهذا تماماً ما ستحصل عليه يا سيد علاف». وقال لنا إن هذا الخطاب لا يختلف عن قرار الأمم المتحدة الذي دعمته سورية، والذي يساوي بين الصهيونية والعنصرية. «إذا كنتم تريدون السلام مع إسرائيل، يمكنكم البدء بتقديم طلب إلى الأمم المتحدة لاعتبار ذلك القرار باطلاً ولاغياً». وأضاف أن مثل هذا التشريع المناهض لإسرائيل يؤدي إلى نتائج عكسية وفي ما يخص تل أبيب «يجب إلقاؤه في نهر الهدسون»(٢٣).

لم تنته قائمة الإملاءات الإسرائيلية الطويلة عند تلك النقطة. فقد تابع بن أهارون حديثه، وذكر جورج حبش، قائد المقاومة الفلسطيني، وزعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي كان مقرها في دمشق. لقد كنا نراه مقاتلاً من أجل الحرية، أما بن أهارون فكان يراه إرهابياً، وقال: «لم لا تطردونه، كحد أدنى، من أرضكم؟ لو كان الأمر لي، لوضعته تحت تراب أرضي!»(٢٤).

أذكر أنني جلست في مكاني، وقد اتسعت عيناي من الدهشة والصدمة، فقد أذهلتني وقاحة بن أهارون. وأخذت أكرر لنفسي إنّ ما يحدث هو شيء لا يُصدّق. فهذا الرجل موجود هنا ليتحدث عن القتل لا ليتفاوض. ومن الواضح أن ذلك الاجتماع، مثل كلّ الاجتماعات التي سبقته والتي تلته، لم يؤد إلى شيء. كان خمساً وخمسين دقيقة إضافية من الحوار الضائع مع الطّرشان. كان بن أهارون شخصاً استفزازياً يفتقر إلى الحدّ الأدنى من اللباقة، ومن أدب المفاوضات. وحين حان دور العلاف في التكلم، احتد في مخاطبة محاوره، وذكّره بالمذابح التي ارتكبتها دولة إسرائيل ضد الفلسطينيين والعرب من مختلف الجنسيات في سورية ولبنان والأردن: «ولكن لسنا بحاجة إلى العودة إلى زمن بعيد في التاريخ، يا سيد أهارون. بينما كنا نجتمع في مدريد، كان جيشكم ينفّذ عمليات إرهاب دولة وحشي، بقصفه قرى ومدناً بأكملها في جنوب لبنان. لقد قتلتم الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال. أليس هناك شيء من السخرية في أنكم في الوقت الذي كنتم تترأسون فيه وفد بلادكم إلى مؤتمر سلام دولي، كان «جيش الدفاع الإسرائيلي» يمارس إرهاب الدولة؟»(٢٥).

---

(٢٣) المصدر نفسه.
(٢٤) المصدر نفسه.
(٢٥) المصدر نفسه.

وتابع العلاف كلامه قائلاً إنه أثناء أول اجتماع سوري إسرائيلي في مدريد، «أعلنت حكومتكم عن بناء مستوطنات جديدة في الجولان المحتل. ومنذ انعقاد مؤتمر مدريد قبل أقل من شهرين، قتل جنودكم «الشجعان» عشرات الفلسطينيين. وها أنت هنا، بعد كل إراقة الدماء هذه، تنتقد مقابلة أجريتُها في بلدي وتشوّه ما قلتُه في تلك المقابلة!». وختم العلاف كلامه غاضباً: «لو أردنا أن نأخذ بتصريحاتك السابقة وتصريحات رئيس وزرائك على علاتها، لما كنا نجلس هنا اليوم!»[٢٦].

وبينما كنتُ أراقب وأسمع ما يدور أمامي، كنت في أعماقي أفكّر في مدى عقم هذا الجهد، كما بدأ يتبيّن لي. «ربما يجب ألا نكون هنا، فمن الواضح أنهم غير مهتمين ولا يريدون سوى تفادي اللوم على إخفاق مؤتمر السلام». ومع أن الجو كان مشحوناً بالتوتر، فقد طلب بن أهارون اجتماعاً آخر بعد ظهر اليوم نفسه. رفض العلاف: «أعتقد أن من الأفضل لنا أن نجلس ونفكر في ما قيل، وبما لم ينجز». وأضاف أنه إذا كانت استراتيجية التفاوض الإسرائيلية ستتبع هذا النمط، فمن الأفضل إلغاء المحادثات بأكملها. وكان من الواضح أن العلاف يشعر بغضب عارم، لكنه لم يشأ أن يقول الإسرائيليون: «إن السوريين خرجوا أولاً، وهم الملامون على العجز عن التوصل إلى سلام في الشرق الأوسط».

- **المسار الفلسطيني**

بينما كنا منشغلين بالنقاش العقيم مع بن أهارون، كان الأردنيون والإسرائيليون يسيرون نحو طرق مسدودة مشابهة. كان الوفدان قد اجتمعا مرتين، وحُدِّد تاريخ الحادي عشر من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١ لعقد لقاء ثالث. وقد تساءلوا: هل من الحكمة عقد جلسة ثالثة في حين أن المسارين السوري - الإسرائيلي، واللبناني - الإسرائيلي كانا يسيران بلا هدف؟ ومن الواجب الإشارة إلى أن المحادثات مع اللبنانيين كانت صعبة أيضاً. فقد أراد الإسرائيليون لقاءات ثنائية مع مسؤولين لبنانيين لبحث موضوع الأمن، وكانوا متعطشين إلى القفز فوراً إلى معاهدة سلام لبنانية - إسرائيلية سيئة التخطيط، على غرار المعاهدة التي وقّعها الرئيس اللبناني السابق أمين الجميل عام ١٩٨٣. لكن اللبنانيين أصرّوا - بأوامر صارمة من الرئيس الهراوي - على تطبيق قرار مجلس الأمن الدولي الرقم (٤٢٥)، الذي صدر

(٢٦) المصدر نفسه.

بعد الغزو الإسرائيلي لجنوب لبنان عام ١٩٧٨، والذي ينصّ على انسحاب كامل من الأراضي اللبنانية المحتلة جميعها.

جرى نقاش بين المندوبين العرب في مقر الوفد الفلسطيني لتقرير: هل تُعلّق المحادثات جماعياً مع الإسرائيليين أم تُتابع على الجبهة الفلسطينية - مع أن المحادثات كلّها لم تكن تسير في اتجاه واضح - لتحاشي لوم الأمريكيين والمجتمع الدولي؟ وكان السؤال الثاني: إذا تهاوى المسار الفلسطيني أو الأردني، هل يجب أن يستمر السوريون واللبنانيون في محادثاتهم مع إسرائيل؟ أراد بعض أعضاء الوفد الفلسطيني أن نعبر عن أوجه قلقنا لوزارة الخارجية الأمريكية. وأراد آخرون طلب المساعدة من العربية السعودية أو من مصر، وحجتهم أنّ الأمريكيين لن يمارسوا أيّ ضغط حقيقي على الإسرائيليين من دون دعم الأطراف العربية ذات الوزن. وكان رجل الدولة الفلسطيني المحنّك حيدر عبد الشافي يميل إلى الاستمرار، مستنداً إلى أن رسالة الدعوة إلى محادثات واشنطن تحدثت عن مسار عربي - إسرائيلي وعن مسار فلسطيني - إسرائيلي منفصل، بغض النظر عن المظلة الأردنية التي أعطيت للفلسطينيين في مدريد. وأضافت زميلته حنان عشراوي - وهي أكاديمية وسياسية فلسطينية بارزة - أنها تحدّثت مرات كثيرة مع إدوارد دجرجيان، وأنه كان يقول لها دائماً: «لا تغلقوا الأبواب جميعها، ولا تدعوا صبركم ينفد! بل استمروا».

ونظر كبير المفاوضين الفلسطينيين، صائب عريقات، إلى العلاف، وطلب تفاصيل أكثر عن آخر اجتماع سوري - إسرائيلي. وأضاف: «بحسب ما تقوله وسائل الإعلام، سار الاجتماع سيراً حسناً». قال العلاف: «أبداً، يا صائب... لا صحة لأي شيء من ذلك على الإطلاق». كان قد أمضى ساعات ما بعد الظهر بأكملها، وهو يتحدث هاتفياً مع دمشق، طالباً تعليمات من الرئيس الأسد. وأضاف عبد السلام المجالي، الذي ترأس الوفد الأردني في مدريد وأصبح في ما بعد رئيس وزراء الأردن: «لقد ذكّرنا الإسرائيليين بما تم الاتفاق عليه في مدريد. وفكرة المسارين، بدلاً من مسار فلسطيني - أردني موحّد، هي اقتراح إسرائيلي في الأصل. لقد أخبرناهم أن الأردنيين بكل بساطة لا يمكنهم التحدث باسم الفلسطينيين».

وما أراده الإسرائيليون فعلاً بإصرارهم على وفد واحد هو محْو الهوية القومية الفلسطينية، بل وجعل الأمريكيين يبدون ضعفاء وسخفاء. وما يبرهن على صحة ما قاله المجالي لنا هو أنه حين أعدّت غرفتان للمحادثات، إحداهما للأردنيين، والأخرى

للفلسطينيين، أصرّ الإسرائيليون على الالتقاء بالوفدين معاً. كما رفضت إسرائيل وضع علم فلسطيني على طاولة المؤتمر في مدريد، كذلك رفضت الاعتراف بوفد فلسطيني مستقل في واشنطن. وقالت لنا عشراوي: «في البداية، كان الأمريكيون يتعاملون معنا بالتأكيد على أننا مستقلون عن الأردن. حين تكلم بيكر معنا، كلمنا على نحو مباشر، وحين أرسلت الدعوات، تلقينا دعوات مستقلة عن الأردنيين. ولكن في ضوء الإصرار الإسرائيلي، خطا الأمريكيون خطوة إلى الوراء، وتركونا لمجابهة الإسرائيليين وحدنا».

٢ - الجولة الثانية: على الطريق المسدود

في الحادي عشر من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١، وتبعاً لما خُطِّط من قبل، عقدنا اجتماعنا الثاني مع الإسرائيليين في مبنى وزارة الخارجية الأمريكية. وكما هو متوقع، لم يؤد بنا الاجتماع إلى أي نتيجة، لكونه نسخة طبق الأصل عن الاجتماع الذي جرى في اليوم السابق. فقد كرر بن أهارون المنطق نفسه، إذ سأل «ما هو السبب الذي يمنع إقامة علاقات طبيعية بين سورية وإسرائيل كتلك القائمة بين بلجيكا وألمانيا؟»[٢٧].

هذه المرة قال العلاف: «لقد قلت كل شيء، أليس كذلك؟ لكنك أخفقت في ذكر نقطة حاسمة: هل أنتم مستعدون للانسحاب إلى حدود إسرائيل كما كانت في الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧ أم لا؟ إنّ هذا، وهذا فقط، سيجعل السلام السوري - الإسرائيلي ممكناً». بعد ذلك، اجتمع العلاف إلى دجيرجيانْ للشكوى من موقف إسرائيل تجاه كل من سورية والفلسطينيين. كان هذا السفير السابق إلى سورية يعرفنا - ربما أكثر مما يُتوقع - وأدرك أننا سرنا المسافة الإضافية لإنجاح مدريد، والآن واشنطن. قال محذّراً: «الصبر يا عزيزي موفق، أرجوك أن تكون صبوراً بشأن المسائل التكتيكية. فنحن مستعدّون لاستعمال نفوذنا حين يتعلق الأمر بالمسائل الجوهرية، لكننا نفضّل الصبر في ما يخصّ التفاصيل. ومن المؤكد أن ما تم إنجازه خلال اليومين الماضيين مهم»[٢٨].

بدا أن إسرائيل تدرك أن الولايات المتحدة بحاجة ماسّة إلى قصة نجاح في الشرق الأوسط، وأنها لا تريد لمحادثات واشنطن أن تخفق مهما تكن الظروف. فهذا سيقتل الزخم الذي أُنجِز في مدريد ويحرج رئيس الولايات المتحدة ووزير خارجيته

---

(٢٧) أرشيف وزارة الخارجية السورية، محضر الاجتماع الثاني في وزارة الخارجية الأمريكية، ١١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١.

(٢٨) المصدر نفسه.

كليهما. ولمّا كانت إسرائيل تدرك تماماً نقطة الضعف هذه، فقد استغلّت إدارةَ بوش وأساءت إليها في تلك الأيام الباردة من كانون الثاني/ يناير في واشنطن. وكنت أتعجب دائماً، كيف يمكن لأشخاص، ينظر إليهم العالم بأسره على أنهم يصنعون التاريخ، أن يضيعوا وقتهم بهذه الطريقة العبثية؟ لأكون عادلة عليَّ أن أقول إن السوريين بذلوا أقصى جهودهم لتوجيه المفاوضات نحو نتائج ملموسة، لكن لم يفتقر الإسرائيليون قط إلى موضوعات يشتّتون الحديث من خلال طرحها، وحرصوا على ألا يجيبوا عن أيّ سؤال، وألا يعالجوا أية قضية حقيقية، وكي أكون صريحة من أجل التاريخ، فإننا أثناء محادثات واشنطن فقدنا الأمل كلياً في تحقيق أي سلام مع إدارة شامير. وجعلني ذلك أقلق على ابنتيّ اللتين تركتهما في دمشق. فأمهما، التي يفترض أنها تساعد في تغيير وجه الشرق الأوسط، كانت تضيع وقتها في الولايات المتحدة من دون أن تفعل شيئاً، في الوقت الذي كان فيه واجبي أماً يتطلب مني أن أكون أنا التي أرسلهما في الصباح إلى المدرسة، وأعدّ لهما وجباتهما وأضعهما في سريريهما (مع أني كنت مطمئنة إلى أن والدهما، خليل، يقوم بكلّ ذلك على أكمل وجه).

٣ - الاجتماع الثالث

جرى الاجتماع الثالث في العاشرة صباحاً من اليوم الثاني عشر من كانون الأول/ ديسمبر. وتولى النقاش هذه المرة رفيق جويجاتي، وهو دبلوماسي مخضرم كان سفيرنا إلى الولايات المتحدة في ظل إدارة ريغان، وشرح أهمية قرار مجلس الأمن الدولي الرقم (٢٤٢). ومما شرحه كان مبدأ «رفض قبول الاستيلاء على أراض بواسطة الحرب، وتحريم اللجوء إلى القوة في العلاقات الدولية». كما استشهد الجويجاتي بفقرة تشير بصراحة إلى «سحب القوات المسلحة من الأراضي المحتلة»، مبيناً أنه «لا حق يسند الادعاء بحق احتلال الأراضي، وإن بذريعة الدفاع عن النفس»[٢٩].

وأضاف أن السلام العادل والشامل مرهون بالقرار الرقم (٢٤٢). واعترض بن أهارون مرة أخرى على كلمة «شامل»، مدعياً أنه لا يمكن التوصل إلى أي سلام شامل إن لم يتحقق مع ليبيا وتونس وإيران والعربية السعودية. تولّى العلاف الردّ: «فلنحقق السلام بين سورية وإسرائيل، وسيكون هذا أحد مكوّنات السلام الشامل، وخصوصاً

(٢٩) أرشيف وزارة الخارجية السورية، محضر الاجتماع الثالث في وزارة الخارجية الأمريكية، ١٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١.

أن إسرائيل تجري مفاوضات مع أطراف أخرى أراضيها محتلة. والأمل هو أن يتوصل الأطراف جميعاً إلى سلام عادل وشامل». ثم أضاف بحزم: «فلنتفق على ألا نغادر هذه الغرفة إلا بعد أن نصل إلى شيء ملموس نقوله لشعبينا، وللعالم»[٣٠].

تراجع بن أهارون مرة أخرى، وخاض في رواية للتاريخ شديدة التحيّز ومليئة بالمغالطات، مدعياً أن الإسرائيليين، وليس العرب، هم الذين يقومون بالدفاع عن أنفسهم. وتحدث عن خروج اليهود من أوروبا، واضطهادهم في البلدان العربية، وحروب ١٩٤٨ و١٩٦٧ و١٩٧٣. واختتم قائلاً: «لا يمكنني قبول القرار الرقم (٢٤٢) في الوقت الذي أتجاهل فيه كل هذا التاريخ الذي يجب بحثه». نظر العلاف إلى ساعته، وقال: «لم يبق لدينا سوى نصف ساعة، وحتى الآن لم نتفوّه بجملة واحدة مفيدة في ما بيننا. ستؤجل الاجتماعات إلى يوم الاثنين، وأود الوصول إلى فكرة - فكرة واحدة بناءة - تشير إلى حدوث تقدم»[٣١]. وبالطبع لم يحدث ذلك.

في طريقنا بالسيارة إلى فندق هيلتون، حيث كان الوفد السوري يقيم، ألحّ على ذاكرتي مثل عربي قديم كانت أمي تردّده في كثير من الأحيان: «المكتوب (أي: الرسالة) يُعرف من عنوانه!». ومن الواضح أن العنوان الذي شهدناه، بصفتنا صنّاع سلام، لم يكن بناءً. في ذلك المساء، قمتُ وزملائي بمراجعة تسجيلات تلك الاجتماعات الثلاثة مع الإسرائيليين، وبدت لنا الاجتماعات تمارين طويلة جداً، تكاد تكون بلا نهاية، في الممارسة السياسية الفاشلة. مرة أخرى فكرت بابنتيّ ناهد ونازك، وهما تجلسان هناك في الوطن، وتحلمان بما ستحققه أمهما من آمال كبيرة. وربما كانت المسكينتان تعتقدان أنني أصنع التاريخ في الولايات المتحدة. وأنّى لهما أن تعلما أنني عالقة في فندق في واشنطن، أنتظر انتهاء العطلة الأسبوعية، وأمضي الوقت في سماع الترهات التي صدرت عن الإسرائيليين في حديثهم معنا؟ وما زاد الأمر سوءاً هو إدراكي أن من الصعوبة بمكان وضع نهاية لهذا الهراء، وسيكون ذلك محرجاً جداً لسورية. بدا وكأننا وقعنا في فخ، ولا شيء يدل على كيفية خروجنا منه أو موعد ذلك. وبعد عطلة أسبوعية مليئة بالضجر، أتى أخيراً صباح يوم الاثنين وتضمّن جدوله عقْد اجتماعنا الرابع مع الإسرائيليين.

اقترح بن أهارون تلخيص كلّ النقاط التي سبق طرحها ومحاولة العثور على أرضية مشتركة أو نقاط مشتركة. لم أستطع منع ذاتي من الابتسام لدى سماع كلماته، وقلت في

(٣٠) المصدر نفسه.
(٣١) المصدر نفسه.

نفسي: «لا توجد أية نقاط اتفاق، أيها الأحمق». وألمح العلاف إلى أننا بعيدون جداً عن تحقيق أي تقدم لأنه لم يُسمح للأمريكيين أو للروس أن يجلسوا معنا على طاولة المفاوضات. تجاهل بن أهارون هذا القول، وقال إن الأمم المتحدة ستناقش «اليوم» القرار الخاص بالصهيونية في الجمعية العامة. «هل ستحافظ سورية على موقفها المعلن عام ١٩٧٥ تجاه الصهيونية؟». اشتد غضب العلاف وازداد حنقاً فأجاب: «إنّك تضللنا فحسب بالحديث عن رغبتك في تحديد نقاط اتفاق! إنّ كل ما تفعله بدلاً من ذلك هو تكرار عبارات قلتها مليون مرة منذ بداية عملية السلام هذه!»(٣٢).

وكان الآن دوره في إعطاء بن أهارون درساً جيداً في التاريخ، مذكّراً إياه بالفظائع التي ارتكبتها إسرائيل في الأراضي المحتلة، بدءاً بعام ١٩٤٨ واستمراراً إلى الانتفاضة الفلسطينية في عام ١٩٨٧، حين طلب إسحاق رابين، الذي كان وزير الدفاع آنذاك، من «جيش الدفاع الإسرائيلي» أن «يكسر عظام الأطفال الفلسطينيين». تحمست لسماع هذا الكلام. وبدا لي أن العلاف دخل إلى ذهني وقرأ أفكاري، وهو يتكلم بهذه القوة عن هذا الضياع الرهيب للوقت. طلب أهارون وقتاً للراحة، ودعا العلاف إلى تناول الشاي معه، لكن المفاوض السوري رفض الدعوة واندفع خارجاً من الغرفة وهو في غضب شديد.

كان صباح اليوم التالي، السابع عشر من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١، بداية يوم عمل آخر لنا جميعاً. تناولنا الفطور ثم توجهنا إلى وزارة الخارجية لعقد جولتنا الخامسة من المحادثات مع الإسرائيليين. بدأ العلاف بالقول: «سألتُ أمس ثلاثة أسئلة محددة، وأطلب إجابة عنها هذا الصباح. السؤال **الأول**: هل إسرائيل مستعدة لتطبيق قرار مجلس الأمن الدولي الرقم (٢٤٢) بنية صادقة، وعلى نحو يضمن الانسحاب الإسرائيلي الكامل من كلّ الأراضي السورية التي احتلت عام ١٩٦٧؟ والسؤال **الثاني**: هل إسرائيل مستعدة، كدليل على حسن النية، لوقف بناء المستوطنات في الأراضي الفلسطينية؟ والسؤال **الثالث**: هل وفدكم مستعد للتوقف عن إضاعة وقتنا باستطرادات لا تنتهي والالتزام بالموضوعات الحاسمة ذات الأهمية في السلام العربي - الإسرائيلي؟»، بدا الهدوء على بن أهارون: «نعم لدينا خلافات جدية حول الأمور ذات الأهمية والأمور غير المهمة، وما تعدّه أنت إضاعة للوقت». أجاب العلاف: «يبدو لي أن كل ما تريدونه

---

(٣٢) أرشيف وزارة الخارجية السورية، محضر الاجتماع الرابع في وزارة الخارجية الأمريكية، ١٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١.

من هذه الاجتماعات هو أن تقولوا للأمريكيين: ها نحن نجلس ونتفاوض مع السوريين! هل أنتم مستعدون للانسحاب من الأراضي التي احتللتموها عام ١٩٦٧؟، وهل أنتم مستعدون لقبول صيغة الأرض مقابل السلام؟».

لم يجب بن أهارون. وبدلاً من ذلك، اقترح تأجيل المحادثات إلى شهر كانون الثاني/ يناير ١٩٩٢. قال العلاف إن عيد الميلاد سيحل بعد ثمانية أيام، والسوريون مستعدون للبقاء في واشنطن حتى ذلك التاريخ لإحراز أيّ تقدم واضح. واجتمع الوفدان مرة أخيرة في ١٨ كانون الأول/ ديسمبر، ومن غير المستغرب أنه لم يتحقق أي شيء. في الساعة الواحدة بعد الظهر، اجتمع الأمريكيون برؤساء الوفود كافة للاطلاع على خلاصة ما أُنجز خلال الأسبوع السابق. وفي هذه المرة كان بن أهارون أوضح جداً ومضى فوراً إلى جوهر القضية، إذ قال لنا: «إننا لن نترك الجولان إلا بعد أن تعترفوا بشرعية دولة إسرائيل، وتسمحوا لآخر يهودي أن يغادر سورية. كما أننا لن نتفاوض على تطبيق القرار الرقم (٢٤٢) إلا حين توافقون على إنهاء كل العنف».

إن أقل ما يقال عن الاجتماعات التي عقدناها في واشنطن هو أنها كانت مدعاة إلى الكآبة الشديدة. وقبل الاختتام، سأل بن أهارون - بوقاحة شديدة - عن إمكان إصدارنا بياناً مشتركاً عن محادثات واشنطن. ردّ العلاف بصوت عالٍ: «عن ماذا؟ تريد منا أن نخبر العالم أنه تم بعض الإنجاز، في حين لم نتقدم في الواقع قيد أنملة!». وهكذا حلت نهاية عام ١٩٩١ من دون تحقيق إنجاز واحد على المسار السوري - الإسرائيلي. ولم تكن المسارات الأخرى في وضع أفضل، إذ إن الفلسطينيين لم يتمكنوا من عقد اجتماعات منفصلة مع الإسرائيليين، ولم يتحقق تقدم حقيقي في أي مسار.

بعد الظهر، ذهبت لأتسوق واشتريت بعض الملابس لابنتيّ، وأنا أشعر بالبهجة لأنني سأعود أخيراً إلى دمشق. كل ما أردته هو شراء مزيد من الهدايا لابنتيّ ناهد ونازك، وركوب الطائرة لأمضي عيد الميلاد في سورية. في لحظة ما سألتُ نفسي: «هل أنا أفهم السياسة حقاً؟ ما نفع هذه المغامرة بأكملها في مدريد وواشنطن؟». وقد استمر الأمريكيون في الطلب إلينا ألا نفقد الثقة، وأصرّوا على أن الاختراقات جميعها في واشنطن كانت جيدة، وستخدم في نهاية المطاف قضية السلام في الشرق الأوسط. اليوم، وبعد ثلاثة وعشرين عاماً، أعود بذاكرتي إلى شعوري بنفاد الصبر وإحساسي بتبديد الوقت والجهد، وأقول: «كنتُ على حق!»، ما أكثر ما هدرنا من وقت! عدنا إلى الوطن صفر اليدين. وأثناء حزم أمتعتي وخلال الرحلة إلى دمشق عبر باريس، سألت نفسي

المرة تلو المرة: «هل كان الأمر يستحق هذا الجهد يا بثينة؟». كيف يمكن لأشخاص على هذا المستوى أن يبدّدوا كل هذا الوقت وهذه الطاقة، وهم يعلمون أنهم يسيرون في طريق لا نهاية له؟ لم يكن لديّ أي سبب يجعلني أتفاءل، ولكن لديّ كل الأسباب لأن أشعر بالسعادة لكوني في طريقي إلى الوطن، بعيداً عن هذه النقاشات العقيمة المحبطة. وكنت فخورة - كما كنا جميعاً - لأننا تمكّنا من دعم موقف سورية عند كل منعطف، وأثبتنا أننا أهل للثقة التي وضعها الرئيس الأسد في كل واحد منّا.

الفصل الثالث

صعود بيل كلينتون

بينما كنا نستعد للعودة إلى واشنطن، كانت الولايات المتحدة في نوبة من الهيجان، وهي تراقب الانتخابات الرئاسية لعام ١٩٩٢. كان هناك ثلاثة مرشحين رئيسيين يتنافسون في الوصول إلى البيت الأبيض: الرئيس بوش الموجود في الحكم، وحاكم أركنساس بيل كلينتون عن الحزب الديمقراطي، ورجل الأعمال المستقل روس بيرو من تكساس. كانت نسبة الرضا عن بوش بعد أدائه الناجح في حرب الخليج ٨٩ بالمئة، ورأى كثيرون أن إعادة انتخابه عالية الاحتمال. ولمّا كان هذا الأمر يعنينا في الشرق الأوسط، فقد راقبناه باهتمام شديد، من دون أن نعرف ما يمكن أن نتوقّعه من كلينتون أو بيرو، ولكن كنا في البداية واثقين بأن بوش، إن أعيد انتخابه، فسيدعم بشدّة مسار السلام، بنفسٍ توّاقةٍ إلى أن يكلّل مبادرة مدريد بالنجاح. أمّا كلينتون – الذي وضع نفسه في موضع الوسطي، أو «الديمقراطي الجديد»، كما كان يدعى في الولايات المتحدة – فلم يكن معروفاً في الوطن العربي، ولا من قِبلنا في سورية. وكان أول انتصار يحققه هو الظَّفَرُ بالانتخابات الأولية في جورجيا، وبعدها كسب بفوز ساحق الانتخابات الأولية جميعها التي أجريت يوم الثلاثاء العظيم في آذار/ مارس ١٩٩٢، الأمر الذي وضعه في الصف الأول من السباق. وفاز كلينتون بالانتخابات الأولية في ولايتي ميشيغن وإلينوي، ثم حقق نصراً كاسحاً في ولاية نيويورك، ونجاحاً بهامش بسيط في وسكونسن. وبحلول ربيع ذلك العام، كان هذا الشاب المرشح للرئاسة البالغ من العمر ستة وأربعين عاماً قد ضمن ترشيحه عن الحزب الديمقراطي. وفجأة أصبح موضع اهتمام العرب، إذ أصبحت فرصته كبيرة في أن يكون الرئيس التالي للولايات المتحدة. وفي ذلك الوقت، بدأ اسمه يظهر على الصفحات الأولى من الصحف السورية اليومية، التي تابعت الانتخابات الأمريكية عن كثب.

وبحسب مجرى الأمور في كانون الثاني/ يناير ١٩٩٢، كان كلينتون لا يزال حينذاك مجرد مرشح يطمح إلى الرئاسة. وإذا أردنا أن نحقق أي شيء ملموس في ما يخصّ السلام في الشرق الأوسط، كان علينا التعامل مع إدارة الرئيس بوش.

إنّ أقل ما يقال عن أفكاري الشخصية حول الجولة الثانية من المباحثات في واشنطن هو أنها كانت سلبية. وما زاد الأمر سوءاً كان فكرة اضطراري مرة أخرى إلى أن أترك طفلتيّ في دمشق. فما إن سمعتا أنني على وشك السفر مرة أخرى حتى خيّم عليهما الصمت، ونظرتا إليّ بوجهين حزينين عبَّرا بوضوح وإسهاب عمّا تشعران به تجاه عملية السلام في الشرق الأوسط. وتبعاً لما يعنيهما، لا بأس في أن تذهب تلك العملية إلى الجحيم لأنها تبعد أمهما عنهما. وكان زوجي خليل يكرر القول لهما: «عليكما أن تدعما أمكما لأنها تشغل وظيفة حساسة، وهي مكلفة بمهمة خاصة». كانتا وهما في سنّي الثامنة والخامسة شديدتي التهذيب، ولا تجادلان والدهما أبداً، لكن تعبيرات وجهيهما أظهرت لي كيف أن محادثات واشنطن عصيّة على الفهم بالنسبة إليهما. قلت في نفسي: لا عجب، فأمهما تشاركهما الشعور نفسه، وكذلك باقي أعضاء الوفد السوري الذين سيتوجهون إلى واشنطن.

حاولت أن أتظاهر بالشجاعة، وردّدت ما كان زوجي يقول لهما، ووعدتهما بأن أعود ومعي ثياب شتوية جميلة ومجموعة متنوعة من أقلام الرسم والتلوين. غير أنهما لم تريدا أياً من تلك الأشياء، وإنما أرادتا البقاء قريبتين من أمهما. إن الاعتقاد بإمكان تعويض الأطفال عن حبّ الأم ورعايتها باللُّعب والأشياء المادية وَهْمٌ كبير، بل وكذبة كبيرة. وقد علّمتني محادثات واشنطن أن ابنتيّ الصغيرتين لا تحتاجان إلى أقلام تلوين، وأن كل ما كنت أحاول فعله هو توفير تعويض نفسي لهما. والسبب في أنني أعود باستمرار إلى ذكر ابنتيّ هو أن كثيرين من الأمهات والآباء الآخرين، الموجودين في عملية السلام، كانوا يتركون عائلاتهم ويستقلّون طائرات متوجهة إلى واشنطن من عمّان وبيروت ورام الله ودمشق. بعضهم الآن مثلي أمهات وآباء فخورون جداً بأبناء وبنات حققوا نجاحاً كبيراً، كما أنني واثقة من أن آخرين أصبحوا الآن جدّات (مثلي أيضاً) وأجداداً فخورين، بعد مضي عشرين عاماً. فمع تقدمنا في السنّ والمعرفة، نقوم بتقييم تجاربنا وننزع إلى التفكير في ما مضى، ونتساءل: «هل ما حققناه يستحق ما بذلناه من العناء؟ أين أخطأنا؟» وبالتفاتةٍ إلى الماضي، لا أعتقد أن عملية السلام كانت جديرةً بجهدنا، لأنها ببساطة لم تنتج شيئاً على الإطلاق. ولا أدري إن كان أي من زملائي العرب يشاركني شعوري بالإحباط وأنا في طريقي إلى المطار، في حين كانت قلوبهم تعود مسرعة إلى بيوتهم، وهم يشعرون في باطنهم أن سفرهم إلى الولايات المتحدة غير مرغوب، وغير بنّاء على الإطلاق. ومهما يكن الأمر، تلك كانت حالي حين توجّهت مع باقي أعضاء الوفد السوري إلى واشنطن في التاسع من كانون الثاني/ يناير ١٩٩٢.

وصلنا إلى الولايات المتحدة في مساء بارد من أمسيات كانون الثاني/ يناير، وكان برنامجنا يقضي ببدء الجولة الثانية من المحادثات مع الإسرائيليين في الثالث عشر من ذلك الشهر. وغني عن القول إن تجربتنا في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١ لم تترك في داخلي ذرّة من التفاؤل بأننا سنحقق أي شيء ملموس في واشنطن. كان من الواضح أن الإسرائيليين غير مستعدّين للسلام، ولم يكن لدى شامير أي اهتمام به بتاتاً. وهذا هو لب المسألة! أما الأمريكيون، فمع استمرارهم في الالتزام بمبادئ مدريد - على الأقل في كلامهم - كانوا أيضاً منشغلين جداً في السباق الرئاسي، وبدا أنه لم يتبقَّ لديهم متّسع من الوقت لدخول الشبكة المعقّدة التي تمثلها سياسة الشرق الأوسط. كما بدا أن زخم السعي إلى السلام، الذي تعاظم مع دبلوماسية بيكر المكوكية بين آذار/ مارس وتشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١، قد تبخّر في الهواء.

أولاً: الجولة الأخيرة في ظل رئاسة بوش

توجّه العلاف فور وصولنا واشنطن، إلى إجراء محادثات مع المسؤولين الأمريكيين للتحضير للجلسة الأولى. وكان أيضاً، مثله مثل باقي أعضاء الوفد السوري، يتوقع أسوأ ما يمكن من بن أهارون، وأصرّ على ألا يتحدّث عن أي شيء سوى قراري مجلس الأمن الدولي الرقمين (٢٤٢) و(٣٣٨). كان لقاؤه الأول مع السفير دجرجيان، وديفيد آرون ميلر أحد مستشاري وزير الخارجية ذوي النفوذ. وحضر الاجتماع وليد المعلّم سفيرنا في واشنطن. وتنبغي الإشارة هنا إلى أن الفلسطينيين كانوا على مدى شهر كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١ في أروقة وزارة الخارجية الأمريكية، يرفضون عقد اجتماعات ضمن وفد مشترك يضمهم إلى الأردنيين، في حين رفض الإسرائيليون الاعتراف بالفلسطينيين وفداً مستقلاً يمثل شعب فلسطين. إن هذا، إضافة إلى أسباب أخرى، جعل الوضع يتوتر من اليوم الأول. وقد حاول العلاف أن يحثّ السفير دجرجيان على استعمال نفوذه الكبير لإقناع الإسرائيليين بتغيير تكتيكاتهم، وتأمين مسلك للفلسطينيين مختلف عن المسلك الذي سمعنا عنه في كانون الأول/ ديسمبر. لكن جواب السفير الأمريكي لم يكن مشجعاً، إذ قال: «نحن لا نتدخل إلا في المسائل الرئيسية، وعلى الفرقاء أن يحلوا المسائل المعلقة بأنفسهم»[1].

---

(١) أرشيف وزارة الشؤون الخارجية السورية، رسائل من الوفد السوري إلى مباحثات واشنطن، ١٣ - ١٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٢ (لقاء العلاف مع دجيرجيان وروس وميلر).

وبدلاً من أيّ عمل، كان اهتمامه هو وميلر أكثر تركيزاً على إقناع العلاف بتناول الشاي أو القهوة مع الإسرائيليين من أجل «بناء الثقة» و«إذابة الجليد» في المسار السوري - الإسرائيلي. لكن الدبلوماسي السوري سأل: «ألا يكفي أننا نفاوض الإسرائيليين فعلياً، وعلى نحو مباشر من دون وجود الأمريكيين في الغرفة؟»[٢]. وأضاف: «بدلاً من أن تطلبوا منا إشارات من هذا النوع، من الأفضل إقناعكم الإسرائيليين أن يبدوا جدّية أكبر، لا أن يطرحوا مسائل لا صلة لها بموضوعنا، مثل تغيير مكان المحادثات!»[٣]. ثم حضر العلاف اجتماعاً لرؤساء الوفود العربية، وتقرر ألا يقبل أي منهم تغيير مكان المفاوضات، وهو ما استمر بن أهارون بطلبه منذ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١. وفي استعراض لافت للتضامن، اتفق الجميع على انتظار نتيجة اجتماع في العاشرة من صباح اليوم التالي بين الفلسطينيين والإسرائيليين، لمعرفة إن كان الإسرائيليون سيوافقون على التعامل مع الفلسطينيين كوفد مستقل. وكان لدى رؤساء الوفود العربية جميعاً شكوكهم في جدّية الإسرائيليين وقدرة الأمريكيين على الضغط عليهم ليكونوا ملتزمين وبنائين فعلاً.

عقدنا ثلاث جلسات مع الإسرائيليين من ١٣ إلى ١٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٢، ولم يتحقق أي تقدم في أي منها، بل إننا لم نستطع الاتفاق على رقم نعطيه لهذه الجولة الجديدة من المحادثات في واشنطن. وفي نظرنا، كان مؤتمر مدريد الجولة الأولى، على حين كانت محادثات واشنطن في كانون الأول/ ديسمبر وكانون الثاني/ يناير هي الجولة الثانية. لكن بن أهارون طرح مقولة مختلفة، زاعماً أن محادثات «مدريد لم تكن جولة على الإطلاق، بل جلسة افتتاحية للمباحثات»، وأن محادثات واشنطن هي فعلياً الجولة الأولى[٤]. ومع أننا اعتبرنا أن محادثات شباط/ فبراير ١٩٩٢ هي الجولة الرابعة من المحادثات مع إسرائيل، فقد رآها الإسرائيليون الجولة الثالثة. وبدلاً من بحث قراري مجلس الأمن الدولي، كان الإسرائيليون مشغولين بما يجري في تل أبيب، إذ كانوا يخشون اقتراب سقوط التحالف اليميني الهزيل بزعامة شامير. أما المتطرفون، فقد هدّدوا بالانسحاب من حكومة رئيس الوزراء الهرم إذا كان ممثلوه في واشنطن سيبحثون حق تقرير المصير والهوية القومية مع الفلسطينيين. وقد نفّذ الساسة الإسرائيليون تهديداتهم، ودعوا فعلاً إلى انتخابات مبكرة في وقت لاحق من ذلك العام، وحلّ

---

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

إسحاق رابين، زعيم حزب العمل، محل شامير. وبالقدر الذي يتعلق بنا نحن السوريين، لم يكن هناك فرق حقيقي بين العمل والليكود، فما كان يهمنا هو المبدأ والالتزام. وقد استغلّ بن أهارون فترة شامير وأساء استخدامها من أجل أن يرفض الالتزام بأي أمر. وأصبح ذلك نموذجاً متّبعاً في عملية السلام استمر حتى عام ٢٠٠٠، حين ادّعى إيهود باراك أنه لا يستطيع توقيع اتفاقية سلام مع سورية بسبب الانتخابات في إسرائيل.

حين كانت حكومة شامير على وشك السقوط، دخلنا جولة أخرى من الكلام الفارغ مع بن أهارون. لقد أثيرت المسائل نفسها مراراً وتكراراً: هل سيعترف السوريون بحق إسرائيل في الوجود؟ هل سيوقفون حملات الهجوم على إسرائيل في وسائل إعلامهم؟ هل سيسمحون لليهود السوريين بالهجرة إلى إسرائيل؟ ويُقال هذا كله من دون كلمة التزام واحدة من جانب الإسرائيليين حول القرارين الرقمين (٢٤٢) و(٣٣٨)، أو أي شيء عن نقاط مدريد المرجعية. وكان الفلسطينيون يطالبون شامير بوقف بناء المستوطنات في الأراضي المحتلة، ولكن لا حياة لمن تنادي، لا في واشنطن، ولا في تل أبيب. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل حاول الإسرائيليون الإيقاع بين الوفود العربية، بالادعاء أنهم توصلوا إلى اختراقات مع الفلسطينيين، زاعمين ذلك كذباً لإغضاب السوريين، والعكس صحيح. وعلى سبيل المثال، حاولوا أن يخبروا وسائل الإعلام أنهم على وشك الوصول إلى اتفاق مع الأردنيين كي يحشروا الفلسطينيين في زاوية ويجعلوهم يوافقون على شروطهم، وفعلوا الشيء نفسه مع الوفد الأردني.

وما زاد الأمور سوءاً كان تضاؤل دور السياسيين الأمريكيين، إما بسبب الانتخابات الرئاسية، أو بسبب اللوبي الصهيوني القوي في واشنطن الذي كان معارضاً لأية صفقة مع العرب. وفي إحدى اللحظات كان موقف الأمريكيين باهتاً - بعد أن بدأ الحزب الديمقراطي ينال الأسبقية في الحملة الانتخابية - إلى حد جعلنا نفكّر جادّين في تجميد المحادثات وانتظار معرفة من سيحلّ محل بوش في البيت الأبيض.

في الحادي عشر من شباط/ فبراير ١٩٩٢، تلقى الرئيس الأسد رسالة من وزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر، حملها إليه السفير كريستوفر روس، تشرح سبب الإخفاق في تحقيق أي تقدم في واشنطن[٥]. لقد شعر القائد السوري بخيبة أمل كبيرة تجاه بوش وبيكر، موضحاً أنه «لم يتحقق أي تقدم، وقد توقعنا جدّياً شيئاً مختلفاً من

---

(٥) أرشيف القصر الجمهوري السوري، مراسلات الأسد - بيكر، رسالة مؤرخة في ١١ شباط/ فبراير١٩٩٢ (الترجمة العربية).

الأمريكيين بعد كل ما سمعناه في المحادثات التي سبقت مدريد»[٦]. وإن كان هذا هو كل ما يستطيع بوش أن يقدمه، فليس بوسع المرء سوى أن يتساءل عمَّ يمكن أن يحدث لعملية السلام إذا نجحت شخصية جديدة مثل كلينتون أو بيرو في الوصول إلى البيت الأبيض. وأكد الأسد في ردّه على رسالة بيكر، عبر السفير روس، أن «الإسرائيليين وحدهم ينتفعون من هذه المفاوضات المطوّلة والعقيمة، إذ تعتبرها إسرائيل مكسباً في وسائل الإعلام، وفي حملة علاقاتها العامة أمام الرأي العام العالمي»[٧]. وبدلاً من أن يقوم بيكر بتحليل مناسب لسبب تعثّر العرب في التوصّل إلى أية نتيجة في الولايات المتحدة، حاول إقناع الأسد بالدخول في محادثات متعددة الأطراف مع الإسرائيليين. وبدا أنه مستميت في الحصول على قصة نجاح يمكن استخدامها في الانتخابات الرئاسية التي ستجري في تشرين الثاني/ نوفمبر.

لكن الأسد كان واضحاً وضوح الشمس، إذ قال لروس: «لن نذهب إلى أية محادثات متعددة الأطراف، يا سعادة السفير، ما لم نحقق ولو قليلاً من التقدّم في المحادثات الثنائية»[٨]. وأضاف: «إننا لا نملك مؤشراً واحداً أن إسرائيل مهتمة بالسلام... ولا أي مؤشر»[٩]. ومضى الأسد في تعليقه قائلاً: «إنهم [أي الإسرائيليين] يحاولون تطبيع العلاقات مع دول عربية معينة، من دون إعادة الأراضي المحتلة أو الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني. ويفتح أطراف المجتمع الدولي جميعاً الأبواب لإسرائيل من أجل أن تسوّق نفسها صانعة سلام، بحجة مضيّ عام عليها، وهي تتحدث عن السلام وليس الحرب مع العرب»[١٠]. وقد تبدأ الآن بعض الدول التي لم تكن تقيم علاقات مع إسرائيل بالسؤال: «ما الذي يضطرنا إلى أن نكون عرباً أكثر من العرب أنفسهم؟»[١١]. قال روس للرئيس الأسد إن بوش سيتخذ «موقفاً صارماً» بشأن قرض قيمته عشرة مليارات دولار تزمع الولايات المتحدة على تقديمه لإسرائيل. وأتبع قائلاً إنّ واشنطن ستجمّد القرض إن لم يتوقف بناء المستوطنات فوق الأراضي الفلسطينية. وأضاف روس إلى ذلك، معتمداً على استفتاء أجري حديثاً، أنّ ٤١ بالمئة من الأمريكيين يعتقدون أن إسرائيل، لا العرب، هي العقبة في طريق السلام في الشرق

---

(٦) المصدر نفسه.
(٧) المصدر نفسه.
(٨) المحضر غير المنشور لاجتماع الأسد ـ روس، ١٢ شباط/ فبراير ١٩٩٢.
(٩) المصدر نفسه.
(١٠) المصدر نفسه.
(١١) المصدر نفسه.

الأوسط[١٢]. ردّ الأسد أن هذا ليس كافياً. ما يهم هو الطريقة التي بدأ المجتمع الدولي يعامل بها إسرائيل على أنها صانعة سلام، مع أنها لم توقف أياً من خطابها الحربي وعقليتها الحربية وسلوكها الحربي. وحذّر الأسد من رسائل كاذبة تُرسل إلى العالم الآن، وألقى مسؤولية ذلك على إدارة بوش.

ثانياً: كلينتون والوطن العربي

بينما كان بيكر وبوش يحاولان إنقاذ عملية السلام، كان بيل كلينتون وشريكه آل غور، المرشح لمنصب نائب الرئيس، يجتاحان الولايات المتحدة. لقد كان كلينتون وغور يقومان بجولات في أرجاء البلاد، في حين كان بوش ونائبه دان كويل في حالة واضحة من الهلع. وقد حاولا تشويه سمعة كلينتون باتهامات تراوحت بين الخيانة الزوجية والتهرّب من الجندية. وأضافا أنه لم تكن لدى كلينتون خبرة في السياسة الدولية، في حين اتكل بوش على مسيرته الطويلة في وكالة الاستخبارات المركزية، وعلى كونه نائب الرئيس في إدارة ريغان، ثم رئيساً للولايات المتحدة. لكن لم تنجح أية من هذه المحاولات، وفاز كلينتون بانتخابات عام ١٩٩٢ بنسبة ٤٣ بالمئة من الأصوات، ونال بوش ٣٧,٤ بالمئة.

أما بيرو، الذي لم تكن فرصة نجاحه قوية في الأصل، فقد أتى في المركز الثالث بنسبة ١٨,٩ بالمئة فقط. لكن الاقتصاد الأمريكي، وليس عملية السلام في الشرق الأوسط، هو الذي جعل بيل كلينتون الرئيس الثاني والأربعين للولايات المتحدة، ودفع بوش إلى التقاعد، وهو في سن الثامنة والستين. وأنهى انتصار كلينتون، الذي رأى فيه العرب بارقة أمل، اثني عشر عاماً من الحكم الجمهوري في البيت الأبيض. وهذه هي أول مرة، منذ جيمي كارتر، يتحكم فيها الديمقراطيون تحكماً كاملاً في الكونغرس. ولا شك في أن هذا سيكون له تأثير إيجابي في عملية السلام. وفي سورية شعرنا بالتفاؤل بقدوم الرئيس الجديد، الذي أُعلن أنه أصغر رئيس في تاريخ الولايات المتحدة.

في خطاب القسم الذي ألقاه الرئيس كلينتون في كانون الثاني/ يناير ١٩٩٣، قال: «كان آباؤنا المؤسسون يرون أنفسهم بعيون الأجيال القادمة. ولا يمكننا أن نكون أقل منهم. إنّ أي شخص راقب، ولو مرة واحدة، عيني طفل تخلدان إلى النوم يعرف معنى

---

(١٢) المصدر نفسه.

الأجيال القادمة. الأجيال القادمة هي العالم الآتي، العالم الذي نحافظ من أجله على مثلنا العليا، ومنهم استعرنا كوكبنا(١٣)، وتجاههم نتحمل مسؤوليات مقدسة». وأضاف: «علينا أن نفعل ما تفعله أمريكا على أفضل وجه، وهو توفير فرص أكثر للجميع ومطالبة الجميع بمسؤوليات أكثر. لقد حان الوقت لخرق العادة القديمة في أن نتوقع الحصول على شيء مقابل لا شيء: من الحكومة أو بعضنا من بعض. فلنتحمل جميعنا مسؤولية أكبر، ليس عن أنفسنا وعائلاتنا، ولكن عن مجتمعاتنا ودولنا»(١٤). وهذا هو ما فعله بالضبط أثناء سنواته في البيت الأبيض: توفير فرصة أكبر للسلام والحوار في الشرق الأوسط. وحين أعود بذاكرتي إلى تجربتنا مع كلينتون، التي سأتعرض لها بالتفصيل في الفصول التالية، يمكنني أن أقول بثقة إن علاقتنا به كانت أكثر نضجاً وجدّية وإيجابية، وقد حققت اختراقات كبرى في العلاقات السورية - الأمريكية. وتوصل كلينتون إلى علاقة عمل ممتازة بالرئيس الأسد، مبنية على الثقة والاحترام، وربما كانت أقوى من العلاقة بأي من أسلافه، وقد استمرت هذه العلاقة حتى وفاة الرئيس السوري عام ٢٠٠٠. وفي الواقع، اقتربنا جداً من الوصول إلى السلام في عهد كلينتون. وهذا لم يتم في نهاية الأمر، لا بسبب الرئيس الأمريكي، بل بسبب عوامل أخرى خفية سأحاول توضيحها أثناء تدرُّجنا في تحليل عملية السلام.

ولكن لم تكن عملية السلام في ذهنه خلال ساعاته الأولى في الرئاسة في العشرين من كانون الثاني/ يناير ١٩٩٣، ولم يأت ذكر للعرب أو للإسرائيليين في خطاب القسم.

في ٢١ شباط/ فبراير ١٩٩٣، قام وارن كريستوفر وزير الخارجية الأمريكي الجديد في إدارة كلينتون بأول زيارة له إلى دمشق لمقابلة الرئيس الأسد. كان كريستوفر سياسياً أمريكياً من داكوتا الشمالية محنّكاً ومتمسّكاً بمبادئه، وقد عمل في السابق نائباً للمدّعي العام (وزير العدل) حين كان ليندون جونسون رئيساً، ونائباً لوزير الخارجية في إدارة الرئيس كارتر. كانت لديه معرفة جيدة بالشرق الأوسط، وكما ستثبت تجربتنا معه، كان يعرف أيضاً ما هو المطلوب لتحقيق نتائج في عملية السلام العربية - الإسرائيلية. وقد أخبر كريستوفر الرئيس الأسد أن السلام في الوطن العربي هو من أهم أولويات الرئيس الأمريكي الجديد. ابتسم الأسد، فقد سبق له أن سمع الكلام نفسه في عدد مفرط من

---

(١٣) أي الجيل الكبير الذي شارفت حياته على النهاية، يعيش على أرض يمتلكها الجيل الصغير... فكأنه يستعيرها منهم ريثما تنتهي [مدة إقامته].

(١٤) Shirley Anne Warshaw, *Clinton Years (Presidential Profiles)* (New York: Facts on Files Database, 2004), p. 369.

المرات من إدارات الرؤساء نيكسون وكارتر وبوش. وقال يُذَكِّر كريستوفر: «إنّ الإدارة السابقة كانت جادة أيضاً، لكن حين بدأت الانتخابات، توقف كل ما له علاقة بالسلام توقفاً تاماً وثقيلاً»(١٥). غير أنّ وزير الخارجية الأمريكي أصرّ على أن هذه المرة مختلفة. وشدد على التزام كلينتون بالسلام، ووعد بأن يضع ثقل دولته كاملاً لدفع العملية التي بدأت في مدريد. وقال للأسد: «إننا ملتزمون بالنقاط المرجعية وبرسالة الضمانات التي قدمها الوزير بيكر»(١٦). ثم سلّم الأسد رسالة كتبها كلينتون، تؤكد الشراكة الأمريكية الكاملة في عملية السلام. «إن الرئيس مستعد للتعاون الوثيق مع سورية لإحداث تغيير إيجابي في العلاقات بين سورية والولايات المتحدة»(١٧). وكان الأسد على استعداد لافتراض النية الحسنة لدى كريستوفر في غياب ما يدل على العكس، وهذا ما فعله تماماً مع بيكر قبل عامين، وقال: «سيعمل الجميع لإنجاز السلام. العالم بأسره بحاجة إلى السلام، وربما كانت إسرائيل، التي أعاقت السلام منذ مؤتمر مدريد، هي الطرف الأشدّ حاجة إلى السلام»(١٨).

ثالثاً: اتفاقيات أوسلو

بعد خمسة أسابيع من دخول الرئيس كلينتون إلى البيت الأبيض، عقد أول اجتماع لمجلس الأمن القومي في ٣ آذار/ مارس ١٩٩٣. ولم يكن على قائمة أمور السياسة الخارجية الملحّة لرئيس الولايات المتحدة الجديد حتى ذلك الحين سوى البوسنة والصومال وهايتي. ولكن كان مقدّراً لزيارة وارن كريستوفر للشرق الأوسط أن تحدث تغييراً في ذلك، باعتبار أنه قد أنهى قبل وقت قليل جولة ناجحة في الوطن العربي، تضمنت محطة قصيرة في دمشق. وقدم وزير الخارجية الجديد تقريراً عن زيارته إلى سورية، التي كانت الأولى من تسع عشرة زيارة قام بها للعاصمة السورية، وقال إن الرئيس الأسد وعد بإقامة «سلام كامل مع إسرائيل» إذا تم «الانسحاب الإسرائيلي الشامل من مرتفعات الجولان». وبحلول عام ١٩٩٣، كان إسحاق شامير قد أُخرِج من منصبه وحل محله إسحاق رابين، السياسي الثقيل الوزن من حزب العمل، البالغ من

(١٥) المحضر غير المنشور لأول اجتماع بين الأسد - كريستوفر، ٢١ شباط/ فبراير ١٩٩٣.
(١٦) المصدر نفسه.
(١٧) أرشيف القصر الجمهوري السوري، مراسلات الأسد - كلينتون، شباط/ فبراير ١٩٩٣ (الترجمة العربية).
(١٨) المحضر غير المنشور لأول اجتماع بين الأسد - كريستوفر، ٢١ شباط/ فبراير ١٩٩٣.

العمر واحداً وسبعين عاماً، والذي سبق أن شغل هذا المنصب في السبعينيات من القرن العشرين. وأثناء الانتخابات الإسرائيلية في حزيران/ يونيو ١٩٩٢، أعلن رابين أنه «لن يترك الجولان أبداً»، لكنه بدلاً من ذلك «سيحلّ المشكلات» في الضفة الغربية وغزة خلال الأشهر التسعة الأولى من شغله منصبه، ويعطي الفلسطينيين حكماً ذاتياً محدوداً في الأراضي المحتلة. وهذا الموقف جعل توقعاتنا من المسؤول الإسرائيلي الجديد ضئيلة جداً. فهو في الواقع لم يضف جديداً إلى محادثات واشنطن التي استؤنفت بيننا وبين الإسرائيليين في نيسان/ أبريل، سوى أنه استعاض عن بن أهارون بمسؤول إسرائيلي آخر متطرف في موقفه، وهو إتامار رابينوفتش الذي أصبح في وقت لاحق سفير حكومته إلى الولايات المتحدة.

نظرتْ واشنطن إلى رابين على أنه «جنرال عسكري شهد حروباً أكثر مما ينبغي وينوي الآن إنهاءها»[١٩]. كان المسؤولون الأمريكيون معجبين به واعتبروه شخصاً مطلعاً على شؤون واشنطن من الداخل، استناداً إلى أنه كان سفير إسرائيل إلى الولايات المتحدة لعدة سنوات. وحين زاره وارن كريستوفر في تل أبيب في أوائل عام ١٩٩٣، أبدى رابين اهتماماً بما قاله الرئيس الأسد للأمريكيين قبل مدة قصيرة، وذلك في تباين مدهش مع كل الخطابة التي استخدمها في الانتخابات الإسرائيلية. وبحسب قول مارتن إنديك، مستشار الرئيس كلينتون في أمور الشرق الأوسط: «استنتج رابين أن على إسرائيل التركيز على المسار السوري. وشرح لكريستوفر أن الأسد قائد قادر على اتخاذ قرارات، وأن السلام مع سورية سيكون إنجازاً استراتيجياً لإسرائيل»[٢٠]. لكن رابين لم يشأ أن يوضح مدى الانسحاب الإسرائيلي إلا بعد أن يَقبل الأسد باتفاقية سورية - إسرائيلية «تقف على قدميها»[٢١].

وبكلمات أخرى، كان يريد صفقة مع الأسد مستقلة عن المسارات الفلسطينية والأردنية واللبنانية. لكن الرئيس السوري لم يكن راغباً في صفقة منفردة. إن العالم الآن يحتفي برابين على أنه «صانع سلام ثاقب الرؤية،» ويتذكّر كيف فاز هذا الجنرال المتقاعد بجائزة نوبل للسلام بعد توقيع اتفاقيات أوسلو في عام ١٩٩٣. ولكن في ما يتعلق بنا في سورية، لم يكن رابين في الفترة (١٩٩٢ - ١٩٩٣) سوى وزير دفاع سابق

---

(١٩) Martin Indyk, *Innocent Abroad: An Intimate Account of American Peace Diplomacy in the Middle East* (New York: Simon and Schuster, 2009), p. 15.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٨.

(٢١) المصدر نفسه.

متصلب، أمر بـ «كسر عظام الأطفال الفلسطينيين» أثناء الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧[٢٢]. وسواء أكان رابين أم شامير، فليس هناك فرق بينهما في عيوننا نحن صانعي السلام. وفي سورية كان تركيزنا على النيات والالتزام والأعمال، وليس على الكلمات والشخصيات. وإن كان رابين يريد صفقة منفردة مع دمشق، فهو لم يفهم حافظ الأسد بعد.

ما أقنعنا أن رابين ليس مستعداً للسلام هو الأسئلة التي طرحها على الرئيس كلينتون حين اجتمعا أول مرة في واشنطن في آذار/ مارس ١٩٩٣، إذ سأل حينذاك: «هل ستضطر إسرائيل إلى الانسحاب الكامل من الجولان؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما الشيء الذي ستكون الولايات المتحدة مستعدة لفعله؟ هل الرئيس [الأمريكي] مستعد لوضع قوات أمريكية في الجولان لتحل محل الجيش الإسرائيلي؟»[٢٣]. وسئل كولن باول الذي كان آنذاك رئيساً لهيئة الأركان المشتركة الأمريكية: هل ستتخلى إسرائيل حقاً عن الجولان في أي وقت من الأوقات؟ فقال لكلينتون إنه «ما من ضابط عسكري يريد التخلي عن هذا»[٢٤]. وكانت نصيحته المهنية هي أن الولايات المتحدة تحتاج إلى إدخال لواء من الجنود الأمريكيين (نحو أربعة آلاف جندي) إلى الجولان للتأكد من استمرار أية اتفاقية سورية - إسرائيلية[٢٥]. كان هذا أكبر كثيراً من الكتيبة الواحدة من الجنود الأمريكيين (وهي تشكيل قد يصل عدد أفراده إلى ألف جندي) التي انتشرت في شبه جزيرة سيناء بعد اتفاقيات كامب ديفيد، وزاد هذا من اقتناعنا بأنه لم يستوعب أي من باول أو كلينتون أو رابين النضج السياسي المطلوب لتحقيق «سلام عادل وشامل» في الشرق الأوسط. وكان الرئيس الأسد سيرفض اقتراحاً من هذا النوع رفضاً قاطعاً، على اعتبار أنه لن يقبل أبداً أن تحل قوات عسكرية أمريكية محل الجنود الإسرائيليين في مرتفعات الجولان. وسأل كلينتون رابين: «هل تعتقد أنه سيكون ممكناً عقد اتفاقية سلام من دون الانسحاب الإسرائيلي الكامل من مرتفعات الجولان؟»[٢٦]. أجاب رابين جواباً صريحاً: «كلا!»[٢٧]. عندئذ طرح الرئيس الأمريكي سؤالاً آخر: «إذا توصلتم إلى اتفاقيات أمنية مناسبة كما حدث في سيناء - تدعمها قوات أمريكية - وإذا جاءكم عرض سوري صادق للسلام،

---

(٢٢) Spencer C. Tucker, *The Encyclopedia of the Arab-Israeli Conflict: A Political, Social, and Military History*, 4 vols. (Santa Barbara, CA: ABC-CLIO, 2008), p. 473.

(٢٣) Indyk, Ibid., p. 18.

(٢٤) المصدر نفسه.

(٢٥) المصدر نفسه.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٢٨.

(٢٧) المصدر نفسه.

وإذا كانت الاتفاقية لا تحتاج إلى دعم خارجي، فهل ستكون إسرائيل مستعدة للانسحاب من الجولان؟». أجاب رابين: «لا أستبعد هذا الاحتمال»[٢٨].

في التعليق على ذلك الاجتماع، قال مارتن إنديك في مذكّراته **بريء في الخارج** التي نشرت عام ٢٠٠٩: «حين يتعلق الأمر باحترام السوريين لنصوص معاهداتهم، فهم يلتزمون بها بكل حذافيرها. فالأسد التزم التزاماً دقيقاً باتفاقية فصل القوات في مرتفعات الجولان التي كانت نتيجة مفاوضات كيسنجر عام ١٩٧٤، ولم تحدث سوى حادثة عنف ثانوية واحدة في ما يقرب من عشرين سنة»[٢٩]. لكن كلينتون أدرك أن النيات الطيبة لا تكفي لتحقيق السلام مع سورية، وأن أية اتفاقية سلام تتطلب ضغطاً كافياً من الولايات المتحدة على رابين من أجل بحث الحقوق المائية وأنظمة الإنذار المبكر الفعالة والمناطق المنزوعة السلاح والانسحاب الكامل من الجولان. وهذا يفسر سبب مناداة كلينتون باتفاقية «سورية أولاً» في الصراع العربي - الإسرائيلي، وعمله الجدّي لإنجاز ذلك خلال ولايته الثانية، التي انتهت عام ٢٠٠١. لكن الواقع في عام ١٩٩٣ كان شديد الاختلاف عما أراده كلينتون.

قبل توقيع اتفاقيات أوسلو التي سيأتي بحثها بالتفصيل في مكان لاحق من هذا الفصل، عقد الفريق السوري ثلاث جولات من المحادثات مع الإسرائيليين في واشنطن، وكلها، كما سبق أن ذكرتُ، كانت تعادل في عقمها الجولات التي جرت خلال الأشهر الأخيرة من إدارة بوش. وقد بدأت الجولة التاسعة في ٢٦ نيسان/ أبريل، واستمرت حتى ١٣ أيار/ مايو، وبدأت العاشرة في ١٤ حزيران/ يونيو، واستمرت حتى ١ تموز/ يوليو، وجرت الجولة الحادية عشرة ما بين ٣١ آب/ أغسطس و٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣. ولم يكن محتواها جميعاً سوى أقوال منمّقة (لكنها عديمة الفائدة). وعلى سبيل المثال، يذكر التركيز على مقابلة صحفية أجراها أحدهم في الخمسينيات، أو على موقف اتخذته دولة عربية قبل عشر سنوات. ولم تتناول الجلسات أياً من المسائل الجوهرية التي طرحها كلينتون في اجتماعه في غرفة مجلس الوزراء في البيت الأبيض في شهر آذار/ مارس.

حين وصلنا إلى واشنطن في آب/ أغسطس ١٩٩٣، سمعنا شائعات عن اتفاقية منفصلة يجري التفاوض فيها بين ياسر عرفات والإسرائيليين في مكان ما في أوروبا. في البداية لم نأخذ تلك الشائعات على محمل الجدّ، إلى أن سمعنا ذات يوم الخبر الذي

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٢٩.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٢١.

أدهشنا كثيراً على قناة «سي. إن. إن».. أذكر أنني كنت أجلس في غرفة الجلوس في جناح موفق العلاف في فندق هيلتون، نشاهد التلفزيون مع زميلنا الفلسطيني الدكتور حيدر عبد الشافي. أخذت كلمات حمراء اللون تومض على شاشة «سي. إن. إن».: «خبر عاجل: منظمة التحرير الفلسطينية تتوصل إلى اتفاق مع الإسرائيليين في أوسلو!». واكتشفنا على الفور أن الرئيس الأسد لم يكن على علم بالأمر بتاتاً، ومثله كان وزير الخارجية الشرع وموفق العلاف وحيدر عبد الشافي. فقد تمكّن عرفات من المحافظة على السرية التامة للمحادثات التي جرت في أوسلو، وأخفى الخبر حتى عن مساعديه الذين يثق بهم، وعن كبار مفاوضيه. وقد شعر عبد الشافي - وهو سياسي محترم جداً ومتمسّك بمبادئه - بغضب شديد، وعلّق بمرارة: «إنني أستحق على الأقل مخابرة هاتفية. كان يجب إعلامي!». كذلك أصيب صائب عريقات بالدهشة الكاملة، وقال إنه هو أيضاً سمع الشائعات أثناء وجوده في فيينا، مثلنا جميعاً، لكنه لم يعتقد أنها ذات قيمة. وخلال ثوان قليلة، بدأ كل شيء يكتسب معنى لدى العرب المتجمعين في واشنطن في ذلك الصيف. وبدأت أجزاء الأحجية التي حيّرتهم تتوضع في أماكنها الصحيحة ضمن الصورة الكاملة، كما بدأوا يدركون السبب الذي منعهم من إنجاز شأن جوهري في سبع وسبعين جولة من المحادثات التي جرت بين العرب والإسرائيليين خلال نحو عامين بعد مؤتمر مدريد. لم يعطنا الإسرائيليون أي شيء على الإطلاق لإدراكهم أن حكومتهم كانت منهمكة في مسار آخر أكثر جدّية، ويعد بإعطاء الإسرائيليين ما لم يكن الحصول عليه ممكناً على الإطلاق من محادثات واشنطن. وتُركنا جميعاً في الظلام، ومعنا الفلسطينيون، في حين انشغل عرفات في نحت تفاصيل اتفاقيات أوسلو، وبذلك أحدث صدعاً دائماً في المجتمع العربي. وقد أخبرنا عبد الشافي في ذلك اليوم: «إذا كان [عرفات] يريد حقاً الحفاظ على مصالح الفلسطينيين، فهذه ليست الطريقة للقيام بذلك. وما اتّفق عليه في أوسلو هو بوضوح ضد مصالحنا. كان من الواجب أن يتم الاتفاق على الانسحاب من الأراضي العربية كلها، وليس من الضفة الغربية وحدها».

احتفى معظم العالم باتفاقيات أوسلو معتبراً أنها «معلم مهم» في الصراع العربي - الإسرائيلي. أما نحن، فقد رأيناها سلاماً منفصلاً مخزياً قوّض إطار مؤتمر مدريد وآليته، ودمر كل ما أُنجز في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١، وإن كان إنجازاً رمزياً. وقد اكتملت المباحثات في ٢٠ آب/ أغسطس ١٩٩٣. وفي ١٣ أيلول/ سبتمبر، قام محمود عباس (أبو مازن) بالنيابة عن منظمة التحرير الفلسطينية، وشمعون بيريز وزير الخارجية الإسرائيلي، بتوقيع الاتفاقيات في حديقة البيت الأبيض. وشهد الاحتفال

وزير الخارجية، وارن كريستوفر، ممثلاً حكومة الولايات المتحدة، ومعه نظيره الروسي أندريه كوزيريف. ومع أن الوفد السوري دُعي إلى احتفال التوقيع، فإنه لم يحضر، باستثناء سفيرنا في واشنطن وليد المعلم الذي حضر مع باقي الدبلوماسيين العرب الموجودين أصلاً في العاصمة الأمريكية. ولإظهار مدى غضبنا تجاه عرفات، لم نقم حتى بنقل الخبر في النشرة التي بُثّتْ في الثامنة والنصف مساء على التلفزيون السوري.

وقد نصّت الاتفاقية على إنشاء سلطة وطنية فلسطينية تقوم بإدارة الأراضي الخاضعة لسيطرتها. كما نصّت على انسحاب القوات الإسرائيلية من أجزاء الضفة الغربية المحتلة. وكان من المفترض أن تستمرّ الاتفاقية مدة مؤقتة تبلغ خمس سنوات، يجري بعدها التوقيع على اتفاقية دائمة في موعد لا يتجاوز شهر أيار/ مايو ١٩٩٦. ما صدمنا نحن السوريين هو أن المسائل ذات الأهمية الحقيقية - كالقدس وحق العودة للاجئين الفلسطينيين والمستوطنات والحدود - تُركت ليتم اتخاذ قرار بشأنها في مرحلة لاحقة. واتُفِق على أن يُمنح الحكم الذاتي الفلسطيني المؤقت لعرفات «على مراحل». وعلى الفور، بدأت وسائل الإعلام الأمريكية تشير إلى خطاب للرئيس السابق بوش، يعود تاريخه إلى ١١ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٠، يتحدث فيه عن «فرصة نادرة» للتحرك نحو «نظام عالمي جديد» تستطيع فيه «أمم العالم، شرقيها وغربيها، شماليها وجنوبيها، أن تزدهر وتعيش في انسجام». وقد أنهى بوش خطابه بالقول: «اليوم يناضل العالم الجديد كي يولد»[٣٠]. لو عرفنا أن هذا هو الشكل الذي سيتخذه «العالم الجديد،» فربما لم نكن لنذهب إلى مدريد. لقد عملت سورية خلال عقود طويلة لتوحيد المواقف العربية تجاه إسرائيل. وفي طرفة عين دمر عرفات هذا الجهد، بتجاوز تام للنقاط المرجعية التي تم الاتفاق عليها في مدريد، والتي وافق الفلسطينيون عليها من مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس.

يعزو الكثيرون قرار عرفات بالذهاب إلى مدريد إلى الوضع السيئ الذي عاناه بسبب موقفه من حرب الخليج، حين أيد صدام حسين بعد غزوه الكويت. ويقول آخرون إنّه كان مستميتاً في إرضاء الولايات المتحدة، باعتبار أنه مع انهيار الاتحاد السوفياتي، فَقَدَ أقوى حلفائه الدوليين نفوذاً. كما أدرك عرفات بعد خروج الفلسطينيين من لبنان وإبعاده إلى تونس عام ١٩٨٢، أن مسيرته تعرّضت لضربة قوية نتيجة المسافة التي تفصله جغرافياً عن فلسطين، وبذلك تجعله عاجزاً عن قيادة مقاومة مسلحة ضد

(٣٠) الحياة، ١٢/ ٩/ ١٩٩٠.

إسرائيل. وقد قلّلت انتفاضة عام ١٩٨٧ أيضاً من أهميته في ما يتعلق بما يحدث داخل الأراضي المحتلة، وذلك مع بروز جيل جديد من القيادات المحلية - مثل حيدر عبد الشافي وفيصل الحسيني - يتولى زمام الشارع الفلسطيني. وفي أواخر الثمانينيات، كان أطفال الحجارة وشبابها هم الذين يمثلون الفلسطينيين، وليس عرفات أو منظمته: منظمة التحرير الفلسطينية، التي بدأت تهرم وتنتابها العلل. وزاد من قلقه أنه لم يتلق دعوة للذهاب إلى مدريد، بصفته رئيس منظمة التحرير، وشعر أن عليه التصرف بسرعة للحفاظ على مكانته قائداً للفلسطينيين. وكان مندفعاً بالدرجة نفسها في إقامة علاقة جديدة مع الولايات المتحدة، وحين وصل إلى قاعدة أندروز الجوية في أيلول/ سبتمبر، أخبر السفير السعودي بندر بن سلطان بحماسة: «أندروز يا بندر! نحن في أندروز!».

اكتشفنا في ما بعد أن أوسلو لم تكن وليدة آب/ أغسطس ١٩٩٣. كانت نُذر ما حدث موجودة من ثمانية أشهر، أي منذ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٢، حين رتّب الدبلوماسي النرويجي تيري رود لارسن موعد لقاء بين أحمد قريع، أحد قادة منظمة التحرير الفلسطينية، وأستاذ التاريخ الإسرائيلي يائير هيرشفيلد. التقى الرجلان أربع عشرة مرة في أوسلو، بدعم كامل من عرفات والحكومة الإسرائيلية، لإجراء محادثات خلاقة غير تقليدية على مسار ثانٍ، بعيداً عن وسائل الإعلام. وبالطبع، يتم اللجوء إلى مسار ثان حين تخفق الدبلوماسية الرسمية، أي المسار الأول. في المسار الثاني يفوَّض أشخاص مستقلون بإجراء محادثات، بدعم ضمني من حكوماتهم. فإذا نجحت هذه المفاوضات كان التمجيد من نصيب الحكومة، كما حدث مع عرفات، أما إن أخفقت، فالحكومات تبقى بعيدة عنها، مدّعية أنها لم تمنح تفويضاً فيها قط. ومن المألوف أن تتم دبلوماسية المسار الثاني على يد أشخاص أكاديميين أو رجال أعمال، وتجريها في بعض الحالات شخصيات ثقافية أو فنانون من ذوي النفوذ. وكان الوضع في النرويج مختلفاً جداً عما كان عليه في واشنطن، حيث بقي المفاوضون الفلسطينيون في جهل لما يجري، قابعين في الأروقة لأن الإسرائيليين يرفضون الاجتماع بهم مستقلين عن الأردنيين. وفي الوقت ذاته، كان أحمد قريع (المعروف باسم أبو علاء) ينزل في السكن نفسه مع الإسرائيليين، ويتناول معهم الفطور والغداء والعشاء على طاولة واحدة. وقامت الحكومة النرويجية بتغطية نفقاتهم وتوفير الحماية الأمنية لهم وإبقاء اجتماعاتهم بعيدة عن عيون الجمهور، مستخدمة «معهد الأبحاث فافو» غطاءً لهم.

قيل لنا إنّ البيت الأبيض برئاسة كلينتون لم يكن على علم مسبق بأوسلو، وإن مبعوث كلينتون الخاص إلى الشرق الأوسط دنيس روس فوجئ بالخبر تماماً، لكننا لم نصدق ذلك أبداً، ولا لحظة واحدة. وبعد توقيع الاتفاقية جلس عرفات وكلينتون معاً في غرفة الخرائط في البيت الأبيض. قال له كلينتون: «لا يستطيع رابين أن يقدم تنازلات أكبر إلا بعد أن يثبت لشعبه إمكان نجاح الاتفاقية التي عقدها الآن معك. لذلك كلّما ازدادت سرعة تحركنا على مساركم، ازدادت قدرتنا على التحرك بسرعة على المسار السوري»(٣١). وعلق إنديك: «إننا لم نبذل أي جهد لإخفاء نياتنا في السعي إلى صفقة مع سورية أولاً، ومن المحتمل أن مقدار الاهتمام الذي أبداه كلينتون وكريستوفر للأسد منذ تسلمهما منصبيهما قد ساعد من دون قصد على إقناع عرفات بإتمام صفقته مع الإسرائيليين قبل سورية»(٣٢).

لم يتردّد الأمريكيون قط في استخدام طرف ضد طرف آخر، فأرسلوا رسائل إلى عرفات بأن الاتفاق مع سورية أصبح قاب قوسين أو أدنى من أجل الضغط عليه لتقديم مزيد من التنازلات على المسار الفلسطيني. ففي آب/ أغسطس ١٩٩٣، كتب وزير الخارجية الإسرائيلي شمعون بيريز رسالة إلى نظيره النرويجي يورغن هولست ينذره فيها باقتراب عقد صفقة مع سورية. ولم يكن القصد من الرسالة سوى وضع عرفات في حالة من الهلع، ولكن لم تكن هناك صفقة في الواقع مع دمشق تلوح في الأفق. وفعل بيريز الأمر نفسه مع تيري رود لارسن، إذ قال له: «قد تمضي إسرائيل إلى صفقة سريعة مع سورية بدلاً من إبرام اتفاقية مع منظمة التحرير الفلسطينية». وقال بيريز إن الاتفاق سيعقد إما مع سورية أو منظمة التحرير. لكن الحقيقة هي أن رابين لم يكن مهتماً بالسلام، وحين قابل كلينتون في إسرائيل في الثامن من تموز/ يوليو، قال بلا مواربة: «لا أعتقد أن بإمكاني التحرك على جبهتين في وقت واحد - فهذا سيقوّي المعارضة»(٣٣). ثم أضاف: «لا يبدو أن الأسد في عجلة من أمره، فالسلام مع إسرائيل ليس مسألة شديدة الإلحاح في نظره»(٣٤).

وافق عرفات في أوسلو على الاعتراف بدولة إسرائيل، وتعهد بنبذ العنف. وفي المقابل قال الإسرائيليون إنهم سيعترفون بمنظمة التحرير الفلسطينية على أنها الممثل

---

(٣١) Indyk, Ibid., p. 76.
(٣٢) المصدر نفسه.
(٣٣) المصدر نفسه، ص ٨٥.
(٣٤) المصدر نفسه.

الرسمي للشعب الفلسطيني، وسيسمحون لعرفات بالعودة إلى الضفة الغربية. ودعت الاتفاقيات نظرياً إلى انسحاب القوات الإسرائيلية من أجزاء من قطاع غزة والضفة الغربية، وأكدت حق الفلسطينيين في الحكم الذاتي ضمن تلك المناطق من خلال إنشاء السلطة الوطنية الفلسطينية. وستغطي سلطة المجلس التشريعي الفلسطيني الضفة الغربية وقطاع غزة، إلا في المسائل التي يتم الاتفاق النهائي عليها في مفاوضات الوضع الدائم. ونظر الجانبان إلى الضفة الغربية وغزة على أنهما وحدة جغرافية وسياسية واحدة. وستبدأ فترة السنوات الخمس الانتقالية بانسحاب إسرائيل من غزة وأريحا. علاوة على ذلك، وافق الطرفان في الاتفاقية المؤقتة لعام ١٩٩٥ (التي وقّعها وشهد عليها كل من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي ومصر والأردن وروسيا والنرويج) على تقسيم سلطتيهما في الضفة الغربية إلى المنطقتين أ وب (الخاضعتين للسلطة الفلسطينية) والمنطقة ج (الخاضعة للسلطة الإسرائيلية). كان هذا بالطبع ملحقاً لاتفاقية أوسلو لعام ١٩٩٣. وقد حدد الطرفان سلطات كل من الجانبين ومسؤولياتهما في المناطق التي يسيطران عليها. وتضمنت سلطات إسرائيل ومسؤولياتها في المنطقة ج كل الجوانب المتعلقة بمستوطناتها، وكل هذا في انتظار نتيجة مفاوضات الوضع الدائم. وقد قبل عرفات بهذا التقسيم.

صوّت الكنيست الإسرائيلي لمصلحة اتفاقيات أوسلو في ٢٣ أيلول/ سبتمبر، بنسبة ٦١ إلى ٥٠ صوتاً مع امتناع ثمانية أعضاء عن التصويت. وكان ردّ الفعل الفلسطيني منقسماً. لقد شعر حيدر عبد الشافي، كما ورد سابقاً، بغضب شديد لأنه اعتبر أن اتفاقيات أوسلو تمثل انشقاقاً دائماً عن استراتيجية التفاوض العربي الموحّد التي سادت في واشنطن. وانضم صائب عريقات فوراً إلى جماعة الاتفاقيات كي يرضي عرفات، وحاول تسويقها على أنها أفضل إنجاز للدبلوماسية الفلسطينية. وقال لنا في واشنطن: «ستصبّ أموال كثيرة في الخزائن الفلسطينية»، لكن عبد الشافي ردّ بحدة: «الوحيدون الذين سيحصلون على أموال [أمريكية] هم الإسرائيليون، ولسنا نحن!». ورفضت جماعات فلسطينية أخرى، مثل حماس والجهاد الإسلامي والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، الاتفاقيات في الحال واتهمت عرفات بالخيانة.

أما نحن في سورية، فشعرنا أن اتفاقية أوسلو كارثة حلّتْ بالوطن العربي. فقد اتضح على الفور أنها لن تؤدي إلى نتائج ملموسة، إذ إنها كانت أقرب إلى مذكّرة تفاهم منها إلى معاهدة سلام. وبعد مدة قصيرة من توقيعها، قام عرفات بزيارة الرئيس الأسد في

اللاذقية في ٢٠ أيلول/ سبتمبر لإطلاعه شخصياً على الاتفاقيات. ولم يكن مارتن إنديك صادقاً حين ذكر أن الأسد قال لعرفات في ذلك اللقاء: «لقد قمتَ برعاية مصالحك، ونحن الآن أحرار في أن نهتم بمصالحنا»[٣٥]. هذا غير صحيح، ولا يوجد أثر من دليل يبرهن على أن الأسد تفوّه بمثل هذا الكلام، إذ إنه اعتبر اتفاقيات أوسلو نكسة صارخة لا نعمة مقنّعة، كما يوحي السفير إنديك. أنا لم أحضر الاجتماع، فالرئيسان يتكلمان العربية، ولم يكونا بحاجة إلى مترجمة. غير أن الرئيس الأسد أخبرني في ما بعد أنه قال لعرفات: «لن أدعم أوسلو أبداً، هذا مؤكد. لكنني لن أعمل ضد الاتفاقية أيضاً. إننا نعتقد حقاً أن ما وقّعتَه خطأ، لأنه أقل من أن يحقق نوال الفلسطينيين حقوقهم وأن يمنحهم دولتهم. يا أبا عمار، إن كل بند في هذه الاتفاقية يتطلب اتفاقية منفصلة خاصة به!». ويقال إنه سأل عرفات إن كانت هذه الاتفاقية المؤقتة ستؤدي إلى اتفاقية وضع دائم. وشرح عرفات أن أوسلو تنصّ على بدء مفاوضات الوضع الدائم خلال ثلاث سنوات. ثم سأل الأسدُ بصلابة: «هل وضع القدس مضمون؟». تهرَّب عرفات من السؤال، قائلاً: إن إسرائيل وافقت على إدراج القدس على جدول محادثات الوضع الدائم. وفي البيان الرسمي الذي صدر عن القصر الجمهوري بعد هذه المحادثات، قالت سورية إنها «توافق وتدعم» كل ما يقرره الشعب الفلسطيني.

وينبغي التذكير أن الرئيس الأسد كانت لديه دائماً شكوك في عرفات. وقد عرف الرجلان أحدهما الآخر من ستينيات القرن العشرين، عندما كان الأسد وزيراً للدفاع. واعتبر الرئيس السوري عرفات شخصاً يحب الانفراد بالقرار، وسياسياً قلما صدق في أقواله، وكانت مصالحه الشخصية أهم لديه من مصالح الفلسطينيين. وقد هبّ الأسد لمساعدته في فضّ نزاع حاسم بين منظمة التحرير الفلسطينية والملك حسين في عمّان عام ١٩٧٠، إلا أنه قاتله أثناء الحرب الأهلية اللبنانية في ١٩٧٦ قائلاً إنه كان يحاول اختطاف الدولة اللبنانية الهشّة المنقسمة على نفسها. وقال الأسد لي، وهو يفسر بعد بضع سنوات سبب الافتقار إلى الانسجام بينهما: «لقد أنقذتُ عرفات من ثلاث محاولات اغتيال. وحين أفكر في الماضي، لا أدري إن كان ما فعلتُه صحيحاً!». وكانت الوقائع والأرقام التي تصدر عن إسرائيل بشأن بناء المستوطنات في الأراضي الفلسطينية تنبئ بالكثير في هذا الصدد. لقد جاء في نصّ اتفاقيات أوسلو أن بناء المستوطنات يجب أن يتوقف، ومع ذلك استمر رابين في بنائها يميناً ويساراً، مع أنه لم يبلغ في اندفاعه

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٩٣.

في بنائها درجة شامير. وفي عامي ١٩٩١ و١٩٩٢ بلغ عدد الوحدات السكنية داخل الأراضي الفلسطينية ١٤,٣٢٠ مستوطنة. ولكن أقيمت بعد أوسلو ٣٨٥٠ مستوطنة أخرى، وتبعتها ٣٥٧٠ مستوطنة في عامي ١٩٩٦ و١٩٩٧، وكلتا هاتين الإضافتين تمّت في عهد رابين. واستمر عدد المستوطنين في الضفة الغربية في النمو بمقدار عشرة آلاف مستوطن كل عام، ولم يتمكّن عرفات من وقف هذا الاستيطان.

في شريط فيديو يعود إلى عام ٢٠٠١، قال رئيس وزراء إسرائيل بنيامين نتنياهو، الذي كان من الواضح جهلُه أن كلامه يُسَجَّل: «سألوني قبل الانتخابات إنْ كنت سأفي بشروط [اتفاقيات أوسلو]... وأجبت بالإيجاب، لكنني سأفسّر الاتفاقيات بطريقة تمكّنني من وضع نهاية لهذا الركض نحو حدود ١٩٦٧. كيف فعلنا ذلك؟ لم يوضح أحد ما هي المناطق العسكرية المحدّدة. المناطق العسكرية المحددة هي مناطق أمنية. أما في ما يتعلق بي، فإنّ وادي الأردن بأكمله هو منطقة عسكرية محددة. جادلْ إن أردت!»[٣٦]. ثم شرح نتنياهو كيف جعل توقيعه على اتفاقية الخليل عام ١٩٩٧ مشروطاً بموافقة الولايات المتحدة على ألا يتم الانسحاب من «مواقع عسكرية معينة»، وأنه أصرّ على السماح له بتعيين المناطق التي تشكّل «مواقع عسكرية» - مثل وادي الأردن بأكمله. وقال نتنياهو مؤكداً: «ما سبب أهمية ذلك؟ لأنني من تلك اللحظة أوقفت اتفاقيات أوسلو»[٣٧].

برهنت اتفاقيات أوسلو لنا على ما كنا نقوله منذ سنوات، وهو أن الإسرائيليين يستخدمون فريقاً ضد فريق آخر، محاولين كسب اهتمام وسائل الإعلام العالمية، ولم يكونوا مهتمين بتاتاً بسلام حقيقي لا مع العرب، ولا مع الفلسطينيين، وخصوصاً أنهم كانوا غاضبين أشد الغضب من إصرار سورية على تمثيل العرب في وفد واحد في كلّ من مدريد وواشنطن، وعلى أن تكون لهذا الوفد مجموعة واحدة من المطالب، وهدف واحد، ومرتكز قانوني واحد هو: قرارا مجلس الأمن الدولي الرقمان (٢٤٢) و(٣٣٨). حين جاءنا جيمس بيكر في أيلول/ سبتمبر ١٩٩٠، قلنا له بوضوح إنّ ما يخص سورية، هو أن تبقى القضية الفلسطينية في قلب أيّ جهد يسعى إلى السلام. وما أرادته سورية هو الصراحة والتنسيق والتعاون بين الأقطار العربية. أردنا أن يقف العرب قوة واحدة متحدة، لا دولاً ضعيفة منقسمة وعاجزة، توّاقة إلى تقبّل ما يعطيه الإسرائيليون والأمريكيون مهما

(٣٦) Curtis Wong, «Netenyahu in 2001: «America Is a Thing You Can Move Very Easily»,» *Huffington Post*, 16/7/2010.

(٣٧) Gideon Levy, «Tricky Bibi,» *Haaretz*, 15/7/2010.

يكنْ ذلك. كان هدفنا هو السلام الشامل، وحرصنا أشد الحرص على معرفة ما يفكر فيه الآخرون، وما يفعلونه، وما يقولونه. لكن عرفات لم يكن مهتماً بأي مما سبق ذكره.

في التاسع من أيلول/ سبتمبر، اتصل كلينتون هاتفياً بالرئيس الأسد ليؤكد له من جديد التزامه المسارَ السوري. وقال الأسد إنه لا يزال مهتماً بالسلام، لكنه حذَّر من أنه «إذا لم يَحُلَّ السلام الشامل، فهذه الاتفاقية [أوسلو] لن تنجح»[٣٨]. وبعد ذلك، أجرى كلينتون مقابلة مع توماس فريدمان من صحيفة **نيويورك تايمز** في ١١ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣ أكد فيها أن الوصول إلى سلام مع سورية أمر مصيري.

في أواخر أيلول/ سبتمبر، توجه وزير الخارجية الشرع إلى نيويورك للمشاركة في اجتماعات الجمعية العامة، وكان في صحبته السفير وليد المعلم. وهناك في السابع من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٣ جرى لقاؤنا الأول بالرئيس كلينتون الذي سبق أن حادث الرئيس الأسد هاتفياً، لكنه لم يكن قد التقى وجهاً لوجه أي مسؤول سوري. وحضر الاجتماع ساندي برغر الذي أصبح مستشار كلينتون للأمن القومي في ما بعد، والسفير إنديك أيضاً. لقد كان واضحاً أن الرئيس الأمريكي كان فخوراً جداً باتفاقيات أوسلو، التي استضاف حفل توقيعها في البيت الأبيض. وأراد كلينتون أن يؤكد للشرع أن أوسلو لن تؤثر في المسار السوري - الإسرائيلي، مؤكداً من جديد التزام الولايات المتحدة بإعادة مرتفعات الجولان إلى السوريين. لقد كان صعباً علينا تصديق ذلك وقتئذ، إذ إن الأمريكيين كانوا على امتداد عامين تقريباً يقولون لنا إن السلام الجماعي ممكن، لكنهم استداروا فجأة إلى الاتجاه المعاكس، مدّعين أن أوسلو كانت ضرورية لأن الإسرائيليين مضطرون إلى تفادي تناول أكثر من مسار واحد في الوقت نفسه، ولا يمكنهم التعامل مع كل المسارات مجتمعة.

خاتمة

حين أعود بذاكرتي إلى أوسلو بعد واحد وعشرين عاماً من توقيع الاتفاقيات، وعشر سنوات من وفاة عرفات، أعتقد أن كلا الطرفين الإسرائيلي والأمريكي كان أكثر دهاءً من الزعيم الفلسطيني. لا أعتقد أن عرفات أدرك ما تعنيه أوسلو للفلسطينيين، أو إلى أين ستقودهم، أو ستقوده. صحيح أنها أعادت شيئاً يدعى «الأراضي الفلسطينية»

(٣٨) أرشيف القصر الجمهوري السوري، المراسلات غير المنشورة بين الأسد وكلينتون، أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣.

إلى خارطة العالم، لكن الضفة الغربية وغزة مجتمعتين ليستا فلسطين، بل ولا نصف فلسطين. عاد عرفات بعد أوسلو إلى الضفة الغربية، حيث انتُخِب رئيساً للسلطة الوطنية الفلسطينية بأكثرية ساحقة. وعلى مدى بضع سنوات كان يُمَدُّ له البساط الأحمر احتفاء به حيثما رحل، وتشاهد الأعلام الفلسطينية ترفرف في الهواء. هل كان لذلك أهمية حقاً؟ كان أفراد شعبه لا يزالون محرومين من دخول معظم دول العالم، ولا يزالون مجبرين على التوقف عند نقاط التفتيش الإسرائيلية، علماً أن مداخل أراضي السلطة الوطنية الفلسطينية كانت مغلقة بأكملها من قبل الجيش الإسرائيلي. وحين اندلعت الانتفاضة الثانية في أيلول/ سبتمبر عام ٢٠٠٠، بنى الإسرائيليون جدار الفصل العنصري، متجاهلين أوسلو تجاهلاً كلياً، وذبحوا الفلسطينيين في رفح، ثم فرضوا على عرفات الإقامة الجبرية في مكتبه في رام الله مدة ثلاث سنوات، متجاهلين حقيقة كونه رئيس دولة منتخباً. وطالما تعجبتُ من العالم الذي زمجر محتجاً على أَسْر جلعاد شاليط، وهو عريف إسرائيلي شاب أَسَرَته حماس، لكن ذلك العالم لم يفعل أيّ شيء حين احتُجز الرئيس المنتخب عرفات في مكتبه وهو معتل الصحة، من دون ماء ولا كهرباء[٣٩]. هذا كان مصير الرجل الذي وقّع اتفاقيات أوسلو، الرجل الذي وضع عنقه تحت رحمة الإسرائيليين والأمريكيين عام ١٩٩٣، مخالفاً إرادة العرب الآخرين.

(٣٩) تمّ فيما بعد (في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١١) الإفراج عن جلعاد شاليط، الذي أَسَرَته حماس منذ حزيران/ يونيو ٢٠٠٦. وقد وَعَدَت إسرائيل أنها ستفرج عن ١٠٢٧ سجيناً فلسطينياً مقابل إطلاق سراحه.

الفصل الرابع

شهر عسل سورية وأمريكا
في عهد كلينتون

في عامي ١٩٩٣ و١٩٩٤، تبادل رئيسا سورية والولايات المتحدة رسائل كثيرة تتعلق بالسلام في الشرق الأوسط، وتحدّثا أحاديث طويلة على الهاتف. كان ذلك زمناً لا مثيل له من المهارة الدبلوماسية وبناء الثقة بين دمشق وواشنطن. ولمّا كنتُ مراقبة شهدت الأحداث على نحو مباشر، ويمكنني القول بثقة إن مثل تلك النيّات الطيبة لم تظهر قبل تلك المرحلة، ولم يقترب أي شيء منذ ذلك الحين من مضاهاة شهر العسل بين كلينتون والأسد. تلقى الرئيس الأسد خمس رسائل من كلينتون، مؤرخة في ٨ نيسان/ أبريل، و٢٧ أيار/ مايو، و٤ تموز/ يوليو، و٤ أيلول/ سبتمبر، و٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٣ (انظر الملاحق ذات الأرقام (٢) - (٥)).

وتلا ذلك لقاء قمة بين الزعيمين، أحدهما في جنيف في شهر كانون الثاني/ يناير ١٩٩٤، والثاني في دمشق في شهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام نفسه. يُضاف إلى ذلك قيام الوزير وارن كريستوفر بما مجموعه عشر زيارات إلى سورية في عام ١٩٩٤، أولها في ٣٠ نيسان/ أبريل، وآخرها في ٦ كانون الأول/ ديسمبر. وقدم دنيس روس، كبير منسّقي سياسة كلينتون في الشرق الأوسط، مرتين إلى سورية في أقل من ستة أشهر كانتا في ٢٣ آذار/ مارس و٢٠ أيلول/ سبتمبر.

وفي الوقت نفسه، أصبح السفير الأمريكي في دمشق كريستوفر روس وجهاً مألوفاً في المجتمع الدمشقي. فقد قابل الكثيرين من رجال الأعمال والفنانين والمفكّرين في حدائق قصره الكبير في حيّ الروضة السكني؛ إذ كان متشوقاً إلى توسيع معرفته عن الدولة التي أصبحت فجأة على رادار الجميع في واشنطن. وتودّدت النخبة السورية - التي عبرت عن أملها القوي في أن توفر إدارة كلينتون سلاماً حقيقياً ومستداماً في الوطن العربي - إلى روس واستضافته في بيوتها بسخاء.

وتنبغي الإشارة إلى أن كلينتون ذكّر السوريين بجون كينيدي، الرئيس الأمريكي الذي كان شاباً جذّاباً، يذكره الناس بسبب سياسته غير المتحيّزة في الشرق الأوسط.

وكان السفير روس يسمع الرجاء الحار نفسه في كل مكان يذهب إليه: «لقد ضاق ذرع سورية بالحرب، وهي الآن راغبة في الوصول إلى سلام عادل وشامل في الشرق الأوسط».

وبتعبير بسيط، ما كان البلد يريده هو استعادة مرتفعات الجولان كاملة، كي تنهي حالة الحرب التي طغت على حياة الناس، وأصبحت هاجساً يتتابهم منذ عام ١٩٤٨. وقد اندمج السفير روس، مثل سلفه إدوارد دجيرجيان، في المجتمع السوري اندماجاً كاملاً. ويتذكر سكان دمشق هرولته المسائية في أرجاء العاصمة السورية، وفي غالب الأحيان من دون مرافقة أية عناصر أمنية أو بمرافقة قلة منها فقط. ويتذكرون كيف كان يتكلم العربية بنطق سليم، ومع مرور الوقت أتقن اللهجة الشامية. كان السكان المحليون يقتربون منه ويقولون له إن دمشق أكثر أماناً من وسط المدينة في مانهاتن، وهي حقيقة كان يقرّ بها.

هذه الاتصالات بالناس وجهاً لوجه، والساعات الطويلة من المحادثات مع دوائر السلطة العليا في دمشق، والمراسلات الحارة والصادقة التي تلت، وجدّية الأطراف المشاركة، جميعها أوجدتْ طبيعة جديدة تماماً في العلاقات بين سورية والولايات المتحدة. وكانت هذه الطبيعة أقوى من تلك التي سادت في أثناء ولاية الرؤساء نكسون وكارتر وبوش. ويعود الفضل في ذلك إلى التأثير القيادي للرئيس كلينتون، الذي ظهر رئيساً أمريكياً صادقاً يريد حقاً فتح صفحة جديدة في ما يخص سورية. وبعد مضي سنوات عديدة، بدأ المسؤولون السوريون والأمريكيون يفهم بعضهم بعضاً أول مرة وبوجه أفضل من ذي قبل، وفي بعض الحالات يتعاطف كل طرف منهما مع هموم الطرف الآخر. والأمريكيون الذين قدموا إلى سورية طوال عام ١٩٩٤، لم يأتوا لإلقاء محاضرات أو توجيه إملاءات، بل أتوا إلى دمشق ليصغوا ويناقشوا.

أولاً: في الضحى في فندق إنتركونتيننتال

بعد مدة قصيرة من بداية السنة الجديدة، بدأنا بالاستعداد للزيارة التي كان الرئيس الأسد سيقوم بها لسويسرا، والتي سلّطت عليها الأضواء. وقد انطلق التفكير في عقد قمة سورية - أمريكية قبل عام تقريباً. وكان كلّ من كلينتون والأسد يريد لقاء الآخر، وظهر هذا واضحاً جداً لكلّ الذين كانوا يعملون مع الرئيسين. وكان ذلك لقاء القمة الرابع بين رئيس سوري ورئيس أمريكي منذ أن نشأت العلاقات بين البلدين في الأربعينيات

من القرن العشرين أثناء الحرب العالمية الثانية[1]. وكانت تلك زيارة الأسد الثالثة إلى جنيف، حيث التقى في السابق الرئيسين كارتر وبوش. وكثيراً ما أخبرني الأسد أنّه ليست لديه رغبة في زيارة الولايات المتحدة على الإطلاق، ولا يريد أن يفعل ما فعله زعماء عرب آخرون، ما دامت إسرائيل مستمرة في احتلال الأراضي العربية. وقد احترم كلينتون ذلك الموقف، ووافق فوراً على اجتماع في سويسرا المحايدة. وجرى اللقاء في الساعة العاشرة صباحاً في ١٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٤ في فندق إنتركونتننتال، الواقع في شارع «شُمان دو بتي ساكونِكس» في جنيف، وحضره مستشار الأمن القومي الدكتور عبد الرؤوف الكسم (رئيس وزراء سوري سابق)، ووزير الخارجية الشرع، ومسجّل المحاضر المؤتمن، الدكتور إسكندر لوقا، وأنا بصفتي مترجمة خاصة للرئيس الأسد. وضم الوفد الأمريكي وزير الخارجية وارن كريستوفر، ومستشار الأمن القومي أنتوني ليك، ودنيس روس، ومارتن إندِك، ونظيري في الجانب الأمريكي جمال هلال، المترجم الأمريكي المصري الذي عمل في الترجمة للرئيس كلينتون مدة طويلة.

كان القائد السوري في ذروة مسيرته. فقد تخطى اضطرابات الثمانينيات، بما فيها مؤامرة الإخوان المسلمين عام ١٩٨٢، وانهيار حليفه القديم: الاتحاد السوفياتي. وكان الأمريكيون - الذين اختلفوا طويلاً في السابق مع رؤيته للشرق الأوسط - يطرقون بابه الآن، طالبين إليه أن يدعم عهداً جديداً في العلاقات السورية - الأمريكية. وكان هذا كله ينطوي على اعتراف أمريكي بدور سورية الكبير جداً في الشرق الأوسط، وهو شيء رفضه الرؤساء الأمريكيون السابقون. وكان الأسد، الذي بلغت سنه الرابعة والستين آنذاك، قد شهد قدوم خمس إدارات أمريكية وزوالها منذ تسلّمه السلطة عام ١٩٧٠. ولاحظ حالاً أن الرئيس كلينتون مختلف عن كلّ الرؤساء الذين سبقوه، فمن المؤكد أنه يتفوق عليهم في حدة الذهن والجاذبية الشخصية والقدرة على وضع أدق التفاصيل للخروج بحلول مستدامة للمشكلات المعقدة في سياسة الشرق الأوسط. وانسجم الرجلان انسجاماً رائعاً من اليوم الأول.

وقد تحدّث كلينتون في كتاب ذكرياته المعنون حياتي عن قمة جنيف، قائلاً: «في زيارتنا، لفت نظري ذكاؤه [الضمير يعود على الأسد] وقدرته على التذكر

(١) أثناء قيام الجمهورية العربية المتحدة التي لم تستمر طويلاً (١٩٥٨ - ١٩٦١)، سافر جمال عبد الناصر بصفته رئيساً لكل من سورية ومصر إلى الولايات المتحدة وقابل الرئيس دوايت أيزنهاور (Dwight D. Eisenhower). وقبل ذلك ألغت الحكومة الأمريكية اجتماعاً كان مقرراً بين الرئيس السوري الأسبق شكري القوتلي وفرانكلين روزفلت (Franklin D. Roosevelt) في عام ١٩٤٥.

شبه التام لتفاصيل الأحداث التي تعود إلى ما قبل أكثر من عشرين عاماً. كان الأسد مشهوراً باجتماعاته الطويلة، فهو يستطيع الاستمرار مدة ست أو سبع ساعات من دون استراحة. أما أنا فقد كنت أشعر بالتعب وأحتاج إلى أن أشرب قهوة أو شاياً أو ماءً لأبقى متيقّظاً»(٢). ثم أضاف: «أفضَتْ مناقشاتنا إلى نتيجتين كنت أريدهما: تصريح واضح للأسد بأنه مستعد لإحلال السلام وإقامة علاقات طبيعية مع إسرائيل، والتزامه بسحب القوات السورية جميعها من لبنان واحترام سيادته فور الوصول إلى سلام شامل في الشرق الأوسط»(٣). ويشير كلينتون إلى «التجاذب الشخصي» بينه وبين الأسد، ويصف الأسد بأنه «لامع»(٤). وفي أوقات لاحقة كان يقول لزواره في البيت الأبيض وللأطراف المختلفة المشاركة في عملية السلام: «هذا رجل يفي بوعده ويحترم كلمته. هذا رجل يمكنني التعامل معه»(٥).

وبينما كنا ندخل غرفة الاجتماع، سلّمني الرئيس الأسد ملفاً ضخماً يحتوي أوراقاً وملاحظات عن عملية السلام، والمحادثات السابقة مع الأمريكيين، ولبنان، وموضوعات أخرى مدرجة في جدول الأعمال. وهمس قائلاً: «احتفظي به، فقد أحتاج إليه». لكن الرئيس كلينتون كان يحمل معه بطاقات مكتوبة زوده بها معاونوه لمساعدته حين يبحث عن بعض الأفكار.

بدأ كلينتون الاجتماع بسرد ما حدث في رحلة لأوروبا قام بها قبل مدة قصيرة، اشتملت على محطة مهمة في موسكو لإجراء محادثات مع الرئيس بوريس يلتسن. قال: «يثق الشعب الروسي بيلتسن لكنّ لديه شكوكاً حول مستقبل روسيا، ولا سيما في القرن الوشيك القدوم». وكان من الجلي أن كلينتون قلق بشأن الحرب الدائرة في البوسنة، وشعر أنه مسؤول، بصفته رئيس القوة العظمى الوحيدة في العالم، عن وضع حدّ لإراقة الدماء في البلقان.

أصغى الرئيس الأسد بانتباه إلى ما يقوله رئيس الولايات المتحدة، ثم اختار النقطة المتعلقة بالبلقان فاتحة لحديثه: «انظر فقط إلى خمسمئة ألف لبناني أتوا إلى سورية أثناء الحرب الأهلية اللبنانية. انظر فقط إلى التضحيات السورية خلال الحرب اللبنانية، في

(٢) Bill Clinton, *My Life* (New York: Knopf, 2004), pp. 574-575.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٧٤.

(٥) محادثة شخصية مع الرئيس الأسد، أيلول/ سبتمبر ١٩٩٤.

وقت لم يقدم فيه الآخرون شيئاً للبنان. كان القتال في لبنان، يا سيد كلينتون، أكثر صعوبة وهمجية مما يحدث اليوم في البوسنة»[٦]. كان لبنان، الذي أنهى قبل زمن قصير حرباً أهلية دموية دامت ستة عشر عاماً، المدخل المثالي لموضوع الشرق الأوسط، وحدّدت طابع اجتماع الرئيسين.

علّق كلينتون قائلاً: «سيدي الرئيس، لقد ذكرتَ لبنان الآن. أودّ أن أشدّد على أننا ندعم اتفاق الطائف [الذي جرى توقيعه برعاية مشتركة من سورية والعربية السعودية عام ١٩٨٩]. كما أننا ندعم سيادة لبنان المتحرّر اليوم من كلّ تدخل خارجي». ثم أضاف: «إن [إسحاق] رابين يعتقد أنكم وملك الأردن تريدان السلام حقاً. ويعتقد أيضاً أنكم إن رغبتم في ذلك [على أساس النفوذ السوري في لبنان]، فمن الممكن إنجاز السلام مع لبنان. وربما سيتمتع رئيس الوزراء رفيق الحريري [الذي شغل منصبه عام ١٩٩٢ بمباركة سورية] بقوة كافية لإنجاز ذلك السلام إذا وجد السند ولقي الدعم الكافي من سورية»[٧].

وشرع الأسد يتحدث عن موضوع صار يُسأل عنه طيلة السنوات الباقية من التسعينيات هو: لبنان والقوى المحركة في العلاقات السورية - اللبنانية. «كنتُ قد أخبرتُ السيد كريستوفر أن صنع القرار في لبنان ليس حكراً على شخص واحد. فالمسؤولون في لبنان - الرئيس الهراوي، ورئيس مجلس النواب نبيه بري، ورئيس الوزراء الحريري - يدركون جميعاً، بقدر ما ندرك نحن، أنه ما لم تتحرك سورية ولبنان معاً، يداً بيد، وكتفاً إلى كتف، فلن يتقدم المسار اللبناني بمفرده. وقضية الحرب والسلم هي مسألة تخصّ المواطن العادي في لبنان، وليست بين يدي الحكومة فحسب. كما أن اعتباراتنا الأساسية تمنعنا من التحرك قبل لبنان [في موضوع السلام في الشرق الأوسط]». ثم أضاف الأسد: «نحن العرب ليست لدينا أرض رخيصة وأرض غالية. لا أستطيع أن أعتبر الأرض الفلسطينية [وحدها] غالية، وأنّ الأرض السورية أو الأردنية أو اللبنانية رخيصة»[٨]. ومضى الأسد في الشرح، فذكر أن هذه ليست (كليشيه)، بل هي حقيقة مبنية على التاريخ المشترك، والثقافة المشتركة، والتراث المشترك، وروابط الدم التي تربط شعوب المنطقة. وأشار إلى أنه حين وقّع الإسرائيليون اتفاقيات أوسلو،

---

(٦) أرشيف القصر الجمهوري السوري، المحضر غير المنشور لاجتماع الأسد وكلينتون، ١٥ ـ ١٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٤.
(٧) المصدر نفسه.
(٨) المصدر نفسه.

«اعتبروا أن السلام قد تحقق في الشرق الأوسط. ولكن في الحقيقة، لا يزال السلام كما نراه واقعاً بعيداً»[٩].

أعاد كلينتون تأكيد التزامه بعملية سلام شامل على كل المسارات. «إنني أؤمن بالسلام، وكنت دائماً أؤمن به. ويبقى السلام بين إسرائيل وسورية مفتاح تحقيق سلام شامل وعادل في المنطقة». وأضاف: «لقد قررت أن أكرس هذه السنة لتحقيق اختراق حقيقي في الشرق الأوسط. وسوف أسخّر جهودي الشخصية وجهود بلادي في سبيل تحقيق ذلك»[١٠].

وأشار إلى ضرورة وجود أقصى حدّ من التنسيق بين المحادثات العلنية والسرية على جميع الجبهات، وأن يتمّ البناء على «الإنجاز العظيم» الذي حققه كريستوفر والسوريون منذ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٣: «لقد أكد لي رابين مرة أخرى الالتزام [من طرفه] بالانسحاب الكامل من الجولان»[١١]. لكن رئيس الوزراء الإسرائيلي لم يستطع أن يحدد شروط انسحابه من الأرض المحتلة قبل معرفة مدى عمق التزام سورية بالسلام.

كتب عدة كتّاب غربيين، ممَّن ألّفوا كتباً تناولت سورية، عن معرفة الأسد التاريخية الواسعة بإسهاب، زاعمين أنه كان يبدأ كلّ اجتماعاته بمحاضرات طويلة عن الصليبيين وصلاح الدين قبل أن ينتقل إلى انتقاد اتفاقية سايكس - بيكو التي أُبرمت عام ١٩١٦. ومع أن الجزء الأول من قولهم صحيح حقاً، فإنّ الجزء الثاني خاطئ. من المؤكد أن الرئيس الأسد كان على معرفة واسعة بالتاريخ، لكنه لم يكن أبداً يثير سوى المسائل ذات الصلة بالموضوع المطروح على بساط البحث.

وعلى سبيل المثال، أشار في ذاك الاجتماع مع كلينتون إلى حرب عام ١٩٧٣ بين العرب وإسرائيل، واتفاقية فصل القوات التي نسّقها هنري كيسنجر: «بناءً على كلّ ما خبرناه منذ ذلك الحين، فإننا لا نثق بالإسرائيليين. لقد تهاوت كلّ ادعاءاتهم، بما فيها الادعاء الذي سمعناه طوال سنوات عديدة، وهو أن العرب عامة، والسوريين بوجه خاص، لا يريدون السلام. فقد زارنا دنيس روس في دمشق بعد توقيع اتفاقيات أوسلو، وعرض «سيناريوهات» متنوعة تتعلق بالمسار السوري - الإسرائيلي، وكلها تهدف إلى

---

(٩) المصدر نفسه.
(١٠) المصدر نفسه.
(١١) المصدر نفسه.

شراء الوقت للإسرائيليين في انتظار لحظة أفضل يتقبل فيها الجمهور الإسرائيلي اتفاقية غزة - أريحا، وهي اتفاقية لاحقة لاتفاقيات أوسلو عُقدت في عام ١٩٩٤.

قال روس إن الولايات المتحدة تحتاج إلى أربعة أشهر بعد التوقيع في المسار الفلسطيني لبدء مسار سوري، وقد انقضت اليوم هذه الشهور الأربعة(١٢). عند هذه النقطة، تدخل وارن كريستوفر ليذكّر الحاضرين في الاجتماع كافة أن رابين طلب أربعة أعوام لينسحب انسحاباً كاملاً من الجولان «على مراحل»، واقترح أن تشهد المرحلة الأولى إقامة سفارتين في دمشق وتل أبيب، في حين يتم إخلاء المستوطنات أثناء المرحلة الثالثة. رفع الأسد بصره وقال مبتسماً: «حين اتفقنا على فصل القوات في عام ١٩٧٤، انسحب الإسرائيليون من أرض أكبر كثيراً من الجولان خلال خمسة عشر يوماً فقط!»(١٣).

وفي ذلك الوقت، كتب المؤلف البريطاني باتريك سيل، الذي اشتهر في الغرب بكتابه عن سيرة الرئيس السوري، أن استراتيجية الأسد كانت «تقليص نفوذ إسرائيل إلى مستويات أكثر تواضعاً وأقل عدوانية»(١٤).

وتكلم كلينتون بعد ذلك على الترتيبات الأمنية في الجولان، قائلاً إنه إذا وافقت سورية وإسرائيل، فالولايات المتحدة مستعدة لأن تشارك في نشر جنود على الحدود السورية - الإسرائيلية(١٥). وأضاف: «لا بد من أن يكون السلام شاملاً، لكن كل مسار بحاجة إلى التحرك بالسرعة المناسبة له. وهناك حاجة إلى التقدم على الجبهتين السورية واللبنانية كلتيهما». وعلق كلينتون أيضاً: «أوافقكم يا سيادة الرئيس على ما اقترحتم بشأن التدابير الأمنية. يجب أن تكون مُرضية ومتساوية للطرفين معاً. أما في شأن التوقيت، فإن إسرائيل دولة معقدة لا تسود فيها نظرة واحدة فقط [إلى السلام]. هناك إجماع بنسبة مئة بالمئة حول السلام، أكان ذلك مع سورية أم لبنان أم الأردن أم الفلسطينيين. لكنني لا أوافق على ما قلتم بشأن شراء الوقت من أجل أن تتقبل إسرائيل

(١٢) المصدر نفسه.

(١٣) المصدر نفسه.

(١٤) Patrick Seale and Linda Butler, «Assad's Regional Strategy and the Challenge from Netanyahu,» *Journal of Palestine Studies*, vol. 26, no. 1 (Autumn 1996), and Itamar Rabinovich, *The Brink of Peace: The Israeli-Syrian Negotiations* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1998), pp. 244-245.

(١٥) أرشيف القصر الجمهوري السوري، المحضر غير المنشور لاجتماع الأسد وكلينتون، ١٥ - ١٦ كانون الثاني/يناير ١٩٩٤.

الاتفاقية الفلسطينية - الإسرائيلية. لقد قلتُ لرابين إنني لا أريد أن أتدخّل إلا إذا كان ممكناً تحقيق السلام الشامل والمستدام بين إسرائيل في طرف وسورية ولبنان والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية في الطرف الآخر. وقَبِل رابين ما قلتُه، وقال إنه يتوقع بالفعل التوقيع على السلام مع سورية أولاً، برغم أن كلاً منكما عدوٌ لدود للآخر. لكن رابين أخبرني أنه عندما يعطي حافظ الأسد كلمته، فإننا في إسرائيل نعوّل عليها، فهو يحترم التزاماته»[١٦]. ثم كشف عن أن رابين «لا يثق بعرفات، ولكنه يثق بكم يا سيدي الرئيس. وهو يعتقد أنه لن يتم سلام نهائي في المنطقة إن لم تكن سورية جزءاً منه أو إن لم توقّع دمشق عليه. ببساطة، لن ينجح السلام مع الأردن أو لبنان إن لم ينجح أولاً مع سورية. وهو لا يريد أن يذكر التاريخ أنه رئيس وزراء إسرائيلي حاول وفشل»[١٧].

ثم اقترح كلينتون: «لنتوصل إلى اتفاقية حول المبادئ الأولية للمحادثات الثنائية، ولتكن الولايات المتحدة هي الطرف الذي تودع هذه المبادئ لديه. هذه الاتفاقية التي ستؤرّخ، والتي ستوافقون عليها أنتم ورابين، ستبقى سرية إلى أن توافق سورية وإسرائيل كلتاهما على أن الوقت قد حان لجعلها علنية. ويجب ألا يكون هناك أي لَبْس في مثل هذا المسار، كما [كانت] الحال في النروج. فلا يزال الفلسطينيون والإسرائيليون يدفعون ثمناً باهظاً بسبب اللّبْس في أوسلو. ونحن لا نريد أن نرتكب الأخطاء نفسها التي وقعت فيها الإدارة السابقة [اي إدارة بوش]. فإذا وافقتم، كيف ستكون استراتيجيتكم؟»[١٨].

من الواضح أن كلينتون كان يقول إن في جيبه تعهداً من رابين بالانسحاب من الجولان، ويريد أن يملأ جيبه الآخر بتعهد سوري حول التطبيع والترتيبات الأمنية. بعدها طلب من الأسد الإدلاء بـ «تصريح علني وجريء» يهدف إلى «تشحيم عجلة» عملية السلام، ثمّ إنه استفسر كيف يتصور النتيجة النهائية لاتفاقية سلام سورية - إسرائيلية: «لست مضطراً إلى إلزام نفسك بأي أمر، بل ستكون مجرد رؤية، وليست اتفاقية. وإذا ذكرت شيئاً جديداً، فسيفتح ذلك نوافذ فرص لعملية السلام. وبتلك الطريقة، سأتمكن من أن أقول أكثر وأفعل أكثر مما قاله الأمريكيون الآخرون وما فعلوه، وبتلك الطريقة أستطيع أن أكون أكثر دعماً وأكثر عدلاً»[١٩].

---

(١٦) المصدر نفسه.
(١٧) المصدر نفسه.
(١٨) المصدر نفسه.
(١٩) المصدر نفسه.

وبالطبع، كان كلينتون يشير إلى ما عُرِف في ما بعد باسم «وديعة رابين»، التي تعهد فيها بالانسحاب من الجولان كاملة حتى حدود الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧.

انساق كلينتون مع تيار اقتراحاته، ووصل به الأمر إلى اقتراح أن يقابل الرئيس الأسد رابين، بالرغم من أنه كان يدرك تماماً أن القائد السوري سيرفض. قال الأسد: «إذا حدث اجتماع كهذا فعلاً، فلن تبقى هناك عملية سلام. ولن يستطيع أي سوري تفهّم، أو قبول، اجتماع رئيسه برابين في الوقت الذي تستمر إسرائيل فيه باحتلال أراض سورية. لدينا نصف مليون سوري في دمشق وحدها ممن شُرّدوا من الجولان، وهم ينتظرون اليوم الذي يستطيعون فيه العودة إلى مدنهم وقراهم، يا سيد كلينتون. وفي نهاية المطاف لا يمكن لرئيس دولة، مهما تبلغ قوته، أن يوقّع على السلام بمبادرة منه دون موافقة شعبه»[٢٠]. وبدا أن التألق في عينيّ الأسد ينمّ عن شيء من التعاطف مع كلينتون، تعاطف بدا مشيراً إلى أن الأسد يدرك أن ما يطلبه كلينتون هو ضرب من المستحيل: «مسكين كلينتون. هو يعتقد حقاً أنني سأقابل إسحاق رابين قبل أن يتحقق سلام بيننا وبين إسرائيل!».

أنهى كلينتون ذلك الاجتماع بإشارة إيجابية، مقرراً أن يبني على ما تم إنجازه، وليس على ما لم ينجَزْ مع نظيره السوري. ساد التفاؤل في الجو، وشعر به هو والأسد معاً. فمن المؤكد أن عملية السلام كانت على وشك التقدم إلى الأمام، وكذلك الأمر في العلاقات الثنائية السورية - الأمريكية. بعد ذلك أثار الرئيس الأمريكي عدداً من مواضيع اللحظة الأخيرة، التي كان من الواضح أنها في ذلك الوقت أقل أهمية له من السلام في الشرق الأوسط، وهي: تجارة المخدرات في وادي البقاع، والإرهاب، وحقوق الإنسان، ومقاطعة العرب الطويلة الأمد لإسرائيل، ومنع السفر إلى الخارج للطائفة اليهودية السورية البالغ عدد أفرادها ١٥٠٠ نسمة. وقد سُمِح لعدد قليل منهم أن يغادروا سورية بعد حرب الخليج الأولى، والآن طلب كلينتون من الأسد السماح لمن بقوا في سورية بالرحيل.

وعد الأسد بمعالجة الموضوع الأخير فوراً، بالطلب إلى وزارة الداخلية السورية أن تمنح إذن سفر لمن يرغب في مغادرة البلاد من اليهود السوريين. ولن يتطلب الأمر

(٢٠) المصدر نفسه.

سوى أيام معدودة بعد تقديم الطلب، وليس سبعة أشهر، كما كانت السلطات السورية تطلب من قبل[٢١]. ثم اقترح الرئيس الأسد أن يشكل وزير الخارجية الأمريكي وارن كريستوفر ووزير الخارجية السوري فاروق الشرع لجان متابعة لمعالجة القضايا الثنائية الأخرى جميعها. وذكّر كلينتون أن المسلمين يستنكرون زراعة المخدرات بكلّ أشكالها، وكذلك بيعها واستخدامها «لأنها محرمة في مجتمعنا وفي ديننا، روحياً وأخلاقياً»[٢٢].

مع انتهاء الاجتماع، بدأ كلا الوفدين بالاستعداد للاستراحة، ونظر الرئيس الأسد إلى الملف الضخم الموضوع على الطاولة، الذي أعطاه لي قبل ثلاث ساعات. وقال مبتسماً: «يا للهول، لقد نسينا الرجوع إلى الأوراق».

ثانياً: دبلوماسية الأمهات

بدأ الرئيسان بعد ذلك جلسة مغلقة، قمت فيها بوظيفة المترجمة، قبل أن يعقدا مؤتمراً صحفياً مشتركاً في قاعة الحفلات في فندق إنتركونتننتال، حيث ازدحم ممثلو الصحافة العالمية. في اللقاء الخاص عبّر الرئيس الأسد عن تعازيه للرئيس كلينتون الذي توفيت والدته، فرجينيا كاسيدي كِيللي، وهي في السبعين قبل عشرة أيام، أي في ٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٤، وكانت والدة الرئيس الأسد قد توفيت أيضاً قبل مدة قصيرة، ووجد الرجلان موضوعاً واسعاً للحديث في ما يتعلق بوالدتيهما. أجاب كلينتون، الذي اشتهر بارتباطه الوثيق جداً بأمه: «إن وفاة أمّ أيّ إنسان هي تذكير قوي له بأنه مخلوق فان». وافقه الأسد، وتكاد عيناه تدمعان وهو يتذكّر والدته، السيدة ناعسة، وكيف سافرت مع أبنائها من قرية القرداحة إلى مدينة اللاذقية الساحلية في الثلاثينيات من القرن العشرين، حيث دخل أبناؤها المدرسة: «كانت تستأجر غرفة في اللاذقية لتعتني بنا، وتحرص على أن نجدّ جميعنا في دراستنا، وأن نكتب واجباتنا وننام باكراً ونستيقظ في الوقت المناسب لنذهب إلى المدرسة. كانت امرأة صلبة ومتميّزة حقاً!». وقد عاشت والدة الأسد لتشهد نجاحه في حياته العملية، أولاً ضابطاً في سلاح الطيران، ثم وزيراً للدفاع، وأخيراً رئيساً للجمهورية. وتوفيت بعد أن كبرت في السن في أوائل التسعينيات، بُعيد حرب الخليج الأولى، وأطلق الأسد اسمها على مسجد كبير في القرداحة.

---

(٢١) محادثة شخصية مع الرئيس الأسد، أيلول/ سبتمبر ١٩٩٤.

(٢٢) أرشيف القصر الجمهوري السوري، المحضر غير المنشور لاجتماع الأسد وكلينتون، ١٥ ـ ١٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٤.

كان من الواضح أن الرئيسين يشعران بالامتنان الكبير لوالدتيهما، وأنهما مولعان بهما إلى حدّ أنساهما الحديث عن السلام، وشرعا في التكلم على دور الأمهات بوجه خاص، والنساء بوجه عام. نظر الأسد إلي، وربما تذكر فجأة أنني أم فخورة لطفلتين، فقال مراعياً مشاعري: «بثينة كاتبة أيضاً. وقد كتبت كتاباً باللغة الإنكليزية». كان يشير إلى كتابي: **باليمين والشمال: نساء عربيّات يتحدّثن عن أنفسهن**، الذي سبق أن نشرته في المملكة المتحدة عام ١٩٨٨، وفي الولايات المتحدة عام ١٩٩١. كنت قد أهديت الرئيس الأسد نسخة موقّعة، وعلق الرئيس كلينتون قائلاً: «يسعدني أن أحصل أنا أيضاً على نسخة يا بثينة». هززت رأسي، وأنا أشعر بفخر شديد أن المحادثة تدور حولي، وأن رئيسيْ كل من سورية والولايات المتحدة مهتمان بكتابي. قال الرئيس الأسد: «أرجو أن ترسلي إليه نسخة يا بثينة» (عند عودتي إلى دمشق، قمتُ بذلك، وبعد مدة قصيرة تلقيت رسالة شكر من البيت الأبيض موقعة من الرئيس كلينتون). وبينما كان يدور كل هذا الحديث عن «الأمهات»، لم يسعني إلا أن أفكّر بالصحفيين خارج الأبواب المغلقة الذين لا بد من أنهم جميعاً كانوا يتساءلون ما الذي يبحثه الرئيسان داخل تلك الغرفة. لن يصدق أحد أن الحديث لم يكن له أية علاقة بالسلام والأمن والحدود، وإنما بالأمومة وأخلاقيات الزعماء الأقوياء. وكان عليّ أن أتذكر أن أكثر الرجال قوة هم بشر ضعفاء في حديث الوجدانيات.

أخيراً توجّه الأسد وكلينتون إلى القاعة الكبيرة المجهزة للمؤتمر الصحفي والارتياح التامّ بادٍ عليهما، وهذا ما لاحظه الجميع بمن فيهم أعضاء فريق السلام المرافق لكلينتون، الذين كانوا يراقبون عن بعد وتضيء وجوهَهم ابتساماتٌ عريضة. كان أعضاء الفريق الأمريكي قد أمضوا الليل، وهم يستعدون للمؤتمر الصحفي، والتزموا الحذر في عدد الصحفيين الإسرائيليين المسموح لهم بالحضور حرصاً على تفادي الإساءة للرئيس الأسد. جلس الفريق الأمريكي في الصف الأول مع الوفد السوري، في حين هرعت أنا إلى مقصورة الترجمة لأتابع عملي. وقد تمكّن مارتن إنديك من التقاط اللحظة الجميلة في مذكّراته **بريء في الخارج**، حيث يقول: «اعتقدنا نحن أيضاً أن لدينا سبباً للشعور بالارتياح. فقد أخبرنا أصدقاؤنا الإسرائيليون قبيل لقاء القمة أن السؤال الوحيد الذي يتوقون إلى سماع الردّ عليه من الأسد ويرونه إشارة تدل على نياته هو: هل سيتحدث عن تطبيع العلاقات مع إسرائيل؟»[٢٣]. وحين أتى دور الرئيس الأسد ليتكلم، نحنح

(٢٣) Martin Indyk, *Innocent Abroad: An Intimate Account of American Peace Diplomacy in the Middle East* (New York: Simon and Schuster, 2009), p. 104.

وقال بصوت قوي هادر باللغة العربية: «إن سورية تسعى إلى سلام عادل وشامل مع إسرائيل وتعتبره خياراً استراتيجياً. نريد سلام الشجعان، سلاماً صادقاً يمكن أن يستمر ويدوم. إن تكن لدى قادة إسرائيل الشجاعة الكافية للاستجابة لهذا النوع من السلام، فستبدأ حقبة جديدة من الأمن والاستقرار والعلاقات السلمية الطبيعية للجميع»(٢٤).

وبعد ذلك حان وقت أسئلة وسائل الإعلام. تكلم باري شوايد، من وكالة أسوشيتد برس أولاً، موجهاً سؤاله إلى الرئيس كلينتون. وسأله إنْ كانت كلمات الأسد تعني حدوداً مفتوحة وتجارة حرة وعلاقات دبلوماسية مع إسرائيل؟. أجاب كلينتون بحزم قائلاً: «نعم، أعتقد أن الرئيس الأسد أدلى بتصريح واضح وصريح وشديد الأهمية عن العلاقات الطبيعية»».(٢٥) وكرر ولف بليتزر، من «سي. إن. إن».، السؤال نفسه، فابتسم الأسد، وقال إنه وكلينتون «اتفقا اتفاقاً كاملاً» حول متطلبات السلام. وأضاف: «نحن سنستجيب لهذه المتطلبات»(٢٦). وبعد ذلك، التقى أعضاء فريق كلينتون فريق الصحفيين الأمريكيين للتوثق من فهمهم مدى أهمية كلمات الأسد ومعناها في ما يخصّ صنع السلام في الشرق الأوسط.

أرسل كلينتون مارتن إنديك ودنيس روس على الفور إلى إسرائيل لإطلاع إسحاق رابين على اجتماعه مع الأسد. وكان الإسرائيليون، في حالة غضب شديد نتيجة الاختراق الذي تم في العلاقات السورية - الأمريكية. وكان العنوان الرئيسي في صحيفة هآرتس الإسرائيلية هو أن رئيس الوزراء رابين «مسح الابتسامات من على وجهيهما عند مقابلة إنديك وروس»(٢٧). ويذكر إنديك الفتور الذي لقيه في إسرائيل، قائلاً: «إذا تقبل الرئيس [كلينتون] شيئاً عرضه الأسد، كان الإسرائيليون يشعرون بالضغط مباشرة بدلاً من الاطمئنان. وبما أن الأسد قدم تنازلاً، فقد توقعوا الآن أنهم سيضطرون إلى القيام بالمثل، ولذلك قاموا لتوّهم بالتقليل من قيمة ما جئنا به من جنيف»(٢٨). وبذل رابين والصحافة الإسرائيلية معاً محاولات عدائية للتقليل من قيمة القمة السورية - الأمريكية، مدَّعين أن الأسد بإصراره على مسار شامل كان يلقي التراب على عيون صانعي السلام. وقال رابين للأمريكيين: «لا يمكنني قبول أي شيء إذا كان مرتبطاً بالأردن»(٢٩). كما قال:

---

(٢٤) صحيفة تشرين، ١٧/ ١/ ١٩٩٤.

(٢٥) Indyk, Ibid., p. 105.

(٢٦) المصدر نفسه.

(٢٧) *Haartez*, 18/1/1994.

(٢٨) Indyk, Ibid., p. 107.

(٢٩) المصدر نفسه.

«أفضّل [توقيع سلام مع] الأردن، فهو يكمل [السلام مع] الفلسطينيين»[٣٠]. وفي محاولة يائسة لتبني استراتيجية خروج من عملية صنع السلام مع سورية، أخذ يدفع باتجاه سلام أردني - إسرائيلي، ولا سيّما أن الملك حسين على وشك السفر إلى واشنطن لمقابلة كلينتون.

كانت المحادثات السرية بين الأردن وإسرائيل قد بدأت من قبل في لندن خلال الأسبوع الثاني من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٣، لكن تركيزها كان موجهاً بدرجة أكبر إلى القضايا الثنائية، التي تتراوح بين المشاركة في المياه وإعادة الأراضي، وبين الفلسطينيين المقيمين في الأردن. وكان الملك حسين في الواقع قد زار دمشق في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٣، وأكد للرئيس الأسد أن الأردن لن يمضي «أبداً» إلى توقيع صفقة منفردة مع الإسرائيليين من دون أخذ الشؤون السورية بعين الاعتبار في عملية السلام. ولكن بالطبع لم يتحقق هذا التأكيد إطلاقاً. قال رابين: «أفضّل أن يسأل الرئيس الملك: هل أنت مستعد للتوقيع مع إسرائيل أم لا؟ إذا كان هناك أي خيار للمضي مع الأردن، انسوا سورية»[٣١]. وكذلك لم يسعده أن يضغط كلينتون عليه للانسحاب الكلي من الجولان: «لقد ألزمتمونا بالانسحاب الكامل، لكنه لا يستطيع الوقوف وحده. وإذا فقدت هذه الميزة التفاوضية، سأصبح كسيحاً. هذه هي المشكلة عند العمل من خلال وسيط. لقد وضعتُ الأمر في سياق معين، ولكن حين نقلتموه ضاع السياق وقوّضتم قوتنا التفاوضية»[٣٢]. ثم قال للولايات المتحدة بلا مواربة: «أنتم تنظرون إلى الموضوع من وجهة نظركم، وأنا أنظر من وجهة نظري». لكن رئيس الأركان الإسرائيلي إيهود باراك، الذي كان دائماً يضغط من أجل صفقة مع سورية قبل صفقة مع الفلسطينيين، لم يشارك في هذا الموقف السلبي، قائلاً إنه لا يمكنه الوثوق بياسر عرفات أبداً. فقد اعتقد أن الأسد وكلينتون حققا اختراقاً «مهماً ومدهشاً» في جنيف، وحاول البناء عليه حين تولى السلطة أخيراً في تموز/ يوليو عام ١٩٩٩[٣٣].

أعود إلى جنيف: في اللحظة التي أنهينا فيها المؤتمر الصحفي، جمعت أوراقي وهرعت خارجة من مقصورة الترجمة للصعود إلى غرفتي كي أحزم أمتعتي. لقد قيل لي إننا متوجّهون على الفور إلى دمشق. حين اقتربت من المصعد، كان الرئيس الأسد

---

(٣٠) المصدر نفسه.
(٣١) المصدر نفسه.
(٣٢) المصدر نفسه، ص ١٠٨.
(٣٣) محادثة شخصية مع الرئيس الأسد، أيلول/ سبتمبر ١٩٩٤.

قد سبقني ودخله، ومعه قائد الحرس الجمهوري اللواء عدنان مخلوف. قال اللواء مخلوف: «سيدي الرئيس، نحن مستعدون للمغادرة»، كنتُ منهكة وغير مستعدة للسفر بتاتاً. كنت قد أمضيت الساعات الخمس السابقة وأنا أترجم في المؤتمر، على حين كان أعضاء الفريق اللوجيستي يجلسون ويحتسون القهوة والشاي. كنت لم أنم مدة تقرب من ثماني وأربعين ساعة. لذا نظرت إلى مخلوف، وقلت: «لكنني لست مستعدة!».

كان الأسد الرجل النبيل، كما هو دائماً، فضحك وربّت على كتفي قائلاً: «لا تقلقي يا بثينة، لن نغادر سويسرا من دونك أبداً!».

ثالثاً: فارس دمشق الذي ترجّل

بعد أسبوع من عودتنا من جنيف حلت فاجعة بدمشق. ففي يوم الجمعة ٢١ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٤ توفي باسل الأسد - الابن الأكبر للرئيس حافظ الأسد الذي كان ضابطاً في الحرس الجمهوري وبطلاً في الفروسية - في حادث أليم على طريق مطار دمشق الدولي الذي كان يلفه الضباب. لم يتجاوز هذا المهندس الشاب الذي درس في جامعة دمشق الرابعة والثلاثين من العمر. كان باسل محبوباً جداً في سورية، فقد تبنّى نشر الثقافة الحاسوبية من خلال جمعية المعلوماتية السورية، وأصبح شخصية أيقونية للشباب السوري بتوجهاته الإصلاحية وسجله الرياضي، إذ كان مظلياً وبطلاً في الفروسية.

ومع أن ذاك اليوم هو يوم عطلة أسبوعية، فقد كان مقرراً أن يستقبل الرئيس وفداً من الكونغرس الأمريكي في وقت مبكر من ذلك الصباح. استيقظتُ باكراً لأعدّ نفسي للاجتماع، لكنني تلقيت مكالمة هاتفية من القصر تخبرني أنه تأجل. ولم تُذْكر تفاصيل أخرى. قلتُ في نفسي إن هذا غريب، إذ لم يكن من عادة الأسد أن يؤجل اجتماعاً مقرراً أو يلغيه قبل وقت قصير من موعد انعقاده. ارتديت ثيابي وانتظرت مكالمة أخرى، أتت بعد فترة وجيزة. لم تكن المكالمة من القصر الجمهوري، بل من وزيرة التعليم العالي الدكتورة صالحة سنقر. طلبت إليّ أن أقابلها في الوزارة، لكنني اعتذرت قائلة إن لدي اجتماعاً مع الرئيس. قالت بهدوء: «لن يجري أي اجتماع مع الرئيس يا بثينة».

لدى سماع كلماتها، أصابني الرعب، فقد اعتقدت أن شيئاً رهيباً قد حدث للرئيس الأسد. سارعت من فوري متوجّهة إلى الوزارة في حيّ المزّة، ومليون فكرة تتسابق في

رأسي. كانت كلها أفكاراً سيئة، وتوقعت أسوأ الاحتمالات، لكنني لم أتخيل لحظة واحدة أن شيئاً قد حدث لأحد أولاد الرئيس. استقبلتني الدكتورة سنقر بتعبير جامد على وجهها، ثم قالت: «لقد توفي باسل الأسد قبل قليل في حادث على طريق المطار». وبينما كانت تهمهم هذه الكلمات ببطء، أعلن مسجد قريب الخبر على الناس، ورجع صداه عبر الشوارع الفارغة، إذ كان يوم جمعة. وضجّ رأسي بالخبر. لم أستطع تصديق ما أسمع. كان باسل شاباً ممتازاً مهذباً ذكياً وبارزاً في المجتمع. وها هو ذا قد مات فجأة، لسبب يبدو في منتهى التفاهة. لم يكن مريضاً، ولا مصاباً بأي داء عضال، ولم يمت في معركة أو لأنه تعرض لإصابة رياضية رهيبة. كانت وفاته ناجمة عن الضباب الكثيف على طريق المطار. كانت طريقة في الموت شديدة البشاعة. كل ما استطعت التفكير فيه في تلك اللحظة هو أمه وأبوه المسكينان. لا بد من أن الخبر أفجعهما إلى درجة لا تصدق. توجهتُ من مكتب صالحة سنقر إلى مسكن الأسد لأقدم التعازي للرئيس.

لم يُتحْ لي لقاء باسل إلا لماماً، لكن أخته بشرى الأكبر منه سناً، وهي اختصاصية بعلم الأدوية، كانت لي صديقة حميمة جداً. وفي الواقع، اعتبرتها أختاً، بغضّ النظر عن علاقة العمل التي تربطني بأبيها. كان من واجبي أن أكون إلى جانبها في ذلك الصباح المخيف. وإضافة إلى بؤس النساء وإجهاشهن بالبكاء، أوضح ما أذكره هو صورة الرئيس الأسد وهو يصعد الدرج في منزل العائلة، ويسند زوجته السيدة أنيسة مخلوف المكلومة. بدا وكأنه كبر عشرة أعوام منذ آخر مرة شاهدته فيها، قبل بضعة أيام. قبل أسبوع واحد فقط، كان حافظ الأسد الرئيسَ ذا الكبرياء في جنيف، يتفاوض بمهارة مع الرئيس بيل كلينتون. كان قوياً وذا سطوة وصبوراً ومنيعاً في ما يتعلق بحقوق سورية ضمن المجتمع الدولي. والآن تحول «أسد دمشق» - كما كان العالم الغربي يسميه في أحيان كثيرة - فجأة إلى أب مفجوع فقد ابنه المفضّل.

ولا شك في أنه من الصعب جداً فهم مدى قسوة فقدان ابن وهو في السنوات الذهبية من العمر. ومن المألوف أن الأبناء هم الذين يدفنون آباءهم وأمهاتهم، ويندر أن يدفن الوالدان أولادهما. وقفتُ في الزاوية مع بشرى، ثم خطوت نحو الرئيس وزوجته وعبّرت عن تعازيّ، فصافحني الرئيس الأسد من دون أن ينبس بكلمة. قبَّلْتُ السيدة الأولى، ورفعت هي بصرها إليّ من وراء دموعها، وتمتمت بكلمات تنقل أفكارها الداخلية: «لا، ليس باسل. باسل أكبر أولادي، باسل..».. كانت تتحدث إلى نفسها، لا إلى أيّ منا: الرئيس أو بشرى أو أنا.

أمضينا اليوم في مسكن الرئيس، نشارك العائلة مصابها، ثم توجهنا في صباح اليوم التالي إلى القرداحة، قريتهم الأم، لنحضر الجنازة الحاشدة. وإضافة إلى مئات الآلاف من الذين أعلنوا الحداد في كافة المدن السورية، شارك في الجنازة قادة عرب، مثل الرئيس إلياس الهراوي، ورئيس الوزراء رفيق الحريري، ورئيس المجلس النيابي نبيه بري، وولي العهد الأردني الأمير الحسن بن طلال، والرئيس المصري حسني مبارك. وسيذكر كثيرون ما فعله الرئيس الأسد بعد صعوده سلم الطائرة التي نقلت نعش باسل إلى القرداحة، حين دخل مقصورة القيادة ولوَّح للجماهير من النافذة الصغيرة، وكأنه يقول: «تحلوا بالشجاعة وكونوا أقوياء واعتصموا بإيمانكم، فهذه هي إرادة العلي القدير». كان هذا الرجل قد فقد ابنه أمس، ولكن ما زالت لديه الحكمة التي تجعله يتصرف قائداً لشعبه.

استمرّ الحداد أسبوعاً كاملاً. كان الرئيس الأسد يمضي ساعات طويلة وهو يتقبل التعازي من كبار المسؤولين، ثم ينفرد بنفسه. كنت كثيراً ما أقول لنفسي إن المسألة ليست سهلة، إذ إن ذكرى باسل حاضرة باستمرار في الأغاني والبرامج التلفزيونية والملصقات والصور العملاقة على جدران كل مدينة في أنحاء سورية كافة. وفي إحدى المرات، سارت بصمت أمام مسكن عائلة الأسد مجموعة من زملاء باسل الفرسان، وهم يمتطون جيادهم، ويعبّرون بذلك عن تقديرهم للفارس الذي هوى. وقف الأسد يراقب المشهد، حيث كان فوق كل جواد فارسه، ما عدا خيول باسل العربية، التي جللت بالسواد. لقد أفزعني ما بدا من بعدٍ عن اللياقة، وعن مراعاة مشاعر الآخرين في ذلك الموقف. ألم يتعرض هذا الرجل وزوجته لما يكفي من البؤس والأسى؟. لِمَ نذكّرهما مرة تلو المرة بالمأساة التي فجعت عائلتهما بها؟

وفي أحد الأيام أتت بشرى إلي وقالت: «أرجو أن تذهبي إلى غرفة الجلوس حيث يجلس والدي، إذ إنه سيتلقى مكالمة من الرئيس كلينتون». صدمتني رؤية الغرفة الصغيرة البسيطة التي كانت تشبه إلى حدّ بعيد غرفة الجلوس في شقتي المتواضعة. قلت: «هل هذا هو المكان الذي تجلس فيه طوال اليوم، يا سيدي الرئيس؟». رفع بصره إلي بهدوء وبتعبير حزين، لكنه حازم، كما لو كان يقول: «أين ينبغي أن أجلس؟ ما الذي ينقص هذه الغرفة؟». ثم أجاب سؤالي بلطف قائلاً: «إن المرء في هذا العالم، يا بثينة، يستطيع التركيز على أحد شيئين: إما البيوت والمال أو العمل. وقد آثرت التركيز على عملي». لم أنس تلك العبارة قطّ. وبعد بضع سنوات عبّرت عن رأي بدا أنه أعجبه، وقال لي:

«يبدو أنك قد ركزت على عملك»، ثم نظر إليّ وكأنه يذكّرني بما قاله لي في ذلك اليوم الحزين. كان ذلك أسمى أنواع الإطراء التي أسبغها عليّ الرئيس حافظ الأسد، ودائماً أتذكر الخيار الذي اخترته بالتركيز على عملي، وليس على البيوت والأشياء المادية.

ذكر كلينتون هذه الواقعة باختصار في مذكّراته: «حين هتفتُ إلى الأسد معزّياً، كان من الواضح أنه كسير القلب، مما يذكّر أن أسوأ ما يمكن أن يحدث في الحياة هو فقدان الولد»[٣٤].

(٣٤) Clinton, *My Life*, p. 574.

الفصل الخامس

الوديعة التي لم تكن قَطْ

خلال أيام بعد تشييع جنازة باسل وتلقّي سيل من التعازي، عاد الرئيس الأسد إلى العمل، ذهنياً وجسمياً. كان يجلس كل صباح خلف مكتبه في الساعة الثامنة، ويعقد الاجتماع تلو الاجتماع، ويستمر كل منها الزمن المطلوب لإنجاز العمل، وقد يمتدّ ذلك حتى ساعات متأخرة من الليل. وفي أحوال كثيرة كان يُمضي ساعات طويلة من دون أي توقف، بل ينسى أن يستريح لتناول الغداء، وتضطر زوجته إلى مكالمته لتذكيره بأن يأكل.

في العاشر من شباط/ فبراير ١٩٩٤، وبعد مرور أقل من شهر على الحادث المريع، استقبل الرئيس وفداً من أعضاء الكونغرس الأمريكي في القصر الجمهوري في دمشق. وأتذكر كيف تجمّد وجهه، حين أمسك أحدُ الضيوف يده للتعبير عن تعازيه، وبدا سارح الذهن، وكأنه تذكّر فجأة الأسى الذي عاناه مما جرى في حياته الشخصية، وهو ما حاول أن يدفنه تحت أكوام من العمل اليومي من دون جدوى. في كل يوم، وبطريقة أو بأخرى، يعود الواقع متسللاً ليذكّره بأنه فقد ابناً قبل مدة قصيرة. قال الرئيس برقّة لضيفه: «هذه إرادة الله، ولا حول لنا ولا قوة. ليست الحياة والموت بأيدينا. وفي حياتي، كثيراً ما ساعدتُ في إنقاذ حياة أولاد الآخرين، لكن حين تعلق الأمر بولدي، ما كان بوسعي أن أفعل شيئاً!». بدا عليه الحزن الشديد وهو يقول هذا، وأراد تغيير الموضوع على الفور.

أعتقد أنه لولا الضيوف العرب والأجانب الكثر القادمون إلى دمشق والمغادرون لها خلال تلك الشهور الأولى من عام ١٩٩٤، لوجد صعوبة أكبر في التغلب على الألم المفجع الذي سببه فقدان باسل. لكن كما قال تماماً، تستمر الحياة من دون توقف، سواء أكان أحباؤنا معنا أم لا. وهناك عمل ملحّ يتطلب اهتمامه: عملية سلام تحتاج إلى المتابعة وأرض محتلة تنتظر أن تستعاد.

عاد دنيس روس إلى سورية في شباط/ فبراير، ومعه صورة لرئيسي سورية والولايات المتحدة في جنيف، مؤرخة في ١٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٤. وزيّن توقيع

كبير الحجم الصورة: «مع أحرّ وأطيب تحياتي، بيل كلينتون». أخذ الرئيس الأسد هذا التذكار الذي يعبّر عن مشاعر طيبة من الرئيس كلينتون، وهو يبتسم، ثم أعطاه لي. وقال روس: «سيدي الرئيس، أنتم لا تعرفون مدى صراحة الرئيس كلينتون معكم» (ابتسم الرئيس مرة أخرى، وكان قد تحدّث هاتفياً مع كلينتون قبل فترة قصيرة)، وتابع: «إنه لا يطيل الحديث على الهاتف مع أي شخص أبداً بقدر ما يطيله معكم». هكذا أضاف روس بلهجة تكاد تكون حارة (وأقول «تكاد تكون»، لأنه في الواقع من الصعب جداً رؤية روس يتحدث بحرارة عن أي موضوع).

بثينة شعبان (إلى اليسار) مع الرئيس حافظ الأسد ووزير الخارجية فاروق الشرع يستقبلون السفراء الأجانب في دمشق منتصف التسعينيات.

وبحسب قول المبعوث الأمريكي، قال كلينتون لمساعديه قبل فترة قصيرة: «هذا رجل (الأسد) أستطيع العمل معه وأودّ ذلك!». وأثناء بحث موضوع سورية في شهر شباط/ فبراير من ذلك العام، قال رابين لكلينتون شيئاً مماثلاً: «ما يعجبني في الأسد هو أنه يحترم كلمته ويفي بوعده». نقل روس إلى الأسد موقف رابين تجاه القائد السوري، قائلاً: «هو يحترم القادة الذين يتمتعون بالصلابة والاستقامة. حتى قبل بدء التفاوض، كان يكنّ لكم احتراماً كبيراً، يا سيدي الرئيس، قائلاً إنك صلب، لكنك تحترم كلمتك». وحين كتب روس بعد بضع سنوات عن نظرة رابين إلى الأسد، أضاف: «كان رابين

يعتقد أن أية اتفاقية مع الأسد ستكون صعبة صعوبة استثنائية، لكن إذا تمّت، فسيلتزم الأسد بها، تماماً كما فعل في ما يخصّ اتفاقية [فصل القوات] عام ١٩٧٤»(١).

بعد المجاملات الافتتاحية، التي تبعها تحديث بعض المعلومات عن اتفاقية غزة - أريحا، انتقل دنيس روس إلى الموضوع الذي جاء من أجله، قائلاً: «رابين مستعد للانسحاب من الجولان»(٢). كان روس يحاول في كثير من الأحيان إيهام محدثيه أنه يعرف أكثر مما يعرفه زملاؤه، وأنه على اطلاع على معلومات من تل أبيب لا يتمتع بمعرفتها أحد سواه، حتى الرئيس كلينتون نفسه. ومع أننا كنا نعدّ كلينتون صديقاً أصيلاً ووسيطاً صادقاً، كنا نشعر أن روس يعتبر نفسه «رجل إسرائيل»، ولذلك كان يجد صعوبة في اتخاذ موقف معتدل منا.

حينما رأى روس أن كلامه لم يحدث أي تأثير في الرئيس الأسد على الإطلاق، تابع حديثه قائلاً: «انسحاب كامل، يا سيادة الرئيس. انسحاب كامل مقابل السلام الكامل! هذا شيء جديد، فنحن لم نسمع رابين يقول هذا من قبل»(٣). حدّق الرئيس الأسد بروس، وعلى وجهه تعبير صَلدْ، منتظراً أن يسمع من الدبلوماسي الأمريكي شيئاً أكثر أهمية. ففي واقع الأمر، هذا شيء سبق أن سمعه في الماضي، في عدد أكبر مما ينبغي من المرات.

تنفّس روس بعمق، وقال: «سوف يقوم رابين بصياغة اقتراح خلال الأسبوعين القادمين ويتركه معنا. وسيكون اقتراحه مهماً جداً»(٤).

رفع الأسد نظره إليه، وبعد توقف، قال أخيراً: «جيد جداً. حين يكون جاهزاً، سنكون مستعدين لسماع ما يريد رابين أن يعرضه»(٥). لم يكن الأسد يحاول التقليل من قيمة العرض، بل العكس هو الصحيح. فقد قدّر ما قيل، لكنه لم يكن ليلزم نفسه بأي شيء قبل أن يفهم تماماً ماذا سيكون عرض رابين. وحاول روس أن يجعل الرئيس يردّ بالمثل، ويدلي بتصريح يدلّ على حسن النيّة، لكن الرئيس السوري رفض الإدلاء بأية كلمة أخرى قبل أن ينقل له الأمريكيون بالتفصيل ما الذي يفكّر رابين فيه.

---

(١) Dennis Ross, *The Missing Peace: The Inside Story of the Fight for Middle East Peace* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2004), p. 91.

(٢) محضر اجتماع الأسد - روس غير المنشور، شباط/ فبراير ١٩٩٤.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

أولاً: مذبحة الخليل

تعرّضت القوة الدافعة باتجاه السلام في الشرق الأوسط لضربة قاصمة، كادت أن تقوّض قمة جنيف بأكملها. ففي يوم الجمعة ٢٥ شباط/فبراير ١٩٩٤، أقدم مستوطن إسرائيلي يدعى باروش غولدستاين، يرتدي الزيّ العسكري لجنود الاحتياط في الجيش الإسرائيلي، على دخول المسجد الإبراهيمي في الخليل ومعه سلاح رشاش، وأخذ يطلق النار على الفلسطينيين العزّل وهم يؤدون صلاة الفجر. وقد قُتِل برصاصه تسعة وعشرون منهم بدم بارد قبل أن يُقتَل غولدستاين نفسه بأيدي المصلين الغاضبين.

لم يكن من المستغرب أن عملية السلام تعرّضت مرة أخرى لتوقّف سريع. فقد انتشر الغضب في العواصم العربية، من رام الله وبيروت إلى القاهرة ودمشق. والآن لم يكن بوسع أي شخص عاقل أن يأخذ الإسرائيليين – أو الأمريكيين – على محمل الجدّ. فالاستمرار في الحديث عن السلام بعد مذبحة الخليل سيكون انتحاراً سياسياً لأي زعيم عربي. دان الرئيس الأسد المذبحة، وأعلن أن محادثات السلام ستعلّق حتى إشعار آخر. وفي الحال أرسل كلينتون فريق السلام الأمريكي المؤلف من آرون ديفيد ميلر، ومارتن إنديك، ودانيال كرتزر، ودنيس روس، للقاء عرفات في تونس.

وتقدم عرفات المستشيط غضباً بقائمة طويلة من المطالب، هي: حضور دولي في الخليل لحماية الفلسطينيين، وانتشار للشرطة الفلسطينية، وإجلاء خمسة وأربعين مستوطناً من تل رميدا في قلب الخليل. وطلب بعد ذلك قراراً من مجلس الأمن يدين المذبحة، وهو على علم كاف بمدى حساسية الولايات المتحدة تجاه استنكار الأمم المتحدة أفعال إسرائيل. صاح عرفات غاضباً في وجه الأمريكيين: «إننا لا نطلب القمر». وقد كتب إنديك يقول: «كان لدى إدارة كلينتون نفور شديد من التعامل مع القضية الفلسطينية في مجلس الأمن. فهناك تحت أضواء الرأي العام العالمي، سيتمتع الفلسطينيون دائماً، باعتبارهم الطرف المستضعف، بالأكثرية، وستقف الولايات المتحدة دائماً في قفص الاتهام إلى جانب إسرائيل»[٦]. لكن واشنطن، اتصلت بعرفات في تونس بعد زمن قصير من الاجتماع الذي جرى هناك، وقالت له بعبارات لا لَبس فيها إن الولايات المتحدة ستستعمل حق النقض في التصويت على أي قرار ضد إسرائيل في الأمم المتحدة.

(٦) Martin Indyk, *Innocent Abroad: An Intimate Account of American Peace Diplomacy in the Middle East* (New York: Simon and Schuster, 2009), p. 112.

خطرت لكلينتون بعد ذلك فكرة طلب المساعدة من الأسد. لقد اعتقد أنه إذا قبلت سورية بالعودة إلى طاولة المفاوضات - بعد تلبية بعض متطلبات عرفات - من المحتمل أن تحذو منظمة التحرير الفلسطينية حذوها متثاقلة. ومن أجل تحقيق ذلك، أخبر كلينتون الأسد أنه مستعد للامتناع عن التصويت على قرار الأمم المتحدة المقترح بدلاً من استخدام حق النقض. واتصل الرئيس الأمريكي بدمشق ليبحث الفكرة مباشرة مع الرئيس الأسد، ثم أرسل وارن كريستوفر بسرعة إلى الشرق الأوسط. كان كلينتون يطلب معروفاً من سورية، وتصرف الأسد بحسن نية وفقاً لذلك، فبحث المسألة مع الملك حسين والرئيس اللبناني إلياس الهراوي. وطلب الأسد إليهما إعطاء كلينتون فرصة لإثبات صدقه، ووافق الرجلان على طلبه، وأعلن البيت الأبيض أنه بفضل سورية، ستستأنف المفاوضات بين العرب والإسرائيليين، وفقاً للوعد الذي أُعطيَ للقائد السوري في سويسرا.

ثانياً: وديعة رابين

في الثلاثين من نيسان/ أبريل ١٩٩٤، عاد الوفد الأمريكي إلى دمشق، برئاسة وارن كريستوفر هذه المرة. وصل أعضاء الوفد إلى القصر باكراً في صباح الأول من أيار/ مايو ١٩٩٤، ومعهم وديعة رابين المشهورة. وشرح كريستوفر أن هذه الوديعة مبنية على المثال المصري لعام ١٩٧٨، وعلى الأرضية المشتركة التي تم الوصول إليها سابقاً في جنيف بين الأسد وكلينتون. وقد شملت عدة أمور من ضمنها تفكيك المستوطنات في الجولان والانسحاب الكامل على ثلاث مراحل، تتم خلال مدة خمس سنوات. وأدرَجَت الوديعة إجراءات أمنية، ومحطات إنذار مبكر تديرها الولايات المتحدة، ومناطق منزوعة السلاح.

وفي مقابل السلام، أراد رابين حدوداً مفتوحة، وإنهاء المقاطعة، وحرية تنقل الأشخاص بين الدولتين، وحرية التجارة والسياحة، وحماية حصص إسرائيل من المياه، وبالطبع علاقات دبلوماسية كاملة بين دمشق وتل أبيب. وأراد رابين أن «يُظهر عمقُ الانسحاب الكامل عمقَ السلام الكامل». وقيل لنا إن الاتفاقية لن تكون ذات صلة بالمسار الفلسطيني، وستبقى سرية تماماً بين سورية ورابين وإدارة كلينتون. ولم تحدد الوديعة معنى «الانسحاب الكامل»؛ فهل كان رابين يعني انسحاباً حتى حدود عام ١٩٢٣ الدولية أو إلى حدود الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧ التي شدّدت سورية عليها في

مؤتمر مدريد؟ ففي الواقع تختلف الحدود اختلافاً كبيراً بين الحالتين. وكان الإسرائيليون يسعون أيضاً إلى نوعين معاً من الدبلوماسية: سرية وعلنية، شبيهة بدبلوماسية أنور السادات حين زار إسرائيل في عام ١٩٧٧؛ وهو أمرٌ كان واضحاً أن الرئيس الأسد لن يُلزم نفسه به أبداً. قال: «أولاً نستعيد أرضنا، ثم نتحدث عن كل شيء آخر. كيف يمكنني أن أقنع شعبي بالحاجة إلى الدخول في دبلوماسية علنية مع الإسرائيليين وهم ما زالوا يحتلون الجولان؟»(٧).

اشتمل الاقتراح الإسرائيلي على عدة نقاط تستحق التفصيل. في المرحلة الأولى من الانسحاب، يتراجع الجنود والمستوطنون الإسرائيليون إلى «خط الدفاع الأول الذي يبعد ٢ - ٣ - ٤ أميال عن خط فصل القوات». وستكون المرحلة الأولى انسحاباً محدوداً لا يتضمن تفكيك مستوطنات أو إنشاء محطات إنذار مبكر. وفي ما يخصّ المرحلة الثانية، اقترحت إسرائيل الانسحاب إلى منتصف الجولان مع تفكيك «بعض المستوطنات»(٨). واقترح رابين أن تتضمن المرحلة الثالثة انسحاباً كاملاً من الجولان(٩). وقد كتب وزير الخارجية وارن كريستوفر في مذكّراته **فرص في العمر لا تتكرر** عن هذا الاجتماع مع الأسد، حين سُلِّمَت وديعة رابين في ذلك الشتاء، قائلاً: «من اجتماع إلى اجتماع لم تحدث عملياً أية انحرافات في الروتين أو أية مفاجآت، سارةً كانت أم غير ذلك. حين كان الأسد يختار أن يتكلم في الجوهر، كانت رسالته - التي يعرضها ويكرّرها ويعززها - واضحة، وهي أنه ليس بصدد الدخول في مفاوضات إلى أن يلتزم رابين بالانسحاب التام من مرتفعات الجولان. كان يقول لنا إن الإسرائيليين لن ينعموا بالسلام الآمن أو الازدهار أو الوجود ما لم يلبّوا مطلبه الذي لا تفاوض حوله»(١٠). ويذكر كريستوفر أنه بعد الإبلاغ عن الوديعة: «اعتقدتُ أنني لمحت ابتسامة خفيفة على وجه الأسد، لكن جوابه الشفهي الوحيد كان سلسلة من الأسئلة الخاصة بأدق التفاصيل والعبارات المشاكسة التي حاولت الإجابة عنها من دون أن أظهر ضيقي»(١١).

كان كريستوفر قد سمع بوديعة رابين أول مرة في شهر آب/ أغسطس ١٩٩٣ حين تلقّى، أثناء وجوده في تل أبيب، دعوة لزيارة مكتب رئيس الوزراء لعقد اجتماع مغلق

(٧) محضر اجتماع الأسد - كريستوفر، ١ أيار/ مايو ١٩٩٤.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) Warren Christopher, *Chances of a Lifetime* (New York: Scribner Press, 2001), pp. 217-218.

(١١) المصدر نفسه، ص ٢٢١.

معه. وكان دنيس روس والسفير الإسرائيلي في الولايات المتحدة إتامار رابينوفتش حاضريْن في الاجتماع حين طلب رابين إلى وزير الخارجية الأمريكي أن يطرح على الأسد سؤالاً افتراضياً: «ما هي حدود ما سوف تقوم به سورية لقاء الانسحاب الإسرائيلي الكامل من الجولان؟»(١٢).

وبحسب قول كريستوفر تضمّنت الأسئلة: «هل الأسد مستعد لتوقيع معاهدة قائمة بذاتها مع إسرائيل، أي من دون ربطها بمساري المفاوضات الأردني والفلسطيني؟ هل هو مستعد للمشاركة في دبلوماسية شخصية وعلنية لطمأنة الجمهور الإسرائيلي إلى التزام سورية بالسلام، بما في ذلك لقاء رابين؟ هل هو مستعد للموافقة على جدول زمني مدته خمس سنوات للانسحاب الإسرائيلي الكامل من الجولان، مع تطبيع تصاعدي للعلاقات بين الدولتين، مثل تبادل الدبلوماسيين، يتزامن مع التقدم في عملية الانسحاب؟»(١٣).

وبالإضافة إلى ذلك، أراد الإسرائيليون أن تبدأ سلسلة جديدة من المحادثات في الولايات المتحدة، حيث يجتمع السفير رابينوفتش بالسفير المعلم، بمشاركة دنيس روس أيضاً. وكانت حجة الرئيس الأسد في معارضة هذه اللجنة الثلاثية، كما بيّنها في عام ١٩٩٤، هي: «إذا كان رابين لا يستطيع حل هذه المشكلة، فمن المؤكد أن باراك أو رابينوفتش لن يستطيعا حلها. لِمَ يُعْهَد بهذا العمل إلى مسؤولين أقل شأناً حين لا تستطيع القيادة العليا التعامل معه؟»(١٤). ومن الواجب أيضاً الإشارة إلى أنه حين نُقِل هذا كله إلينا في دمشق، لم يرد أي ذكر على الإطلاق للمنظمات الفلسطينية الموجودة في سورية. وفي السنوات التي تلت، وحين دخلت المفاوضات مياهاً عكرة، استخدم الإسرائيليون والأمريكيون هذه الورقة لتعليل اتهامهم سورية بعرقلة العملية. ولكن في ما يتعلق بهم، لم تكن حماس والجهاد الإسلامي والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في عامي ١٩٩٣ و١٩٩٤ على قائمة أولوياتهم حين كان الأمر يخصّ محاولة تحقيق السلام مع سورية.

يبدو أن الوديعة لم تحدث انطباعاً قوياً لدى حافظ الأسد. فعلى الرغم من أنه قدّر أهميتها، لم ير فيها ابتكاراً كبيراً، ولم يجدها عظيمة كما رآها الأمريكيون. لقد وجد فيها

(١٢) المصدر نفسه.
(١٣) المصدر نفسه.
(١٤) محادثة شخصية مع الرئيس الأسد، أيار/ مايو ١٩٩٤.

ثغرات كثيرة في كل مقترحاتها، مثل طلب رابين تقسيم سورية إلى أربع مناطق: منطقة منزوعة السلاح وخالية من الجنود، ومنطقة ثانية فيها عدد محدود من الجنود، وثالثة يكون عدد الجنود فيها محدوداً أيضاً، وتمتد عبر مسافة طويلة في عمق الأرض السورية، ومنطقة رابعة عدد الجنود فيها غير محدود. علق الرئيس ساخراً: «تريدون إعطاءنا الجولان واحتلال سورية بأكملها بدلاً من ذلك؟. هذا يعني أن نزع السلاح سيصل حتى حمص»[١٥]. وبدا أن الاقتراح ليس له سوى هدف واحد: تقليص قوة الجيش السوري. «أنتم تتكلمون على السلام بعقلية الحرب. حين نصل إلى السلام - إن كان أصيلاً - لن يكون أي من هذه الإجراءات ضرورياً»[١٦].

إضافة إلى ذلك، لم يكن يحب مصطلح «التطبيع»، مفضلاً استخدام «علاقات سلمية طبيعية»، وهو مصطلح أصر عليه منذ انطلاق عملية مدريد للسلام قبل ثلاث سنوات. اقترح كريستوفر إقامة محطة إنذار مبكر فوق جبل الشيخ، وأن تكون لنا واحدة أيضاً في صفد المحتلة. ولكن الاقتراح لم يعجب الأسد: «لا نريد محطة إنذار مبكر في صفد، ولا فوق جبل الشيخ. فكّكوا فقط المحطة الموجودة لديكم حالياً، ولن تكون هناك حاجة إلى أية محطة أخرى!»[١٧].

حين أعود بذاكرتي إلى وديعة رابين، أشعر بحاجة إلى التعليق على الطريقة التي تدهورت بها لغة السلام. ففي عام ١٩٩٤، كان الإسرائيليون يتحدثون عن «تفكيك المستوطنات». وتحوّل هذا في أواخر التسعينيات إلى «تجميد المستوطنات». ومع قدوم القرن الحادي والعشرين، صار بحث الموضوع نفسه يجري على أساس «إبطاء بناء المستوطنات». ثم أصبحت المسألة في عامي ٢٠٠٩ و٢٠١٠ «وقف بناء المستوطنات مدة ثلاثة أشهر». والآن في عام ٢٠١٤، أخذوا يتحدثون عن «تجميد بناء مستوطنات جديدة».

كانت النقطة الرئيسية التي يحاول كريستوفر وروس إبداءها هي أن الرأي العام الإسرائيلي ليس مقتنعاً باستعداد سورية لتحقيق السلام، وأنه يطلب شيئاً في مقابل وديعة رابين. وبدا أن مسؤولي الولايات المتحدة مهتمون بالدعاية - كإجراء مقابلة مع صحيفة إسرائيلية، على سبيل المثال، أو السماح لصحفي إسرائيلي بزيارة سورية - أكثر

---

(١٥) محضر اجتماع الأسد - كريستوفر، ١ أيار/ مايو ١٩٩٤.
(١٦) المصدر نفسه.
(١٧) المصدر نفسه.

من اهتمامهم بالجوهر. وكانوا دائماً يتحدثون وكأنه لا أهمية للرأي العام السوري. ولأن حافظ الأسد هو حافظ الأسد، اعتقدوا أن بإمكانه اتخاذ أي قرار يريده، من دون أن يستشير الشعب السوري. وهذا أصاب عصباً حساساً جداً لدى الرئيس السوري، الذي انفعل على نحو واضح، وأجاب بحدة: «المفروض أنكم وسطاء شرفاء، تمثلون الطرفين!». كما انزعج الأسد من الجدول الزمني الذي يعطي مدة خمس سنوات للانسحاب وتفكيك المستوطنات الذي اقترحه رابين، وقال: «الجولان منطقة صغيرة جداً، ولا يحتاجون إلى سنوات. هذا مؤكد»(١٨).

كان الأسد يعتقد أن الانسحاب يمكن أن يتم خلال ثلاثين يوماً. وقال في أحد الاجتماعات مع وارن كريستوفر: «حين عملنا على إبرام اتفاقية الهدنة بعد حرب عام ١٩٧٣، لم يتطلب إتمامها أكثر من خمسة عشر يوماً. ما السبب في أن الانسحاب يتطلب الآن مدة تصل إلى خمس سنوات؟»(١٩). بالطبع، لم يكن لدى كريستوفر أي جواب عن هذا السؤال، سوى القول إنّ اتفاقية الهدنة كانت محدودة ومؤقتة، في حين سيكون الانسحاب من الجولان «نهائياً وكاملاً». طلب الرئيس الأسد طعاماً خفيفاً وشراب ليمون لضيفه، ونصحه أن يفكر في الموضوع، وأن يقوم بزيارة تدمر ليشاهد الآثار، وأن يلتقيا من جديد في اليوم التالي لمتابعة بحث المسألة.

بعد أربع وعشرين ساعة، كان ردّنا على وديعة رابين جاهزاً، إذ إن الرئيس الأسد جَهَدَ في إعداده أثناء الليل، بالتشاور مع رئيس الأركان حكمت الشهابي، ووزير الدفاع مصطفى طلاس، ووزير الخارجية فاروق الشرع. فعلى نقيض ما يعتقده الأمريكيون، كان الرئيس الأسد قائداً يؤمن جداً بتوافق الآراء، وكان شديد الحرص على استشارة كبار مسؤوليه قبل التوصل إلى قرار استراتيجي بهذا الحجم. وقد كُتِب الردّ السوري على ورقة قرأها الرئيس الأسد: «إنني في العادة لا أقرأ من ورقة، لكنني اليوم سأفعل ذلك. بالطبع، هذه ليست سوى أفكار ومقترحات، وهي غير ملزمة، لكنها تُظهر ما يُعتبر مصلحة سورية العليا». وضع الرئيس نظارته، وبدأ يقرأ ببطء باللغة العربية، وتبعتُه بالترجمة الإنكليزية: «تعبر سورية عن رضاها عن اقتراح رئيس الوزراء الإسرائيلي بالانسحاب الكامل من كلّ الأراضي المحتلة من قبل إسرائيل حتى حدود الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧». ورحب بتفكيك المستوطنات، لكنه تساءل عن الحدود التي

---

(١٨) المصدر نفسه.

(١٩) المصدر نفسه.

يشير رابين إليها، أهي حدود ١٩٢٣ أم حدود ١٩٦٧؟. وأضاف أن الإطار الزمني «يجب ألا يتعدّى ستة أشهر من تاريخ توقيع معاهدة السلام». ثم تحدّث عن الإجراءات الأمنية قائلاً: «يجب أن يتمكّن كل طرف من تحاشي أي هجوم مفاجئ، وأن تكون لديه ترتيبات للدفاع عن النفس. وتشعر سورية بالارتياح لكون إسرائيل تعتقد أن هذه الترتيبات يجب أن تكون متبادلة. يجب أن يتوازى ما يحدث على الجبهة السورية مع ما يحدث على الجبهة الإسرائيلية، في الأرض والترتيبات معاً. المساواة هي مفتاح النجاح في أية اتفاقية سلام، ويجب أن تكون متوازية ودقيقة على الجانبين. وينبغي تفادي اتخاذ أية إجراءات أمنية لأحد الطرفين على حساب أمن الطرف الآخر أو وحدة أراضيه»[٢٠].

وأضاف أن أية صفقة ستحتاج إلى «ضمانات دولية تجسد إرادة المجتمع الدولي» كي يقوم بوظيفة «رادع مهم ضد أي فريق يفكر في شنّ هجوم على الآخر»[٢١]. وقال إن سورية ستوافق على السماح لقوات حفظ سلام من الأمم المتحدة بأن تقوم بدوريات على جانبي الحدود كليهما، وأنه يجب أن توافق كلّ من سورية وإسرائيل على مهمة قوات الأمم المتحدة وجنسيات أفرادها وحجمها وأسلحتها. كما أن عليهما الاتفاق على مدة تفويض هذه القوات للبقاء على جانبي الحدود السورية - الإسرائيلية.

نظر الرئيس الأسد نظرة سريعة إلى ضيوفه ليرى كيف يستجيبون لكلماته، وتابع قائلاً: «لا ترى سورية حاجة إلى محطات إنذار مبكر بعد التوقيع على السلام. فوجود القوات الدولية كاف لضمان الأمن على كلا الجانبين. وسورية مستعدة للتفكير بهيئة عسكرية مشتركة تشرف عليها القوات الدولية للتحقق من تطبيق الأمن المتفق عليه». واستطرد قائلاً: «كما أن سورية مستعدة للعمل من أجل جعل الشرق الأوسط خالياً من الأسلحة الذرية والبيولوجية والكيميائية، ويجب أن يُطبَّق هذا على الطرفين: العرب وإسرائيل». وأضاف أنه بعد أن يتم التوقيع على السلام: «يوافق الطرفان على إقامة علاقات دبلوماسية على أساس رسالتين متبادلتين بينهما، تصبحان ملحقاً لمعاهدة السلام الفعلية. وسنقوم بذلك بعد أن يحل السلام بوجه قاطع». ثم لخّص الموقف كالآتي: «تبدأ المرحلة الأولى يوم توقيع اتفاقية السلام النهائية، وتنتهي بعد ستة أشهر. وسيتم تحديد المنطقة التي سيجري الانسحاب منها. وخلال هذه المدة ستكون اللجنة السورية مستعدة لتنفيذ الأمور الآتية: إنهاء حالة الحرب، مع اعتراف كل من الطرفين

---

(٢٠) أرشيف القصر الجمهوري السوري، أوراق الأسد - كريستوفر، أيار/ مايو ١٩٩٤.

(٢١) المصدر نفسه.

بسيادة الطرف الآخر ووحدة أراضيه، وإنهاء المقاطعة الاقتصادية من الدرجتين الثانية والثالثة، والتعهد بالمشاركة في مفاوضات متعددة الأطراف. وتنتهي المرحلة الثانية بانسحاب إسرائيلي كامل إلى حدود عام ١٩٦٧ خلال الأشهر الستة التالية[٢٢]. وسيتبنّى الطرفان إجراءات لبناء الثقة لإعداد المناخ المناسب لسلام عادل وشامل في المنطقة».

ساد الصمت في الغرفة في الوقت الذي حاول الأمريكيون فيه هضم ما قاله الرئيس. وأخيراً، قال كريستوفر: «شكراً يا سيادة الرئيس. لكن من الواضح لي منذ الآن أن جوابكم لن يلقى قبولاً فورياً من رابين»[٢٣]. وكانت العبارة الذهبية التي استخدمها روس هي: «لقد قدمنا اقتراحات وقدموا هم اقتراحات، وقدمتم أنتم اقتراحات. ولن يتم الاتفاق على شيء إلى أن يتم الاتفاق على كل شيء». وأضاف الأسد على الفور: «بالمناسبة، لا يمكنكم أن تقولوا أي شيء لرابين إلا إذا كنتم واثقين مئة بالمئة أن ما يعرضه هو حدود الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧»[٢٤].

وحين كتب دنيس روس عن هذا الاجتماع في مذكراته السلام المفقود، قال إن الرئيس الأسد كان «حذراً» من الجري إلى صفقة مع الإسرائيليين لا تؤمن جميع حقوق سورية[٢٥]، وإنه كان «حريصاً بصفته آخر القوميين العرب الحقيقيين أن تُظهر هذه الصفقة - إن تمت - أن سورية ليست مهزومة. فلا بد من أن تستعيد سورية أرضها بأكملها. وبما أنه قد انتظر، كان يريد أن يحصل على ما حصلت مصر عليه - الانسحاب الكامل - ويريد أن يعطي أقل مما أعطت. وكان يريد أن يبيّن أنه يستطيع تحقيق شيء أفضل مما حققته مصر. وإضافة إلى ذلك، يجب ألا تكسب إسرائيل، وألا تبدو أنها كسبت من الاتفاقية - سوى أن الأسد يعرض عليها نهاية للصراع»[٢٦]. وأضاف أن رئيس سورية «كان مصمّماً على الامتناع عن إعطاء أي شيء مجاني. لا بد من أن يكون كل شيء جزءاً من صفقة». ووصف روس السبب الذي يجعل الأسد مفاوضاً ممتازاً: «كانت كل نقطة مهما تصغر في مناقشتنا جديرة بالبحث. وكان يرى التباحث نوعاً من الرياضة. كانت المفاوضات تمريناً في الاستنزاف. وهو يستطيع دائماً التفوّق على الطرف الآخر في التحمّل. ولم يكن مستعجلاً قط. كان قانعاً بالعيش من دون اتفاقية، وخصوصاً إذا لم

(٢٢) المصدر نفسه.
(٢٣) المصدر نفسه.
(٢٤) المصدر نفسه.
(٢٥) Ross, *The Missing Peace: The Inside Story of the Fight for Middle East Peace*, p. 142.
(٢٦) المصدر نفسه.

تلبِّ تلك الاتفاقية معايير الكرامة والشرف لديه. ولم يكن ليسمح لأي شخص أن يتفوق عليه بأية طريقة»[٢٧].

وأشار روس أيضاً إلى مراسلات عام ١٩١٥ الشهيرة بين أمير مكة الشريف حسين بن علي والمفوض السامي البريطاني السير هنري مكماهون. في الرسائل المتبادلة بينهما، وعَدَ العرب بإثارة تمرد ضد الدولة العثمانية مقابل قيام حكم عربي فوق الأراضي المحرّرة جميعها فور بلوغ الحرب العالمية الأولى نهايتها. قال روس: «أثناء مراسلات الشريف حسين الشهيرة مع مكماهون، أوضح حسين أن «أي تنازل يخطط لإعطاء فرنسا أو أية قوة أخرى شبراً واحداً من الأرض مرفوض كلياً». وفي عيون العرب يبيّن تعبير رفض التنازل عن شبر واحد من الأرض - وهو شيء قدر لي أن اسمعه في أحيان كثيرة بعد سبعين عاماً من الرئيس الأسد - أن الأرض تكاد تتمتع بصفة قدسية»[٢٨].

وكم كان محقاً؛ فمن المؤكد أن الأرض كانت مقدسة لدى الرئيس الأسد، وهذا هو السبب الذي جعله يثبت أنه مفاوض صعب المراس أثناء عملية السلام، وخصوصاً في ما يتعلق بقبوله وديعة رابين. والفرق الرئيسي بين ما كان الإسرائيليون يقترحونه وما يطلبه الرئيس الأسد، هو أنه يريد انسحاباً كلياً كاملاً نظيفاً، ثم إقامة السلام. كان الإسرائيليون يتحدثون عن بناء الثقة وتأسيس قنوات اتصال بعد المرحلة الأولى من الانسحاب. لكننا كنا نقول إن قراري مجلس الأمن الدولي الرقمين (٢٤٢) و(٣٣٨) لا يذكران هذه الأشياء، وإن شعبنا لن يقبل علاقات كاملة طبيعية ما دامت أرضنا محتلة، مع هذه المراحل الكثيرة من الانسحاب. هذا غير قابل للتفاوض، وهو نهاية المجادلة من وجهة نظر الرئيس حافظ الأسد.

إن ما يستحق الذكرَ هنا هو تقييمُ روس للرئيس. وإضافة إلى الملاحظات المذكورة سابقاً، كتب يقول: «كانت علاقتي به غير عادية. فعلى أحد المستويات، كان يحترم معرفتي وانتباهي إلى التفاصيل. كان دائماً يسألني عن الملف الأسود الذي أحمله إلى اجتماعاتنا، والذي يبدو أنني كنت أكتب فيه كل شيء يقال. كان يقول لي: «هذا يحتوي على أسرارك جميعها؟»، فأجيب «بكل تأكيد». لم تكن الأمور كلها حلوة وخفيفة في ما بيننا. كنت أعرف أن الأسد يشكّ في أمري. وأنا مقتنع هنا أن كوني يهودياً هو أحد العوامل. ففي نظره، كان ذلك يجعلني بالضرورة أقرب إلى الإسرائيليين. ولا ريب في

---

(٢٧) المصدر نفسه.
(٢٨) المصدر نفسه، ص ٣١.

أن مقولتي إنه بحاجة إلى أن يتوجه إلى الرأي العام الإسرائيلي زادت من تأكيد نظرته هذه إلي»[٢٩].

هذا بالطبع غير صحيح، فكون روس يهودياً لا علاقة له بتقدير الرئيس له أو فقدان ذلك. وقد سبق للأسد التعامل مع العديد من الأمريكيين اليهود، من هنري كيسنجر إلى مارتن إنديك، وما ساهم في تقييمه لمحاوريه هو موقفهم، وليس دينهم. ويبرز خطأ آخر في مذكّرات روس هو العبارة الآتية: «كان الأسد يرى، كما قدّر لنا أن نكتشف بعد تسعة أشهر، أن كلّ الأراضي التي كانت خاضعة للسيطرة السورية في الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧ هي أراض سورية، على حين شعر رابين أن الأرض الواقعة وراء الحدود الدولية المفترضة - أي التي حُدّدت جزءاً من منطقتي الانتداب البريطاني والفرنسي عام ١٩٢٣ - يجب أن تكون إسرائيلية. ولم يكن الفرق في الأراضي بين هذين الخطين ذا أهمية للأمريكيين، أما من وجهة نظر الأسد، فكان كل شبر من الأرض التي اعتبرها سورية «مقدساً»»[٣٠]. لكن روس لم يحتج إلى «تسعة أشهر» لكي يكتشف رفض الأسد حدود عام ١٩٢٣، فقد أوضحنا منذ اليوم الأول، ومرة تلو الأخرى، أن سورية لن تقبل أي شيء أقل من حدود الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧. وأوضح الرئيس الأسد هذا تماماً لكلّ من كارتر عام ١٩٧٧، وبوش عام ١٩٩١، وكلينتون عام ١٩٩٤. وهو مطلب ثابت انتقل من الأب إلى الابن، فقد كرره الرئيس بشار الأسد في كل محادثاته مع الأمريكيين منذ توليه السلطة في عام ٢٠٠٠. لم يكن روس بحاجة إلى تسعة أشهر لاكتشاف هذا المطلب، إذ كان يعرف ذلك منذ البداية.

ثالثاً: جواب رابين

بعد أسبوعين، أي بتاريخ ١٥ أيار/ مايو ١٩٩٤، عاد الأمريكيون إلى دمشق، بعد أن قابلوا رئيس الوزراء رابين في إسرائيل وسمعوا ردوده على استجابة سورية لوديعته. وكان وزير الخارجية كريستوفر يحمل رسالة من كلينتون، لكن الرئيس الأسد رفض قبولها، قائلاً: «قبل أن نتفق [حول ما قيل في الردّ على الوديعة]. أُفضّل تسلّم الرسالة في نهاية الاجتماع. فلنطّلع أولاً على ما يريد الإسرائيليون قوله»[٣١]، وذلك للأسباب الآتية:

(٢٩) المصدر نفسه، ص ١٤٣.
(٣٠) المصدر نفسه.
(٣١) محضر اجتماع الأسد - كريستوفر، ١٥ أيار/ مايو ١٩٩٤.

١ - طلب رابين قناة اتصال مباشرة بالرئيس الأسد، وقوبل هذا فوراً بالرفض القاطع.

٢ - عبر الإسرائيليون عن غضبهم من أن «الرد السوري ركّز على الحاجة إلى الانسحاب، وليس على احتياجات دولة إسرائيل». وقال الرئيس لكريستوفر إن هذا لا يعدو أن يكون طبيعياً، وهو أن «تركز سورية على أفضل ما هو في مصلحتها، وليس على مصلحة إسرائيل»[٣٢].

ولم يكن رابين راضياً عن أن الأسد لا يريد أي تطبيع إلا من بعد أن يتحقق الانسحاب الكامل. وهو أيضاً «لا يستطيع قبول أن يكون عمق المنطقة التي يجب أن تكون منزوعة السلاح متساوياً بين سورية وإسرائيل، باعتبار أن أرض [إسرائيل] أصغر جداً من الأرض السورية»[٣٣]. وفي ما يتعلّق بالإطار الزمني للانسحاب، قال رابين للأمريكيين: «يمكنني تحقيق الانسحاب في وقت أقل إذا كان الأسد مستعداً للسماح للإسرائيليين القاطنين هناك بالبقاء في ظل السيادة السورية». ضحك الرئيس الأسد، وقال: «في البداية تريدون مني السماح لليهود بمغادرة سورية والآن تريدونهم أن يبقوا!»[٣٤]. كان يشير هنا بالطبع إلى مطالبة جيمس بيكر المتكررة بأن يسمح الأسد لليهود السوريين بالهجرة إلى إسرائيل أو الولايات المتحدة، وذلك في عامي ١٩٩١ و١٩٩٢. وفي النهاية، ضغط كريستوفر مرة أخرى في طلب الدبلوماسية العلنية مع دمشق، قائلاً: «إن رابين غير قادر على فهم السبب في ترددك في هذه النقطة». ومن غير أن تطرف للرئيس عين، قال لكريستوفر: «أنتم أحرار، ونحن لن نسير في الضباب. شخصياً، عمّقتْ هذه المناقشة شكوكي في نيات إسرائيل، وزادت من اعتقادي أن المحادثات ليست سوى أفكار إسرائيلية، وأنها غير جدّية، ولا واقعية»[٣٥]. وعند هذه النقطة، أجرى الرئيس إحدى مقارناته الشهيرة: «ما تقولون هو مثل المزارع الذي يجد صخرة كبيرة وهو يحرث الأرض. ومن الواضح أنه لا يستطيع الاستمرار في الحراثة قبل إزالة تلك الصخرة. وما تحاول إسرائيل فعله هو الاستمرار في الحراثة من دون إزالة الصخرة، و[الصخرة] هي الاحتلال»[٣٦].

---

(٣٢) المصدر نفسه.
(٣٣) المصدر نفسه.
(٣٤) المصدر نفسه.
(٣٥) المصدر نفسه.
(٣٦) المصدر نفسه.

حين غادر الأمريكيون الغرفة، اقتربتُ من الرئيس، وقلتُ: «أليس من الواضح، يا سيدي، أننا نتوجه إلى اجتماع، ولا نتوصل إلى أية نتيجة؟. ونذهب إلى اجتماع آخر، ولا نتوصل إلى أية نتيجة أيضاً، لِمَ إذاً تضيّعون وقتكم، يا سيادة الرئيس؟».

قال الأسد لي، وفي عينيه نظرة استنكار من أب قلق: «يا بثينة، إن الإعلام العالمي بأكمله ضدنا، وإذا أردنا عند أية نقطة أن نقول إن هذه الاجتماعات في الحقيقة لا طائل فيها، فسيتهموننا بأننا الطرف الذي هدم عملية السلام. لكن في اللحظة التي تقبلين بها التنازل عن المبادئ لن يكون أمامك سوى الاستمرار في الانحدار!». كان هذا القول أحد القوانين السياسية التي انغرست في ضميري ووجداني.

وفي ١٨ أيار/ مايو ١٩٩٤، عاد كريستوفر ودنيس روس إلى دمشق، مرة أخرى، لتسليم رسالة متأخرة من الرئيس كلينتون. احتوت الرسالة على كثير من الكلام الجميل عن مدى «سعادة» الرئيس كلينتون لمقابلة الرئيس الأسد في جنيف «من أجل إنهاء الصراع وإجراء تحول في الشرق الأوسط». وقال كلينتون إنه إذا كان للسلام أن يتحقق، «على إسرائيل أن تطبق الانسحاب، وعلى سورية أن تطبق السلام، وعلى الطرفين أن يطبقا الإجراءات الأمنية. ومن الواضح أن علينا التفاوض مع الإسرائيليين حول تحديد عناصر الانسحاب التي ستجاري عناصر السلام المحددة»(٣٧).

ثم أضاف: «إنني أتذكّر اجتماعنا التاريخي في جينيف والتزامنا المشترك بتحقيق اختراق في مفاوضاتكم مع إسرائيل. وأنتم تعلمون أنني منذ بدء إدارتي جعلت ذلك الهدف واحداً من أعلى أولوياتي. وفي لقائي برئيس الوزراء رابين، أوضح لي أن لديه اهتماماً صادقاً بالسلام الشامل، ووافق معي على أن سورية طرف رئيسي. وقد سررت في لقائنا في جينيف بأنكم تشاركون في هذا الهدف. ومن البيانات التي أدليتم بها بعد الاجتماع، تكوّن لديّ اقتناع أن تحقيق هذا أمر ممكن»(٣٨). وأضاف أن تقدماً كبيراً «قد تحقق بالفعل».

وعند هذه النقطة، وجّه الرئيس الأسد سؤالاً إلى كريستوفر: «أنتم دائماً تستخدمون عبارة «لا يوجد وقت» أو «الوقت ليس في صالحنا». ما سبب استعجالكم يا سيد كريستوفر؟ إن هذه المشكلة موجودة لدينا منذ عقود»(٣٩).

(٣٧) أرشيف القصر الجمهوري السوري، مراسلات الأسد - كلينتون، أيار/ مايو ١٩٩٤.
(٣٨) المصدر نفسه.
(٣٩) أوراق الأسد - كريستوفر، ١٥ أيار/ مايو ١٩٩٤.

تهرّب كريستوفر من السؤال بإجابة خالية من الدبلوماسية إلى حدّ ما: «ببساطة لا يمكننا أن ننتظر، فالصيف يصبح خريفاً، والخريف ربيعاً. وهناك أحداث أخرى ستتدخل في عملية السلام. وقد يأتي شيء يؤثر تأثيراً سلبياً في المفاوضات ويعرّضها للخطر. فالمرء لا يعرف أبداً ما يكمن خلف الزاوية في الشرق الأوسط»[٤٠].

رابعاً: قمة الأسد - كلينتون في دمشق

بدأنا في منتصف شهر تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٤ نتهيأ لحدث خاص: كان بيل كلينتون يقوم بجولة في الشرق الأوسط، وكان مقرراً أن يتوقف في دمشق للقاء قمة في القصر الجمهوري. وأراد الرئيس الأسد أن يضمن أن يلقى كلينتون ترحيباً يناسب مقامه، لكونه أول رئيس للولايات المتحدة يزور سورية خلال ولايته، منذ عشرين عاماً. لقد زار الرئيس كارتر سورية مراراً بعد مغادرته البيت الأبيض عام ١٩٨١، كما سبقه قدوم ريتشارد نيكسون عام ١٩٧٤، لكن نكسون كان رئيساً مهزوماً دمرت فضيحة ووترغيت سمعته إلى حدّ بعيد. وقام برحلته إلى سورية خلال الأشهر الأخيرة له في منصبه، الأمر الذي أفقده عملياً أهميته في مسألة صنع السلام العربي - الإسرائيلي، في حين كان كلينتون في قمة حياته السياسية، إذ أكمل قبل مدة قصيرة السنة الثانية من رئاسته، وكان يطمح إلى ولاية جديدة. ولم يسبق أن كان أي رئيس للولايات المتحدة مثله في اهتمامه بصنع السلام في الشرق الأوسط، وكان يحظى باحترام صادق من العرب، ولا سيما السوريين والفلسطينيين. وقد صحبتُ الرئيس الأسد إلى مطار دمشق الدولي في ذلك الصباح من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٤، حيث كانت الحكومة السورية بأكملها متجمعة بانتظام عند السجاد الأحمر، مستعدة للترحيب برئيس الولايات المتحدة.

قبل الزيارة بأسبوع، أقدم شاب فلسطيني على تفجير قنبلة مربوطة إلى خصره في تل أبيب، وقتل واحداً وعشرين إسرائيلياً ومواطناً هولندياً. ومع أننا نمقت قتل المدنيين، فقد طرحت سورية السؤال الآتي: «ما السبب الذي دفع هذا الشاب إلى أن ينهي حياته بهذا الشكل؟». كان الجواب عندنا هو الغضب والإذلال واليأس، وكلها بسبب قوات الاحتلال الإسرائيلية. أما في ما يخصّ الولايات المتحدة، فلم يكن الشاب سوى «إرهابي فجّر قنبلة». ولأن الرئيس الأسد أدرك أن ما حدث سيضع كلينتون في موقف صعب، فقد دان الهجوم بسرعة لإسكات أعضاء الكونغرس الأمريكي الذين سيحاولون

---

(٤٠) المصدر نفسه.

استخدام الحادثة لتعطيل الزيارة إلى دمشق. قال الرئيس في تصريحه الدقيق الصياغة: «تدين سورية قتل المدنيين، أكان في بيروت أم رام الله أم تل أبيب».

الرئيس بيل كلينتون في مطار دمشق الدولي في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٤، أثناء استقبال الرئيس الأسد له. وإلى جانب الرئيس كلينتون تقف بثينة شعبان والسفير السوري في واشنطن وليد المعلم.

وفي يوم وصول كلينتون، أطلق حزب الله صواريخ كاتيوشا على شمال إسرائيل، وكان يُخشى أن يتفاقم الوضع، ويتحول إلى أزمة كبرى. لكن ذلك لم يحدث، لأن تلك الصواريخ لم تقتل أحداً. تجاهلت الولايات المتحدة الحادثة، ونحن لم ندنها، ولا هللنا لها، مع أن العالم كله يعرف روابطنا القوية بحزب الله وقائده الشاب آنذاك السيد حسن نصر الله. وقد صرح دنيس روس في مذكّراته تصريحاً غير صحيح، وهو أن المسؤولين الأمريكيين صمتوا بشأن هجوم حزب الله «لأننا كنا نعتمد على كلمة الأسد أنه سينزع سلاح حزب الله حين تلتزم إسرائيل، بموجب اتفاقية سلام، بالانسحاب من سورية ولبنان»[٤١].

والآن في وقت كتابتي هذه، بعد عشرين عاماً من لقاء القمة بين الأسد وكلينتون في دمشق، أرى كلّ محاضر تلك الاجتماعات مكدسة فوق طاولة مكتبي، ولا توجد إشارة واحدة في أي منها إلى وعد من الأسد بـ «نزع سلاح حزب الله» إذا جرى التوقيع

(٤١) Ross, *The Missing Peace: The Inside Story of the Fight for Middle East Peace*, pp. 232-233.

على السلام مع الإسرائيليين في أي وقت من الأوقات. وقد رافقتُ الرئيس في زياراته الخارجية جميعها، وحضرتُ كل اجتماع عقده مع مسؤولين أمريكيين، من أعضاء في الكونغرس، إلى سياسيين من الوزن الثقيل، مثل جيمس بيكر وبيل كلينتون. ولم يقدّم الأسد مثل هذا التعهد ولو مرة واحدة، حيث كان ذلك متناقضاً مع كلّ مبادئه ومواقفه التي لم تختلف في السرّ عنها في العلن أبداً.

الرئيسان حافظ الأسد وبيل كلينتون، ومعهما بثينة شعبان، في مطار دمشق الدولي في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٤.

رسم الرئيس الأسد على وجهه ابتسامة خفيفة حين حطت طائرة الرئاسة الأمريكية في دمشق. وبالرغم من شكوكه المتراكمة حول الولايات المتحدة، ها هو ذا يستضيف بيل كلينتون ذاته في عاصمة الأمويين. ومما زاد من غرابة الموقف حماسة الأسد لوجود كلينتون في سورية، وكما كان لنا أن نكتشف بعد مدة قصيرة، شاركه كلينتون الشعور نفسه. فقد بدا أن التجاذب الكيميائي بين الرجلين وتصميمهما المتبادل على بلوغ الهدف قد تغلّب على التاريخ المضطرب، وعلى سنوات الشك في العلاقات السورية - الأمريكية. وقد طربنا لسماع النشيدين الوطنيين السوري والأمريكي، بعد استعراض كلينتون لحرس الشرف السوري.

تنبغي الإشارة إلى أنه، على نقيض ما أشيع في ذلك الوقت، لم ترافق السيدة الأولى هيلاري كلينتون زوجها في هذه الزيارة لسورية. لقد ادّعى الكثيرون أنها قدمت بالفعل إلى سورية، لكنها بقيت على متن الطائرة لأن السيدة الأولى السورية، التي كانت في حداد بسبب وفاة ابنها، لم تأت إلى المطار لاستقبالها. هذا ببساطة كلام غير صحيح، ويجب تصويبه من أجل التاريخ.

بعد انتهاء مراسم الاستقبال، صعدنا إلى السيارة متوجّهين إلى القصر الجمهوري. قال كلينتون: «منذ أن كنتُ طفلاً، وأنا أقرأ الكثير عن دمشق، ولا أصدق أنني بالفعل هنا، في أقدم عاصمة مأهولة في العالم!». كنت جالسة بين الرئيسين، أحدهما هو لي بمنزلة الأب، والآخر رئيس احترمته وأعجبت به إلى أبعد الحدود. كنتُ سعيدة جداً بسبب شعوري الشخصي بالرضا وأنا أقول لنفسي: «ها أنا أجلس بين رؤساء سورية وأمريكا! لقد قطعتِ مشواراً طويلاً حقاً يا بثينة!».

وبينما كان الرئيس كلينتون يسير داخل القصر، المعروف باسم قصر الشعب، بدا عليه الذهول واضحاً لرؤية الهندسة المعمارية وحجم البناء الجاثم فوق قمة هضبة تطل على دمشق. وقد أضفى اللون الفستقي حيوية شديدة على القصر، الذي كان قد صمّمه قبل بضع سنوات المهندس المعماري الياباني اللامع كنزو تانغي(٤٢). وساهمت في روعته الأرضيات الرخامية، والثريات الضخمة، والحدائق الجميلة، وقد يفسر هذا الانطباعَ الشديدَ الذي تكوَّن لدى الرئيس كلينتون. وهو بالطبع ليس كالبيت الأبيض، لكنه يشع إحساساً بالدفء والطبيعة العملية والفخامة، فهو مركز السلطة في المدينة التي صدق كلينتون بوصفها أقدم مدينة مأهولة في الكرة الأرضية.

وحين دخلنا قاعة الاجتماعات، نظر الأسد وكلينتون عبر نافذة كبيرة تكشف منظراً بانورامياً للعاصمة السورية. بدأ الأسد يشير إلى المعالم التاريخية في دمشق: «هناك في تلك الجهة يقع المسجد الأموي. وإذا نظرتَ بهذا الاتجاه، فهناك كنيسة القديس حنانيا على طرف الشارع المستقيم، الذي اعتنق القديس بولس المسيحية فيه. وهناك جبل قاسيون، المكان الذي فيه قتل قابيل أخاه هابيل». لم أتمالك أن أقول لنفسي: «إذا أراد

(٤٢) كان كنزو تانغي (١٩١٣ ـ ٢٠٠٥) مهندساً معمارياً يابانياً مشهوراً قَدِمَ إلى سورية ليصمم القصر الجمهوري، مازجاً بين الأسلوب المميز للشرق الأقصى والحداثة. وخلال حياته المهنية، صمَّم أبنية في خمس قارات، وبشكل رئيسي في وطنه اليابان بعد الهجوم الذري على هيروشيما في الحرب العالمية الثانية.

الرئيس أن يريه كل ما يستحق المشاهدة في دمشق، سيكون كلينتون بحاجة إلى شهر كامل في سورية، وليس ساعتين فقط!».

وحين شرعنا نعمل، استعرض كلينتون الوديعة، محاولاً التوصل إلى موقع وسط بين الأسد ورابين. وكانت الغرفة تضم إلى جانب الرئيسين وزير الخارجية فاروق الشرع، ووزير الخارجية الأمريكي وارن كريستوفر، والمبعوث الخاص دنيس روس، وأنا. وافق الرئيس الأسد على مرحلتين للانسحاب الإسرائيلي (وكان في السابق يطالب بمرحلة واحدة فقط)[٤٣].

ولكن في ما يخصّ الدبلوماسية العلنية، لم يتزحزح عن التزامه السابق، وقال: «لقد سبق أن اتفقنا على أن يجري وزير الخارجية الشرع مقابلة مع التلفزيون الإسرائيلي. ما الذي حصلنا عليه مقابل ذلك؟ لا شيء! لكن إن أردت الحقيقة، نحن لا نتوقع أي شيء من الإسرائيليين، ولا نريد أي شيء منهم، والذي يجب عليهم فعله الآن هو الانسحاب من مرتفعات الجولان، بلا شروط!»[٤٤].

وأضاف أنه لا يمكن لأية إشارة أخرى في مجال الدبلوماسية العلنية أن تأتي إلا بعد أن يتم توقيع معاهدة سلام. بدا وكأن الرئيس الأسد يقول: «إنني أقبل وديعة رابين مع بعض التعديلات». من زاوية نظرته إلى الأمور، لم يورد قرارا مجلس الأمن الدولي الرقمين (٢٤٢) و(٣٣٨) أي ذكر للدبلوماسية العلنية، وكون سورية قد وافقت من قبل على المقابلة مع الشرع، يعني أن سورية اتخذت خطوات أكثر مما هو مطلوب منها، حتى من قِبل المجتمع الدولي: «لا يمكنك إجراء دبلوماسية علنية حين تكون أرضك محتلة، فالاحتلال والدبلوماسية لا يتوافقان، يا سيد كلينتون!»، إذ كان الرئيس يريد الانسحاب والأمن ثم العلاقات الطبيعة.

أما رابين، فقد كان يسعى إلى السلام والأمن والانسحاب الكامل بهذا الترتيب. ومع ذلك، كان من الواضح أن الرئيس الأسد يحاول ألا يخيب أمل كلينتون، في الوقت الذي كان كلينتون فيه حريصاً بالدرجة نفسها على ألا يخيب أمل الرئيس الأسد. وحرص كلا الرئيسين على ألا يستفزّ أحدهما الآخر أو يزعجه. ولم يريدا أن يكون اختلاف الرأي نقطة البداية لهما، بل كانا يريدان هامشاً من الحرية للوصول إلى نقطة جوهرية إلى حدّ

(٤٣) أرشيف القصر الجمهوري السوري، اجتماعا الأسد - كلينتون غير المنشورَين، ٢٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٤.

(٤٤) المصدر نفسه.

ما. وعبّر كلينتون عن ذلك تعبيراً رائعاً بقوله: «لنرَ إن كنا نستطيع أن نرقص التانغو معاً قبل أن نتزوج!»(٤٥)، وقهقه الرجلان.

حين انتهى الاجتماع، انسحب الوفدان إلى غرفة أخرى، وبقي الأسد وكلينتون وأنا. قال كلينتون: «لم أكن أودّ أن أضخّم موضوع زمن الانسحاب، لكن يبدو لي أن الإسرائيليين يصرّون على أنه ليس بإمكانهم تحقيقه في الوقت المحدد». اقترب الأسد من ضيفه الأمريكي، وحدّثه بلهجة تكاد تكون أبوية قائلاً: «أفهم كيف يحاولون تسجيل نقاط، ليس لأنهم مهتمون بالسلام، بل لأن ذلك يجعلهم يشعرون أنهم أقوى وأفضل. وأنا سأعطي هذا لك، وليس للإسرائيليين: ستة عشر شهراً. لن أعطيهم اثني عشر شهراً، كما قيل في السابق، بل ستة عشر شهراً. وهذا في الحقيقة من أجلك، وما كنت سأفعل هذا أبداً لولا أنك أتيت إلى دمشق لمقابلتي. لكنني لا أعتقد أنهم بحاجة إلى هذه المدة الزمنية، كما سبق أن أكدتُ في عدة مناسبات». كان ذلك مهلة زمنية أطول من أي شيء اقترحه الرئيس الأسد سابقاً. لكن المحزن هو أنه حتى تلك المهلة الزمنية لم تُحدث اختراقاً في الشرق الأوسط. وقد وصف مارتن إنديك مبادرة الرئيس الأسد بقوله: «ستة عشر شهراً لإتمام الانسحاب الإسرائيلي (كان قد قال في السابق اثني عشر شهراً) وحضور إسرائيلي دبلوماسي، لكن من دون سفارة، مدة أربعة أشهر قبل إتمام الانسحاب (في السابق كان المفترض أن تقام علاقات دبلوماسية كاملة بعد أن تُنهي إسرائيل انسحابها الكامل)»(٤٦). سُرّ كلينتون كثيراً بالعرض السوري، ووعد أن يدعمه بكل ثقله.

يعلّق مارتن إنديك في مذكّراته قائلاً: «في الماضي لم يشر الأسد ورابين في مباحثاتهما مع الولايات المتحدة سوى إلى الانسحاب الكامل من مرتفعات الجولان. ولاحظ كريستوفر الذي يميل إلى الاهتمام بالتفاصيل أن رابين لم يحدد خط الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧ في اقتراحه. وقد ادّعى الأسد (وهذا غير صحيح) أن كريستوفر ودنيس روس أكدا معاً في السابق أن رابين سينسحب إلى خط الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧»(٤٧). وهو يضيف أن كريستوفر حمّل نفسه مسؤولية الفجوة في التفسير بين

(٤٥) المصدر نفسه. هذا تعبير أمريكي شائع جداً وهو يعبّر عن المصلحة المشتركة والشراكة الحقيقية حين الإقدام على أمر ما.

(٤٦) Indyk, *Innocent Abroad: An Intimate Account of American Peace Diplomacy in the Middle East*, p. 141.

(٤٧) المصدر نفسه، ص ١٢٤.

حدود ١٩٢٣ و١٩٦٧: «لم يكن على علم بوجود اختلاف بين الحدود الدولية وخط الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧»[٤٨].

ومع أن هذا الكلام قد يبدو مدعاة إلى الضحك لأي شخص مطّلع على عملية السلام السورية - الإسرائيلية، فهو غير مستغرب. وحين انتهى الاجتماع الخاص القصير، خرجنا وتوجهنا على الفور إلى المؤتمر الصحفي. وأذكر أنني همست إلى الرئيس الأسد: «أرجوك تمهّل في السير لتعطيني الوقت الكافي للوصول إلى مقصورة الترجمة». أعرب الرئيس كلينتون عن تصميمه على «تحقيق تقدم» في عملية السلام في الشرق الأوسط»، وقال إن الرئيس الأسد يشاركه في آرائه. وحين جاء دور الأسد في الحديث، قال: «إن من دواعي سروري أن أستقبل الرئيس بيل كلينتون في دمشق، أقدم مدينة مأهولة في العالم، وقلب منطقة شهدت أقدم حضارات العالم، ومولد كلّ الديانات التوحيدية. لكن شعوب هذه المنطقة عانت زمناً أطول مما يُحْتَمَل، وخصوصاً في هذا القرن، من مرارة الحرب والصراعات وإراقة الدماء. ونأمل الآن أن تعيش في سلام واستقرار». وأضاف أن المحادثات مع كلينتون كانت «إيجابية ومثمرة، وركّزت على جوانب مختلفة من عملية السلام». وأردف القائد السوري بالقول: «إنني أعرب عن ارتياحي العميق لتوافق آرائنا حول عملية سلام شامل، يرتكز على قراري مجلس الأمن الدولي الرقمين (٢٤٢) و(٣٣٨)، ومبدأ «الأرض مقابل السلام». وقد أكدتُ للرئيس كلينتون - بناء على فكرة الانسحاب الكامل مقابل السلام الكامل - استعداد سورية للالتزام بمتطلبات السلام: «علاقات طبيعية مع إسرائيل مقابل الانسحاب الإسرائيلي الكامل من الجولان حتى حدود الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧ وجنوب لبنان». وأنهى كلمته بقوله: «في الختام، أودّ أن أحيّي الشعب الأمريكي، وأن أشكر للرئيس كلينتون جهوده الشخصية وجهود مساعديه، وأعرب عن استعدادي للعمل معهم من أجل تحقيق سلام شامل وعادل وحقيقي في المنطقة»[٤٩].

وفي حديث كلينتون للصحفيين وهو في طريقه إلى إسرائيل، علّق أنه لا يمكن أن يتحقق السلام من دون السوريين: «أعتقد أن الرئيس الأسد يريد السلام وأؤمن أنه سيحققه». وأضاف أن «القائد السوري مفاوض صعب المراس، لكنه مع ذلك جدير بثقتنا لأنه يلتزم بوعوده». وقال أيضاً إن سورية والولايات المتحدة «وصلنا إلى نقطة في

---

(٤٨) المصدر نفسه.

(٤٩) أرشيف القصر الجمهوري السوري، خطابات الرئيس الأسد ومقابلاته، تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٤.

علاقاتهما الثنائية أزالت فقدان الثقة بينهما». وحين سئل كلينتون هل أعطاه الأسد أي شيء في اجتماعهما الخاص، قال: «نعم، حصل ذلك، فقد تكلمنا في حديثنا الخاص عن تفاصيل المفاوضات، وأعتقد حقاً أننا أنجزنا شيئاً من التقدم. ونحن مرتاحون لذلك»[٥٠].

أكان مؤتمر الأسد - كلينتون الصحفي ناجحاً أم فاشلاً، مسألةٌ تعتمد على رؤية الراوي وموقعه السياسي، ففريق كلينتون للسلام وصفه بالفاشل. على سبيل المثال، غضب دنيس روس غضباً شديداً لأن الرئيس الأسد، حين سألته مراسلة أخبار «سي. بي. إس».، ريتا برافيس، عن الإرهاب، ردّ متهماً إسرائيل بأنها منبع الإرهاب كله في المنطقة. ولا بد من الإشارة إلى أن برافيس صاغت سؤالها بطريقة توحي بأن اللوم يقع على سورية والفلسطينيين في ما يخصّ أعمال الإرهاب التي ابتُلي الشرق الأوسط بها. قال روس معلقاً على جواب الأسد: «هذه كارثة»، وأضاف: «ها هو ذا رئيس الولايات المتحدة يقف إلى جانب رئيس سورية بعد أسبوع واحد من تفجير انتحاري في تل أبيب، والأسد يلوم إسرائيل على أعمال العنف». أنا شخصياً، لا أعتقد أن المؤتمر كان سلبياً بأي وجه، لكن إذا كان دنيس روس ووارن كريستوفر يتوقعان أن يمطر الأسد إسرائيل بالعبارات المعسولة والمديح، فما وجداه لا بدّ من أنه قد أصابهما بخيبة أمل عظيمة. ومع ذلك، إذا نظرنا بعمق، يتضح لنا أن القائديْن توصّلا إلى محطات مهمة في قمة دمشق، وقد وُصِفَتْ هذه وصفاً صريحاً إلى حدّ بعيد في المؤتمر الصحفي.

بعد أن صعدنا إلى السيارة بعد المؤتمر، علّق الرئيس كلينتون قائلاً: «لا أصدّق أنني أتيت إلى دمشق فعلاً، ولم أتمكّن من التجول في المدينة القديمة».

ضحك الرئيس الأسد، وقال: «اللوم يقع على مسؤوْلي الأمن لديكم يا سيادة الرئيس. إذا وافقت، يمكنني أن أصحبك في جولة في دمشق القديمة حيث نستطيع تناول الغداء. ولك مني كلّ الضمان أنك ستكون في أيدٍ أمينة». وفي المطار، وأثناء تبادل عبارات الوداع، أنهى الرئيس كلينتون كلامه بالقول: «أتمنى لو كان باستطاعتي البقاء وقتاً أطول، لكن عليّ العودة إلى الولايات المتحدة لأن لدينا انتخابات نصفية الشهر القادم»[٥١].

---

(٥٠) المصدر نفسه.

(٥١) تواصل شخصي قبل مغادرة كلينتون.

ابتسم الرئيس الأسد لسماع هذا، وقال: «لو كان بإمكاننا أن نعود معكم إلى أمريكا، لكنّا صوّتنا لكم في الانتخابات النصفية!». من المحتمل أن صورة ارتسمت في ذهن كلينتون للرئيس حافظ الأسد وهو يحاول أن يكسب التأييد له في داكوتا الشمالية أو في ميشيغن - ولو أنها لم تستمر أكثر من ثانية - وضحك كلينتون قائلاً: «مؤكَّد أن ذلك سيكون عظيماً يا سيادة الرئيس».

الفصل السادس

جوهر الصراع: الأرض

خلال الأسابيع القليلة الأخيرة من عام ١٩٩٤ والشهر الأول من عام ١٩٩٥، جرت عدة اجتماعات غير رسمية في منزل دنيس روس في واشنطن، حضرها السفير وليد المعلم والسفير الإسرائيلي رابينوفتش. كان الأمريكيون يشعرون أن هذه الاجتماعات غير الرسمية ستذيب الجليد في العلاقات السورية - الإسرائيلية، ووافق الرئيس الأسد عليها على مضض ليرضي الرئيس كلينتون. كان الرئيس الأسد يعرف من اليوم الأول أن مصير هذه المحادثات هو الإخفاق، فهو لن يقدم مزيداً من التنازلات، ولم يكن الإسرائيليون مهتمين بدفع إضافي نحو السلام ما لم ندخل في دبلوماسية علنية. وفي ما يخصّنا، كان ما يطلبونه منا بمنزلة انتحار سياسي.

وأثناء هذه الأحاديث غير الرسمية، اقترح رابينوفتش استراتيجية من خطوتين. في المرحلة الأولى تنسحب حكومته جزئياً من الجولان في مقابل عدد من الخطوات، مثل التبادل الأكاديمي أو الإعلامي بين سورية وإسرائيل. حين رفض المعلم ذلك، اقترح رابينوفتش أن يتاح للسياح من خارج سورية وإسرائيل الذين يزورون الشرق الأوسط التنقل بحرية بين دمشق وتل أبيب. وأضاف أن إسرائيل ستنسحب من جزء أكبر من الجولان في المرحلة الثانية التي ستتضمن أيضاً اجتماعات شخصية بين مسؤولين سوريين وإسرائيليين ومحادثات بين وفود تجارية من كلتا الدولتين. واقترح أن يسمح للمجموعات السياحية الإسرائيلية، ولكن ليس للأفراد، بزيارة سورية، والعكس صحيح.

مرة أخرى، قال المعلم «لا»، وهو يستشيط غضباً: «كيف نسمحُ برفع العلم الإسرائيلي وبلدكم ما زال يحتلّ أرضنا؟!». ويبدو أن رابين لم يستطع أن يفهم السبب في أن الأسد يرفض «كل ما ذُكِر آنفاً» قبل عودة الجولان إلى السيطرة السورية الكاملة. قال رابينوفتش: «مصر فعلت ذلك في عام ١٩٧٨، فما الذي يمنع سورية؟»[1]. وحين

---

(١) أرشيف وزارة الخارجية السورية، رسائل من السفارة السورية في واشنطن، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٤.

تلقينا تقارير عن هذه المحادثات من السفير، لم أتمالك نفسي عن التساؤل: «هل يحاول رابين أن يتذاكى، أم أنه حقاً لا يفهم حافظ الأسد بعد كل هذه السنوات؟».

أولاً: لقاء الشهابي - باراك في بلير هاوس

بعد ذلك اقترح وزير الخارجية الأمريكي كريستوفر في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٤ أن يقوم بترتيب اجتماع بين ضباط عسكريين سوريين وإسرائيليين، على أن يتم هذا اللقاء في واشنطن، ويتلاءم جيداً مع المحادثات غير الرسمية التي تجري بين السفيرين السوري والإسرائيلي. وقال لنا إن الجيش الإسرائيلي على علاقة جيدة برابين، وسيرى الجمهور الإسرائيلي أن إجراء مقابلة مع كبار ضباطه هو اختراق حقيقي. واقترح البدء باجتماع تمهيدي بين المعلم وأحد كبار الضباط الإسرائيليين. ولمّا كان الرئيس قد أراد أن يخطو الخطوة الإضافية المطلوبة، فقد وافق، وأعطى تكليفاً بإجراء اجتماع بين المعلم ورئيس أركان الجيش الإسرائيلي إيهود باراك.

ولم يكن اختيار باراك مصادفة، فقد كان أعلى ضابط إسرائيلي، كما كان له وزن ثقيل في السياسة الإسرائيلية، وكان مصمّماً على أن يحلّ محلّ رابين في منصب رئيس الوزراء. ومع أن هذا كان أول لقاء بين باراك ومسؤول سوري، فقد كنا نعرف الكثير عن الرجل الذي كان مقدراً لنا أن نواجهه في ما بعد في شبردستاون في ولاية غرب فرجينيا في كانون الثاني/ يناير عام ٢٠٠٠. لقد التحق باراك بالجيش الإسرائيلي عام ١٩٥٩، بعد سنوات قليلة من تخرج الرئيس الأسد في كلية حمص الحربية، وخدم ضابطاً مدة خمسة وثلاثين عاماً. وكان اسمه مرتبطاً ارتباطاً دائماً بالغارة الإسرائيلية على لبنان في نيسان/ أبريل ١٩٧٣، التي أطلق الإسرائيليون عليها اسم «عملية ربيع الشباب»، وفيها فوجئ عدد من القادة الفلسطينيين في بيوتهم، وقُتلوا بدم بارد بناء على أوامر مباشرة منه. وقد وصل باراك إلى الساحل اللبناني في قارب مطاطي، وهو متنكّر ويظهر كامرأة سمراء، ثم توجّه إلى منطقة فردان الراقية حيث أطلق الرصاص على محمد يوسف النجار (أبو يوسف)، وكمال عدوان، وكمال ناصر، وأرداهم قتلى. كان من الطبيعي تماماً أن نكون شديدي الحذر مع «محاورنا» الجديد صاحب ذلك السجل الدموي.

بعد الاجتماع، الذي تم في بلير هاوس، المقابل للبيت الأبيض على زاوية حديقة لافاييت، تكلّم باراك عن إيجاد «طرق خلاقة» لحل الصراع السوري - الإسرائيلي، فقال:

«إن إسرائيل تفهم أهمية سورية وضرورة الحفاظ على كرامة سورية في أيّ اتفاق»[٢]. ولا حاجة إلى القول إن الاجتماع لم يحقق أي اختراق، لكنه كان مثيراً للأمريكيين، الذين جاؤونا باقتراح جديد آخر. قال كريستوفر إن الخطوة التالية في إجراءات بناء الثقة هي أن يقوم ضابط من كبار الضباط السوريين بمقابلة السفير الإسرائيلي رابينوفتش.

هنا خطا الأسد خطوة أخرى، قائلاً إنه سيرسل رئيس الأركان العماد حكمت الشهابي ليقابل الإسرائيليين. كان العماد الشهابي ضابطاً تقلّد أرفع الأوسمة وخدم في الجيش السوري أثناء الحربين في عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٣، وهو أيضاً أحد المقربين الذين يثق الأسد بهم، وكان يتابع عن كثب كلّ التفاصيل العسكرية واللوجستية لعملية السلام منذ عام ١٩٩١. وقد شارك مشاركة فعالة في إبرام اتفاقية فصل القوات مع إسرائيل بعد حرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣. وكان عضواً بارزاً في القيادة القطرية لحزب البعث، كما كان أعلى مسؤول سوري يشارك في عملية السلام. وكان إرساله إلى الولايات المتحدة يعدّ بالفعل اختراقاً فاجأنا جميعاً، ولا شك في أنه أغضب كلّ المتفائلين الذين لم يروا أي سبب للاستمرار في التعامل مع الإسرائيليين. ولكن إن دلّ هذا على أي شيء، فهو قد أظهر التزام الرئيس الأسد الصادق بإمكانية تجاوز عقبات السلام في الشرق الأوسط.

ونظراً إلى أهمية اللقاء، فقد طُلب إليّ، أن أرافق رئيس الأركان السوري إلى الولايات المتحدة مع مدير مكتبه، بَاسم شيخ قروش، ومدير إدارة الاستطلاع، اللواء إبراهيم العمر. كان أول لقاء لنا في ١٩ كانون الأول/ ديسمبر، حين اجتمعنا بالإسرائيليين مرة أخرى في بلير هاوس، وهو بيت عمره ١٧٠ عاماً تعاقب عليه ضيوف البيت الأبيض منذ الحرب العالمية الثانية. وأكثر ما أذكره عن الاجتماع هو أنه كشف الجوهر الحقيقي للعماد الشهابي. ففي سورية، قلما كنا نراه في مناسبات عامة، ولم نكن نعرف شيئاً عن حياته الخاصة. كان واحداً من المسؤولين الذين يصعب الوصول إليهم، ويكاد لا يظهر على التلفزيون إطلاقاً، ولا يجري أية مقابلات صحفية. لكنه برز في الولايات المتحدة مفاوضاً بارعاً حازماً، ومفكّراً ذا خبرة عالية، إضافة إلى كونه ضابطاً عسكرياً وقوراً أيضاً. وحين تباحثنا في بلير هاوس، كان العماد الشهابي يرتدي بدلة مدنية بدلاً من الزي العسكري. كان يرسل رسالة أنه أتى لمقابلة الإسرائيليين «مسالماً»، من دون نجوم على كتفيه أو مسدس مربوط بحزامه، كما فعل عرفات حين وقع اتفاقيات أوسلو في حديقة

(٢) المصدر نفسه.

البيت الأبيض عام ١٩٩٣. كانت الأوسمة التي يمكنه أن يضعها على صدره، والتي أسبغها عليه الرئيس الأسد، مكتسبة بجدارة في الحروب المتعددة التي خاضها منذ عام ١٩٦٧. كان العماد الشهابي يحسب خطواته بدقة شديدة، ويدخل غرفة الاجتماعات ببطء وينظر إلى عينيّ إيهود باراك من دون أن يطرف له جفن. وكان هناك على وجهه تعبير صارم يدلّ على اليقظة والحزم والجدّية البالغة. كان أمامنا عدوّان لدودان يشهران السلاح أحدهما ضد الآخر منذ سنين، ويلتقيان أخيراً وجهاً لوجه على بعد دقيقتين سيراً على الأقدام من المكتب البيضاوي. بدأ الشهابي بإعلان موقفه برفض مصافحة إيهود باراك. حاول باراك محاولة جديدة لإرضاء العماد السوري، قائلاً: «نحن نعتقد أن الرئيس حافظ الأسد هو أهم قائد في الشرق الأوسط. ويمكن أن تؤدي كلٌّ من سوريا وإسرائيل دوراً مهماً فيه. سورية هي أقوى جيران إسرائيل، ليس من الناحية العسكرية فحسب، بل بسبب الدور الذي تمارسه وشعلة القومية العربية التي تحملها أيضاً، ونحن نفهم أن السلام مع سورية سيكون مهماً جداً لنا»[٣].

مرة أخرى امتنع الشهابي حتى عن الابتسام...

الوفد السوري في دردشة مع الرئيس بيل كلينتون في المكتب البيضاوي في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٤. الرئيس كلينتون يكلم رئيس الأركان السوري حكمت الشهابي وبثينة شعبان والسفير وليد المعلم. ويقف وراء الرئيس الأمريكي مستشاره لشؤون الأمن القومي ساندي برغر ومبعوثه إلى الشرق الأوسط دنيس روس.

---

(٣) أرشيف وزارة الشؤون الخارجية السورية، محضر اجتماع الشهابي - باراك، ١٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٤.

حاول إيهود باراك مرة ثالثة، بالقول: «هناك أهمية بالغة في أن ندخل في أدقّ التفاصيل معكم. لقد كانت أقسى الضربات تأتينا من الجبهة السورية عام ١٩٧٣؛ حقاً، إنّ ضباطكم شجعان»[٤]. قاطع وارن كريستوفر ضيفه الإسرائيلي في محاولة لحمايته من المزيد من الإحراج، فأخبرنا كيف أنه كان ينوي أن يقضي عطلة عيد الميلاد مع عائلته في كاليفورنيا، لكن خططه تغيّرت حين وصل الضابطان الكبيران السوري والإسرائيلي إلى الولايات المتحدة. ونصحنا أن نكون «شجعاناً ومبدعين»، مشيراً إلى أن «بإمكان الأشخاص المجتمعين حول هذه الطاولة صنع السلام الحقيقي. قال كريستوفر: «لديكم الإرادة والشجاعة للقيام بذلك، ونحن في الولايات المتحدة مستعدون لفعل كل ما هو مطلوب لتحقيق السلام على المسار الإسرائيلي - السوري»[٥].

ثم التفت إلى الشهابي، وقال: «إننا في غاية السرور لرؤيتك معنا، وهذه إشارة واضحة جداً إلى مدى جدّية القيادة السورية في السعي إلى السلام حقاً». وحين حان دور الشهابي ليتحدث، بدأ الشرح ببطء وحذر: «حضوري هنا هو نتيجة قرار سياسي شديد الأهمية اتخذته القيادة السورية، لأن السلام - كما تم الاتفاق في مدريد - استراتيجي لنا». وأوصى بالانتقال فوراً إلى الترتيبات الأمنية، الأمر الذي طرب لسماعه كل من وارن كريستوفر وإيهود باراك. أكد الشهابي ما سبق الاتفاق عليه في آب/ أغسطس ١٩٩٣، وهو أن «الأمن حاجة مشروعة للطرفين، ولا يمكن لدولة أن تتمتع به على حساب الأخرى. فمن الضروري أن يكون متبادلاً ومتساوياً»[٦]. وأضاف أنه لا ينبغي لأية ترتيبات أمنية أن تنتهك حقوق الدولة الأخرى أو سيادتها أو أراضيها.

من الواضح أن اجتماع الشهابي وباراك لم يدهش صانعي السلام السوريين فحسب، بل كانت له أصداء قوية في البيت الأبيض وأرضى الرئيس كلينتون. وبسبب معرفة كلينتون التامة بمدى التزام الأسد بأي تنازل إسرائيلي في الجوهر، رأى في هذا الاجتماع فاتحة لقناة خاصة عالية المستوى يمكن أن تفضي إلى تحرك حقيقي في المفاوضات. لكن ما لم يعرفه كلينتون هو أن إيهود باراك، رغم مكانته العالية في الجيش الإسرائيلي، كان على جهل تام بوديعة رابين. وقد أتى إلى الولايات المتحدة، وليست لديه أية فكرة عن الحدّ البعيد الذي وصلت المفاوضات إليه بين الأسد ورابين. كان

(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) المصدر نفسه.

باراك يتكلم لغة خشبية، بدا أنها من عصر مضى، رافضاً، على سبيل المثال، الإقرار باختلاف الموقّعين بين حدود ١٩٢٣ وحدود ١٩٦٧. وهذا دفع العماد الشهابي إلى التعليق غاضباً: «كيف يمكننا أن نتفق على إجراءات الأمن إن لم نتخذ قراراً بشأن الحدود؟»(٧).

أرادت سورية تبادلاً في الإجراءات الأمنية، مع قيود على أعداد القوات تنطبق على الطرفين بالتساوي. وكان باراك لا يزال قلقاً بشأن غياب التناظر الجغرافي بين الطرفين، فقال مجادلاً إن سورية دولة كبيرة، في حين أن إسرائيل دولة أصغر حجماً ومدنها أقرب إلى الحدود. لذلك لا يمكنه القبول بالمساواة في القيود، لكنه سيوافق على مبدأ التبادل. وأراد باراك أن ينطبق تحديد عدد القوات على المساحة من صفد إلى دمشق بأكملها. وأراد الشهابي أن ينطبق التحديد على المنطقة بين صفد والقنيطرة فقط. ولم يُنتج الاجتماع، الذي استمر يومين، أي شيء على الإطلاق. فقد حاول باراك إثارة موضوع محطات الإنذار المبكر، قائلاً إنها ستقلل من احتمال الهجوم من الحدود السورية. ورد الشهابي: «إن انطباعي هو أن ما تسعى إليه هو الحرب وليس السلام. فمحطة الإنذار المبكر تعني، يا سيد باراك، أنك تستعد للحرب. وأنت رجل عسكري تعرف أن محطات الإنذار المبكر ذات أهمية حين تخطط لشنّ حرب، لا لإحلال السلام. ونحن ببساطة لن نستطيع الوصول إلى أي اتفاق إذا كنت تفكر بهذه العقلية»(٨).

ولا بد من أن أذكر أنه بعد الاجتماع، دعانا الرئيس كلينتون إلى البيت الأبيض في الساعة الرابعة مساء في يوم ٢٤ كانون الأول/ ديسمبر. واستقبل كلينتون العماد الشهابي بمفرده مدة خمس دقائق، وحين أتى دورنا للدخول، فاجأني الرئيس كلينتون تماماً بمخاطبتي مباشرة، وهي المرة الأولى، باسمي الأول: «كيف حالك يا بثينة؟ يسرني أن أراك مرة أخرى». وأضاف: «في المرة التالية التي تأتين فيها إلى واشنطن، أودّ أن تقابلي زوجتي وابنتي. لقد أطلعتهما على كتابك».

كان قوله ذلك لفتة لطيفة منه، ولكن لم تتح لي الفرصة لمقابلة هيلاري خلال زياراتي التالية إلى الولايات المتحدة، كما أنني لم أقابلها بعد أن أسند الرئيس باراك أوباما إليها منصب وزيرة الخارجية عام ٢٠٠٩.

---

(٧) المصدر نفسه.

(٨) المصدر نفسه.

صورة تذكارية موقّعة من الرئيس بيل كلينتون،
يظهر فيها مع بثينة شعبان في البيت الأبيض عام ١٩٩٤.

وقد حافظتُ على علاقة طيبة بكلينتون، واستمر احترامي له بعد تركه البيت الأبيض، بل إننا تقابلنا مرتين بعد أن انتهت رئاسته، كانت إحداهما خلال «مبادرة كلينتون» التي أطلقها في نيويورك، والأخرى في دبي حيث دعوتُه فيها إلى زيارة دمشق، بعد التشاور مع الرئيس بشار الأسد. رحّب كلينتون بالفكرة، وعبّر عن رغبته في تلبيتها، لكنه لم يفعل ذلك. وقد اكتشفنا في ما بعد أن الرئيس جورج بوش الابن لم يسمح له، كما أنه حاول منع الرئيس كارتر من زيارة دمشق في شهر كانون الأول/ ديسمبر عام ٢٠٠٨.

وبعد أن تبادل كلينتون المجاملات معي في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٤، أشار إلى هدية تلقاها من الرئيس الأسد خلال زيارته دمشق في تشرين الأول/ أكتوبر، وهي طاولة مكتب محلاة بالموزاييك تستعمل رقعة شطرنج، وقد صنعها يدوياً حرفيون مهرة في دمشق القديمة. قال لي كلينتون: «هي في غرفتي، لكن لم تتح لي فرصة استعمالها بعد، وإن كنت أنوي القيام بذلك أثناء عطلة عيد الميلاد». ثم تطرق إلى عملية السلام، قائلاً: «أنا ممتن جداً للرئيس الأسد وقراره الحكيم بإرسالكم إلى هنا. أرحب بكم جميعاً في البيت الأبيض، وأعبّر عن اعتقادي أن المفاوضات في هذه المرحلة مهمة

جداً. ونحن نسعى إلى معاهدة سلام «تنسجم» مع مبادئكم، والولايات المتحدة مستعدة لممارسة كلّ ما هو مطلوب لتحقيق التقدم في ذلك المسار».

لكن من المؤسف أنه برغم نيات كلينتون الطيبة، غادر الشهابي واشنطن بعد ذلك صِفْرَ اليدين، وتوجه إلى زيارة ابنه في نيوبورت بيتش حيث كان يدرس الطب النووي. وعاد باراك إلى إسرائيل، حيث كان مقرراً أن يحلّ أمنون شاهاك محله رئيساً للأركان في ١ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥. وحاول روس جاهداً أن يتخذ ترتيبات اجتماع آخر، وهذه المرة مع شاهاك في الأسبوع الأول من كانون الثاني/ يناير. لكن رابين كان أقل حماسة، لأنه لم يرغب في أن يغادر أكبر ضباطه إسرائيل بعد أيام من تسلّمه منصبه. وحين قرأ الرئيس الأسد محضر محادثات الشهابي في الولايات المتحدة، انزعج أيضاً من أن رابين «تعمد إعطاء إيهود باراك معلومات خاطئة». وربما شعر الأسد أنه أعطى أكثر مما يجب، وتلقى في المقابل أقل كثيراً مما يجب، كما اعتقد أن رتبة الشهابي العسكرية ربما كانت عالية إلى حدّ جعل الإسرائيليين يكوّنون انطباعاً خاطئاً بأن الأسد بدأ يلين. كان هذا هو الانطباع الذي كوّنتُه، وعبّرت عنه للرئيس الأسد حين عدنا إلى دمشق. وقام الرئيس على الفور بشطب محادثات بلير هاوس على أساس أنها غير متوازنة، واعتبرها بلا قيمة ولا فائدة فعلية. ولكي يسجّل نقطة لمصلحة القضية، أبقى السفير المعلم في دمشق مدة ستة أسابيع، مرسلاً بذلك رسالة واضحة للأمريكيين الذين كانوا هم الذين دعوا إلى «اجتماع الضابطين» أولاً.

ثانياً: اجتماع عاصف في اللاذقية

في الرابع من نيسان/ أبريل ١٩٩٥، قدم دنيس روس إلى دمشق لعقد اجتماع مع الأسد حضره السفيران العلاف والمعلم. عُقد الاجتماع في اللاذقية، واستمر خمس ساعات متواصلة. بدأ روس الاجتماع بعبارة خفيفة، إذ قال مازحاً إن صديقاً له ممن يستبصرون المستقبل أرسل له رسالة بالفاكس تقول إنه يتوقع صفقة سلام سوريّة - إسرائيليّة في عام ١٩٩٥. وأشار روس إلى أن ذلك الصديق لا يمكن أن يخطئ، وأخبرنا كيف أنه تنبأ بانتصارَيْن متشابهيْن لفريقي سان فرانسيسكو لكرة القدم وكرة السلة في الماضي[٩]. ابتسم الأسد، وبدا واضحاً أنه وجد القصة مسلية، فهي قصة إن دلّت على شيء فهي تدلّ على مخيلة خصبة. قال الرئيس: «لقد اعتمد قادة كثيرون

(٩) أوراق الأسد - روس غير المنشورة، ٤ نيسان/ أبريل ١٩٩٥.

في الماضي على أقوال المتنبئين والعرافين، ومنهم الرئيس الأمريكي رونالد ريغان. لكننا لا نعتمد على مثل هذه التنبؤات، لأن الإسلام يستنكرها، ولأن المتنبئين يبنون تنبؤاتهم على الرؤيا، وليس على الوقائع، ومن الممكن أن يؤدي هذا إلى وهم كبير»[١٠]. فوجئ روس بعدم تجاوب الأسد مع مزاحه الذي قصد به الجدّ، وتجاهل ملاحظته الأولى، واستمر في حديثه: «إنني أحمل معي رسالة من الرئيس كلينتون، الذي يهديك تحياته، ويقول إن الوقت قد حان الآن لتجاوز الاختلافات ودخول مرحلة التفاصيل الأمنية [للوصول إلى السلام الحقيقي]». كان الرئيس كلينتون في المحصّلة يطلب من الرئيس الأسد مزيداً من المساعدة ليكتسب القوة في مواجهة الإسرائيليين.

تابع روس كلامه: «لا تزال حكومة الولايات المتحدة ملتزمة بما بدأه الوزير السابق بيكر، وهو الامتناع عن عقد صفقات سرية مع طرف على حساب الطرف الآخر. حين نقول للإسرائيليين شيئاً، فإننا نقوله لسورية أيضاً، والعكس صحيح»[١١]. وهذا يعني أن الأمريكيين قد بلّغوا رئيس الوزراء رابين كل النقاط السورية، واعترض هو على عدة عبارات في جواب الرئيس الأسد على الوديعة. وقال رابين إنه ألزم نفسه، بواسطة الرئيس كلينتون في جينيف في كانون الثاني/ يناير عام ١٩٩٤، بحدود الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧. وقد أكد الأمريكيون هذا خطياً للرئيس الأسد، وبذلك جعلوا منه موقفاً رسمياً أمريكياً فرضه الأمر الواقع. وما قاله لنا روس في اللاذقية في نيسان/ أبريل ١٩٩٥ هو: «لقد عدتُ توّاً من إسرائيل، ويمكنني أن أقول لكم إن المهمّ هو أن الولايات المتحدة تفهم وجوب تلبية مطالبكم. ولهذا السبب، فإن معنى الانسحاب الكامل هو إلى حدود الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧، وسيكون ذلك جزءاً من صفقة متكاملة يجب تلبية متطلبات إسرائيل فيها أيضاً. ولن يكتسب هذا أيّ معنى إلا إذا توصلتم إلى اتفاق على كل شيء. أما إذا لم تتوصلوا إلى اتفاق على كل شيء، فلا معنى له. ومهما يكن الأمر هذا [أي اقتراح رابين] في جيبنا، وليس في جيبكم!»[١٢]. وأضاف أنه مع أخذ كل ما ذُكر في الحسبان، أي ما السبب الذي يجعل سورية قلقة حول شروط الانسحاب المذكورة في وديعة رابين؟ استعد الرئيس الأسد ليشرح - للمرة المليون خلال عامين - الفرق في الحدود بين عامي ١٩٢٣ و١٩٦٧، مشدداً على أن وديعة رابين لم تذكر صراحة حدود ١٩٦٧، بل تحدّثت عن «الانسحاب» فقط.

(١٠) المصدر نفسه.
(١١) المصدر نفسه.
(١٢) المصدر نفسه.

إثر ذلك، اقترح روس أن يقوم الوزير الشرع بزيارة واشنطن في الأسبوع الثالث من نيسان/ أبريل لإجراء محادثات مع وزير الخارجية الأمريكي قبل زيارة رابين الوشيكة للولايات المتحدة. وأضاف أن زيارة الوزير ستحمل الرسالة الصحيحة إلى الشعبين الأمريكي والإسرائيلي بأن سورية «لا تزال ملتزمة بالسلام، على الرغم من الاضطرابات في فلسطين، وعلى الحدود اللبنانية - الإسرائيلية». وتجب الإشارة إلى أن الأمريكيين كانوا حريصين دائماً على إحضار المسؤولين السوريين إلى الولايات المتحدة، بصرف النظر عما إذا كان هناك شيء ذو أهمية سيجري بحثه أم لا.

من جانبنا، كنا نقول دائماً إننا لا نسعى وراء فرصة لأخذ الصور في البيت الأبيض، ولن نقوم بالرحلة ما لم يتوفر شيء ملموس للبحث. ومن الواجب أن نتذكر أنه في عام ١٩٩٢، طرح بيكر فكرة دعوة الرئيس الأسد نفسه إلى الولايات المتحدة، مع الملك فهد بن عبد العزيز، وملك الأردن حسين، وإسحاق رابين. لقد كان يعرف جيداً أن الفرصة ضئيلة، إن لم تكن معدومة، ما دام الجولان السوري محتلاً، لكن، بحسب قول روس: «اعتقد بيكر أن الأمر يستحق المحاولة». وحين سُئل روس عن إمكان قيام الأسد بالزيارة، أجاب: «الأسد هو المفتاح. إذا تقبل الأسد الأمر، فالآخرون سيحذون حذوه. لكن هذا يناقض كل ما يؤمن الأسد به، لأنه يعني منح الإسرائيليين تنازلاً كبيراً مقابل لا شيء. وهذا يعني أن عليه أن يقابل زعيماً إسرائيلياً من دون أن يكون قد استرجع أرضه. وهذا يعني أيضاً إعطاء الإسرائيليين الرموز التي يتوقون إليها من غير وجود تأكيدات أنه [أي الأسد] سيحصل على الشيء الأساسي الذي يريده»(١٣). ونحن في دمشق، كنا نعرف ذلك الاقتراح معرفة تامة، ونتساءل: ما السبب في أن دنيس روس يحاول طرحه مرة أخرى، مع أنه يعلم علماً تاماً أين يقف الرئيس في مسألة الإعطاء من دون الحصول على «أي شيء في المقابل؟».

قال روس: «يكاد الوقت يدركنا، يا سيدي الرئيس. فالانتخابات لدينا وشيكة، وستستنفد كل اهتمامنا وطاقتنا، ليس في الولايات المتحدة فحسب، بل في إسرائيل أيضاً. نحن بحاجة إلى التوصل إلى صفقة سلام هذا العام، أي ١٩٩٥»(١٤). وأضاف أن الأزمة تتضمن «عنصراً نفسياً»، إذ يحتاج الفرقاء المعنيون جميعاً إلى أن يشعروا بأنهم يحققون تقدماً، أي تقدم، من أجل الحفاظ على الزخم. ومرة أخرى، لم يجد الأسد

---

(١٣) Dennis Ross, *The Missing Peace: The Inside Story of the Fight for Middle East Peace* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2004), p. 87.

(١٤) أوراق الأسد - روس غير المنشورة، ٤ نيسان/ أبريل ١٩٩٥.

هذا الكلام مسلياً، بل شعر أن روس يحاول أن يحشره كي يقدم مزيداً من التنازلات، في حين أنه تجاوز الحدود التي خطها لنفسه حين قبل باقتراح الأشهر الثمانية عشر من أجل إعطاء فرصة للسلام. كان مصمّماً على ألا يتزحزح عن موقفه ما لم ير شيئاً ملموساً من الإسرائيليين: «ما قلناه، يا سيد روس، هو الانسحاب الكامل والسلام الكامل. ويعرف العالم بأسره الآن الشيء الذي أبدت سورية استعدادها لتقديمه. لقد تحدّث رابين إلى الأمريكيين عن الانسحاب الكامل. قال لهم إنه يقبل الانسحاب الكامل، وطلب أن ينقل الدبلوماسيون الأمريكيون رسالته إلينا. ولا يعرف موقف إسرائيل سوى قلة من السوريين والأمريكيين والإسرائيليين، في حين يعرف العالم بأجمعه أين نقف، وما نحن مستعدون للقيام به من أجل السلام»[١٥].

كان الرئيس الأسد يحاول أن يقول إن الوقت قد حان ليقرَّ الإسرائيليون علناً بضرورة الانسحاب من الجولان، كاملاً، بناء على حدود الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧، وليهيئوا الرأي العام العالمي والإسرائيلي لهذا الانسحاب. وهذا لا يمكن أن يحدث بين عشية وضحاها. وإذا كان الإسرائيليون مهتمين حقاً بالانسحاب الكامل، عليهم أن يقولوا هذا بلا مواربة، وبصوت عال وواضح، من دون اعتبار لنظرة الشارع الإسرائيلي إلى هذا الموقف. وبحسب اعتقاد الرئيس، كان اهتمام رابين لا يزال منصباً على «عملية سلام» أكثر من «معاهدة سلام». كيف يمكن لنا أن نصدق ما يقوله روس حين يصف بنفسه في مذكّراته ردّ فعل رئيس الوزراء الإسرائيلي على إجابة سورية بهذه الطريقة: «انفجر رابين، قائلاً إن الانسحاب الكامل في نظره كان يعني دائماً الانسحاب إلى الحدود الدولية، وليس إلى خطوط الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧»[١٦].

ثم أضاف الأسد إن الأمريكيين كانوا قد اقترحوا الحفاظ على سرية وديعة رابين: «قبلنا ذلك، قائلين إن تسرّبها سيؤذي عملية السلام، ومن ثَمَّ سيؤذي مصالح سورية القومية»[١٧]. وتابع يقول: «ولكن حان الوقت الآن الذي ينبغي لإسرائيل أن تصرّح فيه علناً بضرورة الانسحاب من الجولان. إن السلام هو من أهمّ دواعي سرورنا، ولا نريده

---

(١٥) المصدر نفسه.

(١٦) المصدر نفسه. قال رابين إنه «لا توجد خريطة تبين خطوط الرابع من حزيران/ يونيو، التي تمثل موقعي الطرفين قبل بدء حرب ١٩٦٧». وأي شخص لديه معرفة بمسار السلام السوري ـ الإسرائيلي يدرك حماقة قول كهذا، فقد قدّمنا واستمررنا في التمسك بالخرائط التي رفض رابين قبولها، والتي بيَّنت بدقّة أين تقع حدود الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧ بعد حرب الأيام الستة.

(١٧) المصدر نفسه.

أن يبقى سرياً»[18]. إن وديعة رابين تحمل الرسائل نفسها التي كانت تنتقل جيئة وذهاباً بين سورية وإسرائيل من خلال روس وكريستوفر وكلينتون نفسه: «ما الذي ستضيفه إلى العملية زيارة الوزير الشرع إلى واشنطن؟ هل سيسمع السيد كريستوفر من الشرع أكثر مما سمعه مني في دمشق؟ إن مهمته هناك ليست مماثلة لمهمة رابين في واشنطن. إنّ لرابين مصالح في الولايات المتحدة، وحين يقصدها يكون متوجهاً إلى وطنه الثاني. ولكي نكون صريحين، نقول إن زيارة كهذه لن تضيف شيئاً سوى إعطاء مؤشرات مضللة، وهي أننا على وشك إنجاز اتفاقية سلام، وهذا ليس هو الواقع». وأضاف أنه في ما يتعلق بالتفاصيل العسكرية «حين يصبح الوقت مناسباً، يجب أن يقوم العسكريون بوضع هذه التفاصيل. وليس من المناسب لي أن أتفاوض حولها»[19].

مرة أخرى، يشهد هذا القول على احترام الأسد للمؤسسات وللرجال العسكريين الذين أحاطوا به أثناء مسيرته الطويلة. ومع أن الرئيس الأسد كان في السابق آمراً لسلاح الطيران ووزيراً للدفاع، كما أنه، بحكم الدستور، كان القائد العام للجيش السوري منذ عام ١٩٧٠، فقد كان يشعر أن رئيس الأركان حكمت الشهابي هو من يحدد التفاصيل العسكرية والفنية.

«لو كنت أنا الذي سيفاوض في التفاصيل، لكان معنى هذا إما النجاح الفوري أو الإخفاق الفوري، ولذلك يحتاج هذا إلى الوقت، ويجب أن يشترك الضباط أنفسهم في المحادثات وتفاصيلها»[20]. وأضاف أن عمل الضباط من كلا الجانبين سيأتي في مرحلة لاحقة، «بعد أن نكون قد اتفقنا على كلّ المسائل الفرضية والسياسية». وقال مذكّراً روس بأن سورية ترفض محطات الإنذار المبكر على جبل الشيخ جملة وتفصيلاً: «لقد أطلقت إسرائيل أخيراً قمراً صناعياً تجسسياً يمكّنها من تسجيل حتى معلومات لوحات السيارات السورية. وبوجود هذه المعدات المتطورة تحت تصرفها، ما السبب في أنها ما زالت تصرّ على محطات أرضية للإنذار المبكر؟»[21]. فبما أن سورية تعرض على إسرائيل السلام، ليس الإسرائيليون بحاجة إلى ترتيبات أمنية واسعة، كما تطلب الولايات المتحدة. ثم أضاف بحزم: «أنت دائماً تقول لي إن الوقت يدركنا. نحن، يا سيد روس، لسنا في عجلة من أمرنا إذا كانت العجلة تعني التخلي عن أي من حقوقنا

(١٨) المصدر نفسه.
(١٩) المصدر نفسه.
(٢٠) المصدر نفسه.
(٢١) المصدر نفسه.

فقط من أجل أن نقول للعالم: «لقد حققنا اتفاقية سلام». وقد تكونون أنتم في عجلة، لكن الإسرائيليين ليسوا مستعجلين. فهم الذين يقومون ببراعة بإضاعة الوقت منذ ذهبنا إلى مدريد، ولسنا نحن. إننا لا نحاول أن نكسب الوقت أو نضيّع الوقت. نحن نبقى، كما كنا دائماً، ملتزمين بسلام عادل وشامل. لقد قمنا بالكثير حين يتعلق الأمر بإجراءات بناء الثقة، أكثر مما كان متوقعاً منا. لقد خطونا الخطوة الإضافية يا سيد روس»[٢٢].

ثالثاً: حدود ١٩٢٣ و١٩٦٧

قد يكون من المفيد هنا إبراز الفوارق المختلفة بين موقفنا وموقف الأمريكيين والإسرائيليين من حدود ١٩٢٣ و١٩٦٧. ففي أثناء حرب فلسطين عام ١٩٤٨، استولى الجيش السوري على أرض إلى الغرب من خط حدود ١٩٢٣ في ثلاث مناطق، ومن المعروف أن هذا أغضب الرئيس الأمريكي هاري ترومان، الذي دعم بقوة قيام دولة إسرائيل. وكجزء من اتفاقية الهدنة، انسحبت سورية، التي كان يرأسها حسني الزعيم آنذاك، من هذه المناطق الثلاث جميعها، وعادت إلى خط ١٩٢٣، وجُعِلَت تلك المناطق منزوعة السلاح. وفي حرب عام ١٩٦٧، استولت إسرائيل على حوالى ثلثي المناطق المنزوعة السلاح. ويبلغ الفرق بين خطي ١٩٢٣ و١٩٦٧ نحو ٦٦ كيلومتراً مربعاً. والمنطقة ذات أهمية حيوية من ناحية الماء، وخصوصاً عند نبع بانياس، وضفة بحيرة طبريا (بحر الجليل). وكان رابين يخشى أن يعطي الحضور السوري على بحيرة طبريا سورية حصة ممّا يدَّعي أنه مخزون إسرائيل المائي الوحيد. لم يقبل الرئيس الأسد هذا المنطق على الإطلاق، قائلاً «إنها أرض سورية منذ زمن طويل سابق لوجود إسرائيل، ومن الضروري إعادتها إلى سورية. نقطة: انتهى الكلام! هذه مسألة لا تفاوض فيها». وكلما أخبره الأمريكيون أن رابين «لا يعرف» الفرق بين الخطين، أجاب: «إذا كان لا يعرف ما هي الأرض، فليس هناك جدوى من التفاوض [معه]!».

انتهى الاجتماع مُرعداً، وحاول الرئيس الأسد أن يهدئ التوتر بالطلب إلى وزير الخارجية الشرع أن يصحب روس إلى الغداء. وأثناء تناول وجبة شهية، قال الشرع له: «إذا قبل الإسرائيليون المبادئ [التي ذكرها الرئيس الأسد]، يمكن أن نكون مَرِنين حول التفاصيل».

---

(٢٢) المصدر نفسه.

الفصل السابع

إرث يوسف العظمة

في ٢٤ تموز/ يوليو عام ١٩٢٠، ارتدى وزير دفاع سورية الجنرال يوسف العظمة - البالغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً - بدلته العسكرية، وعانق طفلته الرضيعة ليلى، وودع زوجته التركية الشابة، وتوجّه إلى القصر الملكي في حيّ المهاجرين، وهو القصر الجمهوري نفسه الذي استعمله الرئيس حافظ الأسد في أوائل السبعينيات، في بداية توليه السلطة[١].

زار العظمة الملكَ فيصل الأول، ملك البلاد يومها، ليخبره أنه ذاهب إلى ميسلون لمواجهة القوات الفرنسية المتقدمة نحو دمشق. كان ذلك الجيش قد نزل على الساحل السوري في عام ١٩١٩، وكان في طريقه إلى العاصمة السورية بعد حصوله على حقّ «انتداب» أو «احتلال» للأراضي السورية من قبل عصبة الأمم. كان العظمة يعرف أن فرص النصر شبه مستحيلة، وخصوصاً بجيش سوري ناشئ ضعيف المعدات، وقليل التدريب، لم يكد في ذلك الوقت يكمل سنة واحدة من عمره. ولكنه لم يشأ ان تذكر كتب التاريخ أن الفرنسيين مروا بميسلون على طريق دمشق - بيروت من دون مواجهة أية مقاومة صلبة من السوريين.

بدأت معركة ميسلون، التي هي معلم كبير في تاريخ سورية، في السادسة والنصف صباحاً، وكان العظمة يرأس ٨٥٠ مقاتلاً سورياً، منهم ١٧٠ من المتطوعين، لم يكونوا مهيئين إطلاقاً لخوض حرب حقيقية ضد الجيش الفرنسي الأقوى والأقدم. كانت أسلحتهم قديمة الطراز، فهي إما من مخلفات الثورة العربية عام ١٩١٦ أو من مخلفات الجيش العثماني الذي غادر سورية عام ١٩١٨. أما الجيش الفرنسي، فقد كان تعداده أحد عشر ألف جندي، معهم ثمانية وأربعون مدفعاً، وخمس عشرة دبابة، وخمس طائرات. استُشهد يوسف العظمة في ذلك اليوم المصيري من التاريخ السوري، وأصبح

(١) هذا هو المكان نفسه الذي قابلتُ فيه الرئيس الأسد لأول مرة عام ١٩٧١. فقد كان يستخدمه بشكل مؤقت في أوائل السبعينيات قبل الانتقال إلى قصر الروضة، ثم إلى قصر الشعب المطل على العاصمة السورية.

خالداً في ذكراه، ومصدر إلهام لأجيال وأجيال من السوريين من بعده، فقد ضحى بحياته من أجل أن تحيا أمته. ولا شك في أن يوسف العظمة حقق لسورية في استشهاده أكثر مما حقق أثناء حياته(٢).

وصادف أن كان يوسف العظمة واحداً من الأبطال الذين أُعجب الرئيس حافظ الأسد بهم. وليس بعيداً أن حافظ الأسد - الذي كان لا يفتأ يذكره ويعبّر عن فخره به - رأى نفسه امتداداً طبيعياً للعظمة، وخصوصاً أن الأخير كان وزيراً للدفاع في عام ١٩٢٠، أي قبل ستة وأربعين عاماً من تسلّم الأسد ذلك المنصب في عام ١٩٦٦. وحين عُيِّن العظمة وزيراً عام ١٩١٩، كان في السادسة والثلاثين من العمر. وحين أصبح حافظ الأسد وزيراً للدفاع عام ١٩٦٦، كان هو أيضاً في السادسة والثلاثين تماماً. وقد قام العظمة بعمل بطولي حين قاد الجيش السوري ضد الفرنسيين في معركة ميسلون، وقاد الأسد الجيش نفسه عام ١٩٦٧ ضد الإسرائيليين. وموقف حافظ الأسد من الاحتلال الإسرائيلي للجولان مماثل لموقف العظمة من الغزو الفرنسي لدمشق عام ١٩٢٠. كلاهما رأى في الهزيمة فرصة ولادة جديدة لأمة؛ أمة اكتسبت مزيداً من القوة والحكمة العسكريتين والمعنويتين. كان العظمة يعرف أن التاريخ لن ينتهي في ٢٤ تموز/ يوليو ١٩٢٠، تماماً مثلما أدرك الأسد أن ٩ حزيران/ يونيو ١٩٦٧، اليومَ الذي سقطت فيه هضبة الجولان في أيدي الإسرائيليين، لم يكن سوى حدث مؤقت في تاريخ سورية. وقد آمن كل من الرجلين أن السوريين سينهضون ذات يوم من كبوتهم وينتصرون ويستعيدون العدل الذي حرموا منه طويلاً.

في الخامس من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٥، قدم دنيس روس إلى دمشق ليكلم الرئيس الأسد، بحضور السفير كريستوفر روس، عن مزايا إسحاق رابين، الذي يعرف العالم بأجمعه أنه قُتِل برصاص متطرف إسرائيلي في تشرين الثاني/ نوفمبر من العام نفسه. قال روس إن رابين بموته أعطى السلام دفعة هائلة إلى الأمام، ومن المحتمل أنه حقق لإسرائيل أكثر مما أنجزه في حياته السياسية بأكملها. وبينما كان روس يتحدث عن رابين بعاطفة جياشة، قرر الرئيس الأسد أن يروي له قصة يوسف العظمة. فهو أيضاً قد حقق لسورية بموته أكثر مما حققه في حياته السياسية القصيرة الأجل. وقد حضر الاجتماع، الذي استمر ثلاث ساعات وخمساً وأربعين دقيقة وزير الخارجية الشرع

---

(٢) لمزيد من الاطلاع حول يوسف العظمة، انظر: Malcolm B. Russell, *The First Modern Arab State: Syria under Faysal, 1918-1920* (Minneapolis, MN: Bibliotheca Islamica, 1985).

وموفق العلاف والسفير المعلم ودنيس روس، وأنا، بصفتي مترجمة للرئيس. كان أعضاء الفريق السوري يومئون برؤوسهم موافقين أثناء شرح الأسد لروس مدى بطولة القائد يوسف العظمة، مضيفاً: «بقيامه بما فعل، أوجد حقاً الآلاف من يوسف العظمة في سورية»[٣].

كان الأسد يحاول، بالإضافة إلى الردّ على المقولة المتعلقة برابين، أن يخبر ضيفه الأمريكي أن «ثقافة المقاومة» ليست مقصورة عليه أو على حزب البعث الحاكم. ومع أن مواقف سورية متشددة، فهي توضح ما يفكر فيه السوريون في الشارع يوماً بعد يوم. وهذا هو السبب الذي جعل الأسد يصرّ عند كل مفصل، ومنذ بدء عملية السلام عام ١٩٩١، على حمل كل تفصيل، مهما يكن صغيراً، إلى الشارع السوري، قائلاً إنه لا يستطيع اتخاذ قرار أحادي بشأن السلام، وإنه يحتاج إلى موافقة شعبه.

أولاً: حقبة بيريز

حينما بدأ الحديث في موضوع المباحثات، أقرّ روس أن «الأمور كانت تسير ببطء» أثناء حقبة رابين، لأن رئيس الوزراء الإسرائيلي المتوفى حاول احتواء المتطرفين بدلاً من استفزازهم، وهم الذين انتهى بهم الأمر في نهاية المطاف إلى قتله[٤]. وأضاف أن الأمور ستكون مختلفة مع شمعون بيريز، خليفة رابين، ومنافسه وصديقه مدى العمر. كان الرئيس كلينتون قد رأس في الخامس من تشرين الثاني/ نوفمبر وفداً أمريكياً كبيراً ومهيباً للمشاركة في جنازة رابين، ويعود سبب ذلك جزئياً إلى احترامه جهود رابين في أوسلو، وإلى اهتمامه أيضاً بمعرفة مدى رغبة كان بيريز في متابعة سياسات رابين بشأن السلام مع سورية. وكان الأسد، من جانبه، مستعداً لإعطاء بيريز فرصة لإثبات صدقه. ومع أن بيريز كان هرماً ومعتلاً، وهو في سن الثانية والسبعين، فقد كان واحداً من أكثر السياسيين حنكة في إسرائيل، إذ إنه استمرّ عضواً في الكنيست بلا انقطاع منذ عام ١٩٥٩. إضافة إلى ذلك، كان عضواً في عدة وزارات إسرائيلية، وقاتل في حرب عام ١٩٤٨، وكان له وزن ثقيل في حزب العمل، وقد مُنِح جائزة نوبل للسلام في عام ١٩٩٤ بالمشاركة مع ياسر عرفات ورابين. كان يعرف عملية السلام بأدق تفاصيلها، لكن نقطة ضعفه، في ما يتعلق بالسوريين، كانت إخفاء رابين عنه أمر وديعته الشهيرة. ولم يسمع

(٣) أرشيف القصر الجمهوري السوري، محضر اجتماع الأسد - روس، ٥ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٥.
(٤) المصدر نفسه.

بيريز بها إلا حين اكتشف بعد موت رابين «أوراقاً مطبوعة من الحاسوب ووثائق سرية» في إحدى خزائن رابين في وزارة الدفاع، تتضمن الخطوط العريضة لاقتراحه حول الجولان السوري، الموجّه إلى الرئيسين كلينتون والأسد[٥].

كان رابين قد أجرى المحادثات جميعها مع الأسد بواسطة الأمريكيين في سرية تامة. ولم يُعْلَم بالتقدم على المسار السوري سوى عدد قليل من المساعدين، وبحسب الظاهر، لم يكن بيريز واحداً منهم. وينبغي ذكر أن هذه القصة نُشرت في ترجمة لحياة بيريز عنوانها **الرجل الذي لم يستطع أن يربح**، كتبها الصحفي الإسرائيلي أورلي أزولاي كاتز، وتم تداول مقتطفات منها على نطاق واسع حين ظهرت في صحيفة **يديعوت أحرونوت** اليومية الإسرائيلية في الثالث عشر من أيلول/ سبتمبر ١٩٩٦. ومع أن بيريز غضب جداً لإغفال إعلامه بالصفقة، بصفته نائب رابين ووزير الخارجية، فقد وعد بأن يلتزم بها. كان من المقرر أن تجري الانتخابات الإسرائيلية في التاسع والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٦، وأدرك بيريز أنه إذا توصل إلى صفقة مع الرئيس الأسد، فإن فرصه في أن يصبح رئيس وزراء حقيقياً - وليس «بالمصادفة» - ستكون وفيرة جداً. وقد اعتقد مخلصاً أن بإمكانه أن «يبيع السلام مع سورية» إلى الشعب الإسرائيلي، وبذلك يبني إرثه الخاص في إسرائيل، بدلاً من أن يتطفل على إرث رابين. وحين قابل بيريز الرئيس كلينتون في واشنطن في العاشر من كانون الأول/ ديسمبر، عبَّر عن استعداده للدخول في محادثات مع سورية، سواء أكانت «سريعة أم بطيئة، واسعة أم ضيقة»[٦].

وقال بيريز إنه يحتاج إلى مشاركة قوية من الولايات المتحدة في المحادثات السورية - الإسرائيلية لكي ينجز وعوده. وقد وجدنا ذلك غريباً، فالأمريكيون كانوا فعلاً يؤدون دور الراعي والمُيَسِّر والوسيط والمشارك. وأي دور أقوى من ذلك يعني تدخلاً سافراً في الشؤون الداخلية السورية، وسيغرق في النهاية عملية السلام بدلاً من مساعدتها. طلب بيريز من الأمريكيين اجتماعاً بحافظ الأسد إما في القدس أو في دمشق. وقال لدنيس روس إن واشنطن هي خيار ثالث. وأضاف: إن حدثاً مثيراً كهذا فقط سيقنع الجمهور الإسرائيلي أنه قائد جيد مثل إسحاق رابين، إن لم يكن أفضل منه، وأنه سيقدم لهم ما أخفق رابين في إنجازه: حافظ الأسد بين ظهرانيهم أو شمعون بيريز في قلب مدينة دمشق. ولا حاجة إلى القول إن الخيارين كليهما كانا خارجين تماماً

---

(٥) Itamar Rabinovich, *The Brink of Peace: The Israeli-Syrian Negotiations* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1998), p. 5.

(٦) المصدر نفسه.

عن الخط الذي انتهجه الرئيس الأسد. واستناداً إلى قول المفاوض الإسرائيلي إتامار رابينوفتش، «شعر الرئيس الأسد أنه تعرّض للاستغلال والتضليل [من قبل رابين]. وفي رأيه الخاص، كان هو المشارك الوحيد في مؤتمر مدريد الذي لم يستفد منه، مع أنه هو الذي «جعل مدريد ممكناً». واعتقد الأسد أن رابين لم يرد أن يبرم اتفاقية قبل الانتخابات [في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٦]، لكن بيريز كان يريد ذلك. وأراد الأسد الوصول إلى اتفاقية في ١٩٩٦، ولكن يجب أن تكون مختلفة عن اتفاقيات الآخرين جميعهم»(٧).

رحّب الأسد بالتزام بيريز، قائلاً لروس: «لسنا نحن من قتل رابين، بل من قتله هو متطرف إسرائيلي»(٨). وشرح الأسد وجوب فهم بيريز أن السلام يحتاج إلى قرارات شجاعة، «وإلى شخص يستطيع أن يفي بالتزاماته ويحترمها». كما أنه يتطلب شخصاً «يستطيع أن يبيع السلام للمتطرفين والمتشددين داخل إسرائيل نفسها»، وبكلمات أخرى كان الأسد يسأل روس عن مقدار تمتّع بيريز بشخصية من ذلك النوع(٩). وقد بدا بيريز «أكثر طراوة» من رابين في مسألة الأطر الزمانية والإجراءات الأمنية. وبدا أن معظم تحفظات رابين حول توقيع اتفاقية سلام مع السوريين لا تثقل كاهل بيريز. لكنه كان يفتقر إلى صفات القيادة والجاذبية الشخصية، وهذا أقلق الرئيس الأسد إلى حد بعيد. وحين أخفق روس في إقناعه بالحاجة إلى لقاء بيريز وجهاً لوجه، خرج بـ «فكرة خلاقة» جديدة في الدبلوماسية العلنية، وهي لقاء ثلاثي في واشنطن يجمع الأسد وكلينتون وبيريز. وأخفقت هذه أيضاً في الحصول على موافقة الأسد، الذي رفض الفكرة رفضاً تاماً. وبعد ذلك، ذكّر روس أرملة رئيس الوزراء ليا رابين، التي عبّرت قبل مدة قصيرة عن التزامها بجهود زوجها لإحلال السلام. أشار روس إلى أنه سيكون من المستحسن «إن قمتم سيادتكم بالبناء على هذا التراث، الذي يلقى شعبية واسعة في إسرائيل اليوم، بإرسال برقية تعزية لها. فسيعبّر هذا عن التزام بالسلام وبإرث إسحاق رابين»(١٠).

ومرة أخرى، قال الأسد «كلا»، الأمر الذي دفع رابينوفتش إلى التعليق في مذكّراته بعد بضع سنوات: «أفضل ما يقال عن رد فعل سورية المباشر على اغتيال رابين هو أنه كان متحجر القلب!»(١١).

---

(٧) المصدر نفسه.
(٨) أرشيف القصر الجمهوري السوري، محضر اجتماع الأسد - روس، ٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٥.
(٩) المصدر نفسه.
(١٠) المصدر نفسه.
(١١) Rabinovich, Ibid., p. 208.

إن ما وافق الأسد على القيام به دلالة على حسن النية تجاه بيريز هو استعمال نفوذه الكبير في لبنان لإقناع حزب الله بإيقاف هجماته المسلحة على شمال إسرائيل. وقد قال لروس: «يجب أن يكون هذا متبادلاً. تذكّر أن بيريز أكثر تحكماً بجيشه من تحكمنا نحن بحزب الله»[١٢]. فرح روس بالحصول على شيء من الأسد وتمسك به على الفور، وسأل: «هل يمكنني أن أقول بصراحة لبيريز إنكم ملتزمون بتهدئة الوضع في جنوب لبنان؟ أنا لم أبحث هذا الأمر معه، لكنني سأثير الموضوع». قال الرئيس الأسد مبتسماً: «أرجو أن تقوم بذلك! لكن أرجو التوثّق من أن يتوقف الجيش الإسرائيلي عن قصف جنوب لبنان»[١٣]. أشار روس إلى أنه من المؤكد أن يعطي السلام دفعاً قوياً إلى الأمام، إذ سيضع أساساً صلباً يستطيع بيريز أن يرتكز عليه وأن يحصّن نفسه داخل إسرائيل.

وأذكر أنني أثناء قيامي بالترجمة، علّق كريستوفر روس ودنيس روس على كلمة (لا أذكر ما هي بالضبط) ترجمتها لتوي من الإنكليزية إلى العربية. وقد شرحتُ للرئيس الأسد الاستخدامات المحتملة لهذه الكلمة، ولم يوافق الأمريكيون على رأيي، ولكن وبعد نقاش اقتنعوا، فقال لهم الرئيس الأسد مداعباً وبابتسامة فيها اعتزاز: «نعم أنتما أمريكيان، لكنكما لا تحملان شهادة دكتوراه في الأدب الإنكليزي مثل بثينة».

ثانياً: ستالينغراد والقنيطرة

في منتصف كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٥، قدم وارن كريستوفر إلى دمشق بعد أن زار بيريز في تل أبيب، وكان يحمل برنامجاً من عشر نقاط من رئيس الوزراء الإسرائيلي. كانت النقطة الأولى هي أن جوهر أية صفقة سورية - إسرائيلية «يجب أن يكون أهم من أي إطار زمني للانسحاب من الجولان. وتضمنت النقاط الأخرى حقوق المياه، ومحطات الإنذار المبكر، والدبلوماسية العلنية، وحدود الانسحاب، والمناطق المعزولة السلاح، وبالطبع الحدود اللبنانية - السورية، وعلاقة سورية بحزب الله. لم تكن معظم النقاط جديدة، إذ كان إسحاق رابين قد أثارها من قبل، بطريقة أو بأخرى[١٤]. الجديد هو أنها الآن آتية من خَلَفِه. وحاول وارن كريستوفر - الذي كان قد عاد قريباً من البلقان، حيث كان الأمريكيون في ذروة صنعهم للسلام في تلك المنطقة - أن يقنع الأسد

(١٢) أرشيف القصر الجمهوري السوري، محضر اجتماع الأسد - روس، ٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٥.
(١٣) المصدر نفسه.
(١٤) محضر اجتماع الأسد - كريستوفر، ١٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٥.

بالرد إيجابياً على تلهّف بيريز، وطلب مرة أخرى عقد لقاء قمة سورية - إسرائيلية، بل في الواقع توسل إليه أن يقبل ذلك. وحين رفض الأسد الفكرة - للمرة المليون منذ مدريد - سأله كريستوفر: «هل بإمكانكم يا سيادة الرئيس التفكير بمكان مناسب لمثل هذا الاجتماع؟». نظرتُ إلى الرئيس الأسد لأرى إن كان هناك ما يدل على شعوره بالضجر أو الإحباط بسبب هذا الاقتراح، لكنه بدا هادئاً كما هو دائماً. «يمكنني التفكير، نعم، ولكن هذا لا يعني أنني سأذهب إلى اجتماع من هذا القبيل أبداً إلا إذا أعيدت هضبة الجولان بكاملها إلى سورية»(١٥). ثم أضاف: «أخبروا بيريز أننا مستعدون، وأننا بذلنا جهداً كبيراً لإحلال السلام في الشرق الأوسط، لكننا حتى الآن وجدنا أن الأبواب جميعها ما تزال مغلقة»(١٦).

ثم اقترح كريستوفر حضور خبيرة اقتصادية من وزارة الخارجية الأمريكية للقيام بزيارتين متعاقبتين إلى سورية وإسرائيل من أجل تقديم المشورة لكلتا الحكومتين حول كيفية إعداد الاقتصاد في البلدين للسلام وللتجارة الثنائية بعد أن يتم التوقيع على اتفاقية(١٧). وجد الأسد هذا الاقتراح غريباً، وسأل: «ما الفائدة من قدومها إن لم يتحقق حتى الآن أي شيء ملموس بشأن أسس السلام؟ نحن لم نقترب بعد من توقيع اتفاقية مع إسرائيل، إذ إننا لم نتفق على الحدود التي سينسحبون إليها!». وأضاف الأسد الذي انزعج إلى حدّ ما من الاقتراح: «إنني أتفاوض في السلام لأنني أؤمن به، وليس لأنني بحاجة إلى مال لدولتي أو لأنني أسعى إلى مساعدة اقتصادية من الولايات المتحدة»(١٨). وأضاف قائلاً: «إن سورية دولة ذات اكتفاء ذاتي لا تحتاج إلى استثمارات أجنبية للتطوير الزراعي أو الاقتصادي». وأشار إلى قول للكاتب العربي جبران خليل جبران في أوائل القرن العشرين: «ويل لأمة تأكل مما لا تزرع وتلبس مما لا تصنع». وأردف بقوله: «إن المساعدة الأجنبية مشروطة، مشيراً إلى حال مصر منذ عام ١٩٧٨، وهي التي فقدت بسبب المساعدة الأمريكية لها صوتها المستقل لا في الصراع العربي - الإسرائيلي فحسب، بل ضمن الأسرة العربية كلها أيضاً». ثم تابع الأسد حديثه:

«تماماً قبل أن ينسحب الإسرائيليون من القنيطرة، وهي البلدة الرئيسية في هضبة الجولان، دمروها بأكملها. كان هذا نادراً في عالم السياسة، إذ يتم تدمير مدينة محتلة

---

(١٥) المصدر نفسه.
(١٦) المصدر نفسه.
(١٧) المصدر نفسه.
(١٨) المصدر نفسه.

بعد الاستيلاء عليها، ليس تدميراً بفعل الحرب، بل تدميراً منهجياً. عاد إليّ [هنري] كيسنجر آنذاك، بعد اتفاقية فصل القوات لعام ١٩٧٤، بعرض لإعادة بناء القنيطرة: ١٠٠ مليون دولار أمريكي. قلت له إن القنيطرة لم تُدمَّر أثناء حرب عام ١٩٦٧، بل دمرت أثناء انسحاب الإسرائيليين منها بعد حرب تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٧٣. لقد نهبوا المدينة ثم أضرموا النار فيها، ودمروها بوعي كامل لما يفعلونه وبدم بارد. ما أراده كيسنجر حقاً لم يكن مساعدة سورية في إعادة بناء القنيطرة. كان ذلك آخر همومه. ما أراده هو أن يمحو من الذاكرة ما قام به الإسرائيليون بمتفجراتهم وجرافاتهم. أنا أعرف كيف تبدو المدينة التي شهدت حرباً، فقد زرت ستالينغراد أثناء إحدى زياراتي لروسيا. كانت هناك رموز للحرب في كل مكان: رصاص، شظايا... كلّ الذكريات القاسية والجراح التي كان من الصعب على الروس أن ينسوها بسهولة. من الواضح أن ستالينغراد تعرضت لحرب، لكن بقيت أبنيتها صامدة وبقيت بنيتها التحتية سليمة. ولم تكن تلك حال القنيطرة، فقد دمرها الإسرائيليون دماراً يفوق الخيال بطريقة قاسية جداً ولا إنسانية بتاتاً. قررنا ألا نعيد بناء القنيطرة، كي يستطيع كل طفل سوري أن يشاهد ما فعله الإسرائيليون بأرضه - ليس أثناء الحرب، بل أثناء ما يفترض أنه هدنة أو وقف لإطلاق النار. كلا يا سيد كريستوفر لن اقبل المساعدة المالية أو الاقتصادية الأمريكية من أجل السلام. الشيء الوحيد الذي سنرحب به هو أن تتوقف الولايات المتحدة عن استفزازنا وتلطيخ صورتنا ضمن المجتمع الدولي بعقوبات وحرب إعلامية مستمرة. حين يتوقف ذلك، صدقني أن الاقتصاد السوري سيزدهر من تلقاء نفسه، فهو اقتصاد ناشئ، ولا يحتاج إلى استثمار أجنبي»[١٩].

من وجهة نظر القارئ السوري، تبدو كلمات حافظ الأسد - التي تُنشر أول مرة في هذا الفصل - مشابهة في روحها وانتمائها لكلمات يوسف العظمة عام ١٩٢٠.

---

(١٩) المصدر نفسه.

الفصل الثامن

«تفاهم نيسان»

تغيرت الحالة السائدة في الشرق الأوسط تغيراً مفاجئاً ومثيراً حين اهتزّت إسرائيل بسبب أربع هجمات جرت في غضون تسعة أيام في شباط/فبراير ١٩٩٦، فقتلت كثيراً من المدنيين ودمرت سمعة شمعون بيريز في عيون الجمهور الإسرائيلي إلى حدّ لا يمكن إصلاحه. ولمّا كانت الهجمات المتعددة جاءت بعد ثلاثة أشهر من اغتيال رابين، فقد أظهرت بيريز قائداً ضعيفاً، وربما لا لون له، لديه نقاط ضعف رابين جميعها، ولكن من دون أي من جوانب قوته.

عمل شمعون بيريز في شبابه مساعداً لديفيد بن غوريون، أول رئيس وزراء إسرائيلي، وساعده على تأسيس وزارة «الدفاع» الإسرائيلية من الصفر. ولكن في عام ١٩٩٦ اعتبره الشباب في إسرائيل متساهلاً» في شؤون الأمن. وقد وضعت الهجمات الفلسطينية المتكررة بيريز في موقف حرج تجاه أيّ سلام مع سورية، وخصوصاً لأن حركة حماس الفلسطينية التي كانت مكاتبها السياسية في دمشق أعلنت المسؤولية عن ثلاث من الهجمات، على حين تبنّت الهجمة الرابعة حركةُ الجهاد الإسلامي، التي كان مركزها في دمشق أيضاً. ولكي يعود بيريز إلى طاولة المفاوضات، كان عليه أن يلمّع مؤهلاته الوطنية والعسكرية في الداخل، وأن يحدث شيئاً مفاجئاً وقوياً في الشرق الأوسط لإنقاذ عملية السلام السورية - الإسرائيلية.

جاء طوق النجاة لشمعون بيريز من البيت الأبيض، من الرئيس كلينتون نفسه. ففي أواخر شباط/فبراير، اقترح دنيس روس دعوة قادة العالم إلى مؤتمر سلام، يجلس فيه الرؤساء والملوك العرب وجهاً لوجه مع رئيس وزراء إسرائيل. وكان الاقتراح هو أن يرأس الرئيس كلينتون نفسه ذلك الاجتماع، وأن يدين هؤلاء القادةُ جماعياً حوادث التفجير داخل إسرائيل ويصيغوا «خطة عمل لمحاربة الإرهاب. إنّ هذا سيمنح بيريز قوة داخل إسرائيل، ويعطي السلام دفعة قوية، وبحسب قول روس، «سيوضح للجمهور الإسرائيلي أن السعي إلى السلام يحدث تحولاً في المنطقة، وأن إسرائيل ليست وحدها

في مكافحة الإرهابيين». رحّب الوزير كريستوفر بالفكرة، مع أن جورج ستيفانوبولوس، كبير مستشاري كلينتون، رفضها[1]. فقد قال الأخير إن رئيس الولايات المتحدة سيبدو سخيفاً أمام الشعبين الأمريكي والإسرائيلي إذا حدث هجوم فلسطيني آخر أثناء انعقاد القمة أو بعد انتهائها مباشرة. وادّعى ستيفانوبولوس أنه بدلاً من مساعدة بيريز، سيدمر كلينتون مصداقيته [أي مصداقية بيريز] في الداخل أكثر مما هي مدمرة إذا قرر الفلسطينيون تصعيد هجماتهم. كان هذا احتمالاً وارداً، على اعتبار أن قدرة عرفات على دعم أوسلو كانت تتضاءل، في حين أصبح المتشدّدون، مثل الجهاد الإسلامي وحماس، أصحاب اليد العليا في المناطق الفلسطينية.

لا شك في أنها كانت مجازفة كبيرة وفرص نجاحها ضئيلة. لكن الرئيس كلينتون، وهو المتفائل الفعال دائماً، قرر المضي قدماً في موضوع القمة، التي حدد لها أن تعقد في شرم الشيخ، وهي منتجع ساحلي على البحر الأحمر، في آذار/ مارس ١٩٩٦. وتعهد الرئيس المصري حسني مبارك باستضافة «قمة صانعي السلام»، كما أكد سعود الفيصل وزير الخارجية السعودي حضور دولته، مع أنها لا ترتبط بعلاقات دبلوماسية مع إسرائيل[2].

وفي النهاية، توجه تسعة وعشرون زعيماً عالمياً إلى شرم الشيخ، منهم أربعة عشر رئيساً وأميراً من الوطن العربي. لكن الرئيس الأسد رفض الحضور، مكرراً قوله بشأن مدريد في عام ١٩٩١، إنه لن يجلس وجهاً لوجه مع قائد إسرائيلي «ما دامت هضبة الجولان لم تُعَد كاملة إلى سورية». وقد تعجب جداً من الدعوة، وقال لنا «إنه من الغريب حقاً أنهم لم يفهموا الرسالة حتى الآن!». ففي ما يتعلق بالرئيس السوري، لم يكن المؤتمر بأكمله أكثر من لحظة التقاط للصور، أُعِدّ لغرض واحد فقط، هو تحفيز التكاتف الدولي مع إسرائيل، ولم تكن لدى حافظ الأسد رغبة في أن يكون ضمن الصورة الفوتوغرافية. وكانت حجته أنه لا فائدة من حضور القمة، ما دامت عملية السلام في عالم النسيان، والأراضي العربية ما زالت محتلة، وعدة دول ذات وزن إقليمي ثقيل (العراق، ليبيا، إيران) لم تتلق دعوة إلى الانضمام إلى «قمة صانعي السلام». وقد رفض الرئيس اللبناني إلياس الهراوي المشاركة أيضاً، ليتحاشى التوقيع على بيان يدين المقاومة الفلسطينية واللبنانية.

---

(١) Dennis Ross, *The Missing Peace: The Inside Story of the Fight for Middle East Peace* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2004), pp. 246-247.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٤٧.

منذ اغتيال رابين في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٥، أخذنا نشعر في سورية أن الراعي الأمريكي يطلب منا باستمرار القيام بأشياء لا نرغب فيها، والغرض الوحيد من ذلك هو مساعدة شمعون بيريز على اكتساب مصداقية وشرعية. بدأ الأمر بالطلب من الأسد أن يقابل بيريز في كانون الأول/ ديسمبر، وتبع ذلك اقتراح أمريكي أن يرسل الأسد برقية تعزية إلى ليا رابين، أرملة إسحاق رابين. والآن تطلب الولايات المتحدة منا حضور قمة مع بيريز، لكي يكتسب صورة جيدة في أعين المجتمع الدولي وأعين ناخبيه داخل إسرائيل. وفي منتصف عام ١٩٩٦، ومع أنه لم تكن لنا يد في اغتيال رابين، بدأنا نشعر أننا، كنا ندفع ثمن موته حين يُطْلَب منا باستمرار أن نخطو الخطوة الإضافية أو نقوم بالإيماءة الإضافية للوصول إلى السلام و«دعم إرث رابين».

أولاً: حرب نيسان/ أبريل ١٩٩٦

تسارع الضغط خلال الأشهر القليلة الأولى من عام ١٩٩٦، ووصل إلى علوٍّ جديد في نيسان/ أبريل أثناء الحرب اللبنانية - الإسرائيلية، التي عرفها الغرب بالتسمية الإسرائيلية: عملية عناقيد الغضب. لكن العرب يفضلون تسميتها باسمها العربي: حرب نيسان، الذي أطلقه عليها أمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله. وقد زُعِم أن الإسرائيليين شنوا الحملة التي استمرت ستة عشر يوماً لوقف هجمات حزب الله الصاروخية الموجهة إلى شمال إسرائيل.

وقد اشتملت الحرب على ١١٠٠ غارة جوية فوق الأراضي اللبنانية، ووابل من ٢٥,١٣٢ قذيفة سقطت على المنازل والمزارع والمدنيين في لبنان. وارتكب الجيش الإسرائيلي عملاً مشيناً بضرب مبنى للأمم المتحدة في قرية قانا أثناء المعركة، بخمس قذائف مدفعية من عيار ١٥٥ مم، وقتل ١١٨ مدنياً. وقد أطلق في ما بعد على هذا العمل الإجرامي اسم «مذبحة قانا الأولى» (إذ حدثت الثانية أثناء حرب عام ٢٠٠٦). وترتجف أوصال جيل كامل من الشباب العرب - الذين هم في سنّ ابنتيّ - حين يتذكرون تلك المجزرة. فقد كانت إحدى أكثر الهجمات وحشية في تاريخ الصراع العربي - الإسرائيلي، وستبقى مطبوعة في أذهان أجيال كثيرة من العرب سنوات وسنوات. لكن مارتن إنديك ذكر المذبحة في مذكّراته على أنها «غير مقصودة»، مدعياً أن الجيش الإسرائيلي رصد صواريخ لحزب الله في الموقع، الأمر الذي لم يترك له خياراً سوى أن يهاجم. ويجب الانتباه هنا إلى أنّ إنديك كان في ذلك الوقت سفير بيل

كلينتون في إسرائيل. ومن المدهش جداً أن وارن كريستوفر لا يأتي على ذكر مذبحة قانا على الإطلاق في مذكّراته فرص في العمر لا تتكرر، كما أنه لا يشير إلى المفاوضات الماراثونية التي قادها لإنهاء الأزمة، والتي أصبحت تعرف باسم «تفاهم نيسان». أما دنيس روس، فهو حتماً يقر بخطورة قانا، ويعترف: «لقد كتمنا نقدنا للفعل الإسرائيلي، جاهدين بدلاً من ذلك، ببذل جهد ملحوظ للتوصل إلى وقف لإطلاق النار»[3]. وتباطأت إسرائيل كثيراً في التعبير عن أسفها لوفاة الأبرياء. في البداية، قال نائب رئيس أركان الجيش الإسرائيلي ماتان فيلاني إن الصواريخ أصابت مبنى الأمم المتحدة، ليس لأنها أخطأت هدفها، بل لأن الخرائط الموجودة لدى الجيش قديمة، ولأن إحداثيات الأهداف تغيرت جغرافياً. وقال بيريز نفسه: «لم نكن نعرف أن عدة مئات من الأشخاص متجمعون في ذلك المخيم. وكان ذلك مفاجأة مُرّة لنا»[4]. وأضاف رئيس أركان الجيش الإسرائيلي أمنون شاهاك: «لا أرى أي خطأ في التقدير. لقد حاربنا حزب الله هناك [في قانا]، وحين يطلقون النار علينا، نطلق نحن النار عليهم للدفاع عن أنفسنا. ولا أعرف أية قواعد أخرى للعبة، في ما يخص الجيش، وفي ما يخص المدنيين»[5]. وصرح نيكولاس بيرنز، الناطق باسم وزارة الخارجية الأمريكية، أن «حزب الله يستعمل المدنيين غطاء. وفِعلُ ذلك شيء مقيت، شيء شرير»[6].

أما بالقدر الذي يعنينا في دمشق، فقد كانت مذبحة قانا وطريقة ردّ فعل كل من الولايات المتحدة وإسرائيل مأساة إنسانية وكارثة دبلوماسية في ما يتعلق بعملية السلام. فليس بوسع أيّ إنسان ذي عقل سليم أن يجري محادثات مع رئيس وزراء إسرائيلي ملطخة يداه بكل هذه الدماء اللبنانية. لقد برهنت مجزرة قانا أن شمعون بيريز لا يختلف عن آرييل شارون أو مناحم بيغن أو إسحاق رابين. وفي الواقع، كان الرئيس الأسد يقول دائماً إنّ الدم العربي «مقدس»، سواء أكان لبنانياً أم مصرياً أم سورياً.

منذ غزو جنوب لبنان عام ١٩٧٨، لم يتمتع الإسرائيليون بيوم راحة على الحدود اللبنانية. وكان الفضل في هذا، بالطبع، للشعب اللبناني الصامد، إضافة إلى عناصر مختلفة من المقاومة اللبنانية التي بدأت بالحزب السوري القومي الاجتماعي، وحركة

---

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٥١.

(٤) Human Rights Watch, *Civilian Pawns: Laws of War Violations and the Use of Weapons on the Israel-Lebanon Border* (New York: Human Rights Watch, 1996), <http://www.hrw.org/reports/1996/Israel.htm>.

(٥) المصدر نفسه، ص ٩٣.

(٦) المصدر نفسه، ص ٩٤.

أمل، والحزب الشيوعي اللبناني، ومن ثمّ حزب الله الذي ظهر بعد احتلال بيروت عام ١٩٨٢. وفي عام ١٩٨٥، أنشأ الجيش الإسرائيلي ما أُطلق عليه اسم «منطقة عازلة أمنية» في جنوب لبنان. وبعد ثمانية أعوام، في آب/ أغسطس ١٩٩٣، شنّت إسرائيل هجوماً كبيراً - أطلقت عليه اسم عملية المحاسبة - هدفه كسر شوكة حزب الله، لكنها لم توفّق في ذلك. انتهت الحملة بوقف إطلاق النار، واتفاق شفوي بأن يتوقف الطرفان عن استهداف المدنيين، وأن تبقى عين سورية ساهرة على مراقبة الأمور. وقد خرقت تل أبيب هذه الاتفاقية أيضاً في نيسان/ أبريل ١٩٩٦ بحملة عسكرية أخرى تهدف إلى إخضاع حزب الله. بدأت المعركة الجديدة يوم ٣٠ آذار/ مارس حين قتلت مروحية تابعة للجيش الإسرائيلي رجلين أثناء عملهما فوق برج مائي في ياطر في لبنان. وبعد ذلك انفجرت قنبلة على جانب الطريق في الجنوب، وقتلت فتى في الرابعة عشرة من العمر في قرية برعشيت، كما جرحت ثلاثة مدنيين، وردّ حزب الله بإطلاق عشرين صاروخاً على شمال إسرائيل في التاسع من نيسان/ أبريل. وبعد يومين، أي في ١١ نيسان/ أبريل، بدأت إسرائيل عملية عناقيد الغضب، زاعمة أنها رد على صواريخ حزب الله التي جرحت ستة مدنيين إسرائيليين. لكن صاروخ حزب الله الشهير، الكاتيوشا، ليس سلاحاً فتاكاً، والأمريكيون والإسرائيليون خير من يعرف ذلك.

في الصباح الباكر من يوم ١١ نيسان/ أبريل، بدأت الطائرات والمدفعية الإسرائيلية قصفاً مكثفاً على جنوب لبنان، وكذلك على أهداف في منطقة بيروت ووادي البقاع. وكان الهدف المعلن لهذه الهجمات هو الضغط على رئيس الوزراء رفيق الحريري لاتخاذ موقف صارم ضد هجمات حزب الله الحدودية. وقامت إسرائيل بغارة جوية على أهداف منها قواعد إطلاق الكاتيوشا، ومنشآت حزب الله، والمدارس، وسيارات الإسعاف، وأهداف مدنية أخرى. وفي إحدى المرات قصف الجيش الإسرائيلي بناء من طابقين في قرية النبطية جنوب لبنان، وقتل تسعة مدنيين أثناء نومهم. وأُرغم ما لا يقل عن نصف مليون شخص من القاطنين في جنوب لبنان على الهروب من بيوتهم بسبب الهجمات الإسرائيلية. وقد أثارت قافلة اللاجئين غضباً عالمياً، لكن هذا الغضب لم يوقف العدوان الإسرائيلي على الإطلاق. وفي ١٢ نيسان/ أبريل، هاجمت الطائرات الإسرائيلية مركزاً سورياً، وقتلت جندياً، وأصابت اثني عشر جندياً آخرين. وبحلول يوم ١٣ نيسان/ أبريل كان الجيش الإسرائيلي قد حاصر موانئ بيروت وصيدا وصور. وفي ١٤ نيسان/ أبريل هاجم محطات الطاقة في حي الجمهور في بيروت، وبذلك قطع الإمدادات الكهربائية، وأدخل بيروت في ظلام دامس. قُتِل حوالى ١٧٠ لبنانياً في

حرب نيسان/ أبريل، منهم ١٠٦ من المدنيين، وجُرِح ٣٥٠ شخصاً. ومع أنّ ذلك العدد كان صغيراً بالمقارنة بما حدث عام ٢٠٠٦، فقد كان مؤكداً أنه أكبر من عدد المدنيين الإسرائيليين البالغ اثنين وستين شخصاً قتلتهم صواريخ حزب الله. وكانت الأضرار التي أصابت البنية التحتية اللبنانية كبيرة، إذ تم تدمير جسور رئيسية ومحطات طاقة. واستناداً إلى ما ذكره مرصد حقوق الإنسان، تعرض ٢٠١٨ منزلاً وبناءً في جنوب لبنان إما للتدمير الكامل، وإما لأضرار جسيمة جراء القصف. وقُدِّرَت الأضرار الاقتصادية بمجملها في لبنان بمبلغ ٥٠٠ مليون دولار بحسب المركز اللبناني للدراسات السياسية: ١٤٠ مليون دولار لإعادة بناء البنى التحتية المدمرة، و٣٠ مليون دولار لمساعدة المشرّدين، و٢٦٠ مليون دولار للتعويض عن الإنتاج الاقتصادي الضائع، و٧٠ مليون دولار بسبب الخسائر الناجمة عن التأخير في مشروعات اقتصادية(٧).

ثانياً: محادثات وقف إطلاق النار

هرع الدبلوماسيون الغربيون إلى المنطقة للتوسط من أجل وقف إطلاق النار بناء على تفاهم عام ١٩٩٣ الشفوي الذي حرّم استهداف مدنيين لبنانيين وإسرائيليين. لكن الإسرائيليين كانوا يتصرفون وكأن اتفاقية عام ١٩٩٣ التي تحمي المناطق المدنية في جنوب لبنان غير موجودة. لم يكن لدى شمعون بيريز خيار سوى أن يتصرف على هذا النحو، فقد اضطر إلى أن يُظهِر أنه صلب في مسائل الأمن وأنه لن يخسر الانتخابات الإسرائيلية التي حُدد إجراؤها في شهر أيار/ مايو. ومع ذلك، كان مستميتاً في التوصل إلى وقف لإطلاق النار قادر على الصمود. ولذلك، طلب من فريق كلينتون إقناع الرئيس الأسد بأن يستعمل نفوذه مع حزب الله لوقف إطلاق الصواريخ على شمال إسرائيل. كان بيريز يعرف أن سورية تؤيد حزب الله بقوة، لكنه أدرك أن تعاون سورية كان ضرورياً للحصول، ولو على اليسير من السلام والهدوء، على الحدود اللبنانية - الإسرائيلية. وقد أخبر الأمريكيين أنه لن تصمد أية هدنة إن لم يدعمها حافظ الأسد.

كان وارن كريستوفر في الشرق الأقصى حين بدأت حرب نيسان/ أبريل. وكان دنيس روس في واشنطن يدير دبلوماسية عبر الهاتف مع الوزير الشرع ومع اللبنانيين والإسرائيليين، ويطلب من كلّ الأطراف، وهو في توتر شديد، الالتزام باتفاقية

(٧) Lawrence Wright, *The Looming Tower: Al-Qaeda and the Road to 9/11* (New York: Knopf, 2006).

عام ١٩٩٣. وتوجه رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري إلى باريس، وهو يشعر بأمسّ الحاجة إلى وقف لإطلاق النار ينقذ بلاده من الدمار، وحثّ الرئيس الفرنسي جاك شيراك على المساعدة، وكان الأخير صديقاً شخصياً له. وأراد بيريز أن يأتي الدبلوماسيون الأمريكيون إلى سورية للحصول على اتفاقية خطية من الرئيس الأسد. قال لهم إن اتفاقية شفهية، مثل اتفاقية ١٩٩٣، غير مقبولة الآن لدى الجمهور الإسرائيلي الغاضب. وقال الشرع لروس إن الرئيس السوري لا يمانع في حالة الالتزام الخطي من حيث المبدأ «إذا كانت الحكومة اللبنانية أيضاً طرفاً في مثل تلك الاتفاقية».

وصل روس إلى تل أبيب يوم ١٩ نيسان/ أبريل، والتقى كبار القادة السياسيين والعسكريين في إسرائيل، ومنهم وزير الدفاع إيهود باراك. وقالوا إن سورية وحزب الله كانا «حتماً لا يخسران في الأزمة»، وإنّ الجيش الإسرائيلي ليس في عجلة لإنهاء القتال. لكن هذا يخالف رغبة رئيس الوزراء شمعون بيريز، الذي كان آنذاك يفكر جدّياً في الانسحاب من جنوب لبنان ليتخلص نهائياً من «كابوس» حزب الله. وقال بيريز إن الشرط الوحيد هو ألا تستكمل التفاصيل إلا بعد أن يتم التوصل إلى وقف لإطلاق النار، وليس تحت الضغط المُذِلّ الناجم عن قذائف حزب الله. وأضاف بيريز أن الجيش الإسرائيلي إذا انسحب، فسيسقط هذا حجة حزب الله في الاحتفاظ بأسلحته، وبهذا «يلحق الضرر بمنطق المقاومة لديه». كما أن سورية ستحشر في زاوية لا خيار لها فيها سوى أن تدعم قرار إسرائيل بالانسحاب من لبنان. وشرح له روس أن الأسد «لن يدع إسرائيل مرتاحة في لبنان ما دامت هضبة الجولان تحت الاحتلال»[٨].

فهم الرئيس الأسد، بالطبع، ما تفكر فيه دوائر السلطة العليا في تل أبيب. فلو أن بيريز التزم بفكرته في عام ١٩٩٦، كان على الأسد أن يطلب أن يكون الانسحاب فورياً وغير مشروط، ومبنياً على قرار مجلس الأمن الدولي الرقم (٤٢٥)، ولن يسمح للإسرائيليين برفاهية «انتظار الهدوء» قبل أن يغادروا جنوب لبنان. وكانت رسالة بيريز لنا، التي نقلتها إلينا الدبلوماسية الأمريكية المكوكية، هي استعداده لأن يخسر الجولان أو الانتخابات الإسرائيلية القادمة، لا أن يخسر الأمرين معاً.

في العشرين من نيسان/ أبريل، وصل فريق الولايات المتحدة إلى دمشق، برئاسة وزير الخارجية وارن كريستوفر ودنيس روس، لعقد الاجتماع الأول في سلسلة من أربعة

---

(٨) تشرين، ٢٠/ ٤/ ١٩٩٥، و Ross, *The Missing Peace: The Inside Story of the Fight for Middle East Peace*, p. 252.

اجتماعات طويلة بالرئيس الأسد. كان لدى رئيس الدبلوماسية الأمريكية حجة واضحة واحدة: «تتمتع إسرائيل بحق الردّ على أي مصدر للنيران يستهدف شمال إسرائيل، بغضّ النظر عما إذا كان المصدر مدنياً أم لا»[٩]. وكان هذا بالطبع مناقضاً لاتفاقية عام ١٩٩٣ التي حظرت أي هجوم على منطقة مدنية. واستخدم كريستوفر حجة أن حزب الله «يختبئ» في البلدات والقرى المدنية في جنوب لبنان، ويطلق الصواريخ منها على شمال إسرائيل. ولا يبقى للجيش الإسرائيلي أي خيار سوى أن يرد الضربة إلى «مصدر النيران،» من دون اعتبار للقاعدة التي أتى منها، مدنية أكانت أم عسكرية.

محادثات «تفاهم نيسان» في دمشق في نيسان/ أبريل ١٩٩٦. يرأس الوفد الأمريكي على الجانب الأيسر من الطاولة وزيرُ الخارجية وارن كريستوفر. وعلى الجانب الأيمن (من اليسار إلى اليمين) ميخائيل وهبة، وعدنان عمران الأمين العام المساعد لجامعة الدول العربية، ووزير الخارجية فاروق الشرع، والرئيس حافظ الأسد، وبثينة شعبان، وناصر قدور، وسفير سورية في الولايات المتحدة وليد المعلم.

وفي ما يلي سجل للاجتماع الأول، منقول من الأوراق غير المنشورة للرئيس الأسد:

(٩) أرشيف القصر الجمهوري السوري، محضر محادثات الأسد - كريستوفر، نيسان/ أبريل ١٩٩٥.

روس: لقد تشكّل لدى الإسرائيليين الاعتقاد، في عام ١٩٩٣، أن الهجمات اللبنانية ستستمر من داخل المنطقة الأمنية، ولكن ليس من بلدات وقرى مدنية في جنوب لبنان. واليوم تأتي هجمات حزب الله من خارج المنطقة الأمنية، ونحن نؤمن بأن للجيش الإسرائيلي الحق في الردّ على النيران في مصدر الهجوم، كما ورد في اتفاقية عام ١٩٩٣.

كريستوفر: دعوني أحاول أن أشرح ما يحدث: يُطلَق صاروخ كاتيوشا على شمال إسرائيل، وأهرع أنا إلى الهاتف وأكلم دمشق، معترضاً على ذلك. ويصغي لي صديقي فاروق [الشرع] بانتباه، ثم يقول إن حزب الله فعل ذلك لأن الجيش الإسرائيلي كان يطلق النار على المدنيين في المنطقة الأمنية.

الأسد: نعم هذا صحيح...

كريستوفر: لكن في الواقع يا سيادة الرئيس، لا يطلق الإسرائيليون النار على القرى، بل على مصادر النيران الآتية من القرى نفسها.

الأسد: من الناحية العسكرية، يوجد عيب في هذا التحليل. أولاً، صاروخ الكاتيوشا صغير، وبعد إطلاقه، يتحرك المقاتل على الفور من موقع إلى آخر. فالصاروخ لا يبقيه في قاعدة معينة أو قرية معينة، وهذا هو السبب في أننا نرى اضطراباً شديداً بين المنطقة الأمنية والمناطق المدنية في جنوب لبنان. إنّ لدى الإسرائيليين تاريخاً عسكرياً طويلاً، وهم يعرفون أنهم حين يطلقون النار على قرية معينة، فهم يصيبون القرية وليس الشخص الذي أطلق الصاروخ عليهم، بغض النظر عما إذا كان مركزه في القرية أم لا. وحتى لو أن مقاتل حزب الله ضرب من داخل القرية، فمن المرجح أنه غادر القرية بعد إكمال الهجمة. وهذا يعني أنه حين يضرب الجيش الإسرائيلي قرية ما، فهو في الواقع يدمر القرية ويعاقب السكان المدنيين، وليس مقاتل حزب الله الذي أطلق النار والذي هو «المصدر» الحقيقي للهجوم. فالمصدر في هذه الحالة ليس القرية، بل الشخص الذي أطلق الصاروخ. ومن الواضح أن اتفاقية ١٩٩٣ تفتقر إلى آلية لتحديد من الذي أطلق النار أولاً، ومن أين أتى الإطلاق، وما الذي يبرر الردّ على «مصدر» الهجوم.

كريستوفر: إن عالجنا هذا الموضوع، فهل سنصل إلى حل؟

الأسد: نظرياً، نعم، يمكن ذلك، لكن هناك حاجة إلى آلية مناسبة، ومراقبة جيدة للحدود، وبالطبع تحمّل المسؤولية الذي ينطبق على كلا الطرفين.

الشرع: وهذا سيولِّد أيضاً هدوءاً نسبياً...

الأسد: حين تكلمتَ مع السيد الشرع على الهاتف، اقترح أن تتحمل سورية والولايات المتحدة مسؤولية مشتركة لما يحدث على الحدود. وحين تدخل الهدنة حيز التنفيذ، نحتاج إلى لجنة مراقبة مناسبة مفوضة من الأطراف جميعها لتحكم أيّ الطرفين هو المسؤول عن خرق وقف إطلاق النار. وحينئذ تجري هذه اللجنة تحقيقاً خلال مدة أربع وعشرين إلى ثمان وأربعين ساعة. ولا يحق لأي من الطرفين أن يطلق النار على الآخر قبل انتهاء التحقيق.

روس: **إذا تم الاتفاق على هذا، هل يمكن لنا التفاوض في انسحاب بعد أن يعود الهدوء إلى الحدود الإسرائيلية – اللبنانية؟**

الأسد: «هذا الانسحاب بالتفاوض» ليس أمراً جديداً، فقد سبق أن طُرِحَ، مرات عديدة، حتى قبل أن تبدأ عملية السلام. كان الإسرائيليون يقولون إنهم بحاجة إلى مهلة [زمنية] لاختبار الهدوء، لكن اللبنانيين لن يقبلوا أبداً بمثل هذه الفترة التجريبية.

كريستوفر: **هذا صحيح...**

الأسد: لا أعتقد أن الوضع قد تغير.

الشرع: قبل يومين اقترح بيريز انسحاباً بالتفاوض حين يعود الهدوء، مشروطاً بفترة تجريبية لاختيار قدرة أمن الحدود على الصمود والاستدامة.

الأسد: أنا لم أسمع شيئاً من بيريز، ولكن هذا ما طلبه أسلافه جميعهم في الماضي.

كريستوفر: **هل تعتقدون أنه يمكننا الآن التركيز على وقف إطلاق النار لإنهاء القتل؟**

الأسد: ما يمكننا فعله هو أن نحاول حماية المدنيين على جانبي الحدود. كان هذا هدفنا دائماً. فلنكن واقعيين قليلاً هنا. من المستحيل أن نطلب من المقاتلين على أي من الجانبين أن يثق بعضهم ببعض فجأة. أما بعد التوصل إلى السلام، فقد يصبح هذا ممكناً بمرور الوقت. لكن من الصعب والظلم الشديدين لشخص أرضه محتلة أن يستمر في مراقبة المحتل، في حين لا يملك القيام بشيء حيال ذلك. وما من دولة في العالم تستطيع منع مواطنيها من التمسّك بحقوقهم الوطنية والعمل على استعادة أرضهم المحتلة. إن الإسرائيليين حساسون تجاه المدنيين لديهم، ونحن نفهم ذلك ونحترمه.

فكل دولة في العالم حريصة على حماية حياة مواطنيها، وإسرائيل ليست استثناء. لكن حين تحاول دولة أن تمنع مواطنيها من مقاتلة قوة محتلة، فالمشكلة ستتحول على الفور من مقاتلة المحتل إلى مقاتلة الشعب بعضه البعض. المعنى هو أن مقاتلي حزب الله مدرّبون الآن [للقتال] ضد إسرائيل. فإذا حاولت الحكومة اللبنانية منعهم القيام بذلك، سيبدأون بقتال بعضهم البعض، وبقتال الحكومة اللبنانية أيضاً. ولن تستطيع الحكومة اللبنانية بسهولة أن تمنعهم البدء بحركة مقاومة ضد إسرائيل. أنتم جميعاً تعلمون أن لبنان قد نهض حديثاً من حرب أهلية دموية جداً، حرب بذلت كلّ الأطراف المعنية، بما فيها الولايات المتحدة، جهداً كبيراً لإيقافها. وإذا حاولتم اليوم الضغط على الحكومة اللبنانية لفرض قيود على نشاطات حزب الله، فستدفعون لبنان فعلاً إلى حرب أهلية.

كريستوفر: هل تقترحون وقفاً جزئياً لإطلاق النار، يا سيادة الرئيس، بحيث يمكن استمرار القتال، ولكن في المنطقة الأمنية فقط؟

الأسد: من المألوف أن تُطلَق عبارة «وقف إطلاق النار» على حرب رسمية بين دولتين وفيها تقود حكومتان الحرب. لكننا نتكلم هنا على مقاومة ليست بدولة، تشنّ حرب عصابات ضدّ جيش منظم، وهو الجيش الإسرائيلي.

كريستوفر: كلا، لقد استُعمِل [مصطلح] «وقف إطلاق النار» في سياقات مختلفة، وحتى حين لا تشترك جيوش رسمية، كما هي الحال في البوسنة.

الأسد: في تلك الحالة، جرت حرب بين أطراف مختلفة داخل البوسنة. أنا لا أعترض على مصطلح «وقف إطلاق النار،» لكنني أصرّ على ضرورة أن نكون واضحين في العبارة التي نستعملها، لتفادي أية أفكار خاطئة في المستقبل. إن الوضوح يا سيادة الوزير ذو أهمية حيوية لدينا.

كريستوفر: ما نوع وقف إطلاق النار الذي تعتقدون أنه ممكن على الحدود الإسرائيلية - اللبنانية؟

الأسد: الصيغة نفسها التي اتفقنا عليها عام ١٩٩٣، لكن مع بعض الضمانات. ما السبب في أن الأمريكيين والإسرائيليين وجدوا فجأة عيوباً في تلك الاتفاقية، التي اعتُبِرت ممتازة عام ١٩٩٣؟

كريستوفر: يمكننا التوصل إلى وقف إطلاق النار، لكن ما تطلبه هو تفاهم كلي بين إسرائيل وحزب الله.

الشرع: نعم، ولكن ليس قبل أن يتحقق وقف إطلاق النار...

الأسد: وماذا يحدث بعد وقف إطلاق النار؟

الشرع: بعد وقف إطلاق النار، يمكننا التحدث عن التفاصيل...

روس: بعبارة أخرى، يأتي وقف إطلاق النار أولاً، ويليه تفاهم، والتفاهم سوف يثبت وقف إطلاق النار.

الأسد: أقترح وقفاً مؤقتاً لإطلاق النار في الوقت الحاضر. لقد اجتمع وزير خارجيتنا بعشرة أعضاء من حزب الله أمس. وجدنا صعوبة كبيرة في العثور عليهم وفي جمعهم لحضور الاجتماع. وقد استمعوا باهتمام لما قلناه لهم، لكن لم يعطوا التزاماً بأي شيء. وأنا لست متأكداً ممّا سيقولونه جواباً عن هذا كله، مع أنني متفائل وأرى أنهم سيوافقون. ولكن لا يمكنني التكلم نيابة عنهم على كلّ حال، لأنني لست عضواً في حزب الله.

كريستوفر: إذا حدث هذا، يمكن أن نثبته كتابة.

الأسد: لا يمكن أن نثبته كتابة إلا بعد أن نتوصل إلى آلية للمراقبة والمحاسبة. ويجب ألا نترك مجالاً لأي غموض. فكما قلتُ قبل قليل: الوضوح ذو أهمية حيوية. لقد كنا دائماً نعاني الغموض في تعاملنا مع الإسرائيليين.

روس: هل يمكننا الحصول على موافقة نهائية منكم، يا سيادة الرئيس، قبل أن يتوجه وزير الخارجية كريستوفر إلى إسرائيل؟

الأسد: فليذهب إلى إسرائيل أولاً، وسنواصل الحديث حين عودته.

كريستوفر: يقولون إن الوقت بالغ الأهمية في مثل هذه الأوقات.

الشرع: صحيح! فالوقت من ذهب...

كريستوفر: نحن نحتاج إلى الاتفاق على ما سيحدث حين يُستهدَف الجنود الإسرائيليون خارج المنطقة الأمنية. إذا لم نتفق على هذا سلفاً، فإنني ببساطة

سأعجز عن الحصول على موافقة الإسرائيليين على أي شيء يتقرر في هذه الغرفة.

الأسد: أحد الخيارات لديهم [الإسرائيليين] هو الردّ بأسلحة فردية؛ على سبيل المثال، بندقية مداها ١٠٠ ـ ٢٠٠ متر. وهذا يعني أنه لا يسمح لهم في ظل أية ظروف استعمال أسلحة بعيدة المدى ضد أهداف مدنية في لبنان. وليس القصد هنا حماية المقاتلين، بل المدنيين اللبنانيين. المقاتل مقاتل، يعرف كيف يدافع عن نفسه. ووفق ميثاق الأمم المتحدة، إنّ كلّ الشعوب التي تعيش تحت الاحتلال تملك حقّ الدفاع عن نفسها ضد الاحتلال الأجنبي. ولا أستطيع أن أتذكر حالة واحدة في التاريخ مُنِع الناس فيها من قتال قوة محتلة. لا تنسوا أن المقاتلين اللبنانيين لا يستهدفون الجنود الإسرائيليين من أجل إحداث شغب على طول الحدود، بل هم يقومون بذلك لأن الإسرائيليين يحتلون جنوب لبنان، إنهم يدافعون عن أرضهم المحتلة.

كريستوفر: يجب أن يتضمن جزء من الاتفاقية عبارة تبيّن طريقة التصرف حين تصدر النيران من منطقة مدنية. ففي واقع الأمر، تُطْلَق صواريخ الكاتيوشا من أحياء مدنية.

الأسد: في اتفاقية عام ١٩٩٣، وافقت الأطراف جميعها على حق الرد على أي مصدر للنيران. لكن هذا لا يمكن أن يعني بأي حال بلدات وقرى بأكملها، بل المعنى هو حق إطلاق النار على أي شخص بدأ الهجوم، وليس العقوبة الجماعية لحي أو بلدة مدنية كاملة. فليطلقوا النار على الشخص الذي أطلق عليهم، وليس على المنطقة الجغرافية التي انطلق الصاروخ منها.

سنعقد جلسة أخرى غداً. ولنناقش هذا مناقشة إضافية آنذاك.

روس: نحتاج إلى التحدث عن اقتراح التفاوض في الانسحاب من لبنان.

الأسد: لم يحدث الاحتلال عن طريق التفاوض، ولذلك لا أعتقد أن الانسحاب يجب أن يتمّ من خلال التفاوض. إذا أراد الإسرائيليون أن يغادروا، يجب تشجيعهم على القيام بذلك من دون تفاوض. التفاوض يعني أن هناك سعياً إلى تحقيق شيء ما تحت الطاولة. ما الذي تريدون من اللبنانيين أن يعطوه مقابل الانسحاب؟

روس: على اللبنانيين أن يقدموا شيئاً...

الأسد: كل دولة مسؤولة عن حدودها. كل ما يطلبونه [أي اللبنانيون] هو إعادة الأرض المحتلة. وأنا لا أستطيع إملاء أي شيء على اللبنانيين.

كريستوفر: سأثير هذه النقاط حين أسافر إلى إسرائيل غداً. علينا أن نتحرك باكراً لأن رحلتنا ستكون طويلة. بالطبع، أنتم لم تزوروا تلك البلاد منذ وقت طويل، لكن الوصول إلى القدس، حيث مقرُّ بيريز، من مطار تل أبيب الذي سنحط فيه، يتطلب بعض الوقت.

الأسد: تلك مسؤوليتهم، وليست مسؤوليتنا. والسؤال في المقام الأول هو: لماذا نقلوا المطار؟[١٠].

ثالثاً: سيدي الوزير: الرئيس الأسد مشغول

انتهى الاجتماع وسافر الفريق الأمريكي إلى إسرائيل، بعد أن تمّ التخطيط لعقد اجتماع آخر في ٢٢ نيسان/ أبريل. غير أن ما حصل هو وصول كريستوفر، من دون إعلام سابق، إلى العاصمة السورية في ٢١ نيسان/ أبريل، وطلبه مقابلة الأسد. كانت بنيظير بوتو، رئيسة وزراء باكستان، في دمشق، وكان الرئيس الأسد قد سبق وخطط لاجتماع طويل بها. كما كان وزير الخارجية الفرنسية، إرف دو شاريت، ونظيره الروسي، ووزير الخارجية الإيراني علي أكبر ولايتي، جميعهم في دمشق، إضافة إلى وزير الخارجية الأمريكي ورئيسة الوزراء الباكستانية. أكثر ما أذكره عن ذلك اليوم أنه كان طويلاً جداً ومليئاً بالاجتماعات المتتالية مع الرئيس، التي قمت خلالها بكامل الترجمة له.

أثناء جلسة الأسد مع بوتو، وهي امرأة كان يكنُّ لها الكثير من الاحترام والإعجاب، دخل رئيس التشريفات عليه مرتين، وفي كل مرة يحمل رسالة قصيرة تقول إن وارن كريستوفر موجود في السفارة الأمريكية في دمشق، «ويطلب مقابلة الرئيس الأسد على الفور». نظر الرئيس إليّ بدهشة، وقد أزعجه أن تكون لدى كريستوفر الجرأة أن يأتينا من دون موعد، ويتوقع مع ذلك مقابلة الرئيس فوراً. بدا ذلك مثل تصرف كان يمكن أن يصدر عن المفوض السامي في دمشق في الثلاثينيات من القرن العشرين، لكنه بدا غريباً من دبلوماسي محنك مثل كريستوفر، الذي كان يعرف أكثر من معظم الأمريكيين أنه تصرف يضرب على عصب حساس في سورية.

---

(١٠) المصدر نفسه.

تمتم الرئيس قائلاً: «لا يمكنني مقابلته اليوم، فلديّ أيضاً حفل عشاء رسمي لرئيسة الوزراء بوتو». ثم عاد بنظره إلى ضيفته الباكستانية وابتسم، معتذراً عن المقاطعة.

ورد خبر جديد على ورقة صفراء أخرى، جاء فيها: «وارن كريستوفر غاضب أشد الغضب»، و«قد يغادر الآن، ولا ينتظر حتى الغد».

لم يرمش للرئيس الأسد جفن: «فليغادر إذاً؛ الأمر متروك له!»، واستطعت أن أعرف من نظرة عينيه أنه لو كان قد فكر في إمكان اختصار اجتماعه مع بوتو كي يستقبل كريستوفر، فإن أسلوب ليّ الذراع الذي لجأ إليه الوزير الأمريكي قتل تلك الفكرة. وأرسل رئيس التشريفات رسالة إلى كريستوفر تقول إن الرئيس الأسد «لديه جدول مليء»، ولن يتمكّن من استقبال رئيس الدبلوماسية الأمريكية اليوم. وبدا أن الرئيس لم يكن يركز آنئذ على كريستوفر، بل على آصف زرداري، زوج بوتو، الذي كان يجلس إلى جانبي. فمن أجل أن تبدأ المحادثات الرسمية، كان على زرداري (الذي شغل لاحقاً منصب رئيس بالباكستان من ٩ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٨ وحتى ٨ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٣) أن يغادر الغرفة، إذ لم يكن لديه سبب رسمي لحضور اجتماع القمة بين زوجته والرئيس الأسد. لكن يبدو أن زرداري لم يفهم الرسالة، ولذلك تابع الرئيس الاجتماع في حضوره.

حفلة عشاء تكريماً لرئيسة الوزراء الباكستانية بنيظير بوتو في دمشق في عام ١٩٩٦.
من اليسار إلى اليمين: رئيس الوزراء محمود الزعبي، ورئيسة الوزراء بوتو، وبثينة شعبان، والرئيس حافظ الأسد، ومساعد وزير الخارجية عبد الفتاح عمورة، وآصف زرداري (زوج بوتو).

كان وارن كريستوفر في مكان ما في الجانب الآخر من المدينة - ربما في فندق الشيراتون، حيث كان ينزل أثناء وجوده في دمشق - وكان يشعر بغضب بالغ بسبب «معاملته بازدراء» و«زجره» (كما كانت الصحافة الأمريكية تقول) من قبل الرئيس السوري. وانتهى الأمر بوزير الخارجية الأمريكي إلى أن تنازل عن كبريائه، وأمضى الليلة في دمشق لكي يجتمع بالرئيس الأسد في الحادية عشرة والنصف من صباح يوم ٢٢ نيسان/ أبريل. وصل كريستوفر وهو يحمل حقيبته البنية اللون المليئة بالأوراق والملاحظات. ومن الواضح أنه كان متوتراً، وكان وجهه منتفخاً وشديد الاحمرار، إذ إنه لم يهدأ منذ اليوم السابق.

بعد المجاملات الصباحية، طلب اجتماعاً منفرداً بالرئيس. هزّ الأسد رأسه بالموافقة، وانتقلنا نحن الثلاثة إلى غرفة قريبة فيها أريكة كبيرة وبضعة كراس. أشار إليه الرئيس أن يجلس. كانت يدا كريستوفر وشفتاه لا تزال ترتجفان وهو يحيط حقيبته بيديه، وقال: «سيدي الرئيس، أودّ أن أعرف السبب في تعمّدك إهانتي وإهانة دولتي، الولايات المتحدة الأمريكية، أمس؟».

حافظ الرئيس الأسد على هدوئه، وحدّق في عيني كريستوفر قبل أن يقول: «وبأي طريقة قمتُ بذلك يا سيد كريستوفر؟».

انفجر كريستوفر عندئذ، ولكن بلباقة: «منذ الأمس، وأنا أطلب مقابلتكم طوال الوقت [إلى أن حلّ لقاؤنا الآن]، وكنتم ترفضون طلبي. وقد فكرت أكثر من مرة في أن أغادر».

مرة أخرى تكلم الرئيس الأسد بهدوء شديد وشرح السبب في تعذّر مقابلته كريستوفر: «لم نكن حدّدنا وقتاً لاجتماعنا. أنت ببساطة وصلت وأردت لقائي على الفور، في الوقت الذي كنت أقابل رئيسة وزراء دولة أخرى، كنا قد حددنا موعد زيارتها وخططنا لها من قبل. هل أردت مني أن أتركها وأقابلك؟ لِمَ فسرتَ تعذّر لقائك إهانة، بدلاً من اعتبار ذلك تصرفاً طبيعياً في عالم الدبلوماسية؟ أكانت الدولة هي الولايات المتحدة الأمريكية أم أية دولة أخرى في العالم، كبيرة أم صغيرة، قوية أم ضعيفة، فإن الدول جميعها متساوية في ما يتعلق بكبريائها. وينبغي، يا سيد كريستوفر، أن يشعر الناس كافة بالكرامة الإنسانية نفسها. وقد تصرفتُ وفق قواعد البروتوكول والسلوك الدبلوماسي، وليس لك الحق في أن تشعر بالإهانة أو الغضب».

أجاب كريستوفر، وقد طمأنته كلمات الرئيس بعض الشيء: «الجميع يقولون إنك جعلتني أنتظر ورفضت أن تراني!».

ابتسم الأسد لضيفه الأمريكي بشيء من المودّة، وتكلم بلهجة أقرب إلى لهجة أب يخاطب ابنه المراهق الذي انتهى لتوّه من نوبة عصبية: «أياً كان ما يقولونه، أنا واثق أنك تعرف أنني على حق. فلننضم الآن إلى الآخرين لعقد الاجتماع!».

الغريب في الأمر أن وارن كريستوفر لم يذكر هذه الحادثة مع الرئيس الأسد في مذكّراته، ومثله كان الرئيس كلينتون أيضاً، علماً أنها احتلت الصفحات الأولى من كلّ الصحف المحلية والدولية يومها.

ومن بين المسؤولين الأمريكيين الكبار، كان دنيس روس الوحيد الذي سجل روايته لما حدث في دمشق، وهي رواية فيها عيوب كثيرة، كما أنها مغلوطة بسماجة. لقد كتب: «كان المعلقون الأمريكيون يسألون: «كيف استطعنا أن نتحمل هذا؟». وأصبحت هذه الحادثة، مدة من الزمن، هي الصورة الدائمة خلال تولي وارن كريستوفر وزارة الخارجية. ليس هذا عدلاً، لأن القصة الحقيقية هي أننا لم نذهب إلى دمشق لمقابلة الأسد، بل لنقوم بجولة مفاجئة غير معلنة فوق بيروت في طائرة مروحية، وهو جزء من دبلوماسيتنا المكوكية. فمنذ عهد بيكر، كانت وسيلة الرحلات جميعها إلى لبنان هي مواكب بالسيارات أثناء النهار. ولأسباب أمنية نحتاج إلى إبقاء خططنا سرية حتى آخر لحظة. وعندما تجمّع وفدنا وأصبح الفريق الصحفي مستعداً لمغادرة الفندق، علمنا أن القائد العسكري الأمريكي في أوروبا رفض الموافقة على السفر بالمروحيات، ذاكراً أن ذلك يعود إلى أسباب أمنية لم يحددها. اضطررنا إلى البقاء في دمشق. ولم يبقَ هناك وقت كاف لتنظيم موكب سيارات إلى بيروت. في ذلك الحين، سعينا إلى مقابلة الأسد، لكن اتضح أنه «مشغول جداً». ما من شكّ في أن الأسد أحبّ الإيحاء أنه لن يقابل وزير الخارجية الأمريكي إلا وفق شروطه. وكان لدى الوزير كريستوفر كل الحق في أن يغادر في تلك اللحظة. كان بإمكانه أن يعطي لنفسه أهمية خاصة، ويجعل موقفه يبدو جيداً. لكن هذا كان سيعرّض وقف إطلاق النار للخطر، وكنا سنضطر في نهاية الأمر إلى العودة إلى الأسد لنتوصل إلى اتفاق بهذا الشأن. وكان الوضع سيؤدي إلى عودة الإسرائيليين إلى شمال المنطقة الأمنية في لبنان، ويعرضهم لحرب عصابات مستمرة. في ظل هذه الظروف، اختار وارن كريستوفر ألا يسلك الطريق السهل»(١١).

---

(١١) Ross, *The Missing Peace: The Inside Story of the Fight for Middle East Peace*, pp. 253-254.

رابعاً: التوصل إلى التفاهم

في غرفة الاجتماعات، كان العمل يجري كالمعتاد في ما يخصّ الرئيس الأسد ووزير الخارجية الأمريكية كريستوفر. اقترح كريستوفر تسمية ما جرت الموافقة عليه بينه وبين السوريين من جهة، وبينه وبين الإسرائيليين من جهة أخرى، «تفاهماً». وقد عاد إلينا ومعه مسودة وثيقة كتبها دنيس روس، وهو الشخص الرئيسي الذي يدوّن الملاحظات في كل اجتماعاتنا، واقترح كريستوفر ألا يكون هذا «التفاهم» بديلاً من عملية السلام اللبنانية - الإسرائيلية. وتم الاتفاق والتشديد على تفادي استهداف المدنيين من الطرفين. طلب الرئيس الأسد فرصة لقراءة الوثيقة المقترحة، مخاطباً روس بقوله: «يمكنني أن أؤكد لك أننا سنكون مَرِنين، ولن نكون منحازين إلى مصالحنا»(١٢). هذا ما كنت أحترمه في الرئيس: كان رجلاً ذكياً جداً، يعبر عن آرائه بصراحة شديدة، لكنه في نهاية المطاف منصف وحصيف. توقفنا للاستراحة، وقرأنا ما كُتب، ثم عدنا إلى مناقشته مع المسؤولين الأمريكيين. قرأ الرئيس التمهيد باللغة العربية بصوت واضح، ثم تابعت أنا بقية المهمة. كان لدى سورية ثلاثة تعديلات رئيسية على الوثيقة، وأصرّت على ضرورة التشديد عليها.

كان **أحدها** هو أن تكون فرنسا ضمن لجنة المراقبة، برغم اعتراض واشنطن في البداية. احتج كريستوفر بأن هذا قد يزعج دولاً أخرى في أوروبا، لكن الأسد أصرّ، قائلاً: لن يعترض أيّ طرف حين تؤخذ في الحسبان العلاقة التاريخية بين باريس وبيروت منذ زمن الانتداب الفرنسي للبنان. وأضاف أن لدى الرئيس الفرنسي شيراك رغبة متأصلة في أن يسهم في الحل في لبنان. وكان الرئيس الأسد يرى أن الرئيس الفرنسي سيكون وسيطاً نزيهاً في الشؤون اللبنانية، وأراد أن يسند إليه ذلك الدور.

وتعديل سورية **الثاني** كان رغبتها في ألا يرد ذكرها على أنها المفاوض الرئيسي، وذلك احتراماً للبنانيين، مع طلب وجود إشارة فقط إلى «مشاورات مع سورية»(١٣).

وبالنسبة إلى التعديل **الثالث**، فقد أصر الأسد على ألا يأتي أي ذكر لحزب الله في الاتفاقية، احتراماً لرغبة رفيق الحريري رئيس وزراء لبنان، ونبيه بري الرئيس القوي لمجلس النواب ورئيس حركة أمل، والذي كان حليفاً قوياً للرئيس الأسد. كان

---

(١٢) أرشيف القصر الجمهوري السوري، محضر محادثات الأسد - كريستوفر، نيسان/ أبريل ١٩٩٥.
(١٣) المصدر نفسه.

الرجلان قد زاراه في اليوم السابق للتوثّق من ذكر الحكومة اللبنانية بالاسم في الاتفاقية. وقد قال الحريري للرئيس الأسد: «حزب الله ليس لبنان»، وشدّد على النقطة نفسها لكريستوفر أثناء لقائهما في شتورا، وهي بلدة هادئة على الحدود اللبنانية - السورية. وإذا شاء الطرفان، يمكن لهما أن يكتبا «الحركات الشعبية» أو «المجموعات العسكرية،» ولكن حتماً يجب تحاشي كتابة مليشيا أو منظمات إرهابية - كما كان الإسرائيليون سيرغبون - أو حزب الله بالاسم، كما تقترح الولايات المتحدة. ودعم الأسد بقوة مقولة الزعيمين، قائلاً لكريستوفر: «أنا أوافق على كل كلمة قالاها»[١٤]. ومع أن شخصيات مناهضة لسورية في لبنان تكلمت ضد معالجة سورية لحرب نيسان/ أبريل، زاعمة أن الرئيس الأسد يمارس سيطرته على اللبنانيين، فالحقيقة هي أنه كان في أشد الحرص على التشاور مع أعلى المسؤولين اللبنانيين عند كل مفصل من مفاوضات «تفاهم نيسان». وكان لرفيق الحريري ونبيه بري وحزب الله الكلمة الفصل في الاتفاقية. ولم يفعل الأسد سوى أن يَسَّر المحادثات، داعماً ما يريده اللبنانيون، ومعبراً بوضوح عما قد لا يتمكّنون من إيضاحه وعرضه بقوة مثله.

كما برزت قضية شائكة، وهي المكان والتوقيت اللذان سيعلن فيهما وقف إطلاق النار. اقترح الأسد لبنان، في حين اقترح دنيس روس إسرائيل. تقرر عند ذلك أن يتم الإعلان عن الاتفاق في وقت واحد في كلٍّ من لبنان وإسرائيل، لإرضاء الأطراف كافة.

ثم أتت المشكلة العويصة الثانية، فقد صادف أن كان السادس والعشرون من نيسان/ أبريل - يومُ إعلان وقف إطلاق النار - يومَ جمعة. ويبدأ بعد ذلك السبت، وهو الشعيرة التي يلتزم بها أتباع الدين اليهودي أكثر من أية شعيرة أخرى - والتي تَفْرُض «راحة» وفقاً للوصايا العشر. وتلتزم إسرائيل بها بشدة - عند الغروب [من يوم الجمعة]، وينتهي ذلك مع غروب اليوم التالي. وهذا يعني أن شمعون بيريز لن يتمكن من قول أي شيء أو فعله بعد أن يغادر مكتبه يوم الجمعة. أخبرنا كريستوفر أن «كل شيء يتوقف في إسرائيل توقفاً تاماً في الساعة السادسة مساء يوم الجمعة»، طالباً أن نغير التوقيت [البدء بوقف إطلاق النار] ونجعله الخامسة والنصف مساء.

لم يُعْجِب الرئيسَ الأسد ما سمع، لكنه اختار ألا يعلّق على ذلك من أجل وضع النقاط النهائية على وقف إطلاق النار. ومع هذا، كان يتساءل عما سيحدث لو كان الأمر

---

(١٤) المصدر نفسه.

معكوساً، أي لو كان حزب الله يقتل الإسرائيليين والولايات المتحدة تطلب منا تنفيذ وقف إطلاق النار يوم جمعة؟

عند الجولة الرابعة من المحادثات مع كريستوفر، أدرك الرئيس أن وفد الولايات المتحدة كان مستميتاً في طلب الوصول إلى وقف إطلاق النار، لكن الرئيس الأسد لم يكن ليوافق عليه من دون أن يحصل على ما يريد: تفاهم جديد مع إسرائيل يوفّر اعترافاً عملياً بحزب الله، ويحقق أمن المناطق المدنية جنوب لبنان. وقبل أن يغادر أعضاء الوفد المكان، قرر الرئيس أن يطرح ورقته النهائية، وينتزع تنازلاً أخيراً يمثل شيئاً عزيزاً على قلبه. لهذا أثار موضوع الحصار البحري المفروض على لبنان، قائلاً إنه لن يقبل الاتفاقية ما لَمْ يُرفَع ذلك الحصار. وانتهت القصة! ومع أن المحادثات أنهكت الرئيس الأسد، فقد أصبح آنئذ فجأة مليئاً بالحيوية وهو يتكلم بالنيابة عن بحارة لبنان وصياديه، أفراد الطبقة العاملة الذين كان دائماً يتماهى معهم بدافع كونه ابن طبقة كادحة أكثر مما يتماهى مع قادة العالم وأصحاب الوزن الثقيل في عالم الشركات التجارية. لا حاجة إلى القول إن اقتراح اللحظة الأخيرة أثار غضباً شديداً في نفوس الوفد الأمريكي. نهض كريستوفر واقفاً، وزرَّر معطفه، ونظر إلى روس قائلاً: «دنيس، نحن سنغادر»[١٥]. من الواضح أن وزير الخارجية الأمريكي غضب لعملية ليّ الذراع التي تعرض لها مرة ثانية على يد الرئيس السوري. وما زاد الأمر سوءاً هو إدراكه مدى حاجته إلى السوريين لإتمام أية اتفاقية. لكن، بغضّ النظر عن قدر غضبه من مسألة رفع الحصار، لم يستطع إلا أن يوافق على رفع الحصار لإرضاء حافظ الأسد.

كنت أقوم بالترجمة، وفوجئت بسورة غضب كريستوفر. نظرت إلى الرئيس بحثاً عن إشارة تدلّ على ما يجب عليّ فعله أو قوله. انحنى نحوي وهمس بصوت منخفض قائلاً لي: «ابقي في مكانك. سيعودان». كانت لغته الجسدية هادئة تماماً ومنسجمة مع ما يقول، فيداه كانتا مستندتين إلى الأريكة الكبيرة الشرقية التي كان يجلس عليها، وعلى وجهه علائم الهدوء والاسترخاء. وحقاً، عاد كريستوفر وروس إلى الغرفة خلال دقائق، بعد أن رجعا إلى رشدهما، واستأنفا المحادثات، وكأن شيئاً لم يحدث. وقد أُعلِن «تفاهم نيسان» في وقت واحد في لبنان وإسرائيل يوم ٢٦ نيسان/ أبريل، وبدأ تنفيذه في الرابعة صباحاً يوم ٢٧ نيسان/ أبريل ١٩٩٦. وقد اشتمل على اقتراحات الرئيس الأسد جميعها، ولم يغفل منها شيئاً.

(١٥) المصدر نفسه.

ونص «تفاهم نيسان» هو التالي:

تفهم الولايات المتحدة، بعد مباحثات مع حكومتي إسرائيل ولبنان، وبالتشاور مع سورية، أن لبنان وإسرائيل يضمنان الآتي:

١ - ألا تنفذ الجماعات المسلحة في لبنان هجمات بصواريخ كاتيوشا أو بأي نوع من الأسلحة على إسرائيل.

٢ - ألا تطلق إسرائيل والمتعاونون معها النار بأي نوع من الأسلحة على مدنيين أو أهداف مدنية في لبنان.

٣ - إضافة إلى ذلك، يلتزم الطرفان ضمان ألا يكون المدنيون في أي حال من الأحوال هدفاً للهجوم، وألا تستخدم المناطق المأهولة بالمدنيين والمنشآت الصناعية والكهربائية مناطق لشن هجمات منها.

٤ - مع تفادي انتهاك هذا التفاهم، ليس هناك ما يمنع أي طرف من ممارسة حق الدفاع عن النفس.

وستشكل مجموعة مراقبة تضم الولايات المتحدة وفرنسا وسورية ولبنان وإسرائيل. وستكون مهمتها مراقبة تنفيذ التفاهم المنصوص عليه آنفاً. وستُقَدَّم الشكاوى إلى مجموعة المراقبة.

في حالة زعْم حدوث انتهاك للتفاهم، على الطرف صاحب الشكوى أن يتقدم بها في غضون ٢٤ ساعة. وتحدد مجموعة المراقبة إجراءات التعامل مع الشكاوى. كما ستنظم الولايات المتحدة أيضاً مجموعة استشارية تضم فرنسا والاتحاد الأوروبي وروسيا وأطرافاً مهتمة أخرى بهدف المساعدة على توفير احتياجات الإعمار في لبنان.

من المسلّم به أن التفاهم، بإنهائه الأزمة الراهنة بين لبنان وإسرائيل، لا يمكن أن يحل محل تسوية دائمة. والولايات المتحدة تدرك أهمية تحقيق سلام شامل في المنطقة.

لتحقيق هذه الغاية، تقترح الولايات المتحدة استئناف المفاوضات بين سورية وإسرائيل، وبين لبنان وإسرائيل، في موعد يتم الاتفاق عليه، بهدف التوصل إلى سلام شامل.

تدرك الولايات المتحدة أن من المرغوب فيه إجراء هذه المفاوضات في مناخ من الاستقرار والهدوء.

يعلن هذا التفاهم في وقت واحد في الساعة ١٨,٠٠، يوم ٢٦ نيسان/ أبريل ١٩٩٦ في كل الدول المعنية.

الوقت المحدد لسريانه هو الساعة ٤,٠٠ صباح يوم ٢٧ نيسان/ أبريل ١٩٩٦[١٦].

خاتمة

في مقالة نُشِرَت في **مجلة الدراسات الفلسطينية**، كتب باتريك سيل، كاتب سيرة حياة الرئيس الأسد: «اعتبر الأسد أن «عناقيد الغضب» موجهة ضده أساساً. ولم يخفق في فهم أنها إعادة - وإن كانت على نطاق أضيق جداً - لعملية «سلام الجليل»، وهي عملية غزو بيروت من قبل مناحيم بيغن في عام ١٩٨٢». ويضيف سيل أن الهدف النهائي للعملية «كان تقويض مكانة حافظ الأسد في لبنان ودق إسفين بينه وبين إيران»[١٧].

أما في واقع الأمر، فكان ما حدث هو العكس تماماً. كانت «عناقيد الغضب» و«تفاهم نيسان» منعطفين مهمين في تاريخ الدبلوماسية في الصراع العربي - الإسرائيلي، وحجر زاوية في السياسة الخارجية السورية. وقد حققا لسمعة الرئيس الأسد، رجل الدولة العالمي، ما حققته اتفاقيات كامب ديفيد لسمعة الرئيس كارتر. وإذا كان لها أي مفعول، فهو جَعْلها الأسد أقوى وأصلب وأكثر التزاماً من أي وقت مضى بقول «لا» للولايات المتحدة. وفي الواقع، برهنت محادثات «تفاهم نيسان» أنه، على خلاف ما يعتقده الجميع، لا تحصل الولايات المتحدة كل مرة على ما تريده في الشرق الأوسط. إن الأسطورة شيء، والواقع السياسي شيء آخر. وقد فرض الواقع السياسي الجديد بعد «تفاهم نيسان» أن حزب الله وُجِد حيث هو ليبقى، وأنه على نقيض ما سبق، يحظى الآن باعتراف دولي - ربما دون التصريح بذلك - من الولايات المتحدة وفرنسا التي كانت عضواً في لجنة المراقبة الخاصة بالتفاهم. وإضافة إلى كون الرئيس الأسد الرجل الذي «زجر» وارن كريستوفر، فقد برهن على أنه شخص يمكنه أن يعطي كلمته وأن يلتزم بها.

---

(١٦) أرشيف القصر الجمهوري السوري، تفاهم نيسان، ٢٧ نيسان/ أبريل ١٩٩٦.

(١٧) Patrick Seale and Linda Butler, «Asad's Regional Strategy and the Challenge from Netanyahu,» *Journal of Palestinian Studies*, vol. 26, no. 1 (Autumn 1996), pp. 27-41.

أما في ما يتعلق بالتزام حزب الله، فقد صمد «تفاهم نيسان» ١٢٠ شهراً، تماماً حتى تموز/ يوليو ٢٠٠٦، حين قرر إيهود أولمرت رئيس الوزراء الإسرائيلي الإجهاز عليه، وذلك بشن حرب لبنان الثانية في عام ٢٠٠٦. كان حافظ الأسد هو الذي جعل التفاهم يطبَّق عشر سنوات، مع أنه في ست من هذه السنوات لم يكن على قيد الحياة ليضمن ثباته. لقد أوجد نظاماً قابلاً للتطبيق وآلية مناسبة له استمرتا في البقاء أطول مما استمر هو.

الفصل التاسع

محادثات لاودر غير السرِّية

كان النصف الثاني من تسعينيات القرن العشرين فترة عصيبة للرئيس كلينتون، ولذلك مثّلت تحدياً لعملية السلام المحتضرة. ففي منتصف عام ١٩٩٥، كان كلينتون منهمكاً في الحملة الانتخابية، وانصب كل تركيزه على الاستحقاق الرئاسي في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٦. لم يبقَ لديه سوى وقت محدود لشؤون الشرق الأوسط، وكان معظم الكلام - مهما كان مكرراً - يصدر عن مساعديه، تحت إشراف وزير الخارجية وارن كريستوفر الذي كان في آخر أيام خدمته. في ما بعد، أعيد انتخاب كلينتون بنسبة ٤٩,٢ بالمئة من التصويت الشعبي، وهزم بذلك مرشح الحزب الجمهوري بوب دول والمرشح المستقل روس بيرو، وأدى القسم لولاية رئاسية ثانية تبدأ في كانون الثاني/ يناير ١٩٩٧. أصبح كلينتون أول ديمقراطي، منذ ليندون جونسون، يعاد انتخابه مرة ثانية في البيت الأبيض. واحتفل العرب الأمريكيون بإعادة انتخابه، وابتهج القادة في أرجاء الشرق الأوسط. لقد برهن كلينتون، منذ عام ١٩٩٣، على أنه شخص يستطيعون التعامل معه.

لكن الحياة لم تكن وردية إلى الدرجة التي بدت عليها، إذ إن الجمهوريين فازوا بالأغلبية في مجلسي الشيوخ والنواب كليهما، الأمر الذي سبب لكلينتون إزعاجاً حقيقياً مستمراً في ما يتعلق بالصراع العربي - الإسرائيلي. وما زاد الأمور سوءاً إلى حدّ بعيد تلك الفضيحة التي انفجرت في وجه كلينتون في أوائل عام ١٩٩٨: علاقته بمونيكا لوينسكي المتدربة في البيت الأبيض البالغة من العمر اثنين وعشرين عاماً يومها، وأثرت تلك القصة تأثيراً بالغاً في سمعته في الولايات المتحدة، وفي أرجاء الدول العربية والإسلامية.

ولن ينسى العالم كيف خاطب كلينتون الشعب الأمريكي في ٢٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٨، حين قال، وزوجته إلى جانبه: «أريد أن أقول شيئاً واحداً للشعب الأمريكي، وأريدكم أن تصغوا إليّ. سأقول هذا مرة ثانية: لم أُقم أية علاقة جنسية مع تلك المرأة،

الآنسة لوينسكي. ولم أطلب من أحد أن يكذب، ولا مرة واحدة، بتاتاً. هذه المزاعم باطلة، وأنا بحاجة إلى العودة إلى العمل لمصلحة الشعب الأمريكي. شكراً!»(١).

حينما أتفحّص أرشيف صحف التسعينيات وملاحظاتها، عليّ أن أتوقف للتعليق على هيلاري كلينتون، المرأة التي بعثت الثقة في نفوس أولئك الذين شاهدوها بصفتها السيدة الأولى للولايات المتحدة خلال الأشهر الصعبة من محنة زوجها. فقد وقفت هيلاري إلى جانب بيل كلينتون حتى أسدلت الستارة على قضية لوينسكي. وقد اشتهر عنها قولها حين كانت تتحدث إلى شبكة «إن. بي. سي». في ٢٧ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٨: «القصة الكبيرة هنا لأي شخص راغب في العثور عليها والكتابة عنها وتفسيرها هي المؤامرة الواسعة للجناح اليميني الذي تآمر على زوجي منذ يوم إعلانه [عن ترشحه] للرئاسة»(٢). ولمّا أصبحت هيلاري وزيرة للخارجية، توقفت عن استعمال كلمة «مؤامرة»، واستنكرت استعمال الفلسطينيين هذه الكلمة في تفسير تحيّز الولايات المتحدة إلى إسرائيل قبل عدوان عام ٢٠٠٨ على غزة. وألقت عليهم محاضرة رنانة حين ادعوا وجود «مؤامرة دولية» تعوق دعوتهم الأمم المتحدة إلى الاعتراف بهم دولة في أيلول/ سبتمبر ٢٠١١. وفي سورية، حين استعملنا كلمة «مؤامرة» لنحدد ما يحدث في بلادنا منذ منتصف آذار/ مارس ٢٠١١، أصرّت هيلاري كلينتون على إنكار وجود أية «مؤامرة» تحاك ضد الحكومة السورية. إن المؤامرات تحدث، ووجودها في السياسة أمر طبيعي؛ ينجح بعضها، ولكنه يفشل في تدمير الهدف، كما حدث في قضية لوينسكي، ويخفق بعضها الآخر، ويهمله التاريخ، ويعدّه دروساً يجب تعلّمها.

وعلى أية حال، نحن - المسؤولين السوريين - لم تثبط قضية لوينسكي عزيمتنا على الإطلاق ودَعَمنا بصلابة الرئيس كلينتون، الذي كنا نعدّه صديقاً. ولم تصدر عن وسائل إعلامنا أكثر من إشارة تعبّر عن الفضيحة، معتبرة أنها مسألة داخلية أمريكية لا علاقة لنا بها، لا من قريب ولا من بعيد. لقد كان ردّ فعلنا مختلفاً عن الطريقة التي عالجت بها وسائل عربية وغير عربية هذا الموضوع، وكثيراً ما أبدت الشماتة بالرئيس الأمريكي. أما الرئيس الأسد، فقد كان حريصاً جداً على تحاشي أي ذكر في اجتماعاته بالزائرين الأجانب لحياة الرئيس كلينتون الخاصة، مصرحاً دائماً أن حياة كلينتون ليست ضمن مشاغله. وفي ما يخصنا، ما كان يهمنا هو موقفه من حدود الرابع من حزيران/ يونيو

---

(١) «Clinton Accused,» *Washington Post*, 17/1/1998.

(٢) JoAnn Bren Guernsey, *Hillary Rodham Clinton: A New Kind of First Lady* (Minneapolis, MN: Lerner Publications, 1993), p. 83.

١٩٦٧ مع إسرائيل، وقدرته على إعادة هضبة الجولان كاملة إلى أصحابها الشرعيين. في إحدى المرات، وحين كان الرئيس الأسد يستقبل ضيوفاً أمريكيين في صيف عام ١٩٩٨، قال لزوّاره: «نحن نعتقد أن الرئيس كلينتون وقع ضحية مؤامرة [هي فضيحة لوينسكي] لأنه حاول إنجاز شيء ملموس ومنصف في الصراع العربي - الإسرائيلي».

بدا وكأن قضية لوينسكي لم تكن كافية لتشتيت انتباه كلينتون وإبعاده عن جهود صنع السلام في الشرق الأوسط، فأضيف إليها حدوث تغيير في القيادة في إسرائيل. وكما توقع كثير من المحللين، فإن شمعون بيريز، برغم تصريحه أنه ملتزم بالسلام، لم يكن أبداً ذا مؤهلات تكفي لجعله رئيس وزراء بالاختيار بدلاً من كونه رئيس وزراء بالمصادفة. كان في الأصل قد دعا إلى انتخابات مبكرة لكي تحصل حكومته على تفويض شعبي ليدفع عملية السلام مع السوريين والفلسطينيين إلى الأمام، لكنه أصبح هدفاً سهلاً لمعارضيه بسبب سلسلة من الحوادث، وهي بالتحديد تفجيرات داخل المدن والبلدات الإسرائيلية في يومي ٣ و٤ آذار/ مارس ١٩٩٦. فقد قُتِل في تلك الهجمات عدد من الإسرائيليين بلغ اثنين وثلاثين شخصاً، الأمر الذي جعل فوز بيريز شبه مستحيل. لكن مرشح الليكود بنيامين نتنياهو كان قوياً ومتمتعاً بالشعبية، بالرغم من أنه كان دخيلاً على أروقة السياسة الإسرائيلية. كان عمره لا يتجاوز السادسة والأربعين - مما جعله أصغر رئيس وزراء منذ عام ١٩٤٨ - في حين كان بيريز قد تجاوز الثالثة والسبعين من العمر، أي قد بلغ سنّ التقاعد. وقاد نتنياهو حملته وفاز بالمنصب في أيار/ مايو ١٩٩٦ معلناً أنه قادر أن يضع حداً للهجمات الفلسطينية ضد الإسرائيليين. كان شعار حملته الانتخابية: «نتنياهو - صنع سلام آمن».

قبل انتخابات أيار/ مايو ١٩٩٦، ذهب بيريز إلى واشنطن، حيث استقبل على السجاد الأحمر في البيت الأبيض. وكان الرئيس كلينتون راغباً في أن يبقى بيريز رئيساً للوزراء لأنه يجسد استمرار إرث رابين والالتزام الإسرائيلي الرسمي بالسلام مع سورية. وكان بقاء بيريز يعني بقاء أوسلو، أما سقوطه فكان يهدد بتدمير كل ما عمل كلينتون من أجله منذ انتخابه في عام ١٩٩٢. وبحسب قول دنيس روس: «سعى كلينتون - الذي حظي بمكانة بطل في إسرائيل منذ جنازة رابين - إلى نقل مصداقيته هو إلى بيريز، وبذلك «ينقذ» حزب العمل وعملية السلام»(٣). وأثناء لقاءات بيريز في واشنطن، طلب

(٣) Dennis Ross, *The Missing Peace: The Inside Story of the Fight for Middle East Peace* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2004), p. 256.

نقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس، قائلاً إن ذلك سيساعده على الفوز في الانتخابات. ودعم وارن كريستوفر الفكرة، لكن ساندي برغر، نائب مستشار الأمن القومي، رفض ذلك رفضاً قاطعاً، إنْ لَمْ يكن «ذا ضرورة حتمية» للانتخابات(٤). وقد أوحت السفارة الأمريكية في تل أبيب إلى حكومتها بطريقة ما أن بيريز سيربح في الكنيست، ولكن بنسبة ٥١ بالمئة فقط.

حين أصبح نتنياهو رئيساً للوزراء، فتح نيرانه فوراً على معاهدة أوسلو، مدعياً أن عرفات أُخذ أكثر مما ينبغي، ولم يُعطِ سوى القليل جداً في المقابل. وقال نتنياهو إن التنازلات لم تحقق سوى تقديم تشجيع إضافي إلى «العناصر المتطرفة مثل حماس والجهاد الإسلامي، لأنها أوحت أن الإرهاب يؤدي إلى مكاسب جيدة». وليبرهن نتنياهو على أنه شخص ذو مواقف متشدّدة، أطلق في ما بعد «لاءاته» الثلاث، التي قلّدت موقف العرب بعد حرب ١٩٦٧ وفيه: «لا سلام مع إسرائيل»، و«لا مفاوضات مع إسرائيل»، و«لا اعتراف بإسرائيل». وكانت «لاءات» نتنياهو هي: «لا انسحاب من مرتفعات الجولان»، و«لا تباحث بشأن القدس»، و«لا مفاوضات بشروط مسبقة». لكن هذا الموقف المعلن تلطّف تدريجياً إلى أن فُتحت نافذة جديدة للسلام عام ١٩٩٨.

• الدبلوماسية السرية

إن أحد «الأسرار» المثيرة للاهتمام في دبلوماسية الشرق الأوسط، والذي نجح الجميع في إبقائه طيّ الكتمان سنوات عديدة، هو قيام صديق نتنياهو رونالد لاودر، وهو رجل أعمال أمريكي بزيارة دمشق لعقد تسعة اجتماعات سرّية بالرئيس الأسد في صيف عام ١٩٩٨. لم يحضر هذه المحادثات سوى دائرة صغيرة من الأشخاص، ولم يعرف أحد بأمرها في سورية سوى وزير الخارجية فاروق الشرع، والسفير وليد المعلم، وبالطبع الرئيس الأسد وأنا. قيل لنا إن نتنياهو أنشأ هذه القناة الخلفية بعد سنة من توليه منصبه للتخفيف من ضغط الولايات المتحدة على حكومة تل أبيب. كان كلينتون غاضباً أشد الغضب، إذ لم يتمّ إحداث اختراقات في ما يخص السلام في الشرق الأوسط بسبب الضغينة المتبادلة بين نتنياهو وياسر عرفات. وإن لم يكن هناك جديد يتدفق في أنابيب الجبهة الفلسطينية، يمكن لنتنياهو على الأقل أن يبذل جهداً لمتابعة المحادثات السورية. وأخبر نتنياهو واشنطن أنه أكثر ميلاً إلى حافظ الأسد منه إلى عرفات. وبحسب قول

---

(٤) المصدر نفسه.

دنيس روس: «كان الأسد يتمتع بكل ما يفتقر عرفات إليه، فقد كان قائداً لدولة حقيقية لها جيش حقيقي... كان عدواً صلباً، لكنه يحافظ على عهوده»(٥).

ربما اعتقد نتنياهو أنه من الممكن عقد اتفاقية ما مع الأسد، وطلب من لاودر، الذي كان جديداً على دهاليز السياسة في الشرق الأوسط، أن يكون الوسيط. ولكن نفى رئيس الوزراء الإسرائيلي في السنوات اللاحقة، كلّ المزاعم حول تفويض لاودر بإجراء محادثات مع الأسد، مع أن هذا كان مخالفاً لما سمعناه من لاودر نفسه خلال وجوده في دمشق. وكان أحد هؤلاء العارفين وزير خارجية نتنياهو السابق إسحاق موردخاي، الذي نافسه في منتصف عام ١٩٩٩ على منصب رئيس الوزراء بقائمة مكوّنة من أحزاب الأقلية، فقد كان يعرف قصة لاودر جيداً. ففي مناظرة تلفزيونية في نيسان/ أبريل من ذلك العام، أعلن نتنياهو أنه لن يعطي الرئيس الأسد «ما كان إيهود باراك مستعداً لإعطائه لرئيس سورية». شعر موردخاي بالغضب من هذا التصريح، وتحدّى نتنياهو ببرود أن يكرر ما قاله لتوّه: «انظر في عيني، يا بيبي... انظر في عيني!»(٦). كان بالطبع يشير إلى زيارات رونالد لاودر إلى دمشق، وفهم نتنياهو ذلك فهماً كاملاً. ولم يكرر نتنياهو تصريحه السابق، خوفاً من أن يفشي موردخاي «أسراراً مكتومة» على مسمع الناخبين الإسرائيليين. وكان الذين أُطلِعوا على محادثات لاودر من الجانب الإسرائيلي أوزي أراد مستشار رئيس الوزراء، وسكرتير مجلس الوزراء داني نافه، وموردخاي، ومساعده ياكوف أميدرور، والسكرتير العسكري لرئيس الوزراء الجنرال شمعون شابيرا.

يدّعي دنيس روس في مذكّراته أن محادثات المسار الثاني كانت وليدة أفكار لاودر نفسه، الذي طرح الفكرة على السفير المعلم في واشنطن. وقد طلب لاودر «قناة خاصة وسرية مع الرئيس الأسد»، وقال إن «بيبي» هو الذي أرسله إلى السفير وليد المعلم(٧). وأضاف أن هذه المحادثات ستكون مكثفة جداً وبعيدة جداً عن أيّ صفة رسمية. وبحسب قول مارتن إنديك: «اشترط بيبي ألا يقوم أي من الطرفين بإعلام الرئيس كلينتون»(٨).

---

(٥) «The Syria Temptation and why President Obama Must Resist it,» *Wall Street Journal*, 6/3/2009.

(٦) Daniel Pipes, «The Road to Damascus: What Netanyahu Almost Gave Away,» *New Republic* (5 July 1999).

و«بيبي Bibi» هو اسم شائع يدعى به نتنياهو.

(٧) Ross, *The Missing Peace: The Inside Story of the Fight for Middle East Peace*, pp. 510-511.

(٨) Martin Indyk, *Innocent Abroad: An Intimate Account of American Peace Diplomacy in the Middle East* (New York: Simon and Schuster, 2009), p. 246.

وبعد الحصول على موافقة مبدئية من السفارة السورية، بتفويض على أعلى مستوى من الرئيس الأسد في دمشق، وافق فريق كلينتون أيضاً على المحادثات، الأمر الذي يلقي ظلاً من الشك على قول إنديك. وقال روس في مذكّراته: «لم يكن لدينا أي مانع في أن يتوصلوا إلى شيء خاص بهم، إن استطاعوا»[٩].

ولم تتحمّس وزيرة خارجية كلينتون الجديدة مادلين أولبرايت لزيارة لاودر، «على أساس حساسية» المسار السوري، وكذلك لم يتحمس ساندي برغر لها. وطلب كلاهما أن «يشارك روس في أحد الاجتماعات»، ثم يخبرهم «إن كان هذا حقيقياً أم لا». وفي دمشق، كنا واثقين أن أمراً بهذه الأهمية لن يمر في واشنطن من دون موافقة مباشرة من كلينتون نفسه. كان رونالد لاودر رجلاً مليئاً بالحيوية والحياة وروح النكتة، لكن معرفته بالشرق الأوسط كانت ضئيلة جداً، ومعرفته بسورية شبه معدومة. ومع ذلك أوجد دفء شخصيته تفاعلاً إيجابياً فورياً بين الرئيس الأسد وبينه، وهذا ما شهدته شخصياً، حيث شاركتُ بكلّ محادثاته في القصر الجمهوري في دمشق. فقد انسجمنا معاً إلى حدّ أنه عرض عليّ مازحاً وظيفة مديرة مكتبه. وقبل بضع سنوات، أدرجت مجلة **فوربس** الأمريكية اسمه واحداً من أغنى أغنياء العالم، مقدرة ثروته بثلاثة مليارات دولار أمريكي. وما عرفناه عنه في أواخر تسعينيات القرن العشرين هو أنه ابن مؤسِّسة شركات «إيستي لاودر» للمستحضرات التجميلية ذات الاسم التجاري المعروف عالمياً. وقد تلقى تعليمه في باريس وبروكسل، وأمضى سنوات في أعمال عائلته قبل أن يعينه رونالد ريغان سفيراً للولايات المتحدة في النمسا في عامي ١٩٨٦ و١٩٨٧. ولاودر هو أحد أعضاء الحزب الجمهوري الأوفياء، كما أنه مليونير لامع، ومن اليهود الأمريكيين ذوي الوزن الثقيل، وقد رشح نفسه لمنصب عمدة مدينة نيويورك عام ١٩٨٩، لكنه خسر لمصلحة الجمهوري رودي غيلياني في الانتخابات الأولية. وبحسب ما ذكر السفير المعلم لنا، كان نتنياهو يصغي إلى ما يقوله لاودر، ومن المؤكد أن تحملَ جهودُه في الوساطة شيئاً جديداً وريادياً من جانب الإسرائيليين.

وصل لاودر إلى دمشق في السابع من آب/ أغسطس ١٩٩٨، وحدّدت له مقابلة مع الرئيس الأسد في صباح اليوم التالي. وقد انضم إلى رجل الأعمال القادم من نيويورك مساعده ألن روث، وجورج نادر، رئيس تحرير مجلة **النظرة الثاقبة إلى الشرق الأوسط** الصادرة في واشنطن ورئيس مجلس إدارتها. وقد كسر لاودر الجمود بعد دخوله الغرفة

---

(٩) Ross, Ibid., p. 510.

بقوله: «سورية بلد جميل جداً. إن أسلافي يتحدرون من حلب قبل ١٢٠٠ عام!»(١٠). استقبله الرئيس الأسد بالطريقة المعتادة، قائلاً إنه يستطيع دائماً أن يعدّ هذا البلد وطناً له، ثم أشار إلى أن «المحادثات السابقة كلها كانت شديدة التعقيد، ونتجت منها أوراق كثيرة،» معرباً عن أمله في أن يكون لاودر قد أحضر معه شيئاً «مختلفاً» من رئيس الوزراء نتنياهو.

أجاب لاودر: «خلافاً لما يمكن أن تعتقد، يستطيع نتنياهو أن يعقد سلاماً، ولديه اهتمام بالسلام مع سورية»(١١).

ابتسم الأسد - لقد سبق أن سمع هذا مرات كثيرة عن شامير ورابين وبيريز، والآن نتنياهو. قال: «إن كلينتون صادق بشأن السلام، لكن هناك أشخاصاً حوله لا يريدون حدوث اختراقات في الشرق الأوسط»(١٢).

برزت روح النكتة لدى لاودر وقهقه قائلاً: «بالطبع، إنهم ديمقراطيون، يا سيادة الرئيس، ولا يمكنهم إنجاز السلام. الجمهوريون وحدهم يمكن أن يصنعوا السلام، يا سيادة الرئيس»(١٣).

فوجئ الأسد بهذا المزاح غير المعتاد، الذي كان غريباً على مفاوضات السلام الشاقة، وأشار بلطف: «جمهوريون أو ديمقراطيون: لا فرق في نظرنا. إننا نحكم على الأشخاص بأعمالهم وأفعالهم، وليس بارتباطاتهم السياسية».

وبعدئذ شرح الرئيس ما أنجزته سورية أثناء ولاية كلينتون الأولى، لكن لاودر قاطعه قائلاً: «أرجوكم يا سيادة الرئيس، أتوسل إليك ألا تقارنني بوارن كريستوفر. ما الذي فعلتُه كي تقارنني به؟»(١٤). ضحكنا جميعاً. لقد كان من الواضح أن هذه الجولة من محادثات السلام ستكون مختلفة عن كلّ ما سبقها.

قال لاودر إن الإسرائيليين مستعدون للانسحاب «من الأراضي السورية جميعها»، من دون أن يخصص حدود الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧(١٥). وشرح الأسد ما

(١٠) أرشيف القصر الجمهوري السوري، المحضر السرّي لمحادثات الأسد - لاودر، ٧ آب/ أغسطس ١٩٩٨.
(١١) المصدر نفسه.
(١٢) المصدر نفسه.
(١٣) المصدر نفسه.
(١٤) المصدر نفسه.
(١٥) المصدر نفسه.

هو بَيّن، فقد حدد مرة أخرى الفارق بين حدود ١٩٢٣ الدولية وحدود ١٩٦٧. ومن الواضح أن لاودر لم يفهم السبب في أن السوريين يثيرون هذه الضجة حول الفرق بين خطي الحدود، باعتبار أن خط ١٩٦٧ لا يعطي سورية سوى ثلاثين كيلومتراً مربعاً إضافياً من الأرض. فقد أخفق في إدراك أن الأرض مقدسة لحافظ الأسد. كما لم تكن الأميال الإضافية من الناحيتين العسكرية والسياسية معاً، ذات أهمية رمزية فحسب، بل إنها تتيح لسورية الوصول إلى مياه بانياس واليرموك والأردن، إضافة إلى بحيرة طبريا، التي تمثل نصف مورد إسرائيل المائي. أضاف الرئيس: «هذه أرضنا. لا يمكنكم فرض شروط، ثم الإيحاء أن إسرائيل قدمت تنازلاً. أريد أن أذكّرك يا سيد لاودر بأن الجولان سورية وليست إسرائيلية»[١٦].

تكلّم لاودر بعد ذلك على انسحاب إسرائيل من لبنان قائلاً إن هذا سيبدأ نظرياً قبل ثلاثة أشهر من انسحاب الجيش الإسرائيلي من الجولان. وكان يريد، في المقابل، إلزام الأسد بنزع سلاح حزب الله، ومنع أية هجمات من جنوب لبنان[١٧]. كان واضحاً أن لاودر متحمس جداً، وأنه أراد أن يقفز عشر خطوات أكثر من أسلافه الأمريكيين جميعاً، فقد قال: «يمكننا الاتفاق على إعلان مبادئ خلال أسبوع، ولا بد من أن هذا سهل. ثم يمكن أن تذهبوا أنتم ونتنياهو إلى واشنطن لتوقيع الإعلان في البيت الأبيض. وبعد أن يتم هذا، يمكننا الاتفاق على التفاصيل كلّها»[١٨].

قال الأسد بحزم شديد: «انظر إلى ما فعلوه بعرفات»، مذكّراً لاودر أن عرفات وقع اتفاقية مع الأمريكيين والإسرائيليين، لكنها ما زالت بعد مرور خمس سنوات مجرد واقع بعيد المنال في ما يخصّ الدولة الفلسطينية: «إذا كنتم تريدون تحقيق السلام، لِمَ لا نجلس ونبحث ما هو مهم للانسحاب والأطر الزمنية؟ لِمَ نقصر المباحثة على إعلان مبادئ ولا نبحث اتفاقية سلام»[١٩].

شعر الأسد، بالطبع، أن لاودر يسعى إلى عرض مسرحي ضخم، وليس إلى سلام مستدام بين سورية وإسرائيل. لم يكن لاودر يحاول التذاكي أو خديعة السوريين، وإنما كانت معرفته بعملية السلام ضئيلة جداً، كما لم تكن لديه معرفة بسورية إطلاقاً. وكان

---

(١٦) المصدر نفسه.
(١٧) المصدر نفسه.
(١٨) المصدر نفسه.
(١٩) المصدر نفسه.

الأسد، بخبرته الاستراتيجية، قلقاً حول طريقة حكم أجيال المستقبل على أي سلام سوري - إسرائيلي يحمل اسمه، في حين كان لاودر يسعى فقط إلى مناسبة تاريخية لالتقاط الصور التي تجمع حافظ الأسد وبنيامين نتنياهو وبيل كلينتون في حديقة البيت الأبيض بعيداً عن تفاصيل الحدود والحقوق والأرض. قال الأسد بلطف لضيفه الأمريكي محاولاً أن يكون لبقاً: «ليس الأمر بالسهولة التي يبدو عليها». طلب الأسد محاضر المحادثات السابقة مع الأمريكيين منذ تولى كلينتون منصبه وسلّمها للاودر، طالباً منه أن يقرأها بإمعان قبل عقد جولة ثانية من المحادثات بينهما حدد موعدها بتاريخ ١١ آب/ أغسطس.

حين دخل لاودر لعقد اجتماعه الثاني، وهو يحمل معه أكوام الورق، نظر إلى الرئيس، وقال متذمراً: «لقد ثبت لي أن هذه الأوراق أفضل من الحبوب المنومة. حاولت قراءتها لكن النوم غلبني. إنها مضجرة للغاية!»[٢٠]. ضحكنا جميعاً، وكم كان محقاً. والتفكير بأننا سرنا في هذه العملية على مدى ثماني سنوات طويلة من دون إنجاز أي شيء ذي دلالة كبيرة على عملية السلام.

بدأ الرئيس الأسد الاجتماع، مخاطباً لاودر بالقول: «الآن وقد قرأتها لنتكلم على الأمن؛ الأمن لكلا الطرفين. أريد أن أكون منصفاً، وأريدك أن تكون أنت منصفاً أيضاً!»،[٢١] ثم أضاف: «كل خطوة من قبل الإسرائيليين ستُقَابل بخطوة من طرفنا، وتنفّذ بنسب متساوية. أنا مستعد للتخلي عن كل الأسلحة الموجودة لدى سورية، إن تخلى نتنياهو عن ثلث الأسلحة الموجودة لدى إسرائيل»[٢٢].

كان الإسرائيليون، بالطبع، يكرهون فكرة التبادل، بحجة أن رقعة إسرائيل أصغر جداً من مساحة سورية، ولذلك فإن المناطق المنزوعة السلاح لا يمكن أن تكون متساوية في المساحة في أراضي الدولتين. ولم يكن هذا شيئاً جديداً، فقد سبق أن سمعنا هذه الحجة من كل من جيمس بيكر ووارن كريستوفر.

لتسهيل عملية السلام، وافق الأسد على شرطين جديدين، ولكن بعد أن يلتزم نتنياهو بالانسحاب حتى خط الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧، وليس إلى حدود ١٩٢٣: الشرط **الأول** هو استعداد سورية لقبول حضور أمريكي في محطات إنذار مبكر.

---

(٢٠) المصدر نفسه.
(٢١) المصدر نفسه.
(٢٢) المصدر نفسه.

قال الأسد: «أنا شخصياً لا أريد محطة إنذار داخل إسرائيل، وأفضل ألا توجد محطة إسرائيلية داخل سورية»[٢٣]. أمّا إن كان ذلك يسعد الولايات المتحدة، ويجعل إسرائيل تشعر بالأمن، فلا مانع لديه من النظر في ذلك. والشرط **الثاني** هو جدول زمني موسع للانسحاب الإسرائيلي. وحين أتى كلينتون إلى دمشق عام ١٩٩٤، وافق الأسد على بضعة شهور إضافية لانسحاب الإسرائيليين.

كان لاودر مكتفياً بالإصغاء ونقل الرسائل الإسرائيلية، قائلاً لنا باستمرار: «لست مخوّلاً باتخاذ قرارات، وأنا هنا فقط لأنقل رسائل من نتنياهو». وهذا أعطاه فعلاً ميزة في المحادثات، إذ لم يكن مطلوباً منه أن يستوعب أي شيء؛ كل ما كان عليه فعله هو إبلاغنا ما قاله له الإسرائيليون. ولكن حين طرح الأسد شرطيه الجديدين، عرف لاودر أنه استمع إلى شيء ذي قيمة، وطلب أن يحمل المسألة إلى نتنياهو مباشرة. وقد غادر سورية عصر ذلك اليوم وتوجه إلى إسرائيل عبر الأردن لإجراء محادثات مع رئيس وزرائها. وقبل أن يغادر قال مازحاً: «سأعود وأراكم حين عودتي. من المؤكد أنه ليس لديكم ما يشغلكم سوانا، أليس كذلك، يا سيادة الرئيس؟»[٢٤].

ضحك الأسد لدى سماع هذا، وقال: «يبدو لي وكأنه لا شغل لي سوى الأمريكيين هذه الأيام! هذا بالضبط ما يحدث لي. ليس لدي شيء آخر!».

قبل أن يخرج، نظر لاودر إلى الأسد وأضاف: «بالمناسبة، يا سيادة الرئيس، هل أخبركم أحد أنكم أقل صعوبة من نتنياهو؟ لقد رأيتكم تبتسمون وتضحكون مرات عديدة خلال يومين، لكنني لم أرَ نتنياهو يضحك سوى مرة واحدة، حين فاز بالانتخابات الأخيرة»[٢٥].

أعجبت النكتة الأسد فقال: «هذا يعني أنه لا يضحك سوى مرة كل أربع سنوات!».

ثم قال لاودر: «إن لم ينجح هذا، سيكون الذنب ذنب بيبي، وليس ذنبكم!».

حين عاد لاودر إلى سورية، علق على مدى رحابة القصر الجمهوري، وسأل الأسد: «هل لديكم قاعات أكبر من هذه؟ إنها واسعة وتصلح لرياضة الصباح»[٢٦].

---

(٢٣) المصدر نفسه.
(٢٤) المصدر نفسه.
(٢٥) المصدر نفسه.
(٢٦) المصدر نفسه.

ابتسم الأسد قائلاً: «نعم، كلما توفر لديّ وقت بين اجتماعين، أسير ذهاباً وإياباً. فهذا يتيح لي تمريناً جيداً في المشي». ثم سأل لاودر: «كم عُمر البيت الأبيض؟».

أشرق وجه لاودر، وأجاب: «لقد بُني عام ١٨١٤. وهذا يعني أن عمره ١٨٤ عاماً. لكنني لست ديمقراطياً، لذلك لم أنم فيه قط!»[٢٧].

كرّر الأسد ما قاله سابقاً: «لا أريد أن أدخل بين الديمقراطيين والجمهوريين. ما يهمني هو المبادئ. هناك أشخاص طيّبون وأشخاص سيئون في كلا الحزبين الديمقراطي والجمهوري».

انفجر لاودر ضاحكاً: «لا، يا سيادة الرئيس. كل الأشخاص الطيبين هم جمهوريون حتماً!»[٢٨].

أحضر لاودر معه وثيقة من عشر نقاط بعنوان «معاهدة سلام بين إسرائيل وسورية»، اشترك هو ونتنياهو في وضعها في إسرائيل. احتوت الوثيقة مقدمة قصيرة تقول إن «سورية وإسرائيل قررتا إحلال السلام المبني على «الأمن والمساواة واحترام كل منهما سيادة الأخرى وسلامة أراضيها واستقلالها السياسي». حاول لاودر، من دون أن يحقق نجاحاً يذكر، وضع كلمة «المقارنة» أو «التشابه» بدلاً من «المساواة»، لكننا رفضنا ذلك بحزم، بحجة أنه لا وجود لمثل هذه الكلمة في قاموس عملية السلام. وقال الأسد: «إن الشعب السوري لن يقبل بها أبداً، لأنها لا تخدم مصالح أحد سوى إسرائيل».

نصّت المادة الأولى في الوثيقة على «إنهاء حالة الحرب» حين توقيع معاهدة السلام السورية - الإسرائيلية. وبيّنت المادة الثانية أن إسرائيل ستنسحب من الأراضي السورية إلى حدود الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧. ولكن حين قدم لاودر هذه الوثيقة إلى كلينتون، عدّل «لاودر» قليلاً ما جاء في المادة الثانية، وجعله «إلى حدود متفق عليها من الجميع على أساس الخط الدولي لعام ١٩٢٣». وذكرت المادة الثالثة أن الانسحاب سيتم على ثلاث مراحل، بناء على إطار الأسد الزمني البالغ ثمانية عشر شهراً. وجاء في المادة الرابعة أن «لبنان سيوقع، بالتزامن مع الصفقة الإسرائيلية - السورية، اتفاقية مع إسرائيل، وسيبذل السوريون قصارى جهودهم لضمان تفادي انطلاق أية نشاطات شبه عسكرية أو عدائية ضد إسرائيل من لبنان. وسيكون انتشار القوات محدوداً في ثلاث

---

(٢٧) المصدر نفسه.

(٢٨) المصدر نفسه.

مناطق: منطقة منزوعة السلاح، وأخرى محدودة السلاح، ومنطقة خالية من «الأسلحة الهجومية». وأراد الأسد أن يكون عرض هذه المناطق أقل من عشرة كيلومترات. أخيراً، تبقى محطة الإنذار المبكر والمراقبة في الجولان، على أن يديرها فريق متعدد الجنسيات: أمريكي، وفرنسي، وسوري. وإضافة إلى ذلك، ستقام «علاقات طبيعية» بعد التوقيع على الاتفاقية، و«ستعالج حقوق المياه على أساس القوانين الدولية». وسيشتمل التطبيع على تبادل السفراء مع بدء الانسحاب والتطبيع الكامل حين نهايته. وافق الأسد على كلّ ما ورد آنفاً، مشترطاً أن يتوجه لاودر إلى إسرائيل، ثم يعود منها ومعه خريطة موقّعة من نتنياهو تظهر بدقة خط الحدود الذي سينطبق على السلام السوري - الإسرائيلي. وإن لم يستطع تقديم وثيقة كهذه، حينئذ يكون كل ما جرى الاتفاق عليه «لاغياً وباطلاً». عند هذه النقطة، دخلت مهمة لاودر في حالة بالغة من الارتباك. فقد كان يعرف أن نتنياهو لن يلتزم أبداً بحدود عام ١٩٦٧، وأن الأسد سيرفض لقاء لاودر مرة أخرى إن لم تظهر الخريطة المطلوبة. ويحسب قول مارتن إنديك، «خطرت لرئيس الوزراء الإسرائيلي فكرة أن يرسم خطاً عريضاً على خريطة صغيرة لترك مجال للمفاوضات حول الموقع الدقيق للحدود»[٢٩].

ولكن كان متعذراً ذلك من دون مشاركة الجيش الإسرائيلي، فقد كانت خريطة كهذه تتطلب موافقة وزير الدفاع موردخاي، الذي لم يكن سيقبل أبداً بتلك الخطة الواهية من نتنياهو؛ فهي في رأي موردخاي ستجعل إسرائيل تبدو ضعيفة وسخيفة في أعين السوريين والأمريكيين. اعترض موردخاي على تلك الفكرة، وأيد اعتراضَه وزير الخارجية آرييل شارون. ولو أن نتنياهو مضى قدماً بتلك الخريطة المتلاعب بها، لكان من المحتمل أن تسبب سقوط حكومته بأكملها. بعد سنوات كتب صحفي في صحيفة هآرتس الإسرائيلية أن شارون «أخبر زملاءه من أعضاء الليكود أنه نسف خطط الطرف الثالث مع سورية»، مضيفاً أن شارون حين علم بمحادثات لاودر جابه نتنياهو قائلاً إنه لا يوجد «أساس كافٍ لإسرائيل كي تقدَم أية خريطة انسحاب»[٣٠]. وانهارت محادثات لاودر، إذ لم يتمّ تقديم أية خريطة.

حين عاد لاودر إلى الولايات المتحدة، أخبر الدبلوماسيين الأمريكيين أن الأسد أظهر مرونة «في ما يخصّ الحدود والتدابير الأمنية، ومحطات المراقبة والإنذار

---

(٢٩) Indyk, *Innocent Abroad: An Intimate Account of American Peace Diplomacy in the Middle East,* p. 459.

(٣٠) Pipes, «The Road to Damascus: What Netanyahu Almost Gave Away».

المبكر»[٣١]. لكن روس لم يصدق ذلك تماماً: «أخرجتُ خريطة وطلبتُ منه [أي من لاودر] أن يريني المرونة في موضوع الحدود، وأشار إليّ أن الأسد مستعد لرسم الحدود محاذية لبحيرة طبرية ولنهر الأردن. ثانياً، سألته عن معنى «التوصل أساساً إلى اتفاق؟». وكان جوابه أن ٩٩ بالمئة مما سيريه للرئيس [كلينتون] متفق عليه [مع الأسد]. هل كانت الواحد بالمئة تعني خلافاً حول أي من الأمور الجوهرية، أي تعريف الحدود، ومفهوم الاتفاقيات الأمنية، بما فيها الإنذار المبكر، ومحتوى السلام، وتوقيت تنفيذ كل شيء؟. كان لاودر يعتقد أنه لا وجود لأيّ خلاف هنا»[٣٢].

اعتقد فريق كلينتون أن وثيقة لاودر «كانت جيدة جداً، بحيث يصعب تصديق أنها حقيقية». وساورهم الشك في أن يكون الأسد قد وافق على حدود ١٩٢٣، انطلاقاً من تصميمه، في كل اجتماع بلا استثناء منذ عام ١٩٩٠، على التقيد بحدود ١٩٦٧[٣٣]. سأل روس: «هل ظننتُ أن لاودر يكذب؟... كلا، فهو صادق، وأعتقد أنه مؤمن بالكثير مما يقوله. لكنني أخشى أنه ليس دقيقاً، وما يعدُّه اختلافات ثانوية ليس ثانوياً إلى تلك الدرجة. وإضافة إلى ذلك، أعتقد أن بعض الأفكار هنا ليست سوى أماني. أين تكمن شكوكي الكبرى؟ كنت أعرف أن خط عام ١٩٢٣ هو شيء لا يمكن أن يجد القبول لدى الأسد، ففي نظر الأسد، كانت تلك حدود الاستعمار، وهو لن يقبل بها ضمن وثيقة أبداً. كما كان لديّ شك قوي جداً في أن يقر الأسد - وشك أكبر في أن يقبل - بوجود إسرائيلي في محطات الإنذار المبكر فوق هضبة الجولان بعد الانسحاب الإسرائيلي»[٣٤].

كان دنيس روس يعرف الرئيس السوري جيداً، ومن الواضح أن تلك المعرفة لم تتوفر لرونالد لاودر.

دُفِنَت محادثات لاودر، مثل كلّ المحادثات التي سبقتها - في زمانها ومكانها - على الفور بعد انهيارها في خريف عام ١٩٩٨. وبعد ثلاث سنوات، نشرت الصحيفة الإسرائيلية **يديعوت أحرونوت** صورة فوتوغرافية لمسودة لاودر التي تحمل عنوان «معاهدة سلام بين إسرائيل وسورية»، وذلك في ١٣ نيسان/ أبريل ٢٠٠١[٣٥].

---

(٣١) Ross, *The Missing Peace: The Inside Story of the Fight for Middle East Peace*, p. 511.

(٣٢) المصدر نفسه.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٥١٢.

(٣٤) المصدر نفسه.

(٣٥) «معاهدة سلام بين إسرائيل وسورية،» **يديعوت أحرنوت**، ١٣/ ٤/ ٢٠٠١.

وتظهر الصورة بوضوح أن لاودر اقترح في المادة الثانية «انسحاباً إسرائيلياً من الأرض السورية التي تم الاستيلاء عليها عام ١٩٦٧، وفقاً لقراري مجلس الأمن الدولي الرقمين (٢٤٢) و(٣٣٨)». وقالت الصحيفة إن ذلك الوسيط الأمريكي قدم الوثيقة إلى الرئيس كلينتون في ١٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٨. وبعد سنوات، في حزيران/ يونيو ٢٠٠٤، تكلم لاودر مع صحيفة هآرتس عن «التسريب»، قائلاً إن الآراء الواردة في الوثيقة كانت آراءه الشخصية - مكرراً ما قاله للرئيس كلينتون في أواخر عام ١٩٩٨ - وأضاف أن نتنياهو رفض الاقتراح رفضاً قاطعاً لأنه أراد حدوداً تعطي إسرائيل أكثر من حدود عام ١٩٢٣ أو خطوط الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧»[٣٦].

وحين ألتفتُ إلى الماضي، أعتقد أن لاودر كان محقاً في هذه النقطة الأخيرة. وصحيح أن نتنياهو لم يرد الالتزام بحدود ١٩٦٧، فلم يكذب لاودر، وكان صادقاً في قوله، بل كان يقول الحقيقة، والحقيقة كاملة، ولا شيء غير الحقيقة، في ما يتعلق بالمسؤولين الإسرائيليين.

---

(٣٦) Pipes, «The Road to Damascus: What Netanyahu Almost Gave Away».

الفصل العاشر

كارثة شبردستاون

حين أصبحت محادثات لاودر الخائبة وراء ظهورنا، أوقفنا محادثات السلام في انتظار أن نرى هل يبقى نتنياهو رئيساً لوزراء إسرائيل بعد انتخابات ١٩٩٩؟ كانت فرصه ضئيلة، حتى وفق شهادة أقرب مساعديه، وكنا مسرورين، نظراً إلى قسوته البالغة مع الفلسطينيين ونفاقه في التعامل مع سورية. وقد بدأ اليسار الإسرائيلي ينتقد نتنياهو علناً لمحادثاته مع رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات - التي بالمناسبة لم تحقق أي شيء للفلسطينيين - وكان ساسة حزب العمل يعملون ليلاً ونهاراً لإسقاطه وإحلال مرشحهم إيهود باراك محله. ثمّ إنّ الإسرائيليين العاديين تخلّوا عن نتنياهو نتيجة سلسلة طويلة من الفضائح، التي جعلت الشرطة الإسرائيلية توصي بمحاكمته بتهمة الفساد، بسبب خدمات كان قد تلقاها مجاناً من مقاول متعاقد مع الدولة بلغت قيمتها ١٠٠ ألف دولار.

لذلك لم تكن خسارة بنيامين نتنياهو الانتخابات، وحلول باراك مكانه، مفاجأتين. لقد شغل باراك عام ١٩٩٥ منصب وزير الداخلية في حكومة إسحاق رابين، ثم أصبح وزيراً للخارجية في حكومة بيريز، وبعدئذ حلّ مكانه قائداً لحزب العمل، بعد خسارة بيريز في انتخابات ١٩٩٦. وكما ورد ذكره آنفاً، شارك باراك مدة قصيرة في المحادثات السورية - الإسرائيلية، حين قابل رئيس الأركان حكمت الشهابي في بلير هاوس. كان باراك - وهو أصغر رئيس للوزراء في تاريخ إسرائيل - مثل معلمه ومرشده إسحاق رابين ضابطاً في الجيش الإسرائيلي تقلّد عدداً من الأوسمة، لكثرة تلطّخ يديه بالدماء الفلسطينية.

وفي الواقع، وصفته مادلين أولبرايت بأنه «الجندي الذي نال أكبر عدد من الأوسمة في تاريخ أمته». ولمّا كان باراك هزم نتنياهو بفارق كبير، فقد أتى إلى السلطة من موقع قوة، وقرر تشكيل حكومة ائتلاف مع حزب شاس الأصولي المتطرف، الذي ربح سبعة عشر مقعداً من مقاعد الكنيست المئة والعشرين، وهو عدد غير مسبوق لذلك الحزب. وكان هذا مصدر قلق شديد لنا في دمشق، بسبب مواقف شاس المناهضة للسلام مع

العرب، وخصوصاً مع سورية (تَرَكَ الحزبُ الائتلافَ في ما بعد حين لم يتمكّن من التوافق مع باراك على مدى صلاحيات نائب وزير التعليم الذي يمثل الحزب في الوزارة الإسرائيلية الجديدة). وأقل ما يقال في اختيار باراك حلفاءه هو أنه كان استفزازياً للغاية، وغطى تماماً على وعده في حملته الانتخابية بإنهاء اثنين وعشرين عاماً من احتلال جنوب لبنان، وإعطاء قوة دفع جديدة لمحادثات السلام مع السوريين. لكن أولبرايت لم تحاول إخفاء سرورها بانتخاب باراك، قائلة إن المكتب البيضاوي ووزارة الخارجية الأمريكية «تلقيا الخبر بالابتسامات». وهي تدّعي أنها حين قابلت باراك أول مرة في عام ١٩٩٧، وكان وقتئذ قائد المعارضة الإسرائيلية، أَمِلَت في أن يصبح يوماً ما رئيس وزراء إسرائيل.

لذلك لم يكن أمامنا سوى خيار التعامل مع إيهود باراك، بعد أن تلقينا تأكيدات كنا بحاجة شديدة إليها من إدارة كلينتون بأنه سيتقيّد بوديعة رابين، وكل ما تم الاتفاق عليه منذ مدريد. ووافق باراك على استئناف المحادثات مع السوريين، مشترطاً أن تكون هذه المحادثات «مكثفة»، و«على مستوى عالٍ». وأضاف أن هناك ضرورة قاطعة لحجبها عن التغطية الإعلامية ليحمي نفسه من المتشدّدين الإسرائيليين. وقد أعطيناه تأكيدات بهذا المعنى، فنحن لم نسرّب أي شيء عن محادثاتنا إلى وسائل الإعلام، حتى ولا محادثات لاودر، التي كان من الممكن أن تعمل لمصلحتنا ضد نتنياهو. كان الرئيس الأسد رجلاً يحافظ على كلمته، وحين وعد ألّا تحدث أية تسريبات، فهذا يعني أن سورية لن تجيز أية تسريبات. ولكن لا يمكن تحميلنا مسؤولية ما شقّ طريقه إلى الصحافة القائمة في الولايات المتحدة وإسرائيل. طلب باراك صفقة تعادل ٢٣ مليار دولار تعويضاً عن الانسحاب من الجولان، ومذكّرة تفاهم ترفع مركز إسرائيل إلى «حليف استراتيجي» للولايات المتحدة.

أمّا في السرّ، فقد كان باراك يشعر بالرعب من فكرة التخلّي عن الأراضي المحتلة، مدركاً أن إسرائيل تعتمد على بحيرة طبريا لتزويدها بـ ٤٠ بالمئة من احتياجاتها من الماء العذب. وكان يريد الاحتفاظ بما يكفي من الأرض لضمان سيطرة إسرائيل على تلك المياه. ومن أجل تحقيق ذلك، كان بحاجة إلى عرقلة أي اختراق مع السوريين أطول مدة ممكنة. ومع أن باراك انتقد نتنياهو لاعتماده المفرط على الأمريكيين في محادثات السلام مع الفلسطينيين ومعنا، فقد أقدم في نهاية المطاف على فعل ما سبق فِعْلُه تماماً من قبل، إذ طلب أن تكون أية محادثات مع سورية تحت رعاية أمريكية. لكنه كان قلقاً من

أن الأمريكيين بدأوا «يميلون» إلى العرب، وأنهم بعد سنوات من المحادثات ذهاباً وإياباً في دمشق وغزة ورام الله، أخذوا يتعاطفون مع مطالبنا المحقّة. وأراد من الأمريكيين أن يركّزوا بشدة على احتياجاته هو، واحتياجاته وحدها، وليس على احتياجات السوريين والفلسطينيين.

أولاً: دبلوماسية الصحف

في حزيران/ يونيو ١٩٩٩، زار الصحفي البريطاني المخضرم الراحل باتريك سيل سورية وإسرائيل بعد زمن قصير من الانتخابات الإسرائيلية. كان سيل صديقاً قديماً لسورية، فقد نشر كتاباً شهيراً عن حياة الرئيس الأسد في عام ١٩٨٨ تحت عنوان: **الأسد: الصراع على الشرق الأوسط**. وكان قد عاش في دمشق أثناء فترة الانتداب، وكتب رسالة الماجستير عن الانقلابات السورية في الخمسينيات من القرن العشرين. وكان متزوجاً أيضاً ابنة الدكتور صباح قباني، سفير سورية الأسبق إلى الولايات المتحدة في السبعينيات من القرن نفسه.

باختصار، كان سيل يعرف سورية جيداً، وأبواب الرئيس السوري مفتوحة أمامه. وقبل قدومه إلى سورية، كان قد سافر إلى إسرائيل لإلقاء محاضرة مشتركة مع إتامار رابينوفتش - سفير إسرائيل في الولايات المتحدة وشريكنا السابق في المفاوضات - في مركز موشيه ديان. وإضافة إلى ذلك، كان سيل قد قابل رؤساء الوزراء شامير وبيريز وباراك، وقام بجولة في مرتفعات الجولان مع ضباط من الجيش الإسرائيلي. وقال له باراك رسمياً إنه يسعى إلى «سلام الشجعان» مع سورية. كان ذلك المصطلح وليد أفكار الرئيس الأسد، ونقله عنه في ما بعد ياسر عرفات واستعمله في عدد لا ينتهي من المرات، الأمر الذي جعله جزءاً من مفردات السلام في الشرق الأوسط، وهو ما دفع الرئيس الأسد إلى التوقف عن استخدامه بعد أن استخدمه عرفات في مكانه وفي غير مكانه، بقوله: «إنني أنا الذي أطلق عبارة «سلام الشجعان»، ولكن وبعد أن رأيت استخدامها على نحو مبتذل، قررت ألا استخدمها أبداً». وذكر باراك في حديثه مع سيل أن الطريق الوحيد إلى سلام مستدام في الشرق الأوسط يمرّ عبر دمشق: «سياستي هي تقوية أمن إسرائيل بالتوصل إلى نهاية للصراع مع سورية»[1].

---

(١) الحياة، ٢٣/ ٦/ ١٩٩٩.

وأصبح هذا التصريح، بالطبع، عنواناً عريضاً على الصفحة الأولى من جريدة **الحياة** الصادرة في لندن، والتي كان سيل يكتب فيها زاوية منتظمة. وفي دمشق، تحدّث سيل إلى الرئيس، وأجرى معه مقابلة موجزة نُشرت على الصفحة الأولى في جريدة **الحياة**. وكان عنوانها: «الأسد: باراك قوي وصادق، ويريد السلام [مع سورية]»[٢].

وكانت تلك المرة الأولى التي يتبادل فيها رئيس الجمهورية العربية السورية ورئيس وزراء إسرائيل رسائل نيّات حسنة عبر وسائل الإعلام. ومما يلفت النظر هو أن كلّ هذا جرى عن طريق إحدى أكبر الصحف العربية وأوسعها انتشاراً. نُشِرَت مقابلة الأسد في ٢٣ حزيران/ يونيو ١٩٩٩، وحملت رسالة قوية إلى الولايات المتحدة، موضحة مدى التزام سورية بسلام حقيقي في الشرق الأوسط. قال الأسد إن السلام ليس خياراً جديداً لسورية، مشدّداً على أنه طالب بالسلام العادل والشامل منذ عام ١٩٧٥. وحينما سُئل الأسد عن باراك، أجاب: «لقد تابعت تصريحاته. وهو يبدو رجلاً قوياً وصادقاً. بناء على نتائج الانتخابات [في إسرائيل] يبدو أنه يتمتع بتأييد واسع (في إسرائيل)»[٣]. وأضاف الأسد أن انتخاب باراك يشير إلى أن شيئاً ما قد تغيّر داخل إسرائيل، لأن الوضع أثناء حكم نتنياهو كان، بحسب تعبير الأسد، «لا أمل يرجى منه».

بعد المقابلة مع صحيفة **الحياة**، منح الرئيس الأسد كلينتون ثقته من جديد، ومرة تاسعة منذ عام ١٩٩٣. وفي الحادي والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٩، أُعلِن أن بلدة شبردستاون في ولاية غرب فرجينيا ستستضيف الجولة القادمة من المحادثات السورية - الإسرائيلية، التي سيحضرها وزير الخارجية فاروق الشرع ورئيس وزراء إسرائيل الجديد. وكنتُ جزءاً من الوفد بصفتي مستشارة لوزارة الخارجية. وربما يجدر بي أن أذكر هنا أنني كنت في ذلك الحين قد لازمت الرئيس الأسد نحو عقد من الزمن، ومع ذلك كنتُ لا أزال رسمياً مستشارة في وزارة الخارجية وأستاذة في جامعة دمشق، إذ احتفظت بساعاتي التدريسية لأنني أحبّ مهنة التعليم.

ولقد حيّر اختيار شبردستاون الكثيرين؛ إذ كانت بلدة ريفية صغيرة محاذية للطريق ٨١ العابر للولايات على مسافة لا تتجاوز خمسة وسبعين ميلاً من واشنطن العاصمة. وكانت النشاطات الوحيدة التي شهدتها البلدة مقتصرة على المعارض السنوية في الصيف، وكان هذا بالطبع شيئاً لا يذكر بالمقارنة بالاهتمام الذي كانت ستحظى به من

(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.

وسائل الإعلام العالمية حين ستستضيف الوفدين السوري والإسرائيلي. وقد وصفها دنيس روس بأنها قديمة وساكنة وهادئة. وطلب الإسرائيليون أن تحجب المحادثات حجباً تاماً عن وسائل الإعلام: لا وفود صحفية، ولا هواتف محمولة. وأضاف روس أن باراك أراد أن تمكث الوفود السورية والإسرائيلية والأمريكية في «شرنقة افتراضية». ولم تكن هذه المسائل تشغل بال الوفد السوري. فليست لدينا أسرار، وليس لدينا ما نخفيه. وقدم إلى شبردستاون ثلاثة صحفيين سوريين، لكنهم لم يكونوا جزءاً من الوفد السوري الرسمي. وقد حاولت الولايات المتحدة أن تقنعنا بعقد المحادثات إما في واي ريفر أو كامب ديفيد، لكننا رفضنا كلا المكانين لأنهما مرتبطان ارتباطاً دائماً بياسر عرفات، الذي حضر إلى واي، وأنور السادات، الذي صاغ معاهدته المشؤومة للسلام في كامب ديفيد في عام ١٩٧٨.

كان في شبردستاون فندق كبير لننزل فيه، يقع خارج مركز البلدة، ومنتجع جميل تملكه الهيئة الأمريكية للأسماك والأحياء البرية، التي استضافت اجتماعاتنا. إضافة إلى ذلك، كان المكان قريباً من البيت الأبيض، وبإمكان الرئيس كلينتون أن يأتي بطائرة مروحية خلال عشرين إلى خمس وعشرين دقيقة لمتابعة سير المفاوضات.

حين وصلنا إلى غرب فرجينيا في كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠، قيل لنا إن الأمريكيين يعدّون مسودّة اتفاقية تعترف بوديعة رابين وتبني عليها. كما قيل لنا إن مستشار الأمن القومي ساندي برغر أطلع وفد السلام الأمريكي على موقف الرئيس كلينتون قبل وديعة الجيب، و«بعد وديعة الجيب»[٤]. وأخبر كلينتون أعضاء الوفد أنه «لا شيء كان ممكناً قبل وديعة الجيب»، لكن اختراقاً حقيقياً ممكن «بعد وديعة الجيب». وذكر روس في مذكّراته أن موقف الولايات المتحدة «هو أن حدود الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧ يجب أن تكون أساس المفاوضات حول الحدود»[٥]. وهذا ما اعتقدناه حين حطّت بنا الطائرة في الولايات المتحدة في كانون الثاني/ يناير من ذلك العام. لكن سرعان ما اكتشفنا أن الواقع مختلف.

---

(٤) لقد تمّت الإشارة إلى وديعة رابين أنها في الجيب ولن تظهر إلى العلن إلا في حال الموافقة النهائية على اتفاقية سلام بين سورية وإسرائيل.

(٥) Dennis Ross, *The Missing Peace: The Inside Story of the Fight for Middle East Peace* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2004), p. 551.

كان الاجتماع الأول بين الشرع وباراك في البيت الأبيض في ١٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٩. وقد رافَقْنا وزير الخارجية إلى ذلك الاجتماع، وهناك أدلى كلاهما ببيان موجز للصحافة في حديقة الورود قبل التوجه إلى مباحثات في مضافة كلينتون، أي بلير هاوس، مهدت الطريق إلى محادثات شبردستاون. كان بلير هاوس - الذي يقع مقابل شارع بنسلفانيا، ويقابل البيت الأبيض (هو المكان الذي أقام فيه الرئيس الأمريكي أبراهام لنكولن أثناء تجديد البيت الأبيض في القرن التاسع عشر). إنّ أكثر ما أتذكّره عن ذلك اليوم هو الطقس البارد الجليدي والطين في حديقة الورود. وقبل ظهور الشرع علناً مع باراك وكلينتون، أخبر أولبرايت أنه لن يصافح الإسرائيليين، وأنه سيقف إلى جانب إيهود باراك إن استدعت الضرورة القصوى ذلك، لكنه لن يقبل بالمصافحة؛ وطبعاً كان هذا تلبية لتوجيهات الرئيس الأسد.

كان الاتفاق على ألّا يتكلم سوى الرئيس كلينتون في تلك المناسبة، لكن ذلك تغيّر بسرعة، وأعطي كل من الشرع وباراك بضع دقائق ليقول شيئاً. وغضب الوفد الأمريكي لأن الشرع تحدث عشر دقائق، في حين قصر باراك كلامه على بضع دقائق، ملتزماً بطلب الرئيس كلينتون. أتذكر أن الوزير الشرع استغل الفرصة ليشدّد على موقف سورية أمام وسائل الإعلام العالمية المتجمّعة في حديقة البيت الأبيض ذلك الصباح. لم يترك هذا انطباعاً جيداً لدى الأمريكيين. لكنني أعتقد أن خطاب الشرع كان في محله، لأن فرص السوريين في التحدث إلى وسائل الإعلام العالمية كانت قليلة جداً بسبب الحرب الدائمة التي تشنّها تلك المحطات علينا، في الوقت الذي كان فيه الطريق إلى شبكات التلفزيون والصحف مفتوحاً أربعاً وعشرين ساعة في اليوم على مدار العام أمام الإسرائيليين.

ولكن سرعان ما غطى على غضب كلينتون من الخطاب السوري الطويل نسبياً الوعكة الصحية التي ألمّت باللواء يوسف شكور، الخبير العسكري في وفدنا، وربما كان ذلك نتيجة الإرهاق الذي عاناه أثناء المؤتمر الصحفي. تولى اللواء شكور رئاسة أركان الجيش السوري خلال حرب تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٧٣، وكان رجلاً قوياً صلباً، لكنه في ذاك الحين كان قد تجاوز السبعين من العمر. كان يقف بجانبي حين بدأ يميل يمنة ويسرة. في البداية ظننتُ أن ذلك يعود إلى الأرض الطينية تحت أقدامنا، لذلك استدرت لأساعده على الوقوف على نحو صحيح، لكنني لاحظت سريعاً أنه بدأ يفقد الوعي. نُقِل شكور على الفور إلى الغرفة الطبية في البيت الأبيض، وتولى أطباء الرئيس كلينتون العناية به.

صورة تذكارية أُخِذَت أثناء محادثات شبردستاون في كانون الثاني/ يناير عام ٢٠٠٠، موقعة شخصياً من قبل وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت.

وفي ٣ كانون الثاني/ يناير من عام ٢٠٠٠، وقبل أن تبدأ المحادثات، التي صادف وقوعها في شهر رمضان المبارك، تلقى وزير خارجيتنا دعوة للسير على جسر شبردستاون فوق نهر بوتوماك مع الرئيس كلينتون وباراك. صافح كلينتون أعضاء الوفد السوري، وسار أمامنا مع ضيفيه، في حين سار روس وإنديك وأولبرايت وأنا وراءهم على مسافة تبعدنا عنهم. كانت مادلين أولبرايت تسير إلى جانبي، وقد زيّنت ملابسها بدبوس على شكل أسد، وهو نفسه الذي كانت تضعه عند زيارتها الأولى دمشق في أيلول/ سبتمبر ١٩٩٨. كانت تسعى إلى لفت الأنظار إليه، كما فعلت من قبل، بسبب شكله الذي يطابق اسم الرئيس السوري. وقالت وهي تشير إلى اجتماعين سابقين بالرئيس الأسد: «لقد توافقنا تماماً. أعتقد أننا جميعاً نعمل من أجل قضية نبيلة. وآمل أن ننجح، يا بثينة». في تلك الأثناء كان جيش من المصورين منهمكاً بالتقاط صور للاجتماع التاريخي بين السوريين والإسرائيليين في غرب فرجينيا.

حين انتهت رياضة السير، بدأت أولبرايت اجتماعها بالشرع، في الوقت الذي عقد كلينتون فيه اجتماعاً مع باراك. وأذكر أن فاروق الشرع كان مرتاحاً لطريقة سير الأمور، وهذا أعطى ثقة لأعضاء وفد السلام السوري باحتمال رؤية ضوء في نهاية النفق الطويل. وأثناء الساعات الأولى من المباحثات، تكلم الرئيس كلينتون هاتفياً مع الرئيس الأسد ليطلعه على التطورات. ووافق الأسد على قيام فريق من الخبراء الأمريكيين يرافقهم أحد الحاخامات بإخراج جثث من أربعة قبور في مقبرة في دمشق يعتقد الإسرائيليون أنها بقايا أربعة جنود إسرائيليين قُتلوا في معركة مع الفلسطينيين في وادي البقاع في لبنان عام ١٩٨٢(٦). ومن الواجب هنا الإشارة إلى أن هذه اللفتة الإنسانية لم تُذْكَر قط في وسائل الإعلام الأمريكية أو الإسرائيلية.

وبالعودة إلى شبردستاون، فقد عُيّن اللواء ابراهيم العمر ممثلاً في اجتماعات الحدود والأمن، وعُيّن الدكتور رياض الداودي، المستشار القانوني لوزارة الخارجية، لرئاسة المجموعة السورية التي تبحث في القضايا المتعلقة بالمياه مع إسرائيل. وعين السفير المعلم في «لجنة تطبيق العلاقات الطبيعية». وكان نظير اللواء العمر في الاجتماع الأمني شلومو ياناي، رئيس التخطيط للجيش الإسرائيلي، كما كان يوري ساغوي نظيره في الاجتماع الخاص بالحدود. وأراد باراك أن تجتمع لجنة الأمن قبل لجنة رسم الحدود، ليبيّن للشعب الإسرائيلي أنه يضع أمن إسرائيل قبل حدود سورية واحتياجاتها المائية. وقال للرئيس كلينتون: «ليس لديّ سوى فرصة واحدة فقط، ولا أستطيع تحمّل نتيجة ارتكاب غلطة واحدة»(٧). وقال إن وقتاً أطول مما ينبغي «ضاع» في «قضية الحدود»، و«نحتاج إلى التوصل إلى توازن» في القضايا المتعلقة بالسلام(٨).

وعقدت لجنة الأمن اجتماعها الأول في ٥ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠. اقترح ياناي مناطق أمنية، أي مناطق تنفصل فيها القوات، وتكون أسلحتها محدودة، وهو اقتراح سبق أن سمعناه من عدة مبعوثين أمريكيين. وأضاف أن هذه المناطق ستكون أقرب من حيث المساحة إلى ما يفكر فيه الإسرائيليون مما كانت سورية تطالب به منذ عام ١٩٩٤. واقترح تغيير النسبة الأصلية التي وافق عليها العماد حكمت الشهابي في بلير هاوس من ١٠:٦ إلى ١٠:٥، ما يعني أن مساحة المناطق على الجانب السوري ستكون ضعف مساحة

---

(٦) أرشيف وزارة الشؤون الخارجية، ملف شبردستاون، كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠.

(٧) Martin Indyk, *Innocent Abroad: An Intimate Account of American Peace Diplomacy in the Middle East* (New York: Simon and Schuster, 2009), p. 258.

(٨) المصدر نفسه.

المناطق على الجانب الإسرائيلي(٩). لكننا ذكّرنا ياناي أن دمشق لا تبعد أكثر من ستين كيلومتراً عن حدود الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧. ولم يشر الموقف الإسرائيلي إلى مدى الانسحاب، بل ذكر فقط: «وتحتاج الحدود إلى اتفاق متبادل عليها». وافق اللواء العمر على اقتراح إسرائيل بخصوص «المراقبة الواسعة والنشطة والسلبية» مع استعمال آلات تصوير في قواعد مختلفة. لكن العقبة الأولى كانت طلب باراك أن أي التزام بوديعة رابين يجب أن يصاحبه دعم سوري لمباحثات السلام اللبنانية - الإسرائيلية. وهبّت أولبرايت لنجدته، زاعمة أن المسار اللبناني «مسار يتيم» أهمل مدة طويلة لمصلحة مساري السلام السوري - الإسرائيلي والفلسطيني - الإسرائيلي. وبعد بحث المسألة هاتفياً مع الرئيس الأسد، أرسل الشرع كلمة إلى المجتمعين تقول إنه إذا أريد لأي تقدم أن يحدث في شبردستاون، فستُجرى المحادثات اللبنانية - الإسرائيلية في مرحلة لاحقة.

في الجولة الأولى من المباحثات، لم يتحقق شيء بين فريقنا والإسرائيليين، الأمر الذي ذكّرنا بالتصلب الذي سبق أن شهدناه في مدريد عام ١٩٩١ من جانب موشي بن أهارون، مبعوث إسحاق شامير. وبدا أنّ ثماني سنوات من المحادثات ستذهب هباء، إلى أن طلع علينا الأمريكيون بما زعموا أنه «حل خلاق» لردم الهوة بين سورية وإسرائيل. كان باراك يسير في دوائر، محاولاً أن يقول لنا إن من الواضح أن وديعة رابين لن تكون وديعة باراك. كان أحد تعليقاته، على سبيل المثال، حول «كنيس قديم» في الجولان، وهو، بحسب ادعائه، أحد الأسباب التي تجعل الإسرائيليين يستصعبون الانسحاب من المنطقة التي احتلوها عام ١٩٦٧. أجاب الشرع بهدوء أنّ هناك أكثر من كنيس قديم في دمشق أيضاً، وتساءل ساخراً إن كان ذلك يخوّل الإسرائيليين أن يسيطروا على دمشق(١٠). تراجع باراك عندئذ، وأخبرنا - وكأننا لا نعلم - مدى أهمية سورية للديانات التوحيدية الثلاث كلها، ودخل في تاريخ طويل (وممل) عن الأديان. ثم أضاف: «أرجو ألا يظهر دين جديد على سطح الأرض، لأنه إن ظهر، فسيأتي إلى سورية أولاً»(١١). وكان أبرز تصريح صدر في اليوم الأول هو قول أولبرايت التالي: «لولا الثقة القائمة بين الرئيسين كلينتون والأسد، لما حدث هذا أبداً». وأذكر أن المزاج التفاوضي في ذلك اليوم كان تماماً مثل درجة الحرارة في الغرفة، التي كان التحكّم فيها معدوماً.

(٩) أرشيف وزارة الشؤون الخارجية، ملف شبردستاون، كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠.
(١٠) المصدر نفسه.
(١١) المصدر نفسه.

فقد كاد أن يغمى علينا بسبب الحرارة، التي تحوّلت إلى البرودة - برودة قارسة - حين قام الأمريكيون بتعديل مستوى التدفئة بناء على طلبنا.

قال الرئيس كلينتون – ذو الرؤية الثاقبة دوماً – يخاطبنا: «يجب على كل واحد منا أن يجلس ويسند ظهره إلى الخلف، ويسأل نفسه كيف يريد أن تكون الأمور بعد خمس سنوات من الآن: «كيف تريدون أن يكون شكل المستقبل لكم ولدولتيكم؟ ومع أنني رئيس الولايات المتحدة، فأنا أسأل نفسي يومياً: أين أريد أن أكون بعد خمس سنوات من الآن؟ وأنا اليوم أطرح هذا السؤال عليكم جميعاً». ثم نظر في أرجاء الغرفة إلى كل واحد منا، وقال: بالطريقة الأمريكية التقليدية البعيدة عن الرسمية: «إذا استمررتم يا جماعة بالحديث أكثر، أنا واثق من أنكم ستتفقون أكثر!». اقترح دنيس روس أن يكتب الوفد الأمريكي مسوّدة ورقة عمل تبيّن بالخطوط العريضة الموقف التفاوضي الفعلي، وليس الرسمي، لكل طرف، بحسب فهم الأمريكيين لذلك الموقف. وأضاف أنها لن تكون ورقة ملزمة تقيد أياً من الطرفين بأي موقف. وقد أشركوا باراك في مسودتهم، وكان يهزّ رأسه بالموافقة، ثم ذكروا الفكرة لزميلنا رياض الداودي، من دون إطلاعه على المسوّدة الفعلية.

وبعدئذ قررت مادلين أولبرايت ودنيس روس الجلوس مع الشرع ومعي في يوم ٦ كانون الثاني/ يناير لشرح استراتيجيتهما الجديدة. كانت في الغرفة سبورة بيضاء رسم روس عليها عمودين، وكتب موقف سورية من السلام في أحدهما، وموقف إسرائيل في العمود الآخر. وفي ما يخصّ الحدود، قال إن موقف إسرائيل هو «الانسحاب الكامل من الجولان، باستثناء شريط ضيق على الجانب الشمالي الشرقي من بحيرة طبرية، وشريط ضيق صغير على طول المنطقة المحاذية لنهر الأردن فوق البحيرة». ذكّرناه أن موقف سورية هو الانسحاب الكامل: نقطة! ونحن لم نقبل أي شيء يقلّ عن ذلك في أي من المباحثات منذ عام ١٩٩١.

أمّا في موضوع الأمن، فقد أراد الإسرائيليون حضوراً محدوداً في محطة الإنذار المبكر على جبل الشيخ مدةً محددة بعد انسحاب الجيش الإسرائيلي من الجولان. وأرادوا أيضاً ثلاث مناطق منزوعة السلاح أو فيها انتشار محدود للقوات، وهي مناطق للقوات السورية تمتد «على الأقل» حتى دمشق، لكن إسرائيل لن تقبل بمناطق منزوعة السلاح على جانبها من الحدود. قلنا إن سورية ستقبل بوجود دولي على جبل الشيخ مدة خمس سنوات بعد الانسحاب، لكن لن تقبل بوجود إسرائيلي. وفي ما يتعلق بالسلام

الفعلي، أراد الإسرائيليون إقامة علاقات دبلوماسية كاملة يتم تطبيقها مع المرحلة الأولى من انسحابهم من الجولان. لكننا أكدنا أنه لن تُفْتَح أية سفارة قبل أن تعود الجولان، كاملة، إلى أصحابها الشرعيين. وأرادت إسرائيل ثلاث سنوات لإتمام انسحابها، لكننا قلنا إن الانسحاب يجب أن يكتمل خلال ثمانية عشر شهراً. وفي ما يخصّ موضوع السيادة على بحيرة طبرية، ذكر روس، بعد سنوات عديدة، أن الشرع أخبره بما يلي: «ستكون للإسرائيليين السيادة على البحيرة، وستكون للسوريين السيادة على البحيرة، على الأقل كل الأرض الواقعة شرق الكيلومترات العشرة المحاذية للشاطئ»[١٢]. وهذا بالطبع غير صحيح، فالسوريون لم يقرّوا أبداً بسيادة مقسّمة على البحيرة، كما سأبيّن في وصفي آخر اجتماع قمة بين الأسد وكلينتون في جنيف، الذي سأبحثه في الفصل الحادي عشر.

لقد كنت حاضرة في الاجتماع، ومع أنه لا يوجد أي محضر لهذا اللقاء بالذات، إلا أنه يمكنني أن أؤكد للقراء أن وزير الخارجية لم يتحدث عن سيادة «مشتركة» على البحيرة أبداً. لقد أثار هذا التصريح الوحيد المفترض نقاشاً كثيراً، إذ إن الأمريكيين استخدموه مع باراك، وقالوا له إن «الموقف السوري قد لان». لكن وزير الخارجية الشرع نفى بشدة أن يكون قد صرّح بقول مثل هذا على الإطلاق. وعلى نقيض ذلك، كان دأبه الدائب أن يقول لياسر عرفات إنّ الأوروبيين حين رسموا حدود عام ١٩٢٣، أُدخلت بحيرة طبرية ضمن ما عرف بفلسطين الخاضعة للانتداب. وكان يقول له: «سنستعيدها، ثم نقرر من له حق الوصول إلى منطقة البحيرة، ومن له حق الوصول إلى مياهها، سورية أو فلسطين. هذه مسألة داخلية سنقررها بصفتنا فلسطينيين وسوريين. والمؤكد هو أنها لم تكن أبداً ملكاً لإسرائيل».

ثانياً: دبلوماسية النساء التي أحدثتها أولبرايت

كانت مادلين أولبرايت لاعبة أساسية في محادثات شبردستاون. وقد تركت لدينا انطباعاً قوياً حين قابلناها أول مرة في عام ١٩٩٧، وكان هذا التأثير متبادلاً. وكتبتْ بعد ست سنوات: «كنت مصمّمة على ترك انطباع قوي عند وصولي إلى قصر الأسد»[١٣]. وتذكر كيف أنها فوجئت بأعداد صحون الأقمار الصناعية على سطوح البيوت في

(١٢) Ross, *The Missing Peace: The Inside Story of the Fight for Middle East Peace*, p. 554.

(١٣) Madeleine Albright, *Madam Secretary: A Memoir* (New York: HarperCollins Publishers, 2005), p. 603.

دمشق، الأمر الذي يعني أن الشعب السوري منفتح على العالم الخارجي، وبكمية الرخام في قصر الشعب المطل على العاصمة السورية: «الرخام أكثر مما تستطيع أن تتخيل، وبالطبع السجاد بديع في ذلك الجزء من العالم. كانت هناك سلالم ملتوية، ويمكنك استحضار صورة لجيمس بوند يخرج من الجانب الأيمن تلاحقه سيوف معقوفة. استقبلني الأسد في غرفة ضخمة أثاثها متناثر، وفيها أرائك ووسائد وكرسيان خشبيان حُفِرت عليهما الزخارف. وقبل أن نجلس فتح الستائر ليكشف عن منظر رائع لعاصمته، التي هي واحدة من أقدم مدن العالم»(١٤).

وأثناء ذلك الاجتماع، تكلم الأسد عن ضرورة دعم وديعة رابين، قائلاً لأولبرايت: «لا أستطيع القبول بأي شيء أقل من ذلك. إن فعلت، فالشخص الذي قدم القهوة لنا الآن قد يغتالني، وسيفعل»(١٥).

بعد عامين، كان الأسد لا يزال متمسكاً بالموقف ذاته تماماً، ولم يكن أحد يعرف ذلك أكثر من أولبرايت نفسها. وقد اقترحت عليّ أثناء محادثات شبردستاون إجراء حديث خاص بيني وبينها، أطلق عليه في ما بعد تسمية «دبلوماسية النساء». فقد اقتربت أولبرايت مني وسألت بأدب شديد: «هل يمكن أن نجتمع معاً لنجري شيئاً من الحديث النسائي؟». أومأت برأسي موافقة ومدركة أن لديها حتماً شيئاً مهماً تريد قوله. وكنت أشعر بالاحترام لوزيرة الخارجية، لأنها امرأة جادة مخلصة في عملها، ولديها بصيرة نافذة وشخصية مميزة. كانت هكذا نظرتي إليها في ذلك الحين على الأقل، مع أن تلك النظرة تغيّرت حين التقينا مرة ثانية في جينيف بعد شهرين. لقد بدت لي، بناء على ما شاهدته منها في اجتماعاتنا الأربعة السابقة، امرأة ترفض أن تخضع لأوامر الرجال، وشخصية تضطلع بعملها بجدّ بالغ. وأذكر أنها أثناء لقائنا الأول في دمشق، كانت ترتدي ملابس خضراء اللون، ووقفت عند بوابة مكتب الأسد في القصر، وهي تحمل حقيبة أوراق من النوع الذي يحمله الموظفون ورجال الأعمال بدلاً من حقيبة نسائية. وقررتُ وجوب أن أتذكّر أن هذه «فكرة جيدة: يجب أن نحمل حقائب أوراق، تماماً كما يفعل الرجال، لا حقائب نسائية من تصميم مصممين عالميين، كما تفعل النساء عادةً». وأثناء الاجتماع، قالت للرئيس الأسد: «يعجبني أن أرى أن لديكم مستشارة أنثى، يا سيادة الرئيس». ابتسم الرئيس، وأخبرها أن النساء شغلن مناصب حكومية في سورية منذ عام

(١٤) المصدر نفسه.

(١٥) أرشيف القصر الجمهوري السوري، محضر محادثات الأسد ـ أولبرايت، أيلول/ سبتمبر ١٩٩٧.

١٩٧٠ بفضل الكفاح الطويل لتحرر المرأة الذي استمر مدى القرن العشرين. ولا حاجة إلى القول إن ذلك الموضوع كان محبباً جداً إلى قلبي شخصياً.

بيّن الأسد أن خمسينيات القرن العشرين كانت سنوات متقدة بالحماسة للوحدة العربية، وكان لها تأثير هائل في المرأة في الشرق الأوسط. وكان الأسد، منذ لقائه الأول مع هنري كيسنجر في السبعينيات، يحب أن يُحدّث المبعوثين الأمريكيين - ولا سيَّما الأساتذة الجامعيين، مثل كيسنجر وأولبرايت - عن تاريخ سورية. كان الحزب الشيوعي وحزب البعث يجذبان النساء السوريات بقوة لأنهما كسرا القيود الاجتماعية - الدينية على اللواتي كن ينضممن إلى عضويتهما. وكانت غالبية هؤلاء النساء من حملة الشهادات الجامعية، وكنّ يجدن التشجيع على نزع الحجاب والعمل خارج المنزل وتحرير أنفسهن، نفسياً واقتصادياً، من سيطرة الرجال. وحدّث الأسد أولبرايت قائلاً: «لقد كنت أبذل جهداً من أجل تمكين النساء وتحطيم السقف الزجاجي الذي كان يحدّ من قدرتهن على الحركة المهنية والاجتماعية، وكنت دائماً أجابه المتشدّدين في حزبي الذين كانوا يرفضون إعطاء النساء دورهن الطبيعي هذا. إنهم يحبون رؤيتهن في المنازل وإبقاءهن هناك، ولا يزالون يشعرون بالتهديد من وجودهن في القوة العاملة السورية»(١٦).

ليس هناك أي شك في أنني طربت لسماع هذا، وهو يصدر عن رجل لديه من الكرامة والحصافة ما يكفي لانتقاد الحزب الذي يرأسه، لأن بعض أعضائه لا يزالون يعملون بعقلية العصور الوسطى حين يتعلق الأمر بحقوق المرأة.

وقد وصفني روس في مذكّراته بأنني واحدة من هؤلاء النسوة:

من المؤكد أن بثينة كانت امرأة غير عادية. فقد كتبت كتباً عن دور النساء في المجتمعات الإسلامية. وكانت تنتقد بشدة الأنظمة الإسلامية التي تكبت المرأة. وقد أهّلتها دراستها لأن تكون أكاديمية، وحصلت على منحة زمالة لدراسات ما بعد الدكتوراه من جامعة ميشيغن الشرقية للفصل الخريفي. ومنذ أن أصبحت مترجمة الأسد أخذت ثقتها بنفسها تتزايد في حضوره كما يبدو. وبحسب قول جمال [هلال]، هي مترجمة خبيرة، لكنها تتصرف في ترجمتها. فبينما كانت دقيقة في نقل كلمات الأسد، كانت تضمّن ترجمتها لما نقوله له تعليقات من عندها. ولو كانت لديها أية شكوك في موقعها،

---

(١٦) المصدر نفسه.

لما تجرأت على إعطاء نفسها حرية التصرف هذه. وإضافة إلى ذلك، حين أخذت صحة الأسد تتدهور، كانت تعبّر هي عن أفكاره حين يجد صعوبة في التعبير هو عنها بنفسه في محادثاته الهاتفية مع الرئيس كلينتون. أعتقد أنها أصبحت إلى حدٍّ ما عينين إضافيتين للأسد وأذنين أيضاً.

كنت معجباً ببثينة، وأجريت أحاديث جانبية معها. فهي ذكية جداً، ومحادثتها سهلة، وتصرّح دائماً بالتزامها بالسلام وبرغبتها في تحقيقه. لكن لم تكن لديّ أوهام عنها: كانت ولاءاتها للنظام وقائده. وهي لا تكشف أي شيء لا يريد رئيسها أن يُكشف. ولم تكن في رأيي لتقترح أية مواقع من المرونة أو لتفتح أي طريق لدفع المفاوضات إلى الأمام ما لَمْ تخوَّل ذلك. ولم تكن «قناة الفتيات»، كما أسمتها مادلين أولبرايت، ستعمل وسيلة لنا للتأثير في الموقف السوري، بل أعتقد أنها بدلاً من ذلك، كانت قناة للسوريين للتأثير فينا»[١٧].

حين جلسنا لنتبادل حديثنا الانفرادي، بدأت أولبرايت المحادثة بالقول: «بثينة، نحن في ورطة، وأنا بحاجة إلى مساعدتك». جلستُ أقلب الأفكار عمّا يحتاجه دفع العملية إلى الأمام، مستفيدة من إصرار الرئيس كلينتون على تحقيق اختراق على المسار السوري - الإسرائيلي قبل انتهاء ولايته في عام ٢٠٠٠. قالت أولبرايت: «حين توليتُ منصب وزيرة الخارجية، قالوا لي إنني سأعاني صعوبة في التعامل مع الشرق الأوسط، لكنه المكان الذي يسحرني أكثر من أي مكان آخر. لقد تعرّضت صورة العرب والمسلمين لتشويه هائل في الولايات المتحدة، وهي بحاجة إلى تصحيح»[١٨].

واقترحت أن نعمل في جهد أكاديمي مشترك لإنجاز ذلك، وأومأت برأسي موافقة على هذا الاقتراح: «يقول الناس إننا نهتم بإسرائيل أكثر مما ينبغي، لكن ذلك غير صحيح». غير أن ما قالته آنذاك لم يكن صحيحاً أيضاً. وما من أحد تحدّى ذلك القول أفضل مما فعلت أولبرايت نفسها حين كتبت مذكّراتها **السيدة الوزيرة**، التي نُشرت عام ٢٠٠٣، وقالت فيها: «كنت دائماً أؤمن أن إسرائيل هي حليفة أمريكا الخاصة، وأن علينا ان نقوم بكل ما بوسعنا لضمان أمنها». وأضافت أن الأمريكيين قاموا أثناء حرب عام ١٩٦٧، «بمساعدة إسرائيل على الحفاظ على التفوق العسكري الإقليمي كي لا يستطيع أعداؤها تدميرها». وبعد حديث قصير عن قضايا المرأة والسياسة في الشرق الأوسط

(١٧) Ross, *The Missing Peace: The Inside Story of the Fight for Middle East Peace*, pp. 555-556.

(١٨) المصدر نفسه.

عموماً، طرقت أولبرايت لبّ الموضوع، قائلة إن الولايات المتحدة تريد أن تعرف إن كان فاروق الشرع يتمتع بصلاحية التفاوض، وذلك بعد أن أشارت إلى إصابته بنوبة قلبية في خريف عام ١٩٩٩؟ قلتُ لها إن الرئيس الأسد يثق ثقة كاملة بوزير خارجيته، وإن الوزير يعرف كل ما ينبغي معرفته عن موقف سورية، باعتباره قاد المفاوضات منذ عام ١٩٩١، وكان حاضراً تقريباً في كل جلسة من محادثات الرئيس الأسد مع المبعوثين الأمريكيين. كان من الواضح أن الوفد الأمريكي يريد استغلال مرض وزير الخارجية لتجاوزه وفتح قناة مباشرة مع الرئيس الأسد، وذلك عن طريقي، كما افترضتُ، مع أن وزير الخارجية كان قد تعافى تماماً من وعكته الصحية. قلتُ لأولبرايت بحزم شديد: «لا تقللوا من شأن الشرع، فهو يتمتع بأهمية كبيرة لدى الرئيس الأسد. حاولوا بدلاً من ذلك تقوية مركزه بإعطائه شيئاً يؤدي إلى اختراق». وأكدتُ وجوب حصوله على شيء مثل حدود الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧، إذا أريد لمحادثات شبردستاون أن تنجح. وسألتُ أولبرايت: هل كان بوسع الولايات المتحدة أن تذكر خطياً أن الرئيس كلينتون تحدّث مع باراك عن وديعة رابين، وأنه إذا أريد لأي شيء أن يتحقق، فمن الضروري دعم الوديعة؟ أعجبتها الفكرة، وقالت إنها ستنقلها إلى زملائها، وإلى الرئيس. وعلق روس في ما بعد: «لم يكن هذا طلباً غير معقول»[١٩].

وأضفتُ أن مواقف باراك تسبّب مشاكل لسورية. وكان الأمريكيون مقتنعين بأنني كنت صادقة، وأتكلم على أفضل ما يخدم مصلحة عملية السلام بوجه عام. وقد قالت لي أولبرايت خلال لقائها: «حين لا نكون في اجتماع رسمي، أرجو أن تشعري أن بإمكانك مخاطبتي باسمي الأول مادلين». ولكن، مع أنها تخصص في مذكّراتها اثنتي عشرة صفحة للمحادثات السورية - الإسرائيلية، فهي لا تورد أي ذكر لـ «قناة الفتيات»، وتتصرف وكأنها لم تعرفني قط.

حين أنهينا محادثتنا، توجهتُ على الفور إلى وزير الخارجية لأطلعه على لقائي أولبرايت. وقد أبدى دهشته من استعمالها كلمة «ورطة» حين الإشارة إلى الموقف الأمريكي، وكان من الواضح أنه شعر بالقلق من محاولتها استخدامي لفتح قناة مباشرة مع الرئيس. وبالعودة إلى الماضي، يدهشني أن أولبرايت قالت إنها ذهبت إلى شبردستاون بغرض العثور على «تعريف مشترك» للمعنى الفعلي لعبارة «إعادة هضبة الجولان». وفي مذكّراتها تعترف أولبرايت، المناقضة نفسها دائماً، أن الأسد «أراد

(١٩) أرشيف وزارة الشؤون الخارجية، ملف شبردستاون، كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠.

استعادة الجولان بالشروط الصحيحة»[٢٠]. وأضافت أن «الأرض قضية شرف» لحافظ الأسد[٢١]. وزادت على ذلك قولها إن المسألة المركزية هي «أين كانت الحدود؟ أين كان الخط الموجود قبل حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧؟»[٢٢].

في النهاية توصلنا، وزير الخارجية الشرع وأنا، إلى قناعة بأن أولبرايت تعرف تماماً أين يقع الخط، بعد أن سمعت موقعه مرات لا تنتهي من كلينا، وكذلك من الرئيس الأسد: فهو يمتد إلى الضفة الشرقية من بحيرة طبرية، وكذلك إلى نهر الأردن. وفي ما يخصّ الوفد السوري، كان ذلك الجزء من المحادثات غير قابل للتفاوض فيه. لكن مارتن إنديك روى قصة مغايرة، مدّعياً أن الشرع قال له: «إن السيادة على البحيرة لإسرائيل، والسيادة على الأرض لنا». وأضاف إنديك: «وكرّر [أي الشرع] أيضاً أنّ خط الحدود على الخط الساحلي الشمالي الشرقي مماثل لما هو عليه في الحدود الدولية عام ١٩٢٣ [التي لم تعترف سورية بها قط واعتبرتها حدوداً استعمارية]. وهذا يعني أن سورية ستكون بعيدة عشرة كيلومترات على الأقل عن الخط الساحلي»[٢٣].

رحّب الرئيس كلينتون باقتراحي وأعطى تعليمات لمساعديه للبدء في إعداد الرسالة. ولكن قبل أن يطلعنا كلينتون على هذه الوثيقة، شعر بالحاجة إلى إطلاع باراك عليها أولاً. وبحسب قول روس، حين قابلوا باراك، «أثارت هذه القناة فضوله، ووافق على أن تقديم الرسالة إلى الشرع فكرة جيدة». ولكن حين قرأ باراك الرسالة، اعترض فوراً على الصياغة. فقد كان النصّ في الأصل: «أخبرني باراك أنه لن يسحب وديعة رابين». ونصّت الصياغة الجديدة التي كُتِبت بناء على طلب باراك على أن «ما فهمه الرئيس هو أن باراك لا ينوي سحب وديعة رابين»[٢٤]. والمقصود أن ينطوي هذا بالطبع على أن كلينتون حُرّ في أن يعتقد ما يريد، وأن الشخص الذي سيقرر، في نهاية المطاف، هو إيهود باراك.

في ذلك المساء، قابل الشرع كلينتون، الذي أحضر الرسالة معه. تكلم الرئيس الأمريكي بإيجاز على محتوى الرسالة، ثم قدمها إلى الشرع، الذي قرأها بإمعان، ثم رفع

---

(٢٠) Albright, *Madam Secretary: A Memoir*, p. 473.

(٢١) المصدر نفسه.

(٢٢) المصدر نفسه.

(٢٣) Indyk, *Innocent Abroad: An Intimate Account of American Peace Diplomacy in the Middle East*, p. 259.

(٢٤) Ross, *The Missing Peace: The Inside Story of the Fight for Middle East Peace*, pp. 557-560.

رأسه ووصفها بأنها «مهمة وجيدة جداً». وقد علقت أولبرايت على المزاج النفسي في شبردستاون ذاك المساء، قائلة: «وافق السوريون على بدء المحادثات والاكتفاء بالتزام غير مباشر من باراك بهذه النقطة، لكنهم توقعوا موقفاً صريحاً فور بدء المحادثات. ونحن أيضاً توقعنا هذا. لكن بدلاً من ذلك، تراجع باراك»[٢٥].

وجدنا على الفور أن باراك يشعر بالرعب من فكرة التخلي عن الجولان، مدّعياً **أولاً** أن جيلاً كاملاً من الإسرائيليين نشأ وهو «يعتقد أن مرتفعات الجولان أساسية للدفاع عن إسرائيل»[٢٦]. كما أن هناك، **ثانياً**، سبعة عشر ألف مستوطن إسرائيلي في الجولان شعر باراك أنه **لا** يصحّ إغضابهم، وإلا فسيصوّتون ضده ويحرمونه منصبه. **وثالثاً**، هاجر حديثاً أكثر من مليون يهودي روسي إلى إسرائيل من الاتحاد السوفياتي السابق، وشعر باراك أن عليه الاحتفاظ بمزيد من الأرض لإسكانهم. **ورابعاً**، كان المتشدّدون في إسرائيل، مثل حزب شاس وزعيم الليكود آرييل شارون، قد بدأوا بالفعل ينتقدونه لذهابه إلى شبردستاون. وفي الواقع، اتهمه شارون قبل مدة قصيرة بـ «الاستسلام الكامل» لجلوسه لإجراء محادثات مع وزير الخارجية الشرع[٢٧]. لذلك، حين تلقى باراك اقتراح كلينتون في شبردستاون، طلب بضعة أيام لدراسة الورقة. وافق الرئيس كلينتون، لكن ذكّره أن اتفاقيات السلام نصف المكتملة «تفسد كالموز، ولا تتحسن بمرور الزمن كالجبن»[٢٨].

تزعم مادلين أولبرايت في مذكّراتها أن كلاً من السوريين والإسرائيليين اعتقدوا صادقين أن شبردستاون ستحدث اختراقاً. وقالت إن كلا الطرفين شعر أن الرئيس كلينتون سيتدخل في آخر لحظة لردم الهوة في المواضيع الجوهرية التي لم تصل إلى حلّ: «ولم أكن أشك في مهارات الرئيس، لكن لم يكن بإمكاني أن أرى كيف يمكن حتى لشخص مثله أن يقوم بألعاب سحرية»[٢٩].

كم هي محقة. ففي نهاية المطاف، لم يكن كلينتون يستطيع المناورة إلا إذا سلّحه الإسرائيليون بشيء ملموس. وبرغم حسن نياته، كان عاجزاً عن تقديم أكثر مما كان الإسرائيليون يريدون إعطاءه. وحين التفكير في الماضي، وبعد حوالى أربعة عشر

---

(٢٥) Albright, *Madam Secretary: A Memoir*, p. 605.

(٢٦) أرشيف وزارة الشؤون الخارجية، ملف شبردستاون، كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠.

(٢٧) المصدر نفسه.

(٢٨) Albright, Ibid., p. 478.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٦٠٩.

عاماً، يمكنني أن أقول، وأنا واثقة، إن إسرائيل لم تكن مستعدة لإعطاء أي شيء في شبردستاون. وبنظرة استرجاعية، يمكنني من خلال خبرتي أن أضيف أنه ما كان ينبغي لنا أن نفاجأ بموقف باراك في غرب فرجينيا في ذلك الشتاء. فالتصرف المألوف من جانب الإسرائيليين هو التراجع عن أي اختراق في اللحظة الأخيرة تماماً. وقد فعلوا ذلك عام ١٩٩١ في عهد شامير، وأعادوا الكرة بعد إعداد وديعة رابين عام ١٩٩٥. وهذه المرة، اختفى باراك ببساطة بعد تسليم رسالة كلينتون. وتوقفنا عن سماع أي شيء منه في شبردستاون، وبناء على طلب أولبرايت انتهت المحادثات من دون بيان صحفي مشترك.

لا تزال هناك ضرورة لذكر حادثة معيَّنة، أثارت في ذلك الوقت الكثير من الجدل، وألقى الإسرائيليون اللوم عليها لانهيار المفاوضات. فقد ظهر مقال في صحيفة **الحياة** اللندنية يظهر الخطوط العريضة لمسوَّدة ورقة السلام التي أعدّتها الولايات المتحدة، وحمل المقال توقيع مراسل الجريدة في دمشق، ابراهيم حميدي. صاح الإسرائيليون أن هذا سلوك غير أخلاقي، مدّعين أن سورية سرّبت الخبر عن طريق حميدي، وهو صحفي سوري كان موجوداً في شبردستاون. وقد نفى حميدي وجود أي تسريب، مبيناً أن الخبر في **الحياة** هو تصوره الخاص لمسوَّدة الوثيقة الأمريكية، وليس ما هي فعلاً. وينبغي القول إن تلك المقالة ركّزت على طلب الأسد الانسحاب الكامل من الجولان. وفي ١٣ كانون الثاني/ يناير نشرت صحيفة **هآرتس** الإسرائيلية النصّ الكامل للمسودة التي قدمها كلينتون للشرع وباراك في ٧ كانون الثاني/ يناير، ومعها تقرير يزعم أن فاروق الشرع قدم لإسرائيل تنازلات أكثر مما قُدِّم في أية نقطة سابقة أثناء المحادثات السورية - الإسرائيلية(٣٠). وليس من المستغرب أن التقرير المنشور في **هآرتس** لم يذكر شيئاً عن الانسحاب من الجولان، ومن غير المستغرب أيضاً أن استطلاعات الرأي العام في إسرائيل أشارت إلى أن ٧٣ بالمئة من الناخبين اليهود الروس، و٦٣ بالمئة من ناخبي حزب شاس، يعارضون تخلي إسرائيل عن الجولان. وهذا ينسجم جيداً مع خبر على الصفحة الأولى من **هآرتس** يقول إن باراك لن يتخلى عن الجولان قط. وقد كُشِف في ما بعد أن الشخص الذي سرَّب الخبر إلى **هآرتس** هو نمرود نوفيك، الذي كان مستشاراً لشمعون بيريز في الشؤون الخارجية في الثمانينيات(٣١).

---

(٣٠) *Haartez*, 13/1/2000.

(٣١) Ross, *The Missing Peace: The Inside Story of the Fight for Middle East Peace*, p. 566.
يدَّعي روس أنه سمع هذا الكلام من مارتن إنديك.

وبحسب قول باراك، تلقى نوفيك نسخة من المسودة من عضو في الفريق الأمريكي، وهو ديفيد آرون ميلر، نائب دنيس روس.

وعلى الفور نأينا بأنفسنا عن كلتا المقالتين، مبيّنين أنه لم يحدث أي تسريب من قبل الوفد السوري، وأن المقالتين افتقرتا إلى الدقة في عرضهما موقِفَ سورية التفاوضي الكامل في شبردستاون. غيرَ أن التسريبات والضغوط المحلية المتشددة داخل سورية، أدت إلى إلغاء الجولة الثانية من المباحثات، ووصلت محادثات شبردستاون إلى نهاية مفاجئة. وقد مانع الرئيس الأسد في البداية في تلقي مكالمة من الرئيس كلينتون، إذ إنّ التجربة المريرة في شبردستاون بأكملها أزعجته، ولكنه قَبِلَ المكالمة في ما بعد في ١٨ كانون الثاني/يناير (انظر الملحق الرقم (٧)). وقد غادر باراك غرب فرجينيا مدّعياً أنه باعتباره رئيس وزراء إسرائيل المنتخب حديثاً لا يستطيع أن يبقى خارج البلاد أكثر من أسبوع. وغضب كلينتون منه غضباً شديداً كما هو معروف. وقبل أن يغادر الإسرائيليون شبردستاون، قال كلينتون لرئيس الوزراء الإسرائيلي: «لقد كسبتَ من هذه الجولة، ولكن جولة أخرى من هذا النوع ستكون كارثة فادحة لك ولي!»[٣٢].

(٣٢) أرشيف وزارة الشؤون الخارجية، ملف شبردستاون، كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠.

الفصل الحادي عشر

الرجل الذي لم يوَقّع

في أوائل شهر آذار/مارس من عام ٢٠٠٠، تلقى الرئيس الأسد مكالمة هاتفية من كلينتون وهو في منزله. وكنتُ موجودة للقيام بالترجمة، وضغطنا زر مكبِّر الصوت لنسمع ما لدى الرئيس الأمريكي ليقوله.

هدر كلينتون بصوته مفتخراً، وهو يقول: «يا سيادة الرئيس، لديَّ ما تريدونه». نظر الأسد إليّ بتعبير على وجهه يدل على الحيرة، وكأنما يقول: «ما الذي يعنيه؟ ماذا هناك ليقال غير الذي سبق أن قالته الولايات المتحدة من قبل؟» كان الأسد لا يزال في غضب شديد بسبب المحادثات التي أخفقت في شبردستاون، وكان يشك في صحة أن يكون لدى كلينتون شيء يقدمه حقاً بعد أن خذله إيهود باراك، وخَذلنا نحن معه، على نحو سيئ جداً قبل شهرين فقط، أي في كانون الثاني/يناير. لكن الرئيس السوري أدرك أن تلك كانت سنة كلينتون الأخيرة في منصبه، وأنه كان مستميتاً، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، في إحداث اختراق في المحادثات السورية - الإسرائيلية. وكنا نعرف أنه يريد أن ينال جائزة نوبل للسلام التي عمل جاهداً للحصول عليها خلال الأعوام الثمانية التي تولى فيها الرئاسة. لكن الأسد كان يعرف أيضاً أن ذلك كان العام الأول لإيهود باراك في منصبه، وأن رئيس الوزراء الإسرائيلي لم يكن في عجلة من أمره لإعادة هضبة الجولان إلى سورية، وهذا شيء كان واضحاً جداً إذا أخذنا بالاعتبار انسحابه من شبردستاون.

كان كلينتون يستعد لزيارة الهند وباكستان، واقترح الاجتماع بالرئيس الأسد قبل رحلته إلى الشرق الأقصى. قال الأسد بلهجة لطيفة: «أنا في غمرة تشكيل حكومة جديدة في سورية، ولا أرى من المستحسن لك أن تأتي إلى دمشق في هذا الوقت لئلا يساء تفسير ذلك».

كان الأسد فعلاً يجري عملية تشكيل حكومة جديدة يرأسها محمد مصطفى ميرو، لتحلّ محل حكومة محمود الزعبي المنهكة، والتي بقيت في الحكم أكثر من عقد من

الزمن. لكن الأسد في محادثته مع كلينتون كان يسعى إلى تأكيد نقطتين: النقطة **الأولى**، هي أنه لم يشأ أن يبدو أن للرئيس الأمريكي أي ارتباط بالسياسة الداخلية السورية. فقد تكرر ظهور السياسيين الأمريكيين في الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٩٤، لتزويد عرفات بالتوجيهات كلما توترت علاقته بحركة حماس، أو لتأنيبه كلما أبدى تراخياً مفرطاً في ما يخص أمن إسرائيل. ولم يكن الأسد ليسمح بمثل هذا التدخل في دمشق. ويجب أن نتذكر أن ذلك كان العام الثلاثين للأسد في السلطة، وبحلول ذلك الوقت كان يستطيع فعل أي شيء يعجبه - على الصعيد المحلي - من دون أن يتعرض لأية أسئلة من الشعب السوري. فما من أحد سيشك في حكمته، وفي وطنيته، إذا ظهر كلينتون في دمشق أثناء قيام رئيس الوزراء المكلف محمد مصطفى ميرو بتشكيل الوزارة. ساورت السوريين بعضُ الشكوك في الماضي حول جوانب معينة من سياسة الرئيس الخارجية، متسائلين، على سبيل المثال، عن الحكمة وراء دعمه إيران بعد الثورة الإسلامية في عام ١٩٧٩، أو عملية عاصفة الصحراء عام ١٩٩١.

ولكن بحلول شهر آذار/ مارس عام ٢٠٠٠، أيقن المواطن السوري أن الرئيس يعرف ما هو الأفضل لمصلحة الشعب السوري ووثق به من أعماق قلبه في ما يتعلق بالشؤون الخارجية. فقد ثبت أن كل القرارات التي اتخذها الأسد منذ عام ١٩٧٠ - حتى التي لم تلقَ قبولاً شعبياً - كانت في مصلحة سورية. وينطبق هذا حتى على قرار سورية إرسال جنود إلى لبنان عام ١٩٧٦، وقرار الامتناع عن دعم صدام حسين في حربه الطويلة مع إيران، ومن ثمّ قرارنا الصارم بأن نشارك في الائتلاف الدولي لتحقيق تحرير الكويت. ولن ينتقد أحد الأسد إن استضاف كلينتون أثناء تشكيل وزارة جديدة في سورية عام ٢٠٠٠. لكن الأسد نفسه كان حساساً تجاه كيفية رؤية الأكثرية الساحقة من السوريين لعلاقة الحب والكراهية القائمة بينه وبين الولايات المتحدة التي ما زالوا ينظرون إليها بارتياب.

والنقطة **الثانية** التي كان الرئيس السوري يحاول تأكيدها هي أن صبره قد أخذ ينفد، وأنه بدأ يفقد الثقة بعملية السلام بأكملها. كان الأسد يرسل إشارة مهذبة إلى كلينتون بأن سورية ليست الآن في عجلة لتحقيق أي شيء مع إسرائيل. وينبغي ذكر أن هذا تزامن مع نشر وسائل الإعلام العالمية، وخصوصاً الصحف الأمريكية والإسرائيلية، أخباراً مبالغاً فيها عن صحة الأسد، مدّعية أنه كان «مستميتاً» في التوصل إلى معاهدة سلام لتأمين انتقال سلطة سلس إلى ابنه بشار الأسد.

أولاً: حالة الأسد الصحية

الجدير بالذكر أن ما قيل عن حالة الرئيس الأسد الصحية في تلك الفترة كان أسطورة مجنونة اختلقتها الولايات المتحدة، ثم صدقتها في ما بعد، وقد ثبت أن لا صحة على الإطلاق لكلّ التخمينات أنه لم يكن على الدرجة نفسها من حدة الذكاء والإدراك أثناء وجوده في جينيف، كما كان من قبل، وهذا ما سأبيّنه في مكان لاحق من هذا الفصل. يذكر مارتن إنديك في مذكّراته: «بدأت إشارات الإنذار تظهر في آذار/ مارس، حين حاول كلينتون مكالمة الأسد لترتيب لقاء قمة في جينيف. في الظاهر، كان هذا بالضبط ما ينتظره الأسد، ولكن تكرر تأجيل المكالمة. كان الأسد في ذلك الوقت منهمكاً في إعادة ترتيب نظامه، لكن إذا كان مشغولاً بالقضايا الداخلية إلى درجة تمنعه من لقاء كلينتون للتفاوض في السلام، فهذه إشارة واضحة إلى كيفية تحوّل أولوياته»(1). وكان إنديك سلبياً جداً في تصويره لحالة الرئيس الأسد الصحية في كل تقاريره إلى الرئيس كلينتون قبل جينيف. وفي مذكّراته، يتذكر اللقاء التالي، ومن الضروري اقتباس ما أورد وتحدّيه في آن واحد. فهو يقول:

«وجدنا الأسد رجلاً مريضاً، ووجهه الذي هزل يكاد يبدو كوجه هيكل عظمي، ويده حين يصافح عظْمية وضعيفة. وحين حيّاني قال لي: «سيد إنديك، لم أرك منذ سنوات. يجب أن تكثر من زياراتك لنا». من الواضح أنه لم يتذكر لقاءنا قبل سبعة أشهر. وخانته ذاكرته أيضاً في جوانب أكثر أهمية. فبعد أن كان يسحر وزراء الخارجية الأمريكية بذكائه المتوقد ويستحوذ على انتباه جلسائه ساعات وهو يسرد أحداثاً من التاريخ العربي، من دحر صلاح الدين للصليبيين إلى ما يفترض أنه خيانة السادات في كامب ديفيد، صار لا يميّز بين كلينتون وباراك. ويبدو أنه كان مشوشاً، بحيث إن جمال هلال، في إحدى اللحظات، مال نحوي وهمس إليّ: «إنه لا يفهم ما نتحدث عنه»»(2).

كان هذا التقييم مغلوطاً جداً. وأودّ أن أؤكد أن كلّ ما ورد فيه هو معلومات خاطئة أذيعت عمداً، وليس عن طريق الخطأ. وهو الذي جعل كلينتون حريصاً على لقاء الأسد في شهر آذار/ مارس، مع تأكيد مساعديه أن الأسد سينحني بسهولة بسبب اعتلال

---

(1) Martin Indyk, *Innocent Abroad: An Intimate Account of American Peace Diplomacy in the Middle East* (New York: Simon and Schuster, 2009), p. 275.

عبارة «إعادة ترتيب نظامه» هي مبالغة فادحة من جانب إنديك، فلا ريب أن تشكيل وزارة ميرو الجديدة لم يكن «إعادة ترتيب».

(2) المصدر نفسه، ص ٢٤٢.

صحته. ولا شك في أن من الأسباب الأخرى التقارير التي كان كلينتون يتلقاها من بعض أصدقائه في الوطن العربي، الذين كانوا يراهنون على استعداد سورية للسلام وفق الشروط الأمريكية. وعلى سبيل المثال، قَدِم الرئيس المصري مبارك إلى سورية في ٢٢ كانون الثاني/ يناير عام ٢٠٠٠، وبعد عودته إلى القاهرة أخبر كلينتون أن «الأحوال قد نضجت» للسلام مع سورية. وردّد بندر بن سلطان، سفير العربية السعودية في واشنطن الذي وصل إلى دمشق بعد أيام، ذلك الرأي، إذ أخبر كلينتون أن «الرئيس الأسد يريد الوصول إلى سلام مع إسرائيل في جولة حاسمة واحدة». ولمّا كنتُ في ذلك الوقت قد أمضيت زمناً طويلاً وأنا قريبة جداً من الأسد، يمكنني أن أؤكد للقراء، بعد أكثر من أربعة عشر عاماً بعد وفاته، أن التقييمات الثلاثة جميعها - تقييمات إنديك ومبارك وبندر - كانت بعيدة كل البعد عن الحقيقة.

اقترح الأسد أن يجتمع إلى كلينتونَ في جنيف بعد عودته من الشرق الأقصى بدلاً من دعوته إلى دمشق، كما سبق أن فعل في تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٩٤. وافق كلينتون، ولكن بعد بضع دقائق، طلب مستشاره للأمن القومي ساندي برغر رقمنا مرة أخرى، وأراد أن يتحدث إليّ مباشرة. كنت لا أزال مع الرئيس الأسد في الغرفة حين أخبرني برغر أن الرئيس كلينتون حريص جداً على بقاء المسألة «في طيّ الكتمان الكامل في الوقت الحاضر، وتحاشي إعلانها لوسائل الإعلام السورية. وكانت الغاية من ذلك هي ألا يُقْتَل اجتماع القمة ويُجْهَز عليه قبل أن يُعقد. وأخبرني برغر أنه «لن يحضر أي طرف ثالث،» مشيراً بذلك إلى الإسرائيليين طبعاً. واتفقنا على أن يجتمع القائدان في فندق إنتركونتننتال في السادس والعشرين من آذار/ مارس عام ٢٠٠٠، وهو المكان الذي اجتمعا فيه أول مرة قبل ستة أعوام.

في ذلك الوقت، كانت لدينا أسباب كثيرة للاعتقاد بأن كلينتون جاد في ما يتعلق بالسلام، ولكن للأسف لا يمكن قول الشيء ذاته عن كلّ أعضاء فريقه للسلام. وحين قابل الأسد وزيرة الخارجية أولبرايت أول مرة في أيلول/ سبتمبر عام ١٩٩٧، قال لها: «كيف يمكننا الحديث عن السلام مع حكومة إسرائيلية لا تعترف بما هو موجود في جيب الأمريكيين [أي وديعة رابين]»؟

أجابت أولبرايت: «ليست الولايات المتحدة مستعدة لإضاعة وقتها ووقت الآخرين كلهم في المنطقة. إن أردتم الدخول في الجد، يا سيادة الرئيس، فنحن جاهزون».

وردّ الأسد على كلامها هذا بقوله: «الشيء الأول الذي ينبغي على الإسرائيليين فعله هو الإقرار بالوديعة. وعليهم استئناف المفاوضات من حيث توقفوا. وأنا لا أستطيع أن أعطيك شيئاً في مجال الدبلوماسية العلنية أو في ما يدعى بناء الثقة، لأن ذلك سيخيب آمال الجميع في الشرق الأوسط، بمن فيهم نشطاء السلام في إسرائيل. إنني لا أستطيع إعطاء شيء لحكومة إسرائيلية لا تعطيني شيئاً في المقابل!» كانت إسرائيل مستمرة في انتهاك الحدود والفضاء الجوي اللبناني، ولا تزال تبني مستوطنات في فلسطين، وكانت عقول ساستها تتفتق عن نظريات إبداعية، مثل فكرة نتنياهو: «السلام مقابل الأمن، وليس الأرض».

ولـم يتغيّر أي شيء من هذا حين تولى إيهود باراك السلطة عام ١٩٩٩، والمحادثات التي أخفقت في شبردستاون شاهدة على مدى الركود الذي وصلت إليه مياه المحادثات السورية - الإسرائيلية. وبالنظر إلى الوراء، لا أعتقد أن الأسد كان لديه أمل، مهما يصغُر، بإنجاز أي شيء في جنيف. وقد ذهب إلى سويسرا إرضاء لبيل كلينتون، والأرجح أن تلك كانت «فرصة» أخيرة للرئيس الأمريكي لكي ينجح في الشرق الأوسط.

ثانياً: الإخفاق الأخير: جنيف ٢٠٠٠

وصلنا إلى جنيف في آذار/ مارس من عام ٢٠٠٠، وقبل الاجتماع أخبرني جمال هلال، مترجم كلينتون، أن الرئيس الأمريكي منهك بعد زيارته الآسيوية، ومريض، والسبب هو بعض الطعام الآسيوي الذي تناوله في الهند، ولذا قد يحتاج إلى الخروج من الاجتماع مراراً لدخول الحمام. كان هلال يقول لي هذا ليرى إن كان الرئيس الأسد سيعتبر أن ذلك ينطوي على إهانة، وليطلب من القائد السوري الإذن بذلك. ابتسمتُ، فقد أدركت بوضوح ما وراء عذر كلينتون، وقلتُ لهلال مازحة: «إذا كان الرئيس كلينتون بحاجة إلى دواء معين، ولا يمكنه العثور عليه، فسيسرنا أن نقدمه له».

حين أطلعت الرئيس الأسد على ما نقله هلال لي، قال الأسد: «من المحتمل أن كلينتون كان مريضاً ذلك اليوم، لكن من المؤكد أن عذره للخروج من الاجتماع لم يكن لاستعمال الحمام، بل للاتصال بإيهود باراك وإطلاعه على سير المحادثات مع سورية». لكننا بغضّ النظر عن هذا الأمر أبلغت هلال أن الرئيس الأسد لن يمانع في خروج كلينتون بين الفينة والأخرى، وتمنينا له «الشفاء العاجل».

بعد ذلك، توجهت إلى جناح الرئيس الأسد عشرين دقيقة قبل الاجتماع، لأنقل إليه ما سمعته من هلال. كان يستريح في سريره مرتدياً منامة زرقاء. فأينما كان الرئيس الأسد يسافر، كان يمضي ساعات طويلة في الفندق، ولا يخرج أبداً لارتياد الأماكن السياحية التي تستحقّ المشاهدة أو لتناول وجبة في مطعم. لكن هذه لم تكن حاله دائماً، ففي السبعينيات كان يتجول في كل مدينة يزورها لمشاهدة صروحها ومعالمها. وأما في أواخر التسعينيات، فقد كان يزور مدناً سبق له أن زارها من قبل، وأحياناً عدة مرات، ولذا يفضل التركيز على عمله بدلاً من مشاهدة المعالم. وحين لاحظ وجود شخص عند الباب أشار بيده وكأنه يقول: «ادخلي»، وقال لمساعديه: «دعوها تدخل، فبثينة بمنزلة ابنتي». ألقيت عليه التحية باحترام، وأخبرته بما سمعته لتوّي، فابتسم، وقال: «لا أعتقد أن لديهم أيّ شيء يقدمونه. لديّ شعور بذلك». وكرر الكلمات نفسها ونحن في المصعد، متجهين من الطابق العاشر إلى الاجتماع، لا بل علّق قائلاً: «ما كان يجب أن نأتي إلى هنا، فهذه مضيعة للوقت».

حين وصلنا إلى قاعة المؤتمرات في الثالثة بعد الظهر، كان جيش من المراسلين في انتظارنا. ومر الرئيس الأسد بمحاذاتهم، ودخل الغرفة الرئيسية، في حين دخل الرئيس كلينتون، لأسباب أمنية، عبر المطبخ. لم يبدُ عليه المرض بتاتاً. تقدم كلينتون من الرئيس الأسد وصافحه، وقال: «عمتم مساء، يا سيادة الرئيس. أنا لم ألتقِ بكم منذ وقت طويل».

ردّ الأسد الابتسامة بمثلها، قائلاً: «كنت سأسر جداً لو قابلتك مرات أكثر – أنا أشاهدك على شاشة التلفزيون هنا وهناك، لكنك لا تأتي إلى دمشق، يا سيد كلينتون».

لم تكن في الغرفة طاولة مستديرة للمباحثات، بل مجرد أرائك مرتبة بأناقة في غرفة صغيرة، مع طاولة للقهوة في الوسط، مزينة بمجموعة من الزهور المتنوعة الألوان. كان في الغرفة، إضافة إلى الرئيسين، وزيرة الخارجية الأمريكية أولبرايت، ودنيس روس، ووزير الخارجية الشرع، وأنا. بدأ كلينتون المحادثة بقوله: «كما جرى الاتفاق، أفضّل العمل ضمن مجموعات صغيرة».

هزّ الأسد رأسه بالموافقة، مشيراً إلى فريقه بالخروج، ثم نظر إليّ وأمرني: «ابقِي أنتِ». ثم أضاف بسرعة: «وفاروق [الشرع] أيضاً».

استمر كلينتون في الحديث: «لقد كنت أعمل مع باراك منذ أسابيع عديدة، من أجل إيجاد صفقة تحظى بقبول الرئيس الأسد. وهو يريد أن يتخذ ما أسماه «قرارات كبيرة بحجم بن غوريون». وسنستعرض النقاط واحدة تلو الأخرى، ونطلب منكم الموافقة أو الرفض أو التعديل والاقتراح». ثم طلب كلينتون إزاحة الزهور الموجودة على الطاولة، كي يتمكن من إطلاعنا على خريطة كانت مصوّراً ضخماً صوَّرته الأقمار الصناعية للجولان والوادي تحته، مخططاً باللون الأحمر. وقد اكتشفنا في ما بعد أن دنيس روس، وداني ياتوم رئيس هيئة موظفي باراك، عملا على إعداد نقاط المباحثات، وكذلك إعداد خريطة كلينتون. وتابع كلينتون، وهو يفتح الخريطة: «تريد إسرائيل سيادة كاملة على نهر الأردن وبحيرة طبرية، فهذا هو مخزونهم الرئيسي من المياه العذبة. هم يريدون البحيرة، ولديهم الاستعداد لمقايضة بعض الأرض في مكان آخر، وكذلك يريدون إبعاد السوريين عن نهر الأردن».

وفي المقابل، أراد باراك من سورية إعطاء إسرائيل سيادة على ممر عرضه عشرة أمتار على كلا جانبي البحيرة من ينابيع بانياس في الجولان الشمالي وحتى بحيرة طبرية. وأراد رئيس الوزراء الإسرائيلي، الذي رسم الخط بنفسه، أن يكون ذلك الخط على مسافة ٥٠٠ متر من الخط الساحلي لإتاحة المجال لبناء طريق. واقترح باراك إعطاء سورية حق صيد السمك في البحيرة مقابل السماح للإسرائيليين بزيارة ينابيع الحمَّة الحارَّة. ومن المفترض أن التعديل حول البحيرة البالغ عرضه ٥٠٠ متر، والذي يزيد على المئة متر التي سبق أن طلبها باراك، مبني على ما زعم الإسرائيليون أنه تنازلٌ قدمه الشرع في شبردستاون. ويجب ذكر أن المياه في البحيرة انخفضت مع مرور الوقت عند رأسها الشمالي، حيث كانت تنبثق من نهر الأردن، وهي تضيق تدريجياً إلى خمسين متراً عند الحافة الجنوبية للقطاع الشمالي الشرقي من البحيرة. وقال لنا رئيس الولايات المتحدة إن باراك «قَصَر متطلباته على احتياجات دولته الحيوية»، وهو مستعد للانسحاب إلى «حدود متفق عليها من الطرفين مبنية على خطوط الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧». أوقف الأسد الترجمة على الفور، وسأل: «ما هذه الكلمات «حدود متفق عليها من الطرفين»؟ أنا لا أقبل بها!». كان الرئيس في حالة غضب شديد حين نظر نحوي وسأل ببعض الانفعال: «عم يتكلمون؟ مبادلة أراضٍ؟ ذلك الجزء من بحيرة طبرية لنا، وكان دائماً لنا. أنا نفسي كنت أسبح فيها مع زملائي قبل الحرب. كيف يمكننا التخلي عنها»؟ ثم نظر إلى كلينتون وخاطبه باللغة العربية، وترجمت أنا كلماته بسرعة: «هذه أملاك شعبي»!

قالت أولبرايت للأسد إن باراك يعرض عليه ٩٠ بالمئة من الجولان، وأنه قد لا يتلقى هذا العرض مرة ثانية، لذلك فهو أمر يستحق التفكير فيه، ولا يجوز تفويت هذه الفرصة.

نظر الأسد عندئذ إلى الموجودين جميعاً في الغرفة، وقال: «حتى إن لم نستطع استعادتها الآن، فسنترك ذلك لأجيال المستقبل، لكننا لن نتخلى عنها أبداً. ما تقولونه لنا هو أن باراك ببساطة لا يريد السلام».

عندئذ شرح كلينتون أنه لم يقم أي رئيس وزراء إسرائيلي سابق بوضع عرض مفصّل لانسحاب إسرائيلي كامل، أو قدَّم خط انسحاب على خريطة، بغضّ النظر عما فيه من عيوب من وجهة نظرنا نحن السوريين. لكن هذا كان بلا فائدة؛ فالرئيس الأسد توقف عن الإصغاء.

قال كلينتون محاولاً تهدئة الأسد: «سيادة الرئيس، صار السياسيّون حتى المؤيدون للسلام لا يريدون إعادة هضبة الجولان إلى سورية. فهم يقولون: «يكفي أن تبرموا صفقة مع الفلسطينيين، ودعوا البحيرة ملكاً لإسرائيل إلى الأبد». ويمكنهم القيام بذلك تماماً؛ فهم يشعرون بأنهم قادرون على الاحتفاظ بالبحيرة مدة طويلة من الزمن. لم يبقَ هناك أحد في إسرائيل يريد السلام. الشخصان الوحيدان اللذان يريدان السلام، هما إيهود باراك وأنا»!

كان واضحاً أن الأسد فقدَ الاهتمام، إذ تجاهل ملاحظات كلينتون، وقال متذمراً: «لسنا مستعدين للتوقيع على السلام والتخلي عن أراضٍ».

أضاف كلينتون: «بقبول هذه الاتفاقية ستحصلون على تسعين بالمئة من الجولان، ومن دونها يا سيادة الرئيس قد لا تستعيدون أي شيء أبداً».

واستشاط الأسد غضباً مرة أخرى، وهو ينظر إلي، وأنا أترجم تلك الكلمات، التي أتخيل أن سماعها كان صعباً عليه جداً. «كيف يمكن لأي شخص أن يطلب منا التخلي عن أرضنا؟ تلك الأرض عزيزة جداً على قلوبنا، وقد ورثناها عن آبائنا». ثم أضاف: «لم يكن الإسرائيليون موجودين هناك قبل الحرب إطلاقاً! فكيف يمكنهم الادعاء أن الأرض أرضهم؟».

تكلم كلينتون بلطف، وقال: «إنهم يعرفون أنها لكم يا سيادة الرئيس. لكنهم يشعرون أنهم بحاجة إليها فقط من أجل الأمن».

ردّ الأسد على هذا بحدة: «إن كان بإمكان كل شخص أن يحصل على شيء ما لمجرد أنه يريده، فلن يسود سوى قانون الغاب».

حاول كلينتون التفسير، طالباً من الأسد أن «يفهمه». فقال الأسد: «إنني لا أفهم، ولا أريد أن أفهم. هذه ليست مهمتي، ومن الأفضل أن أترك الاجتماع».

شرع الأسد في النهوض، لكن كلينتون حثه على البقاء قائلاً: «إنني أحترم مشاعرك تجاه شعبك، ولا أريدك أبداً أن تتخذ قراراً محرجاً أو مهيناً لك. ولن أستاء إذا نهضت وغادرت وأنت تقول «كلا» لما عرضتُه عليك، لأنني في نهاية المطاف وسيط نزيه».

نظر الأسد إلى كلينتون من جديد، وهو يرجوه ضمناً أن يفهم موقف سورية: «لا أستطيع تنفيذ ذلك، يا سيادة الرئيس. إن فعلتُ، فلن أبقى رئيساً أكثر من يومين!».

عند هذه النقطة، حاولت أولبرايت أن تجعل نفسها ذات فائدة، لكنها في الواقع زادت الطين بلة بقولها: «كما تعلمون يا سيادة الرئيس نحن نعرض عليك تسعين بالمئة من الجولان. وقد لا يأتي وقت تستطيعون فيه الحصول على أكثر من ذلك».

قال الأسد بحدة، وقد أزعجته محاولة المسؤولين الأمريكيين حصره من طرفين: «لست مضطراً إلى استعادتها، ولستُ مضطراً إلى التوقيع على التخلي عن أي شيء!». ثم أشار إلى الخريطة المبسوطة أمامه: «ما الذي سأفعله بهذه الأرض التي تقترحون إعطاءها لي بدلاً من أرضي؟ أنا أعرف المنطقة جيداً. أتريدون أن تأخذوا المياه وأفضل أراض في المنطقة، وتعطوني جبالاً صخرية بدلاً منها؟».

إنني مضطرة إلى الاعتماد على أوراقي الشخصية لأذكر ما قيل أثناء هذا الاجتماع العاصف في جينيف. ففي الواقع، لم يُسَجَّل الحديث بين كلينتون والأسد رسمياً من قِبَلنا. كان دنيس روس يدوّن ملاحظات، ووعد أن يزوّدنا بنسخة. واليوم بعد أربعة عشر عاماً، ما زلنا بلا محضر رسمي عما حدث في آخر اجتماع قمة بين الأسد وكلينتون، وبالتحديد لأن روس لم يرسل لنا شيئاً. وكذلك لم نحصل على نسخة من الاقتراح الذي كان الوفد الأمريكي يقرأ منه، فقد زعموا أن النسخة «ليست نظيفة». وقد طلب كلينتون من روس تزويدنا بنسخة نظيفة، لكن هذه أيضاً لم تصل قط، رغم أننا طلبنا ذلك من روس أكثر من مرة، إلا أنه كان مصرّاً على ألا يزودنا بنسخة.

وصف الرئيس كلينتون الاجتماع في مذكّراته حياتي قائلاً:

«سافرتُ إلى جنيف لمقابلة الرئيس الأسد. كان فريقنا يعمل على جعل باراك يهيئ اقتراحاً محدداً حول سورية كي أقدمه. كنت أعرف أنه لن يكون عرضاً نهائياً، وأن السوريين سيعرفون ذلك أيضاً، لكنني اعتقدت أن اسرائيل إذا استجابت أخيراً بالمرونة نفسها التي أبداها السوريون في شبردستاون، فربما سنبقى قادرين على عقد صفقة... لكن ذلك لم يحصل.

حين قابلت الأسد، كان ودوداً، وأنا أهديه ربطة عنق زرقاء عليها باللون الأحمر صورة جانبية لأسد، كما يعني اسمه. كان الحاضرون في الاجتماع قلة، فقد انضم إلى الأسد وزير الخارجية الشرع وبثينة شعبان، ورافقتني مادلين أولبرايت ودنيس روس، وكان روب مالي من مجلس الأمن القومي يسجل الملاحظات. بعد مجاملات لطيفة، طلبت من دنيس أن يفتح الخرائط التي كنت قد درستها بدقة في التحضير لمحادثاتنا. وكان باراك، بالمقارنة بموقفه المعلن في شبردستاون، مستعداً لقبول مساحة أقل من الأرض حول البحيرة، مع أنه ما زال يطلب الكثير: أربعمئة متر (١٣١٢ قدماً)، وعدداً أقل من الأشخاص في محطة الاستماع، وزمن انسحاب أسرع.

لم يتح لي الأسد مجالاً حتى أنهي عرضي. فقد اهتاج، وعلى نقيض الموقف السوري في شبردستاون، قال إنه لن يتنازل عن أية قطعة من الأرض، وإنه يريد أن يجلس على حافة البحيرة ويغطس قدميه في الماء. حاولنا مدة ساعتين أن نحصل على تراجع من السوريين، ولكن ذلك كله لم يُجدِ نفعاً. لقد أدى الرفض الإسرائيلي الفظ في شبردستاون وتسريب ورقة العمل إلى الصحافة الإسرائيلية إلى إحراج الأسد وتدمير ثقته الهشّة. وكانت صحته قد تدهورت إلى حدّ أبعد حتى مما كنت أعرف. كان باراك قد أعدّ عرضاً محترماً. ولو أتى ذاك العرض إلى شبردستاون لربما انبثقت اتفاقية... وبعد أن افترقنا في جينيف، لم أر الأسد مرة أخرى أبداً»[٣].

قررنا أخذ استراحة، صعد الرئيس الأسد أثناءها إلى غرفته لينال بعض الراحة. ولم تزد مدة الاجتماع الأول على ثلاثين دقيقة.

وبينما كان القائدان يخرجان من غرفة المؤتمرات، قال كلينتون للرئيس السوري: «أريدكم أن تواصلوا العمل من أجل السلام».

أجاب الأسد: «أنا الذي أريد منك أن تعمل من أجل السلام».

(٣) Bill Clinton, *My Life* (New York: Knopf, 2004), pp. 903-904.

ابتسم كلينتون، وقال: «من المؤكد أن علينا الاستمرار في جهودنا، لأننا إن لم نفعل، فإن دنيس لن يعرف كيف يعيش حياته».

كان دنيس يسير خلف الرئيسين مع مارتن إنديك. التفت الأسد إليه، ثم قال لكلينتون: «لن نصل إلى السلام أبداً ما دام دنيس يعمل من أجله!».

عُقد اجتماع ثان في الثامنة مساء، تبعه اجتماع منفرد بين الشرع وأولبرايت. حين انتهينا، صعدنا إلى غرفنا للعمل على إعداد بيان صحفي مشترك، لكن الأمريكيين رفضوا ذلك، إذ لم يكونوا سعداء بما أنجز في جنيف، معتقدين أنه يجعل الرئيس كلينتون يبدو سخيفاً أمام الإسرائيليين. وحاول كلينتون إنقاذ الموقف بالقول إنه لن يستطيع تقديم بيان مشترك من دون أن يشاور باراك أولاً.

بعد أن حزمنا حقائبنا للعودة إلى الوطن، قدمت إدارة فندق إنتركونتيننتال ساعة يد سويسرية هدية للرئيس الأسد، تقديراً لاختياره الفندق موقعاً للقاءات القمة بينه وبين الرؤساء الأمريكيين منذ الرئيس كارتر. وحين خرجنا كان الصحفيون العرب في كل مكان في الفندق، يأملون الحصول على تصريح من الرئيس الأسد. لكنه لوّح بيده لهم، وهمس يخاطبني: «أترين؟ لم تتح لنا فرصة رؤيتهم». وينبغي أن أذكر أن الصحفي العربي الوحيد الذي أطلعه الفريق السوري على ما جرى كان ساطع نور الدين، الذي جلس مع وزير الخارجية الشرع ومعي بعد أن اجتمع الرئيسان عصر ذلك اليوم. وحينما كنا في الطائرة، متوجهين إلى الوطن، لم يقل الرئيس الأسد شيئاً عن اجتماعه الذي أخفق مع كلينتون، خلافاً لما يحتمل أن يعتقده الكثيرون. وبدلاً من ذلك، بحث القضايا المحلية السورية، لأن فكره كان مشغولاً بالمؤتمر التالي للقيادة القطرية لحزب البعث، الذي كان قد حُدد موعده في أواخر شهر حزيران/ يونيو من عام ٢٠٠٠. تحدثنا عن الحكومة الجديدة، وعمّا يتوقعه الشعب من المؤتمر، ثم قال لي: «بثينة، هل تريدين أن تكوني سفيرة؟». فاجأني السؤال غير المتوقع، والذي لم يكن ضمن سياق الحديث، لكن هذا أظهر لي مدى اهتمام الرئيس بي شخصياً: «أخبروني أنك تودين أن تصبحي وزيرة أو أن تُعَيَّني سفيرة، فهل هذا صحيح؟». أجبت باستحياء أنني أريد أن أبقى بجانبه، أتعلّم منه، وأكون ذات فائدة في محادثته مع القادة الأجانب. لم يكن لديّ طموح سياسي أو مالي سوى أن أكون ما وصفه روس بأني «زوجان إضافيان من العيون والآذان» للرئيس السوري. ارتاح الرئيس الأسد لجوابي، وعلق بلطف: «في غيابك أخبرهم كم أنت جيدة».

وقبل استقبال مكالمة كلينتون في دمشق من بضعة أيام، كان وزير الخارجية فاروق الشرع قد أخبره أنني تلقيت عرضاً من جامعة شرق ميشيغن للتدريس في الفصل الخريفي. نظر الأسد إليه نظرة قاسية، وقال: «لا، لا، لن تتركنا بثينة أبداً»[٤].

لم أتركه، ولكن المحزن أنه بعد مرور ثلاثة أشهر فقط، تركنا حافظ الأسد.

ثالثاً: يوم حزين في دمشق (١٠ حزيران/ يونيو ٢٠٠٠)

لم يحدث الكثير في سورية أو في العلاقات السورية - الأمريكية أثناء الشهور الثلاثة الأخيرة من حياة الرئيس حافظ الأسد. ومرة أخرى، وخلافاً للتقارير الصحفية، استمر في حياته اليومية، يتوجه إلى مكتبه كل صباح كما كان يفعل طوال العقود الثلاثة السابقة، ويستقبل الشخصيات الأجنبية والعربية التي تطلب مقابلته في دمشق. ومن المؤكد أنه لم يكن «فاقد الحياة سريرياً» بحلول شهر أيار/ مايو عام ٢٠٠٠، كما نشرت الصحافة الإسرائيلية في ذلك الصيف. ففي صباح أحد الأيام نهض مبكراً كي يجري أطباؤه فحصاً روتينياً له. وقد أفادوا أن صحته جيدة، وأخبروه هو وزوجته: «أنت في حالة مثلى، يا سيادة الرئيس».

في اليوم نفسه، وبينما كان يرتدي ثيابه للتوجه إلى العمل، رنّ جرس الهاتف، وكان المتصل الرئيس اللبناني العماد إميل لحود من بيروت. كان الأسد يحب الرئيس لحود ويعامله معاملة الابن، وقد دعم ترشيحه للرئاسة في عام ١٩٩٨. ويعزى إلى لحود الفضل في الحفاظ على وحدة الجيش اللبناني في السنوات الأخيرة من الحرب الأهلية اللبنانية، وفي تأييد محور المقاومة، الذي حرر القسم الأعظم من جنوب لبنان بحلول شهر أيار/ مايو ٢٠٠٠، وهو إنجاز بطولي. وكان الأسد قد أعطى تعليمات إلى كبار المسؤولين السوريين، وكل حلفاء سورية في لبنان، بأن يُنسب فضل تحرير لبنان إلى اللبنانيين أنفسهم، وبالتحديد إلى لحود وحزب الله، وليس إلى سورية. وكان كثيراً ما يقول لي في أيامه الأخيرة: «هذا إنجازهم، وليس إنجازنا». ولا ندري ما قاله الرئيس اللبناني لنظيره السوري في ذلك الصباح، ولكن ما أعرفه حتماً هو أن آخر جملة قالها

(٤) قبلتُ في ما بعد عرض التدريس، ولكن بعد وفاة الرئيس في حزيران/ يونيو ٢٠٠٠. كانت صدمة رحيله أكثر مما يمكنني تحمله، وقد ذهبت إلى ميشيغن للهروب من الألم الذي سيسببه وجودي في دمشق في الأشهر التي تلت وفاته.

للحود، حسبما أخبرتني السيدة أنيسة مخلوف، أطال الله عمرها، هي: «نحن مدينون بذلك للأجيال القادمة». (كانا يتحدثان عن تحرير المقاومة جنوب لبنان في ٢٥ أيار/ مايو، أي قبل بضعة أيام). وفي منتصف المحادثة، أصيب الأسد بنوبة قلبية وشهق، ونادى زوجته. كانت السيدة الأولى في غرفة قريبة تعدّ بعض النقود من أموال الزكاة التي تنوي إرسالها إلى عائلات مستورة في المدن والقرى السورية. ولم تتوقف عن عدّ النقود، إذ ظنت أن زوجها يناديها لتساعده على تذكر أحد الأسماء أو التواريخ. ولكن، وبعد لحظات، حين دخلت الغرفة وجدت الرئيس الأسد متهاوياً على سريره، في حين كانت سماعة الهاتف وشريطها متدليين على الأرض. أخبرنا الرئيس لحود في ما بعد أن الأسد كان يحدثه عن «الأجيال القادمة»، وعن جعل الشرق الأوسط جزءاً من العالم يسوده السلام، خالياً من الحرب والموت والصراع. كانت تلك كلمات حافظ الأسد الختامية وأمنيته الأخيرة. وقد توفي في ذلك اليوم: ١٠ حزيران/ يونيو عام ٢٠٠٠، قبل أربعة أشهر من عيد ميلاده السبعين، أي لم يتجاوز التاسعة والستين من العمر.

لم أعرف على الفور ما حدث ذلك الصباح، إذ كنت مشغولة في منزلي، أساعد ابنتي في الإعداد لفحص الشهادة الثانوية. وكنت قد وعدتها أنها إذا نجحت بدرجات عالية في الامتحان الذي يهابه الطلاب جميعهم فسأعرّف الرئيس الأسد بها. ثم خابرني أحد جيراني، وهو ضابط في الجيش السوري قائلاً: «هل حدث شيء ما في البلاد؟ هناك حركة غير عادية في الشوارع». كنت قد قابلت الرئيس قبل بضعة أيام فقط، وبدا حينذاك في صحة ممتازة، كما ذكرتُ سالفاً، وكان مشغولاً بالإعداد لمؤتمر حزب البعث الوشيك الانعقاد. اتصلتُ بالقصر الجمهوري لأتكلم مع مدير مكتبه أبو سليم دعبول، لكنه لم يردّ على المكالمة، ووجدتُ ذلك غريباً. ثم خابرت عائلة الرئيس، ولكن لم أتمكّن من الحديث مع ابنته الدكتورة بشرى. ارتديت ثيابي، وتوجهت إلى مكتبي في وزارة الخارجية في المهاجرين، وأفكار مقلقة تدور في رأسي. كنت أشعر بفراغ في معدتي، وبخوف من أن شيئاً رهيباً قد حدث، لكنني لم أشأ القفز إلى أية استنتاجات جامحة. كانت شوارع دمشق مزدحمة، على نحو غير مألوف، ازدحاماً تجمعت فيه الحشود في الشوارع بطريقة لا تخلو من الفوضى قبل أن ينفض بسرعة. كان الناس في عجلة بالغة، وبدا عليهم القلق والانزعاج. كان الجميع يبدون وكأنهم توصلوا إلى النتيجة نفسها التي توصلتُ إليها: لقد حدث أمر جلل في دمشق. لكن لم يكن هناك جيش منتشر في الشوارع، ولا في حي المهاجرين، الذي لا يبعد عن القصر الجمهوري ومنزل الرئيس سوى بضع دقائق سيراً على الأقدام. لم تمتلئ الشوارع بالدبابات، ولا بالرجال في

الزي العسكري، ولا بالأسلحة عند كل زاوية، كما كان العالم يتوقع أن تشهده العاصمة السورية يوم وفاة حافظ الأسد. كان مكتب وزير الخارجية مكتظاً بالرجال الذين كانوا منهمكين في نقاش حول موضوع ما، إلى أن ظهرتُ على عتبة الباب. دخلت وسألت الشرع عن صحة الرئيس. لم يعطني جواباً مقنعاً، بل تمتم قائلاً: «كل شيء على ما يرام». ثم لاحظت ورقة على مكتبه، ملفوفة كما تُلَف الشهادة الجامعية، وكلمتا «الاستعدادات للجنازة» مكتوبتان عنواناً لها. عدتُ بنظري إلى الوزير ووجهي خالٍ من أي تعبير، وأنا أهزّ رأسي غير مصدقة وأحاول جاهدة ألا تنهمر دموعي». قال لي الشرع: «كوني قوية يا بثينة، أنت سياسية وبحاجة إلى أن تكوني قوية». ثم أضاف: «هذه مشيئة الله، ولا يمكن لنا الاعتراض عليها أو منعها. لقد توفي الرئيس هذا الصباح».

خاتمة

لقد مضى حتى الآن أكثر من أربعة عشر عاماً منذ أن شهدت عملية السلام في الشرق الأوسط آخر محاولة لها في جينيف، قام بها الرئيس الراحل حافظ الأسد والرئيس بيل كلينتون في ٢٦ آذار/ مارس عام ٢٠٠٠. ويمكننا الآن أن نتأمل مسألتين: ما حدث خلال عملية السلام في مدريد (١٩٩١ - ٢٠٠٠)، وتأثير ما حدث، وما لم يحدث في تلك المداولات في حياتنا اليوم.

وأود أن أؤكد أنني أكتب من أجل الأجيال القادمة، وأنني أَعدُّ نفسي ناقلة رسالة إلى تلك الأجيال. ومع أنني سورية، فأنا لا أؤيد ولا أعارض أي طرف في تقييمي للعملية، بل أكتب وأنا شاهدة صادقة آمل أن تكون التجربة المحبطة في تلك السنوات درساً لأجيال المستقبل يتعلمون منه، كيلا يكرّروا أخطاءنا.

يدهشني السياسيون دائماً، إذ لا يقولون ما يريدون على نحو مباشر، ونادراً ما يتوصلون إلى استنتاجات. وهم غالباً ينقلون رسالة غير مباشرة، ويتركونها إمّا لمرؤوسيهم، وإما إلى وقت آخر لتنضج. وفي ما يخصّ عملية السلام، كانت الحاجة الماسة تستدعي أن يتكلم الأشخاص المعنيون بلا مواربة، وفي لبّ الموضوع، وأن يراجعوا ما تم من اتفاق كي يتوصل الأطراف كافة إلى الفهم الواضح نفسه لما تم تقريره. وهذا لم يحدث أبداً. ولسوء الحظ، كانت المواضيع التي استهلكت معظم وقت المتحاورين وطاقاتهم هي مكان الاجتماعات وتواريخها، وأفضل طرق الاتصال، ومواعيد استئناف الاجتماعات. وكان الجوهر والتقدم الحقيقي يرجآن لأن الآراء المعلنة شديدة التباعد وكثيرة التعقيد. وفي الواقع، إنني لم أشهد إطلاقاً إضاعة للوقت على مثل

هذا النحو المنهجي والمتعمّد، وعلى مثل هذا المستوى العالي، وكله لقاء تكلفة باهظة. وإضافة إلى ذلك، كانت وسائل الإعلام مصمّمة على نقل الانطباع بأن تقدماً يتحقق، في حين يكون الأمر في الحقيقة خلافاً لما يُعلنْ. كان الغموض لاعباً أساسياً، وكانت هناك عقبات وعوائق واجهت كل من حاول إضفاء الوضوح على المجريات.

وبصفتي المترجمة بين الرئيس الأسد ومحاوريه الأمريكيين جميعاً، يمكنني أن أشهد أن حافظ الأسد كان دائماً يسعى إلى الوضوح. وقد اعتبره الأشخاص الذين تحدّث إليهم عنيداً، لأنه كان يرفض أية كلمات تطرح إن كانت قابلة لتفسيرات مختلفة أو لم تكن واضحة وضوح الشمس. كان يقول في كثير من الأحيان: «أريد أن أوقع على اتفاقية سلام يمكن لأجيال المستقبل أن تدافع عنها سنوات طويلة بعد أن أموت»، لكن لم يُكتب لاتفاقية السلام تلك أن تُبْرَم (يجب التنبيه هنا إلى أن اتفاقيات السلام التي تم التوصل إليها بين مصر وإسرائيل في كامب ديفيد، وبين الأردن وإسرائيل، وبين الفلسطينيين وإسرائيل في أوسلو، لم تولِّد حالة حقيقية من السلام بين العرب والإسرائيليين، وهذا هو السبب في وقوف حافظ الأسد ضد تلك الاتفاقيات. لم يكن موقفه يرجع إلى كونه ضد السلام في الشرق الأوسط، لكن تلك كانت الصورة التي صوَّرته بها وسائل الإعلام الغربية دوماً.

لقد نظرتُ أنا شخصياً إلى قضية السلام نظرة بالغة الجدّية، ولكن على حساب حياتي العائلية ومساري المهني وطموحي أن أكون دارسة متخصصة بالشاعر الإنكليزي بيرسي بيش شيلي، إذ كنت أنوي أن أنصفه هو وشعراء الحركة التشارتية في كتب كنت أنوي كتابتها في المستقبل، ولكنها لسوء الحظ تأجلت. وكنت في ذلك الوقت أعمل على تأليف كتاب عن الكاتبات الروائيات العربيات، تم أخيراً نشره تحت عنوان: **أصوات مكتشفة**، وذلك بعد تأخير دام عشر سنوات. وبعد أن أنجبتُ ابنتيّ ناهد ونازك في عامي ١٩٨٢ و١٩٨٥ على التوالي، أجّلت الحمل بطفل ثالث إلى أن يتحقق السلام. وفكرت أن أكتب عن معاناة النساء الفلسطينيات بعد أن تصبح تلك المعاناة في طيّ التاريخ. ولكن بعد أن قطعت الخطوة الإضافية من أجل السلام، وبعد أن مررت بتجربة ثلاث سنوات من المفاوضات التي سارت في طريق مسدود، قررت أن أحمل مرة أخرى. ولربما كان شعوري بعجزي عن ليِّ ذراع التاريخ، هو ما جعلني أرى أنّ ولادة طفل ثالث شيء ذو قيمة أستطيع القيام به من أجل عائلتي، ومن أجل نفسي. وخلال الأشهر التسعة من حملي، لم أتوقف أبداً عن العمل والسفر. فأنا وجنيني شهدنا

مفاوضات باراك والشهابي، وجلسات كثيرة جمعت الأسد وكريستوفر. ولم أكن أشعر بأي خجل من كوني المرأة الوحيدة الحاضرة - والحمل بادٍ علي بوضوح أيضاً - لأنني استمتعت بكوني حاملاً، واعتبرت تلك النعمة التي منَّ الله بها علينا، نحن النساء، ميزة خاصة تتمثل برعاية مخلوقات بشرية داخل أجسامنا مدة تسعة أشهر.

في ١٥ تموز/ يوليو ١٩٩٥، كنت أقوم بالترجمة للرئيس حافظ الأسد، الذي كان في ذاك اليوم يتحدث مع وزير الخارجية الأسترالي. بعد الاجتماع قال لي: «يبدو أن وقت وضعك قد حان؛ اذهبي إلى البيت واستريحي». لا بد من أنني كنت منتفخة تماماً، ولكن لمّا كان تركيزي موجهاً بأكمله إلى عملي، لم أُلقِ الكثير من الانتباه لمظهري أو لأحاسيسي. في يوم الأحد، ١٦ تموز/ يوليو ١٩٩٥، بقيت في منزلي، وقمت بتنظيف الشقة، وطبخت لعائلتي. وفي فجر يوم ١٧ تموز/ يوليو أدخلت إلى المستشفى. وبعد اثنتي عشرة ساعة من مخاض صعب، وُلد رضا في الساعة ٤:٤٥ من بعد ظهر يوم الاثنين ١٧ تموز/ يوليو ١٩٩٥. وفي الصباح التالي، خابرت القصر، وقلت إنني في حالة جيدة ومستعدة للعمل إن استدعت الحاجة.

ما أدهشني هو أنه خلال الشهرين التاليين احتفل الأصدقاء والجيران بولادة طفلي الصبي بطريقة لم أمرّ بها بتاتاً حين أنجبتُ ابنتي الجميلتين. لقد أحببت رضا وأسعدتني ولادته جداً، وأنا في سن الثانية والأربعين، لكنني كرهتُ موقف التحيز إلى الذكور المبالغ فيه والمتجذر بعمق في مجتمعنا. أذكر كيف تركتُ رضا في مدرسة حضانة لاستئناف عملي من أجل السلام حين كان عمره لا يزيد على شهرين. فقد بكيتُ وبكى، وعزّيت نفسي بأن أخبرته أنني آمل أن يعيش في زمن أفضل وأكثر سلاماً. وفكرتُ أنه إذا ساد السلام، نكون قد أنجزنا شيئاً يستحق الجهد والعناء، لأطفالي وأطفالنا جميعاً. والآن رضا في التاسعة عشرة من العمر، ونحن نمر بزمن أصعب جداً، لكنني كنت محظوظة للغاية بإنجابه في الوقت الذي كنا نعمل فيه بجهد بالغ مدة طويلة من أجل السلام، مع أن السلام لم يتحقق قط.

لقد عملتُ في إعداد هذا الكتاب عن عملية السلام السورية - الإسرائيلية أثناء أسوأ سنة في تاريخ سورية الحديث. فما أسماه الغرب «الربيع العربي» بدأ في تونس، وبعد أن اجتاح مصر وليبيا، وصل إلى سورية في الخامس عشر من آذار/ مارس عام ٢٠١١. والآن، وبعد انقضاء ما تجاوز ثلاثة أعوام، فقدنا ما يزيد على ٢٠٠,٠٠٠ شخص بين قتيل ومخطوف، وأكثر من ثلاثة ملايين شخص شُرّدوا داخل سورية وفي الدول

المجاورة. وما تعلمته من هذه الأوقات الرهيبة هو أن أهم الأشياء لنا هو أن نعيش في سلام وانسجام. وقد أظهرت هذه السنة على نحو لا يقبل الشك أن الافتقار إلى السلام في الشرق الأوسط ذو تأثير لا يمكن التنبؤ به ليس في الصراع العربي - الإسرائيلي فقط، بل في السياسات الداخلية للبلدان العربية أيضاً. لم يكن هناك أي شك في ذهني في أن تحقيق السلام هو قضية قيّمة، لكنني أشعر اليوم بذلك أكثر من أي وقت مضى على الإطلاق. البديل الوحيد للسلام هو الحرب، أو حروب صغيرة كثيرة تسبب الموت والتشريد لأعداد كبيرة من الأشخاص. ولكن العمل على أرشيف هذا الكتاب في القصر الجمهوري والخارجية ساعدني على التعايش مع الأزمة، فقد كانت قراءة أوراق حافظ الأسد ومحاضر جلساته تزيدني قوة وصلابة وتحملاً لما نمرّ به على صعوبته.

لكنني أودّ أن أؤكد أن اتفاقيات أوسلو لم تحقق السلام للفلسطينيين، وأثبتت بالضبط ما تنبّأ به حافظ الأسد لياسر عرفات، وهو أن «كل بند في تلك الاتفاقية يحتاج إلى اتفاقية مستقلة!» وقد أضاف: «لا يوجد شيء نهائي أو واضح وضوحاً كاملاً». وتبرهن الحالة الراهنة للصراع العربي - الإسرائيلي من دون أدنى شك على صحة الموقف الذي وقفته سورية من عملية السلام، بدءاً من مدريد في تشرين الأول/ أكتوبر من عام ١٩٩١، ووصولاً إلى جنيف عام ٢٠٠٠. فالسلام يحتاج إلى مكونيْن رئيسيين لكي ينجح: لا بد من أن يكون عادلاً، ولا بد من أن يكون شاملاً. وكما كان حافظ الأسد يقول في كثير من الأحيان: «لا يمكن لأمن أحد الطرفين أن يتحقق على حساب الطرف الآخر». وعلى الرغم من الحملات الإعلامية التي نفخت في أبواقها لكلّ من كامب ديفيد في عام ١٩٧٨، وأوسلو في عام ١٩٩٣، فإن شعوب المنطقة بعيدة جداً من العيش بسلام. هناك فارق كبير بين محاولة خلق ضجة مؤقتة توحي بإنجاز اختراق، وإيجاد سلام مستدام يمكنه الاستمرار سنوات قادمة ويأتي بالعدل والازدهار للشرق الأوسط. لقد قال عضو الكونغرس الأمريكي آرلن سبكتر للرئيس الأسد ذات مرة: «إذا وقعت اتفاقية سلام مثل عرفات، فستظهر صورتك في كلّ وسائل الإعلام في العالم». أجاب الرئيس الأسد بحزم: «أريد أن أوقع على اتفاقية سلام يمكن للأجيال القادمة أن تدافع عنها نظرياً وعملياً». وفي الواقع إن الشعب وأجيال المستقبل هم بوصلة جيدة للسياسيين.

خلال كتابتي هذه الكلمة الأخيرة، هناك الكثيرون من الأسرى الفلسطينيين المضربين عن الطعام، احتجاجاً على احتجازهم الطويل غير القانوني، وعلى إهمال

المجتمع الدولي لهم من دون أي خجل. وما من ريب في أن محنتهم ومقاومتهم ستستمران إلى أن يتم التوصل إلى سلام عادل وشامل لهم خصوصاً، وللوطن العربي عموماً. ومن الناحية الشخصية، أنعم الله عليّ بمولد أول حفيد لي، نجم الدين الصالح، وحفيدتي بثينة جواد شقوف. وتعطيني ولادتهما أملاً في أن تبقى ابنتاي وابني وحفيداي في السباق من أجل السلام، ومن أجل عالم أفضل. ومع أنني لم أفز في السباق، هم يعلمون أنني حاولت بأقصى ما استطعت. ففي واقع الأمر، نحن نعيش حياة قصيرة، وما يهم هو إبقاء الشعلة مضاءة ونقل قيمنا وحكاياتنا إلى الأجيال الصاعدة، من أجل أن تستمر هذه الأجيال في المحاولة، إن لم يكن في إنجاز أكثر الأهداف نبلاً، فليكن في الحفاظ على الشعلة مضاءة، وتسليمها إلى الأجيال القادمة من دون يأس أو قنوط.

وبينما أختتم هذه الكلمة الأخيرة، يشهد المسجد الأقصى كلّ يوم اعتداءات إسرائيلية غاشمة تهدف إلى تهويده، وتصيب نار الإرهاب الظلامي العراق وسورية ومصر وتونس وليبيا واليمن والجزائر، إضافة إلى الممارسات الإسرائيلية الإرهابية اليومية ضدّ شعبنا في أرجاء فلسطين كافة. ولا حلّ يُرتجى لتغيير هذا الواقع جذرياً إلا من خلال إدراك قومية هذا الصراع، وأن هدف إشعال فتن الإرهاب والاحتلال هو العرب والعروبة ومقدساتهم وعيشهم المشترك في هذه المنطقة المباركة. لقد اختارها الله، عزّ وجلّ، مهداً للديانات السماوية الثلاث، وأنموذجاً للتوحيد والعيش في إطار ﴿**يا أيها الناس**﴾ (سورة البقرة: آيات عديدة)، وليس في إطار فئة أو مذهب أو طائفة. إنّ الهجمة الشرسة على العرب في معظم أقطارهم تبرهن على أنهم مستهدفون عرباً، اختار الله لغتهم للقرآن الكريم. ولذلك فهم جديرون بأن يرصّوا الصفوف ويصبروا ويصابروا ويرابطوا إلى أن يؤسسوا وطناً عربياً خالياً من الاحتلال والعنف، ينعم في كنفه أبناؤنا وأحفادنا بنعمة العيش المشترك الجميل.

بهذا الأمل المشرق، ومع هذا الحلم الجميل، أختتم الرواية الصادقة لمسار عملية السلام السورية - الإسرائيلية.

الملاحق

الملحق الرقم (١)

رسالة من جورج بوش الأب
إلى حافظ الأسد، ٣١ أيار/ مايو ١٩٩١

البيت الأبيض
واشنطن
٣١ أيار/مايو ١٩٩١

سيادة الرئيس،

أكتب لكم مرة ثانية في أسبوع، وغايتي هنا أن أشارككم في أفكاري عن عملية السلام العربية - الإسرائيلية. لقد أبلغني الوزير بيكر بما جرى في ساعاته الطويلة من المحادثات في دمشق. وأخبرني أيضاً كل من الرئيس حسني مبارك والملك حسين عن اجتماعيهما الأخيرين بكم. ولا أزال أعتقد أن هناك فرصة حقيقية لإحراز تقدم نحو السلام الشامل في المنطقة. وأعتقد اعتقاداً جازماً أيضاً أن من مصلحتكم، كما هو من مصلحتنا، انتهاز هذه الفرصة.

في هذا الشأن، أرى أننا وصلنا إلى محطة حاسمة في جهودنا لإعداد مؤتمر سلام لجعل المفاوضات ممكنة. وقد حاولنا بناء هذه العملية بحيث تؤخذ احتياجات الأطراف جميعاً بعين الاعتبار على نحو منصف ومعقول.

بناءً على رؤيتي للوضع، لقد لبينا كل ما يعنيكم باستثناء أمرين. وأنا أفهم متطلباتكم، لكن المدخل الذي صممناه يوفر طريقة لمعالجتهما - وهما دور الأمم المتحدة في العملية وموضوع عودة المؤتمر إلى الانعقاد.

أولاً، في ما يخصّ دور الأمم المتحدة، ما نقترحه هو **سلّة من العناصر** سيكون لها تأثير تراكمي، وينبغي أن تلبّي أية متطلبات معقولة لكم حول مساهمة الأمم المتحدة. إضافة إلى ذلك، تلبي هذه العناصر، المقترنة برعاية الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، وبالمشاركة الأوروبية، كلاً من اختبار «الشرعية الدولية» واختبار «الرعاية المناسبة» الممثّلة في قرار مجلس الأمن الدولي الرقم ٣٣٨. وسأسرد هذه العناصر باختصار:

(١) سيحضر مراقب من الأمم المتحدة المؤتمر.

(٢) العملية مبنية على قراري مجلس الأمن الدولي الرقمين (٢٤٢) و(٣٣٨)، وتوافُق الأطراف جميعها على نقاط مرجعية تدعو إلى «**تسوية شاملة مبنية على القرارين الرقمين (٢٤٢) و(٣٣٨)**. وسينعكس هذا في كل وثائق المؤتمر وفي التصريحات العلنية.

(٣) سيودع الأطراف والراعيان المشتركان الاتفاقيات لدى الأمم المتحدة، وستُطْلَب مصادقة الأمم المتحدة عليها.

(٤) سيتفق الراعيان على إطلاع الأمين العام باستمرار على تقدم المفاوضات.

والبندان الثالث والرابع هما التزامان لم يكن بإمكاننا تقديمهما حين قابلكم الوزير بيكر آخر مرة. ولكن بعد المناقشة التي أجراها الوزير في إسرائيل، أنا في وضع يمكنني من القيام بذلك الآن.

ثانياً، كما تعلمون، موقفنا بشأن عودة المؤتمر إلى الانعقاد هو أن يتم بالإجماع. وفي الوقت نفسه، أود أن أضيف شيئاً آخر لم يتمكّن الوزير بيكر من نقله إليكم في دمشق، وهو أننا ننوي أن تكون مشاركتنا طوال المؤتمر ذات أهمية. سنكون نحن والاتحاد السوفياتي قوة دافعة وراء المفاوضات، ونضطلع بمسؤولية خاصة لإنجاحها، وندفع الأطراف إلى الأمام من خلال الملاطفة والضغط.

وأودّ أن أوضح أننا سنفعل هذا على الأساس الممكن الوحيد للسلام الشامل، وهو: الأرض مقابل السلام على كل الجبهات، بما فيها مرتفعات الجولان. ولن نغير موقفنا السياسي الأساسي هذا، ولن نغير من رفض اعترافنا بـ «ضم» إسرائيل المزمع لمرتفعات الجولان. وفي حين يخبرني الوزير بيكر أنه أوضح هذه النقاط لكم، نشعر كلانا أنها بحاجة إلى توكيد أكثر وإلى مزيد من التفكير العميق من جانبكم.

في هذا الصدد، لزيادة احتمال نتيجة ناجحة حول الجولان، فإنني كنت ولا أزال على استعداد لأن أعرض ضمانة أمنية من الولايات المتحدة للحدود التي تتفق عليها سورية وإسرائيل في ما بينهما. وهذا سيفوق التأكيدات التي سيعطيها الراعيان المشتركان (كما طلبتم) بأن تنفّذ الأطراف اتفاقياتها. هذه الضمانة الأمنية - التي هي غير مسبوقة وواسعة المدى - ستؤثّر في المفاوضات، وستكون نتيجتها أبعد جداً من أية رموز تتعلق بالأمم المتحدة أو بمؤتمر. ولم يكن اتخاذ قراري لمصلحة ضمانة أمنية مثل هذه أمراً سهلاً. لكنني اتخذته لاعتقادي أنه سيتيح أفضل فرصة لحل سلمي للمشكلات بين سورية وإسرائيل.

في هذه اللحظة، ومع أنني لست متأكداً، أعتقد أن إسرائيل مستعدة لأن تقول «نعم» لمؤتمر قائم على الشروط والإجراءات التي ذكرتُها. ومن الصعب عليّ أن أرى كيف يمكن أن يخدم رفضكم لهذه العملية مصلحتكم.

والحقيقة هي أننا نريد مشاركة سورية لأننا نسعى إلى سلام شامل. وفي الوقت نفسه، لا نستطيع أن نوافق على رفض بدء العملية حتى ولو اخترتم ألا تحضروا. إن علاقاتنا الثنائية تعتمد على أشياء كثيرة؛ ولكن كما هو الحال مع دول أخرى في المنطقة، يعتمد جزء مهم من تلك العلاقة على موقف سورية من السلام.

سيادة الرئيس، أريدكم أن تعلموا أنني أبقى ملتزماً شخصياً بالمبادئ التي ذكرتها في خطابي للكونغرس الأمريكي في ٦ آذار/ مارس. وعلى نحو مماثل، لا يمكنني أن أبالغ في التأكيد أن التنفيذ الناجح للحرب في الخليج أوجد فرصاً جديدة للتقدم في عملية السلام. وقد لا تأتي هذه الفرص الجديدة مرة ثانية ويجب انتهازها.

وكما ترون، أعتقد أن من المهم جداً لسورية أن تشارك. وإضافة إلى ذلك، وفي ما يتعلق بالنقطتين اللتين سببتا لكم القلق، نحن الآن في وضع نقدم فيه تأكيدات لم يكن بإمكاننا تقديمها حين زاركم الوزير بيكر في دمشق آخر مرة. ونحن بهذه التأكيدات

الإضافية وضماناتنا الأمنية والعناصر الأخرى في اقتراحنا وصلنا إلى أبعد ما يمكننا الوصول إليه إن أردنا الاستمرار في إنتاج عملية [سلام]. لذلك أحتاج إلى معرفة مدى استعدادكم للموافقة على هذه العملية: عملية واقعية سيجدها المجتمع الدولي حتماً معقولة.

وإذا أعلمتموني أنكم تميلون إلى المشاركة في مؤتمر سلام وفق الخطوط المبينة هنا، ومن قِبَل الوزير بيكر، سأكون على استعداد لأن أطلب من الوزير بيكر أن يعود إلى دمشق مرة أخرى ويعمل على تسوية التفاصيل.

وفي رأيي، إن اتخاذكم مثل هذا الموقف سيفتح إمكانات تاريخية لجلب السلام إلى جزء من العالم شهد الحرب مرات أكثر مما يُحتَمَل. وأنا آمل أن يستطيع الشرق الأوسط، بل والعالم، أن يعوّل على قيادتكم والتزامكم بالسلام.

المخلص

(التوقيع: جورج بوش)

صاحب الفخامة

حافظ الأسد

رئيس الجمهورية العربية السورية

دمشق

الملحق الرقم (٢)

رسالة من بيل كلينتون
إلى حافظ الأسد، ٢٧ أيار/ مايو ١٩٩٣

واشنطن العاصمة

٢٧ أيار/ مايو ١٩٩٣

عزيزي الرئيس الأسد

شكراً لكم رسالتكم المؤرخة في ٩ أيار/ مايو ١٩٩٣ التي قرأتُها بعناية. وأنا أقدّر الدعم الذي عبّرتم عنه للدور الذي تؤديه الولايات المتحدة في عملية السلام في الشرق الأوسط، وتأكيدكم من جديد التزامكم بتحقيق سلام عادل ودائم مع إسرائيل.

وقد لاحظتُ بصفة خاصة التزامكم بأن نعمل معاً لتحقيق اختراق نحو السلام هذا العام. وكما ذكرتُ في رسالتي السابقة إليكم، أعتقد أننا عند منعطف مهم في عملية السلام؛ إذ إن المفاوضات الثنائية، التي انفضت أخيراً في واشنطن، حققت بعض التقدم. ففي محادثات كل مجموعة تمت جدولة بعض الأوراق. وانتقلت الأطراف إلى الدراسة الجوهرية لكل من هذه القضايا الأساسية، لكن لا بد من القيام بالمزيد.

نُقَدِّر جهودكم في إعادة الأطراف إلى طاولة المفاوضات، وإن مشاركتكم في دبلوماسية علنية في تاريخ سابق من هذا الشهر هي خطوة إيجابية تبدأ ببناء الثقة وتساعد

على إيجاد مناخ مناسب في المفاوضات. لكن احتمال تحقيق اختراق شامل هذا العام سيزداد إذا عثرنا على طريقة لدفع المفاوضات السورية - الإسرائيلية إلى الأمام.

في رسالتي المؤرخة في ٨ نيسان/ أبريل ١٩٩٣، قدمت لكم أفضل اجتهاد لديّ حول الآلية التي ستنتج اختراقاً. كما أنني أكدت أن الولايات المتحدة مستعدة لتسهيل إحداث هذه الآلية، وفقاً لدورنا ك «شريك كامل». ومن الطبيعي أنني شعرت بخيبة الأمل تجاه قراركم تنحية هذا المدخل في الوقت الحاضر. وأنا مستمر في الاعتقاد بأن القناة السرية توفر أفضل وسيلة لكم ولرئيس الوزراء رابين ليختبر كل منكما نيّات الآخر، ويقرر إن كان الأساس متوفراً لاتفاقية تاريخية بين إسرائيل وسورية.

إنني أقدر تعبيركم عن الثقة بالولايات المتحدة باقتراحكم أن نقوم نحن بالتحقق من نيّات كل من الطرفين والتزاماتهما. وأقدر أيضاً استعدادكم لتزويدي، في ظل هذه الظروف، بإجابات مناسبة. وبينما أنا جاهز للنظر بهذا التعهد، هناك مسائل مهمة بحاجة إلى توضيح.

وكما ذكرتُ في رسالتي السابقة، بدأتُ في سبر مواقف رئيس الوزراء رابين، ولدينا الآن فكرة واضحة عن وجهة تفكيره. وذلك كان الأساس الذي جعلني أوصي بأن تجدوا أنتم وهو طريقة للتخاطب عبر قناة سرية. لكن إذا شعرتم أنكم لا تستطيعون القيام بهذه الخطوة الآن، فأنا سأحترم موقفكم. وفي الوقت نفسه، لكي نستطيع أن نقوم بالدور الذي تقترحونه، وأن نكون فعالين في القيام به، نحتاج إلى أن يكون لدينا فهم واضح لآرائكم حول القضايا الأساسية لمحتوى السلام الكامل وتوقيته وعلاقته بالعناصر الحساسة الأخرى للانسحاب، والأمن، والشمولية.

إذا شعرتم أن بإمكانكم تزويدنا بما تفكرون فيه حول هذه القضايا الأساسية، سأتمكن من السير وفق الخطوط التي تقترحونها.

لكنْ، هناك نقطتان لا بدّ من فهمهما. أولاً، إن استعدادنا للتأكد، وحسب تعبيركم، للتحقق من «نيات» الطرفين والتزاماتهما عبر قنوات خاصة، ليس بديلاً لقناة سرية بينكم وبين الإسرائيليين. وثانياً، في الوقت الذي نحن فيه مستعدون للمساعدة على توضيح النيات والالتزامات الخاصة بالجانبين ونقلها إليكم وإلى إسرائيل، نحن لا نستطيع ضمان نقل مثل هذه الالتزامات الأساسية أو تعهد ذلك، إذ يجب أن تكون مباشرة بين الفريقين. ودورنا، شريكاً كاملاً، هو تسهيل هذا التبادل، وقد يكون ذلك في البداية عبر

الولايات المتحدة. وحين يتم هذا ويطمئن كل منكما إلى فعالية القناة الخاصة، أعتقد أنه يجب عندئذ إحداث تلك القناة من أجل تبادل الالتزامات مباشرة. وأنا أبين هذه النقاط لأنه ليس بإمكاني ضمان التزامات لا يمكنني وحدي تحقيقها، كما أن ذلك ليس في مصلحتكم. بالطبع، أنا لا أشير هنا إلى ترتيبات الأمن الحدودية التي أعدت تأكيدها لكم في رسالتي السابقة.

الوقت قصير، وستستغل القوى المناهضة للسلام إخفاقنا في التحرك الآن. وأنا مستعد، يا سيادة الرئيس، للتحرك السريع لتنفيذ اقتراحكم، لكن هذا يعني أننا نحتاج إلى فهم واضح لمواقف سورية الأساسية. وأنا في انتظار ردّكم وآرائكم حول أفضل طريقة نتبعها. وإذا كنتم على استعداد للعمل معنا على هذا الأساس، سأرسل الوزير كريستوفر للاجتماع بكم في الوقت المناسب.

أنا مقتنع أن فرصة تاريخية متاحة لتحقيق سلام سيبدّل الشرق الأوسط. وهي تحتاج إلى الشجاعة والحكمة من الأطراف كافة للتوصل إلى «سلام الشجعان،» لكنني واثق أننا بالعمل معاً سنتجاوز الماضي، ونبني مستقبلاً جديداً أفضل لشعوب المنطقة جميعاً.

المخلص

(التوقيع)

وليام ج. كلينتون

صاحب الفخامة

حافظ الأسد

رئيس الجمهورية العربية السورية

دمشق، سورية

الملحق الرقم (٣)

رسالة من بيل كلينتون
إلى حافظ الأسد، ٤ تموز/ يوليو ١٩٩٣

البيت الأبيض

واشنطن

٤ تموز/ يوليو ١٩٩٣

عزيزي الرئيس الأسد

أنا بصدد إرسال المنسق الخاص للشرق الأوسط السفير دنيس روس لحمل هذه الرسالة إليكم.

إنني ما زلت مكرساً نفسي لهدف السعي إلى اختراق نحو السلام في الشرق الأوسط في عام ١٩٩٣. وأنا أفهم أهمية التفاوض بين سورية وإسرائيل من أجل تحقيق هذا الهدف. ولا شك في أننا إذا استطعنا العثور على وسيلة لفتح الطريق المسدود في مفاوضاتكم، فسيكون لذلك أثر بالغ في جهودنا لإنجاز حل شامل.

من خلال تبادل الأحاديث والرسائل من قِبَلي أنا ووزير الخارجية كريستوفر معكم ومع رئيس الوزراء رابين، أعتقد أن كليكما يشارك في هدفنا المتمثل بتحقيق سلام

عادل ودائم وشامل وحقيقي مبني على قراري الأمم المتحدة الرقمين (٢٤٢) و(٣٣٨) ومبادلة الأرض بالسلام.

نحن الآن بحاجة إلى إيجاد آلية فعالة لتحويل هذا الالتزام المشترك إلى اتفاقيات ناجمة عن التفاوض. ويجب أن تتيح لنا هذه الآلية سبر مواقف الطرفين، ونقل أفكار كل جانب إلى الجانب الآخر على مستوى سياسي، وبذلك نجعل ممكناً لكل منكما اكتساب ثقة أكبر بصدق الطرف الآخر.

يمكن لنا بهذه الطريقة أن نسهّل تبادل الالتزامات، ونعززه، ونؤدي الدور الذي لا يستطيع أحد غيرنا أن يؤديه، وهو دور الشريك الكامل والوسيط النزيه. في هذا الصدد، أرسل الوزير كريستوفر لكم أفكاراً حول معالجة جوهر قضايا الأرض والسلام والأمن. وكما قلتُ في رسائلي السابقة، أنا مستعد في الوقت المناسب لإرسال الوزير كريستوفر إلى المنطقة لإنجاز هذا الدور.

وسيكون تقديري لكم كبيراً إذا أشركتم دنيس روس وفريقنا للسلام في أفكاركم حول أفضل طريقة نتبعها كي يبلغوها لي ولوزير الخارجية. بعدها سنتمكن من تكوين رأي حول الخطوة التالية في متابعتنا لقضية السلام النبيلة في الشرق الأوسط.

المخلص

(التوقيع) بيل كلينتون

صاحب الفخامة

حافظ الأسد

رئيس الجمهورية العربية السورية

دمشق

الملحق الرقم (٤)

رسالة من بيل كلينتون إلى
حافظ الأسد، ٤ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣

واشنطن العاصمة

٤ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣

عزيزي الرئيس الأسد

لقد وصلنا إلى لحظة تاريخية في بحثنا المشترك عن سلام شامل ودائم في الشرق الأوسط. فقد تحقق إنجازان شديدا الأهمية: الإعلان عن اتفاق بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية على حكم ذاتي مؤقت، بدءاً بأريحا وغزة؛ والنص الوارد في الاتفاقية الداعي إلى مفاوضات بشأن الوضع الدائم تفضي إلى تطبيق قراري مجلس الأمن الدولي الرقمين (٢٤٢) و(٣٣٨).

هاتان خطوتان إلى الأمام مهمتان للفلسطينيين. وإذا استُخدمتْ الاتفاقية محفزاً للتقدم نحو تسوية شاملة، فستساعد على توفير الأمل لشعوب المنطقة كافة.

وقد تم التفاوض في هذه الاتفاقية على نحو مباشر بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية. ومع ذلك، لم يكن من الممكن إنجازها من دون الالتزام الإيجابي من كلّ

الأطراف ذات العلاقة بعملية السلام. وفي الحقيقة، لولا التزامكم التاريخي بعملية مدريد، لما تحقق الاختراق في المسار الفلسطيني - الإسرائيلي.

كما أنني متفائل بالتقدم الذي تحقق حديثاً في التبادلات الخاصة بينكم وبين رئيس الوزراء رابين والوزير كريستوفر. ويمكن للتقدم على المسار الفلسطيني أن يمهد الطريق لمزيد من التقدم على المسارات الأخرى الباقية جميعها.

سيادة الرئيس، أنا شخصياً ملتزم بتحقيق اختراق في اتجاه السلام الشامل في عام ١٩٩٣. وأنا ملتزم بالعمل معكم على وجه الخصوص لإنجاز اتفاقية سلام بين سورية وإسرائيل بسبب ما ستنتجه من تأثير قوي في السلام والاستقرار في المنطقة. وفي هذا السياق، آمل أن تبذلوا كلّ ما بوسعكم لدعم الاتفاقية بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، لأنها ستساعد على تحقيق الاختراق الشامل الذي نسعى كلانا إليه. كما أطلب أن تستخدموا نفوذكم لكبح تلك المجموعات الفلسطينية المعارضة للاتفاقية، والتي قد تحاول تقويضها من خلال العنف. وأنا أعوّل على دعمكم. هذا أمر أساسي.

إن في متناولنا فرصة لإنجاز حل عادل وشامل وحقيقي للصراع في الشرق الأوسط. وعلينا الآن أن نضاعف جهودنا أضعافاً وألا نسمح لأعداء السلام بتعويقنا بعد أن اقتربنا جداً من إدراك هدفنا المشترك. وأنا على يقين أننا بتعاوننا الوثيق في العمل ستتمكن من ضمان تحقيق الوعد بالسلام للجميع.

المخلص

(التوقيع)

وليام ج. كلينتون

صاحب الفخامة

حافظ الأسد

رئيس الجمهورية العربية السورية

دمشق

الملحق الرقم (٥)

رسالة من بيل كلينتون إلى حافظ الأسد،
٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٣

البيت الأبيض

واشنطن

٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٣

عزيزي الرئيس الأسد

أنا بصدد الطلب من الوزير كريستوفر أن يحمل هذه الرسالة إليكم دليلاً على التزامي المستمر بتحقيق سلام حقيقي وشامل بين العرب وإسرائيل بأسرع وقت ممكن.

كما تعلمون، كنا قد اتفقنا على أن يكون عام ١٩٩٣ عام الاختراق في عملية السلام في الشرق الأوسط. وقد حصل هذا الاختراق فعلًا. فإعلان المبادئ الإسرائيلي - الفلسطيني هو خطوة مهمة إلى الأمام يجب أن تسهِّل التقدم السريع على المسارات الأخرى.

إننا لم نتكاسل في بذل جهودنا للاستفادة من ذلك الاختراق. فقد سعينا إلى تطبيق الاتفاقية بسرعة وفعالية، وقمنا بِحَثّ الآخرين على أداء دورهم في إيجاد مناخ يفضي إلى مزيد من الخطوات نحو السلام الشامل. ومن أكثر الأمور أهمية هو تكريسنا

طاقة خاصة لإعادة تفعيل المفاوضات بين سورية وإسرائيل لأننا نفهم أن الاختراق هنا أساسي لتحقيق هدفنا المشترك.

وكما سيشرح الوزير كريستوفر لكم، لقد أثمرت جهودنا. وكنتُ واثقاً أنكم ستوافقون على أن الأساس قد وُضِع من أجل تقدم حقيقي. وبوجود هذا الأساس، سيقدم الوزير كريستوفر لكم أفكاراً حول كيفية تحركنا إلى الأمام على أفضل وجه. وأعرف أنكم ستدرسون بعناية مقترحات الوزير كريستوفر وأنا أتطلع إلى سماع تقريره عن طريقة عملكم معنا لتسهيل ما يلي من خطوات.

وفي مسيرتنا معاً نحو تحقيق هدفنا المشترك، بإمكانكم أن تثقوا أن السعي إلى سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط سيبقى أحد أولوياتي السامية، ما بقيت الأطراف مخلصة في التزاماتها.

المخلص

(التوقيع) بيل كلينتون

صاحب الفخامة

حافظ الأسد

رئيس الجمهورية العربية السورية

دمشق

الملحق الرقم (٦)

رسالة من بيل كلينتون إلى
حافظ الأسد، ١٢ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٩

البيت الأبيض

واشنطن

١٢ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٩

عزيزي الرئيس الأسد

يسرني أن ألتقي وزير الخارجية فاروق الشرع، وقد أحزنني سماع خبر مرضه. وأتمنى له الشفاء العاجل.

أكتب لكم الآن لأنني أعتقد أننا على وشك الوصول إلى لحظة الحقيقة المهمة لكم ولرئيس الوزراء باراك. ففي الأسابيع الماضية أجرينا مباحثات مكثفة مع كلا الجانبين. وقد اتضح لي من خلال محادثاتي معكم ومع رئيس الوزراء باراك، ومناقشات الوزيرة أولبرايت مع الطرفين، والاجتماعات في برن، والأحاديث المتبادلة في منطقة واشنطن، أن من الممكن تلبية طلبات الجانبين معاً. وقد بلورت الأحاديث المتبادلة أيضاً الخلافات الأساسية بين الطرفين.

ومع أن الفجوات حقيقية، فهي في حكمي ضيقة، وقابلة للحلّ حتماً. إن تحديد خط الحدود الفعلي، والعلاقة بين ذلك الخط الحدودي والسيطرة على موارد المياه الأساسية، والتفاهم الدقيق حول الإنذار المبكر، هي مجالات أساسية تحتاج في نظري إلى قرارات من القادة في هذه المرحلة، إن أردنا إبرام اتفاقية خلال مدة قصيرة من الزمن.

كنتُ أتوقع دوماً أن نصل إلى نقطة تتطلب اتخاذ قرارات من جانب القادة. كما كنت أعرف أنني كي أكون فعالاً في مساعدة كلا الطرفين على الوصول إلى نتيجة مقبولة لديهما، عليّ أن أنفذ ما تستدعيه الضرورة من لقاءات مباشرة على مستوى سياسي عالٍ بين الجانبين. ولا يوجد بديل لذلك إن أردنا التوصل إلى اتفاقية.

لقد قلت للوزير الشرع إنني سأفكر في النقاش الذي دار بيننا، وسأعدّ اقتراحاً لكم ولرئيس الوزراء باراك. وبعد دراسة مستفيضة، اقتنعت بأن هناك طريقاً منطقياً واحداً للوصول إلى اتفاقية، وهذا الطريق هو المباحثات المباشرة بين ممثلين سوريين وإسرائيليين رفيعي المستوى. ويمكن لنا أن نستضيف هذه المباحثات، ومن الممكن أن تكون مباحثات غير معلنة وسرية. ويجب أن تكون على المستوى السياسي لا الفني (التكنيكي). وسيكون هدفها إيجاد مستوى كافٍ من التفاهم حول القضايا الأساسية لإتاحة المجال لسورية وإسرائيل كي تبرما اتفاقية.

في ضوء المباحثات التي جرت إلى الآن، أخشى أننا إن لم ننتقل إلى مستوى سياسي، ولم نركز على القرارات الأساسية التي يجب على كلّ طرف أن يتخذها، فإن هذه الفرصة النادرة ستفوتنا. ومن المؤكد أنه إذا بقيت المباحثات عند هذا المفصل غير مباشرة، أو مباشرة، ولكن على مستوى فني، ففي اعتقادي أن العملية ستستمر بلا نهاية، وكل من الطرفين ينتظر من الآخر أن يتخذ قرارات، مع تزايد خطورة تدخّل أحداث أخرى لتقويض جهودنا.

ولو لم أكن أعتقد بإمكان التغلب على الفجوات، لما قدّمت هذا الاقتراح. أنا أدرك حاجاتكم إدراكاً كاملاً. وكما سبق أن أخبرتكم، ما أودعه رئيس الوزراء رابين في جيبي باقٍ ولم يُسْحَب. ومن حديثي مع رئيس الوزراء باراك، أنا واثق أنه سيلبي حاجاتكم تلبية ترضيكم إن اتضح أن متطلباته ستلبى أيضاً. ولا أرى أن هذا سيتم من دون لقاء مباشر على مستوى سياسي.

أنا مستعد لبذل جهدي كله للوصول إلى اتفاقية على هذا المسار. لكن إن قُدِّر لي أن أكون في وضع يمكنني من ذلك، فالزمن عنصر جوهري، ونحن الآن بحاجة إلى مدخل يجعل جهودي ذات قيمة. وأعتقد أن اقتراحي سيحقق ذلك.

ثقوا بأنني سأتقدم بالاقتراح نفسه إلى رئيس الوزراء باراك وأملي أنكما ستقبلانه. فهذا القبول سيشير إلى استعدادكما المتبادل لاتخاذ القرارات الضرورية لحل المشكلات الأساسية. وأنا أتطلع بأمل إلى ردّكم، إما من خلال اتصال هاتفي أو ربما بواسطة مبعوث شخصي.

إنني مقتنع أننا بالعزم والشجاعة نستطيع معاً أن نصوغ سلاماً مقروناً بالشرف والكرامة، سلاماً سيكون شاملاً، ويتضمن لبنان؛ سلاماً يوجد واقعاً استراتيجياً جديداً في الشرق الأوسط، وهو واقع مبني على علاقة أمريكية - سورية جديدة ومهمة. ولم يتوقع أي منا أن يكون هذا سهلاً، ولكن الآن وقد أصبح من المحتمل أن يكون السلام في متناولنا، أطلب منكم أن تقبلوا اقتراحي. وهذا سيمكنني من أن أؤدي دوري، وكذلك - كما أعتقد - أن أضمن ألا تضيع هذه الفرصة التاريخية.

المخلص

(التوقيع) بيل كلينتون

صاحب الفخامة

حافظ الأسد

رئيس الجمهورية العربية السورية

دمشق

الملحق الرقم (٧)

محضر المحادثة الهاتفية بين بيل كلينتون وحافظ الأسد، ١٨ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠

كلينتون: تحياتي، سيادة الرئيس

الأسد: تحياتي. إنني أشعر بالسعادة والارتياح كلما قابلتكم أو سمعت صوتكم في أية مكالمة هاتفية.

كلينتون: شكراً سيادة الرئيس. لقد فكرت ملياً في محادثاتنا الأخيرة، وأطلعتني الوزيرة أولبرايت على محادثاتها مع وزير الخارجية الشرع. وكما تعلمون يا سيادة الرئيس، إنني بعد الأسبوع الأول في شبردستاون شعرت بخيبة الأمل لأن الإسرائيليين لم يكونوا متجاوبين مع المسائل التي أبديتم فيها مرونة. وقد أوضحت لرئيس الوزراء باراك أننا بحاجة إلى أن نتحرك إذا أردنا أن ننجح، وأن على كل من إسرائيل وسورية اتخاذ قرارات صعبة. وبسبب محادثتنا معاً، أنتم وأنا، في المرة السابقة، حصلتُ من باراك على إعادة تأكيد لوديعة رابين، وكذلك على بدء عملية لتعيين حدود الرابع من حزيران/ يونيو، وعلى قضايا أخرى أيضاً.

الأسد: هذا جيد.

كلينتون: أعتقد أن هذا يلبي حاجاتكم، كما عبّرتم لي عنها، وكما رسم فاروق الشرع خطوطها العريضة، بدءاً من تعيين حدود الرابع من حزيران/ يونيو. هذا يلبي

مطالبكم، لكن لباراك حاجاته أيضاً. فهو يعتقد أن تعيين الحدود وتأكيد وديعة رابين لا يمكنهما التحرك إلى الأمام إلا إذا بدأت المحادثات على الجبهة اللبنانية بعد أيام من اجتماع سورية وإسرائيل مرة أخرى. وهو يريد أن يعلن أن المسار اللبناني سيبدأ بعد أيام من استئناف المحادثات السورية - الإسرائيلية. ويريد أن يعرف العالم أنه حين ينتهي من هذا كله، سيحل سلام شامل يتضمن لبنان. سيادة الرئيس، أنا أعلم أن طلبه يلبي حاجات الطرفين معاً. أما أنتم، فستقومون على الفور بتعيين حدود الرابع من حزيران/ يونيو، بالإضافة إلى التحكم بتوقيت المسارين في عملية السلام. وسيعمد باراك إلى جعل المسار اللبناني يبدأ. وأما نحن، فيمكننا التوصل إلى تفاهم يقضي بألا يتفاوض اللبنانيون والإسرائيليون في حدودهم إلا إذا اقتنعتم بما تسمعونه من الإسرائيليين حول حدود الرابع من حزيران/ يونيو.

بناء على المحادثات التي أجريتها مع كلا الجانبين، أنا مقتنع أن الخلافات بينكما، حول كل المسائل، ليست كبيرة. أظن أننا نستطيع الوصول سريعاً إلى صفقة، إذا اتبعنا الطرق الصحيحة. أنا واثق أنكم شعرتم بخيبة الأمل، تماماً كما شعرت أنا، حينما لم يُبْدِ الإسرائيليون مرونة أكبر حول الرابع من حزيران/ يونيو أثناء الأسبوع الأول من المحادثات (في شبردستاون). لكنني أرى أنه ما ينبغي لكم أن تتوصلوا إلى استنتاج بأنهم غير مهتمين بحل هذه المسائل بأسلوب مرضٍ للجانبين كليهما. أعتقد أنهم مهتمون بحل المسائل جميعها (بأسلوب مرضٍ للجانبين معاً)، وأعتقد أنهم يريدون القيام بذلك بالسرعة القصوى. هذا هو السبب في أنني آمل أن تعيدوا التفكير في هذه الطريقة، التي تضمن لسورية التشديد من جديد على وديعة رابين وتعيين حدود الرابع من حزيران.

الأسد: لو كنت أجيد التحدث بالإنكليزية لتكلمت معكم مباشرة. أنا أفهم ما تريد قوله. كانت الاتفاقية التي تم التوصل إليها عبر طرف ثالث هي أن نرسل وفدنا إلى المحادثات، لكن فريقنا لم يحصل على شيء مقابل ذلك. ومن الممكن أن يذهب الوفد السوري الآن إلى هناك، ويمكث شهراً أو شهرين، ولا يحصل على شيء في المقابل. وهذا بالطبع سيئ وغير مقبول من قِبَلِنا. ونحن لا نستطيع تحمّل ذلك، ولا نريد أن نكرره مرة أخرى.

كلينتون: أفهم ذلك يا سيادة الرئيس. ما كان يجب أن يحدث من قبل هو أنه كان على الإسرائيليين أن يعلموكم ويعلموني أنهم عاجزون عن التحرك إلى الأمام خلال

الأسبوع الأول، بسبب مشاكلهم الداخلية. كان بإمكاننا القيام بترتيبات مختلفة، وما كانت سورية ستوضَع في موقف كهذا، ولذلك كانت ستعالِج الأمور على نحو مختلف. وقد قلتُ هذا كله لرئيس الوزراء باراك، وقال إنه الآن ليس مستعداً لبدء المحادثات مرة أخرى فحسب، بل للمضي قدماً وإبرام صفقة في هذه المفاوضات. وهو مستعد لتعيين الحدود وحل جميع المسائل المعلقة جميعها بأقصى سرعة. وما كنتُ سأُحضر الوفد السوري إلى هنا لو كنت أشك في قدرتنا على إحراز تقدم. وأعتقد أن هذا مهم جداً. وقد أوضحت للإسرائيليين أنه لا يمكن أن يمر أسبوع آخر شبيه بالأسبوع الأول في شبردستاون. وأنا فعلاً لا أريدهم أن يعودوا إذا كنا سنكرر ما حدث أثناء الأسبوع الأول. وقالوا إنهم يفهمون ذلك، وهم راغبون في الجلوس لإجراء محادثات تحل كلّ المسائل المعلقة.

الأسد: لقد أجريت محادثات مكثفة خلال الأيام القليلة الماضية. ولدى الشعب والدولة هنا شكوك كبيرة في أننا سنحصل على ما نريد (من محادثات السلام). أفضل ما يمكننا فعله هو ترتيب اجتماع للجنة ترسيم الحدود وجعل حدود الرابع من حزيران/يونيو ١٩٦٧ نهائية. وحين نتفق نحن والإسرائيليون على هذه الحدود، سيكون من السليم أن نقول إن تقدماً جيداً قد تحقق. وذلك هو الوقت الذي يستطيع لبنان فيه أن يستأنف محادثاته مع إسرائيل. ولربما المحتمل أن هذا أكثر طمأنة للجميع.

كلينتون: سيادة الرئيس، ما تقترحونه ينطوي على عقبات عملية وسياسية. فعملياً، ما ذكرتموه سيستغرق وقتاً طويلاً ليتحقق «رسم الحدود»، وسيظهر أن هذا هو الشيء الوحيد الذي نتفاوض فيه. وسياسياً، لا يمكننا إجراء مباحثات حول رسم الحدود ونبقي ذلك بعيداً عن متناول الأخبار. وحين يرد ذلك في وسائل الإعلام، سيخلق مشكلة حقيقية لإسرائيل، لأن باراك سيكون في حالة تفاوض في حدود الرابع من حزيران/يونيو، من دون أن يكون قد بدأ المحادثات اللبنانية. بعد أن قلت هذا، أقول مرة أخرى إن للوفد السوري الحق في أن تكون لديه شكوك بعد ما حدث في شبردستاون. وقد وعدني السيد باراك بألا يحدث ذلك مرة أخرى، وأنه مستعد لإعادة تأكيد الوديعة. أما في ما يخصّ رسم الحدود، يا سيادة الرئيس، فهذه قضايا صعبة لا يمكن أن تحلها اللجان وحدها. وفي نهاية الأمر، نحن بحاجة إلى تحقيق تقدم على الجبهة السياسية أيضاً. إذا استأنفنا المفاوضات، أنا واثق أننا سنحصل على تأكيدات حول الوديعة، وأن تنطلق مباحثات رسم الحدود بنيات حسنة.

الأسد: أكرر أننا نثق ثقة كبيرة بالرئيس كلينتون. لكن لا يمكننا التعبير عن هذه الثقة نفسها بأي شخص آخر. هناك أشخاص لا نثق بهم. من الواضح أن الوفد السوري كان منزعجاً لأن الآخرين لم يُظهِروا تلهفاً على السلام.

كلينتون: سيادة الرئيس، هم لم يريدوا التحرك إلى الأمام. لو أنني علمت قبل محادثات شبردستاون ما علمته في ما بعد أثناء انعقادها، وهو أن الإسرائيليين لن يحققوا أي تقدم خلال الأسبوع الأول، لكنت أعلمتكم بذلك، ولقلتُ الشيء نفسه لوزير الخارجية الشرع. كنت سأقول لكم ألا تظهروا ليونة خلال الأسبوع الأول، لأنهم لن يظهروا شيئاً منها حتى الأسبوع الثاني. ويؤسفني أن الأمور لم تسر على ذلك النحو، وأرجوكم ألا تتوصلوا إلى استنتاجات ضخمة من التجربة التي تعرضتم لها (في شبردستاون). إن باراك شخص غير عادي ولديه اعتباراته الزمنية الخاصة. وبسبب القيود الداخلية الإسرائيلية شعر أنه لا يستطيع أن يتحرك إلى الأمام في الأسبوع الأول من المحادثات. لكنه الآن ملتزم، ولا أعتقد أن أملكم سيخيب مرة أخرى إن عدتم إلى المحادثات.

الأسد: لن يعود وفدنا قبل مرور وقت كافٍ. وكما قلتُ من قبل، الثقة أمر حيوي (وهي غائبة الآن) لأنهم مروا بالتجربة بأنفسهم (مع الإسرائيليين). لِمَ رفضوا التفاوض في عامل الأرض؟ هل هم خائفون؟ عليهم ألا يخافوا باعتبار أن الأرض الآن خاضعة لسلطتهم، إلى أن يتم توقيع الاتفاقية التي نتفاوض في الوصول إليها في الوقت الراهن. وحتى بعد توقيعها، ستبقى الأرض في أيديهم إلى أن يتم تطبيق الاتفاقية. وهذا يعني أن بإمكانهم التيقن أنهم سيحتفظون بالأرض إلى أن يتم تنفيذ كل ما يطلبونه. وأصدقك القول إنني لم أفهم سبب إحجامهم عن ذلك.

كلينتون: أعتقد أن السبب هو المناخ السياسي الذي يعملون من خلاله في إسرائيل. لقد أصغيت بانتباه شديد إلى ما قلتموه لتوّكم في وصف العملية، وأفهم مدى أهمية رسم حدود الرابع من حزيران/ يونيو بوجه صحيح. وكذلك أصغيت بانتباه شديد إلى الإسرائيليين، وهم يقولون إنهم مستعدون للتخلي عن الجولان إذا لُبّيَت متطلبات أمنهم. ومن الواضح أن إحدى هذه الحاجات الأمنية هي لبنان. وهم يدركون أن عليهم التوصل إلى صفقة معكم قبل البدء بأية محادثات مع لبنان. ولا يمكنهم القول: «إننا سنفعل كل ما تطلبه سورية كاملاً، وبعد أن نفعل ذلك، ننتقل إلى ما نحتاجه نحن الإسرائيليين». هم يعتقدون أن الحدّ الأدنى يتمثّل بوجوب بدء التفاوض في هذه القضايا كلها في وقت

واحد. اسمحوا لي أن أطلب مساعدتكم مرة أخرى يا سيادة الرئيس، وآمل ألا تغلقوا الباب في وجه اقتراحي. وكذلك آمل حقاً أن تدرسوا اقتراحي دراسة جدّية. وأرجو أيضاً أن ترسلوا خبراءكم إلى هنا (إلى الولايات المتحدة) كي يبدوا ملاحظاتهم على المسودة الأمريكية (الخاصة بالسلام). وثقوا يا سيادة الرئيس أن كل التعليقات العلنية على ما يجري ستبقى في الحد الأدنى، إذ إنني لا أريد لأي شيء أن يعوق بيئة السلام، التي هي الآن مُجْهَدَة وصعبة جداً. أعتقد أن ما اقترحتُه هو الطريقة الوحيدة التي توصلنا إلى حل.

الأسد: من المستحيل ممارسة الضغط على اللبنانيين. ولا شكّ في أن بوسعنا التأثير في وفدنا، ولكن لا يمكن أن نرغم اللبنانيين على فعل أي شيء، لأن لبنان دولة مستقلة، وقد قلنا هذا مرة تلو المرة. ولا أدري ما السبب في أنكم لا تصدقون ذلك. واللبنانيون يرفضون الانضمام إلى محادثات السلام ما لَمْ يشاهدوا أن سورية حققت تقدماً ملموساً. وقد حاولت شخصياً أن أقنع اللبنانيين بالانضمام إلى العملية والتوصل إلى صفقة سلام مع إسرائيل. لكن ما السبب في إصرار الإسرائيليين على إجراء محادثات معهم بهذه السرعة، قبل إنجاز أي شيء مع سورية؟ من ناحيتي، هذا شيء يثير الشك. أما في ما يخص وسائل الإعلام، فأنتم تطلبون إليّ أن تكون ملاحظاتي للصحافة في أدنى حد. لكن رئيس الوزراء الإسرائيلي أجرى على الأقل أربع مقابلات تلفزيونية، في حين لم يُجرِ وزير خارجيتنا أية مقابلة. نحن دائماً نفي بوعودنا، غير أن المشكلة هي لدى الفريق الآخر.

كلينتون: هذا هو نوع النقاش الذي ينبغي أن يدور بين فريقين. حين كنا في شبردستاون كان الإسرائيليون يسألونني: «ما السبب في أن السوريين لا يتكلمون معنا عن القضايا «الأخرى جميعها؟». كل ما يتحدثون عنه هو الحدود لأن هذا هو كل ما يهمهم».

الأسد: سيادة الرئيس، لقد وضع وفدنا كل شيء على الطاولة في شبردستاون.

كلينتون: أعرف ذلك، لكن الإسرائيليين لم يعيدوا تأكيد الوديعة بوضوح. كما أنهم لم يوافقوا على رسم الحدود. وهم الآن يوافقون على كلتا هاتين النقطتين لأنهم أدركوا أنه لن يتم إنجاز شيء ما لم يتم الاتفاق عليهما. وهذا أمر إيجابي لسورية. كل ما يطلبونه في المقابل هو بدء المحادثات مع اللبنانيين. سيادة الرئيس، أنا أشعر أنه كان من الممكن التوصل إلى اتفاقية كهذه في أول يومين في شبردستاون، قبل أن تفقدوا ثقتكم

بالإسرائيليين. وأنا أفهم فهماً كاملاً سبب شعوركم هذا، يا سيادة الرئيس. كل ما أطلبه هو أن تفكروا بما عرضتُه عليكم الآن.

الأسد: كما قلتم يا سيادة الرئيس، كان من الواجب حدوث شيء مختلف في شبردستاون. لكن لم يحدث شيء، بسبب الإسرائيليين.

كلينتون: سيادة الرئيس،إن أخذنا الظروف الحالية بالاعتبار، فلا أعتقد أن إسرائيل ستوقع على صفقة. وأرى أنهم كي يبدأوا رسم الحدود، سيحتاجون إلى إعطاء ضمانة للأطراف كافة (داخل إسرائيل) بأنهم في نهاية الأمر سيحققون أيضاً اختراقاً وصفقة سلام مع لبنان. هذا بالطبع لن يحدث إلا بعدما تُلبّى احتياجات سورية كاملة. ولا بد لي أن أنهي هذه المحادثة الآن، إذ علي الإسراع لحضور اجتماعين مهمين. وأرجو أن تسمحوا لي أن أؤكد أنني درست بعناية موقف الطرفين، وأعتقد أن بالإمكان ردم الهوة بين سورية وإسرائيل. أرى أن الظروف قد نضجت وأن إسرائيل جاهزة للقيام بذلك. ولا أظن أنهم يريدون تكرار رؤية ما حدث في الأسبوع الأول في شبردستاون. هم مستعدون الآن للتحرك إلى الأمام.

الأسد: أشكركم يا سيادة الرئيس، ولكم أطيب أمنياتي. أنا ممتن لجهودكم وآمل ألا تذهب سدى.

كلينتون: لن تذهب هذه الفرصة سدى، يا سيادة الرئيس، لأننا اقتربنا جداً من عقد صفقة. لدينا حكومة في إسرائيل جاهزة لعقد اتفاقية ومستعدة لتعيين الحدود. علينا أن نتمسك بهذه الفرصة. وأنا سأستمرّ في التفكير بحثاً عن حلول، وسأعود لمكالمتكم في أقرب وقت ممكن.

الأسد: أشكركم مرة أخرى وأكرر: لقد ألقينا عليكم عبئاً ثقيلاً، ونحن ممتنون لكل ما تقومون به.

كلينتون: شكراً، يا سيادة الرئيس.

الأسد: شكراً، وإلى لقاء قريب.

الأحداث المهمة بالتسلسل الزمني

٢ آب/ أغسطس ١٩٩٠: صدام حسين يغزو الكويت.

أيلول/ سبتمبر ١٩٩٠: يقوم وزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر بزيارته الأولى إلى سورية في نطاق جولة في المنطقة تهدف إلى إيجاد جبهة عربية ودولية ضد الغزو العراقي للكويت.

١٢ كانون الثاني/ يناير ١٩٩١: يخاطب الرئيس حافظ الأسد صدام عبر الإذاعة السورية، ويطلب إليه الانسحاب من الكويت، ويتعهد بدعم سورية الكامل له إن فعل. لكن صدام يرفض النداء.

١٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٩١: تبدأ حرب الخليج، مع انضمام قوات من أربع وثلاثين دولة (بما فيها سورية) إلى الولايات المتحدة لضمان تحرير الكويت. و«يغطي» قرار مجلس الأمن الدولي ٦٧٨ تلك الحرب التي يطلق عليها اسم «عملية عاصفة الصحراء».

٦ شباط/ فبراير ١٩٩١: يتصل الرئيس جورج بوش الأب هاتفياً بالرئيس الأسد أول مرة، ويقترح تعاوناً سورياً أمريكياً أقوى في الشرق الأوسط. ويرحب الأسد بالمبادرة الهادفة إلى إنهاء الصراع العربي - الإسرائيلي.

٦ آذار/ مارس ١٩٩١: يخاطب الرئيس بوش الكونغرس ويتحدث عن السلام بين العرب والإسرائيليين على الأسس نفسها التي عبر عنها في محادثته الهاتفية مع الرئيس الأسد.

١٣ آذار/ مارس ١٩٩١: يصل وزير الخارجية الأمريكي بيكر إلى دمشق في أول زيارة له إلى سورية بعد الحرب، ويناقش السلام في المنطقة مع الرئيس الأسد.

٢٣ نيسان/ أبريل ١٩٩١: يصل بيكر إلى دمشق، وهو يحمل رسالة من الرئيس بوش إلى الرئيس الأسد. ويستمر الاجتماع الماراثوني المشهور اثنتي عشرة ساعة بلا توقف، ويوافق

الأسد على الانضمام إلى عملية السلام، بهدف إعادة حدود الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧، ومع التزام أمريكي واضح بإعادة هضبة الجولان كاملة إلى سورية.

١٣ أيار/ مايو ١٩٩١: اجتماع بين الأسد وبيكر يؤكد الأسد فيه الدور المهم للاتحاد السوفيياتي في عملية السلام.

١٨ تموز/ يوليو ١٩٩١: يصل بيكر إلى دمشق ليبحث مع الرئيس الأسد مؤتمراً للسلام في الشرق الأوسط برعاية أمريكية وروسية، طالباً الدعم السوري للفكرة.

٢٠ أيلول/ سبتمبر ١٩٩١: يزور بيكر دمشق ليدعو الأسد رسمياً إلى مؤتمر السلام، ويقبل القائد السوري الدعوة.

١٥ ـ ١٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١: يأتي بيكر إلى دمشق ليبحث النقاط المرجعية لمؤتمر السلام وموقعاً للمؤتمر مناسباً لسورية. ويتم التوصل تدريجياً إلى اتفاق بأن تكون مدريد هي مكان المؤتمر.

٣٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١: يبدأ مؤتمر مدريد للسلام في العاصمة الإسبانية، ويستمر ثلاثة أيام، ويحضره وفد سوري برئاسة وزير الخارجية فاروق الشرع ووفد إسرائيلي برئاسة رئيس الوزراء إسحاق شامير.

١٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١: تنعقد الجولة الأولى من المحادثات بين سورية وإسرائيل وجهاً لوجه في واشنطن. وتستمر حتى منتصف كانون الأول/ ديسمبر وتخفق في إحداث أي اختراق.

١٣ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٢: تنعقد الجولة الثانية من محادثات واشنطن بين سورية وإسرائيل، وهي أيضاً لا تؤدي إلى أي اختراق.

١٣ تموز/ يوليو ١٩٩٢: يصبح إسحاق رابين - وهو عدو قديم للعرب - رئيس وزراء إسرائيل، بدلاً من إسحاق شامير الطاعن في السن.

٢٠ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٣: يؤدي الرئيس بيل كلنتون القسم لتولي منصبه باعتباره الرئيس الثاني والأربعين للولايات المتحدة. يلقى انتخابه ترحيباً من وسائل الإعلام السورية ومن الرئيس الأسد شخصياً، فهو يستبشر خيراً بالرئيس الأمريكي الشاب.

٢١ شباط/ فبراير ١٩٩٣: يأتي وزير خارجية كلنتون الجديد وارن كريستوفر إلى سورية لإجراء أول جولة له من المحادثات مع الرئيس الأسد. يكرر فريق كلنتون تأكيد التزامه بسلام الشرق الأوسط، واعتبار سورية أولوية سامية.

٨ نيسان/ أبريل ١٩٩٣: يرسل الرئيس كلنتون رسالة إلى الرئيس الأسد مؤكداً التزامه القوي بالسلام السوري الإسرائيلي.

٢٧ أيار/ مايو ١٩٩٣: يرسل الرئيس كلنتون رسالة أخرى إلى الرئيس الأسد مع تأكيدات جديدة حول السلام.

آب/ أغسطس ١٩٩٣: تجري الجولة الثالثة من محادثات واشنطن بين سورية وإسرائيل، وهذه المرة برعاية البيت الأبيض ورئيسه كلينتون.

٤ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣: يرسل الرئيس كلنتون رسالته الثالثة لدعم الرئيس الأسد، ويقول إن السلام السوري الإسرائيلي هو أولوية رفيعة للولايات المتحدة.

١٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣: يتمّ توقيع اتفاقيات أوسلو للسلام في البيت الأبيض بين رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات ورئيس الوزراء رابين. تشجب سورية الاتفاقيات، متهمة عرفات بأنه أفرط في إعطائه الكثير لإسرائيل مقابل الحصول من الإسرائيليين على أقل من نصف فلسطين التاريخية.

٢٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣: يصادق الكنيست الإسرائيلي على اتفاقيات أوسلو بأغلبية ٦١ إلى ٥٠ صوتاً، مع امتناع ثمانية أعضاء عن التصويت.

٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٣: يقابل الرئيس كلنتون وزير الخارجية الشرع أول مرة في الجمعية العامة للأمم المتحدة. ويبحث كلنتون معه التزام الأسد بالسلام السوري - الإسرائيلي في ضوء أوسلو.

٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٣: يرسل الرئيس كلنتون رسالة خامسة إلى الرئيس الأسد.

١٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٤: يعقد لقاء القمة الأول بين الأسد وكلنتون في فندق إنتركونتننتال في جنيف، معلناً بدء مرحلة جديدة في العلاقات السورية - الأمريكية مبنية على الثقة والاحترام المتبادل بين بيل كلينتون وحافظ الأسد.

٢١ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٤: وفاة باسل، أكبر أبناء الرئيس الأسد، وهو في الرابعة والثلاثين من العمر في حادث سيارة على طريق مطار دمشق الدولي. يخابر الرئيس كلينتون الرئيس الأسد ليعرب عن تعازيه.

٢٥ شباط/ فبراير ١٩٩٤: يدخل مستوطن إسرائيلي يدعى باروش غولدستاين مسجداً في الخليل وهو يرتدي ملابس الاحتياط في الجيش الإسرائيلي، ويطلق النار على فلسطينيين عزّل أثناء صلاة الفجر. تكاد مذبحة الخليل هذه أن تقضي على عملية السلام.

١٠ نيسان/ أبريل ١٩٩٤: يبدأ وزير الخارجية الأمريكي وارن كريستوفر زيارته الأولى، من بين عشر زيارات، إلى سورية في عام ١٩٩٤. وتأتي الزيارة الأخيرة في ٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٤.

٣٠ نيسان/ أبريل ١٩٩٤: يصل وزير الخارجية وارن كريستوفر وهو يحمل وديعة رابين الشهيرة. يرفض الرئيس الأسد الالتزام بالتطبيع قائلاً: «أولاً نستعيد أرضنا، ثمّ نتحدث عن كل شيء آخر».

١٥ أيار/ مايو ١٩٩٤: يعود الوفد الأمريكي إلى سورية بعد زيارة سريعة لإسرائيل، أطلع رابين فيها على الرد السوري الأولي على الوديعة.

١٨ أيار/ مايو ١٩٩٤: يرسل كلينتون تأكيدات إلى الأسد بأن الوديعة في «جيب» الولايات المتحدة.

٢٤ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٤: يعقد الرئيس كلينتون لقاء قمة في دمشق مع الرئيس حافظ الأسد، وهو لقاء سلطت عليه الأضواء. وهذه أول زيارة يقوم بها كلينتون إلى سورية، وأول زيارة لرئيس أمريكي أثناء ولايته الرئاسية منذ قدوم رتشارد نكسون إلى سورية عام ١٩٧٤. ويقدم له الأسد موافقة على تمديد فترة انسحاب إسرائيل من الجولان، تقديراً لزيارته دمشق. لكن إسرائيل ترفض هذه المرونة السورية.

٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٤: تجري محادثات غير رسمية في منزل دنيس روس في واشنطن، يحضرها السفير السوري وليد المعلم وسفير إسرائيل في الولايات المتحدة إتامار رابينوفتش. تستمر هذه المحادثات غير الرسمية حتى منتصف شهر كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥. وتبدأ في كانون الأول/ ديسمبر أيضاً محادثات في بلير هاوس في الولايات المتحدة، يحضرها رئيس أركان الجيش السوري العماد حكمت الشهابي، ونظيره الإسرائيلي إيهود باراك. وتخفق هذه أيضاً في إحداث أي اختراق، لكن الولايات المتحدة تقدّر حدوث هذه المحادثات، باعتبارها الاجتماع الأول بين مسؤولين عسكريين سوريين وإسرائيليين، تم بتفويض من الرئيس الأسد.

٢٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٤: يجتمع رئيس الأركان الشهابي بالرئيس كلينتون في لقاء منفرد في البيت الأبيض.

١ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥: يحل آمون شاهاك محل إيهود باراك قائداً للجيش الإسرائيلي ويتابع المحادثات مع العماد الشهابي، التي لا تؤدي إلى أي اختراق.

٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٥: يتعرض إسحاق رابين البالغ من العمر ثلاثة وسبعين عاماً للاغتيال في تل أبيب على يد متطرف إسرائيلي، ويحل محله على الفور زعيم حزب العمل شمعون بيريز. لا تكترث سورية لاغتيال رابين وتقول إنها لن تعود إلى الدخول في محادثات قبل أن تسمع من رئيس الوزراء بيريز التزاماً صارماً بإعادة هضبة الجولان.

١٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٥: يأتي وارن كريستوفر إلى سورية ومعه برنامج سلام من عشر نقاط من رئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد شمعون بيريز.

شباط/ فبراير ١٩٩٦: تهز أربع هجمات، يقوم بها مقاومون فلسطينيون، إسرائيل خلال تسعة أيام، وتكاد أن توقف زخم محادثات السلام السورية - الإسرائيلية. تقترح الولايات المتحدة مؤتمراً دولياً للتباحث حول الإرهاب وشجبه وتدعو سورية إلى الحضور، لكن دمشق ترفض. وينعقد مؤتمر القمة في منتجع شرم الشيخ على شاطئ البحر الأحمر في آذار/ مارس ١٩٩٦.

١١ نيسان/ أبريل ١٩٩٦: تبدأ حرب نيسان حين يقصف الجيش الإسرائيلي جنوب لبنان، معلناً أن هدفه هو سحق حزب الله. وتفرض إسرائيل حصاراً برياً وبحرياً وجوياً على لبنان، وتدين سورية ذلك بشدة.

١٨ نيسان/ أبريل ١٩٩٦: يقصف الجيش الإسرائيلي مجمعاً للأمم المتحدة في قانا في جنوب لبنان ويقتل ١١٨ مدنياً لبنانياً.

١٩ نيسان/ أبريل ١٩٩٦: يصل وارن كريستوفر إلى إسرائيل لإجراء محادثات لوقف إطلاق النار ثم ينتقل إلى دمشق في ٢٠ نيسان/ أبريل.

٢١ نيسان/ أبريل ١٩٩٦: يصل وارن كريستوفر إلى القصر الجمهوري مرة أخرى، في زيارة غير معلنة هذه المرة، عائداً من إسرائيل. ويرفض الرئيس الأسد الاجتماع به على الفور لكونه مشغولاً باجتماع مقرر مسبقاً مع رئيسة وزراء باكستان بنيظير بوتو.

٢٦ نيسان/ أبريل ١٩٩٦: يُعْلَن تفاهم نيسان/ أبريل في لبنان وإسرائيل في وقت واحد، بعد أن تم التفاوض فيه بين سورية والولايات المتحدة. وتزيد الصفقة الانسجام بين الأسد والرئيس كلينتون زيادة كبيرة.

٢٦ أيار/ مايو ١٩٩٦: تجري الانتخابات الإسرائيلية وتنتج منها هزيمة شمعون بيريز.

١٨ حزيران/ يونيو ١٩٩٦: يحل بنيامين نتنياهو - ذو الوزن الثقيل في حزب الليكود - محل شمعون بيريز في رئاسة وزراء إسرائيل، بعد أن قاد حملته ببرنامج متصلب يرفض قبول أوسلو ويرفض إعادة هضبة الجولان إلى سورية.

٧ تموز/ يوليو ١٩٩٦: وفاة كبير المفاوضين السوريين موفق العلاف، الذي تولى محادثات السلام في مدريد، وهو في السبعين من عمره.

تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٦: يفوز الرئيس كلنتون بالانتخابات الأمريكية بنسبة ٤٩,٢ من أصوات الشعب، ويهزم بذلك روي بيرو والمرشح الجمهوري بوب دول.

كانون الثاني/ يناير ١٩٩٧: يبدأ كلنتون ولايته الثانية رئيساً للولايات المتحدة.

٧ آب/ أغسطس ١٩٩٨: يصل رجل الأعمال الأمريكي اليهودي رونالد لاودر إلى سورية لإجراء محادثات سرية مع الرئيس الأسد، بتفويض مباشر من رئيس الوزراء نتنياهو. وتخفق

هذه المحادثات أيضاً في تحقيق أي اختراق، وخاصة لأن معلومات لاودر حول أحداث الشرق الأوسط ضئيلة.

٢٣ حزيران/ يونيو ١٩٩٩: تنشر جريدة **الحياة** اللندنية مقابلة مع الرئيس الأسد أجراها الصحفي البريطاني باتريك سيل. وتحتوي المقابلة على سلسلة من رسائل بناء الثقة لرئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد إيهود باراك، الذي يصفه الأسد بأنه «قوي وصادق».

١٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٩: يرسل لاودر رسالة إلى الرئيس كلنتون يقر فيها أن «مسودة السلام السوري - الإسرائيلي» التي قدمها إلى الأمريكيين عام ١٩٩٨ تضمنت بعض النقاط التي «لم يقبلها السوريون إطلاقاً».

١٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٩: يعقد إيهود باراك ووزير الخارجية الشرع أول اجتماع لهما في البيت الأبيض بحضور الرئيس كلينتون.

٢١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٩: تعلن الولايات المتحدة أن شبردستاون في ولاية غرب فرجينيا ستستضيف الجولة القادمة من المحادثات السورية - الإسرائيلية بحضور وزير الخارجية الشرع ورئيس وزراء إسرائيل الجديد إيهود باراك.

٣ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠: تبدأ محادثات شبردستاون في الولايات المتحدة تصحبها آمال عريضة بأن تؤدي إلى اختراق.

٦ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠: تجلس وزيرة الخارجية الأمريكية الجديدة مادلين أولبرايت مع وزير الخارجية الشرع وبثينة شعبان لتشرح استراتيجيتها الجديدة بشأن السلام. وتُفْتَح قناة مباشرة بين شعبان وأولبرايت، يطلق عليها في ما بعد اسم «قناة الفتيات».

١٣ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠: تنشر الصحيفة الإسرائيلية **هآرتز** النص الكامل للمسودة التي أعطاها كلينتون للشرع وباراك، مع تقرير يزعم أن وزير الخارجية السوري قدم تنازلات لإسرائيل أكبر مما حدث في أي زمن سابق أثناء المحادثات السورية - الإسرائيلية.

٢٦ آذار/ مارس ٢٠٠٠: يعقد الرئيس الأسد وبيل كلينتون آخر اجتماع قمة لهما في فندق إنتركونتننتال في جنيف، وتخفق هذه القمة أيضاً في إحراز اختراق. فقد كانت مبنية على افتراض الولايات المتحدة أن سورية ستقبل بسيادة مشتركة على بحيرة طبريا.

٢٤ أيار/ مايو ٢٠٠٠: تنسحب إسرائيل من جنوب لبنان بقرار أحادي الجانب، وترحب سورية بذلك معتبرة أنه نصر عظيم لحزب الله.

١٠ حزيران/ يونيو ٢٠٠٠: وفاة الرئيس حافظ الأسد في دمشق وهو في التاسعة والستين من العمر.

المراجع

١ - العربية

الأرشيف

الأرشيف الرسمي للرئيس حافظ الأسد، القصر الجمهوري، دمشق، آب/ أغسطس ١٩٩٠ - حزيران/ يونيو ٢٠٠٠.

الأرشيف الرسمي لوزارة الخارجية، دمشق، آب/ أغسطس ١٩٩٠ - حزيران/ يونيو ٢٠٠٠.

دوريات

البعث: ٢٠/ ٧/ ١٩٩١.

تشرين: ٣١/ ١٠/ ١٩٩١؛ ١/ ١١/ ١٩٩١؛ ١٧/ ١/ ١٩٩٤؛ ٢٠/ ٤/ ١٩٩٥.

الحياة: ١٢/ ٩/ ١٩٩٠، و٢٣/ ٦/ ١٩٩٩.

«معاهدة سلام بين إسرائيل وسورية». **يديعوت أحرنوت**: ١٣/ ٤/ ٢٠٠١

٢ - الأجنبية

Books

Albright, Madeleine. *Madam Secretary: A Memoir*. New York: HarperCollins Publishers, 2005.

Aruri, Nasser. *Dishonest Broker: The US Role in Israel and Palestine*. Cambridge, MA: South End Press, 2003.

Ashrawi, Hanan. *This Side of Peace: A Personal Account.* New York: Simon and Schuster, 1995.

Baker III, James A. and Thomas M. DeFrank. *The Politics of Diplomacy: Revolution, War, and Peace, 1989-1992.* New York: G. P. Putnam, 1995.

Beilin, Yossi. *The Path to Geneva: The Quest for a Permanent Agreement, 1996-2004.* New York: RDV Books, 2004.

Ben-Ami, Shlomo. *Scars of War, Wounds of Peace: The Israeli-Arab Tragedy.* Oxford: Oxford University Press, 2006.

Ben-Gurion, David. *My Talks with Arab Leaders.* New York: Third Press, 1973.

Blum, William. *Killing Hope: US Military and CIA Interventions Since World War II.* London: Zed Books, 2003.

Boyle, Peter G. (ed.). *The Churchill-Eisenhower Correspondence, 1953-1955.* Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1990

Bregman, Ahron and Jihan El-Tahri. *The Fifty Years War: Israel and the Arabs.* London: Penguin Books, 1998.

Carter, Jimmy. *Keeping Faith: Memoirs of a President.* Toronto: Bantam Books, 1982.

———. *Palestine: Peace Not Apartheid.* New York: Simon and Schuster, 2006.

Chomsky, Noam. *Fateful Triangle: The United States, Israel, and the Palestinians.* London: Pluto Press, 1998.

Christison, Kathleen. *Perceptions of Palestine: Their Influence on US Middle East Policy.* Berkeley, CA: University of California Press, 1999.

Christopher, Warren. *Chances of a Lifetime.* New York: Scribner Press, 2001.

———. *In the Stream of History: Shaping Foreign Policy for a New Era.* Stanford, CA: Stanford University Press, 1998.

Clark, Ramsey. *War Crimes: A Report on United States War Crimes against Iraq Report to the Commission of Inquiry for the International War Crimes Tribunal.* College Park, MD: Maissonneuve Press, 1992.

Clarke, Richard A. *Against All Enemies: Inside America's War on Terror.* New York: Free Press, 2004.

Clawson, Patrick and Zoe Danon Gedal. *Dollars and Diplomacy: The Impact of US Economic Initiatives on Arab-Israeli Negotiations.* Washington, DC: Washington Institute for Near East Policy, 1999.

Clinton, Bill. *My Life.* New York: Knopf, 2004.

Cobban, Helena. *The Israeli-Syrian Peace Talks, 1991-96, and Beyond.* Washington, DC: United States Institute for Peace Press, 1999.

Cordesman, Anthony H. *Israel and Syria: The Military Balance and Prospects of War.* Westport, CT: Praeger, 2008.

Eisenhower, Dwight D. *Mandate for Change, 1953-1956: The White House Years.* London: Heinemann, 1963.

Guernsey, JoAnn Bren. *Hillary Rodham Clinton: A New Kind of First Lady.* Minneapolis, MN: Lerner Publications, 1993.

Human Rights Watch. *Civilian Pawns: Laws of War Violations and the Use of Weapons on the Israel-Lebanon Border.* New York: Human Rights Watch, 1996.

Ilan, Amitzur. *Bernadotte in Palestine, 1948: A Study in Contemporary Humanitarian Knight-errantry.* New York: St. Martin's Press, 1989.

Indyk, Martin. *Innocent Abroad: An Intimate Account of American Peace Diplomacy in the Middle East.* New York: Simon and Schuster, 2009.

Kissinger, Henry. *Diplomacy.* New York: Simon and Schuster, 1994.

Kurtzer, Daniel. *Negotiating Arab-Israeli Peace: American Leadership in the Middle East.* Washington, DC: United States Institute for Peace Press, 2008.

Majali, Abdul Salam A., Jawad A. Anani and Munther J. Haddadin. *Peacemaking: The Inside Story of the 1994 Jordanian-Israeli Treaty.* Norman, OK: University of Oklahoma Press, 2006. (International and Security Affairs Series)

Maoz, Moshe. *Asad, the Sphinx of Damascus: A Political Biography.* London: Weidenfeld and Nicolson, 1988.

_______. *Syria and Israel: From War to Peacemaking.* Oxford: Clarendon Press, 1995.

_______ and Avner Yaniv. *Syria Under Assad: Domestic Constraints and Regional Risks.* New York: St. Martin's Press, 1986.

_______, Joseph Ginat and Onn Winckler (eds.). *Modern Syria: From Ottoman Rule to Pivotal Role in the Middle East.* Brighton: Sussex Academic Press, 1999.

Miller, Aaron David. *The Much Too Promised Land: America's Elusive Search for Arab-Israeli Peace.* New York: Bantam Books, 2008.

Netanyahu, Benjamin. *A Place among the Nations: Israel and the World.* New York: Bantam Books, 1993.

Nixon, Richard. *RN: The Memoirs of Richard Nixon.* New York: Grosset and Dunlap, 1978.

Peres, Shimon. *Battling for Peace: A Memoir.* London: Weidenfeld and Nicolson, 1995.

Peters, John and Howard Deshong. *Out of Area or Out of Reach?: European Military Support for Operations in Southwest Asia.* Santa Monica, CA: Rand, 1995.

Qurie, Ahmed. *Beyond Oslo: The Struggle for Palestine: Inside the Middle East Peace Process, from Rabin's Death to Camp David.* London: I. B. Tauris, 2008.

Rabinovich, Itamar. *The Brink of Peace: The Israeli-Syrian Negotiations.* Princeton, NJ: Princeton University Press, 1998.

_______. *The Road Not Taken: Early Arab-Israeli Negotiations.* New York: Oxford University Press, 1991.

_______. *Waging Peace: Israel and the Arabs, 1948 - 2003.* Princeton, NJ: Princeton University Press, 2004.

_______. *The War for Lebanon, 1970-1983.* Ithaca, NY: Cornell University Press, 1984.

Ross, Dennis. *The Missing Peace: The Inside Story of the Fight for Middle East Peace.* New York: Farrar, Straus and Giroux, 2004.

_______. *Statecraft and How to Restore America's Standing in the World.* New York: Farrar, Straus and Giroux, 2008.

Russell, Malcolm B. *The First Modern Arab State: Syria under Faysal, 1918-1920.* Minneapolis, MN: Bibliotheca Islamica, 1985.

Sagie, Uri. *The Israeli-Syrian Dialogue: A One-Way Ticket to Peace.* Houston: James A. Baker III Institute for Public Policy, Rice University, 1999.

Said, Edward. *Culture and Resistance: Conversations with Edward W. Said.* Interviews by David Barsamian. London: Pluto Press, 2003.

Saunders, Bonnie F. *The United States and Arab Nationalism: The Syrian Case, 1953-1960*. Westport, CT: Praeger, 1996.

Savir, Uri. *The Process: 1,100 Days That Changed the Middle East*. New York: Random House, 1998.

Seale, Patrick. *Asad: The Struggle for the Middle East*. London: I. B. Tauris, 1988.

———. *The Struggle for Syria: A Study of Post-War Arab Politics, 1945-1958*. London: I. B. Tauris, 1961.

Smith, Charles D. *Palestine and the Arab-Israeli Conflict: A History with Documents*. Boston, MD: Bedford/St. Martin's, 2007.

Telhami, Shibley. *The Stakes: America in the Middle East*. Boulder, CO: Westview Press, 2002.

Tucker, Spencer C. *The Encyclopedia of the Arab-Israeli Conflict: A Political, Social, and Military History*. Santa Barbara, CA: ABC-CLIO, 2008. 4 vols.

Van Dam, Nikolaos. *The Struggle for Power in Syria: Politics and Society Under Asad and the Baath Party*. London: I.B. Tauris, 1996.

Warshaw, Shirley Anne. *Clinton Years (Presidential Profiles)*. New York: Facts on Files Database, 2004.

Weizmann, Chaim. *Trial and Error: The Autobiography of Chaim Weizmann*. New York: Harper, 1949.

World Almanac and Book of Facts. New York: World Almanac, 2009.

Wright, Lawrence. *The Looming Tower: Al-Qaeda and the Road to 9/11*. New York: Knopf, 2006.

Periodicals

«Clinton Accused». *Washington Post*: 17/1/1998.

L'Express: 13/2/2003.

Guitta, Olivier. «The Chirac Doctrine». *Middle East Quarterly*: vol. 12, no. 4, Fall 2005.

Haartez: 18/1/1994, and 13/1/2000.

International Herald Tribune: 7/3/2003.

Levy, Gideon. «Tricky Bibi». *Haaretz*: 15/7/2010.

Newsweek: 29 October 1991.

Pipes, Daniel. «The Road to Damascus: What Netanyahu Almost Gave Away». *New Republic*: 5 July 1999.

Seale, Patrick and Linda Butler. «Assad's Regional Strategy and the Challenge from Netanyahu». *Journal of Palestine Studies*: vol. 26, no. 1, Autumn 1996.

«The Syria Temptation and Why President Obama Must Resist it». *Wall Street Journal*: 6/3/2009.

Timmerman, Kenneth. «They Met in Paris, Fell in Political Love and Built a Death Machine». *Los Angeles Times*: 22/12/1991.

Wong, Curtis. «Netenyahu in 2001: «America Is a Thing You Can Move Very Easily»». *Huffington Post*: 16/7/2010.

«Words to Remember». *Washington Report on Middle East Affairs*: March 1990.

فهرس

ـ أ ـ

آرنز، موشيه: ٥٧، ٦٦، ٨٢
آل سعود، بندر بن سلطان: ١١٣، ٢٦٢
آل سعود، فهد بن عبد العزيز: ٧٨، ١٧٨
أبو صالح، ماجد: ٧٤
أتاتورك، مصطفى كمال: ٢٣
أتاسي، عبد الودود: ٧٤
اتفاق الطائف (١٩٨٩): ٦٦-٦٧، ١٢٧
اتفاقيات أوسلو (١٩٩٣): ١٠٧-١٠٨، ١١٠-١١١، ١١٣-١١٩، ١٢٧، ١٢٩، ١٧١، ٢٠١-٢٠٣، ٢٠٧، ٢٧٤، ٢٧٦
اتفاقية الخليل (١٩٩٧): ١١٧
اتفاقية سايكس - بيكو (١٩١٦): ٥٦، ٦٠، ١٢٨
اتفاقية غزة - أريحا (١٩٩٤): ١٢٩، ١٤٥
اتفاقية فصل القوات (١٩٧٤): ١٤٥
اتفاقية كامب ديفيد (١٩٧٨): ٦١، ٧٣، ٧٨، ٨٢، ٢١٦، ٢٤١، ٢٦١، ٢٧٤، ٢٧٦
اجتماع جنيف (٢٠٠٠): ٢٦٣، ٢٦٧-٢٦٩
الإخوان المسلمون: ١٢٥
أزمة سورية (٢٠١١): ٢٧٥
الأسد، باسل: ١٣٦-١٣٨، ١٤٣
الأسد، بشار: ١٦، ١٥٥، ١٧٥، ٢٦٠
الأسد، بشرى: ١٣٧-١٣٨، ٢٧١
أسلحة الدمار الشامل: ٤٥
إسماعيل، زكريا: ٧٤
اغتيال إسحاق رابين (١٩٩٥): ١٨٩، ١٩٧
ألفونسو الثالث عشر (ملك أسبانيا): ٧٦
الأمم المتحدة: ٢٠، ٧٧، ٧٩، ٨١، ٨٤، ٨٨، ٩٤، ١٤٦، ٢٨٢، ٢٨٩
– برنامج النفط مقابل الغذاء: ٤١
– الجمعية العامة
ـ القرار الرقم (٣٣٧٩): ٤٦
– مجلس الأمن: ١٤٦
ـ القرار الرقم (٢٤٢): ٤٦، ٤٩-٥٠، ٥٩، ٦١، ٧٧-٧٨، ٨٢-٨٣، ٨٥، ٨٧، ٩٢، ٩٤-٩٥، ١٠١، ١٠٣، ١١٧، ١٥٤، ١٦٢، ١٦٤، ٢٣٤، ٢٨٢، ٢٨٩-٢٩٠
ـ القرار الرقم (٣٣٨): ٤٦، ٥٠، ٦١، ٧٧-٧٨، ٨٢-٨٣، ٨٥، ٨٧، ١٠١، ١٠٣، ١١٧، ١٥٤، ١٦٢، ١٦٤،

٢٣٤، ٢٨٢، ٢٨٩-٢٩٠
- القرار الرقم (٤٢٥): ٨٩، ٢٠١
- الميثاق: ٢٠٧
أمن حدودي: ٢٨٧
أمن الخليج: ٤٥
أميدرور، ياكوف: ٢٢٥
الانتخابات التشريعية الإسرائيلية (١٩٩٢): ١٠٨
الانتخابات التشريعية الإسرائيلية (١٩٩٦): ١٨٨-١٨٩، ٢٠٠-٢٠١
الانتخابات التشريعية الإسرائيلية (١٩٩٩): ٢٣٧
الانتخابات الرئاسية الأمريكية (١٩٩٢): ٩٩، ١٠٤-١٠٥
الانتخابات الرئاسية السورية (١٩٧١): ٢٣
الانتخابات الرئاسية اللبنانية (١٩٩٨): ٢٧٠
الانتداب الأجنبي: ١٥٥
الانتداب البريطاني على فلسطين (١٩٢٠ - ١٩٤٨): ٢٤٧
الانتفاضة الفلسطينية الأولى (١٩٨٧): ٨٢، ١٠٩
الانتفاضة الفلسطينية الثانية (٢٠٠٠): ١١٩
أنديك، مارتن: ١٦، ١٠٨، ١١٠، ١١٤، ١١٦، ١١٨، ١٢٥، ١٣٣-١٣٤، ١٤٦، ١٥٥، ١٦٣، ١٩٧، ٢٢٥، ٢٣٢، ٢٤٣، ٢٥٢، ٢٦١-٢٦٢، ٢٦٩
انسحاب الجيش السوري من لبنان (٢٠٠٥): ٦٧
انهيار الاتحاد السوفييتي (١٩٩١): ٢٠
أوباما، باراك: ١٧٤
أولبرايت، مادلين: ١٦، ١٩، ٢٢٦، ٢٣٧-٢٣٨، ٢٤٢-٢٥٤، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٦٦-٢٦٩، ٢٩٤، ٢٩٧
أولمرت، إيهود: ٢١٧
أوينز، وين: ٥٨

- ب -

باراك، إيهود: ١٠٣، ١٣٥، ١٧٠، ١٧٢-١٧٤، ١٧٦، ٢٠١، ٢٢٥، ٢٣٧-٢٤٢، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٥١-٢٥٥، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٥-٢٦٦، ٢٦٨-٢٦٩، ٢٧٥، ٢٩٤-٢٩٥، ٢٩٧-٢٩٩
باول، كولن: ١٠٩
برافيس، ريتا: ١٦٥
برغر، ساندي: ١١٨، ٢٢٦، ٢٦٢
برنادوت، فولك: ٤٨، ٨١
بري، نبيه: ١٣٨، ٢١٣
بلقزيز، عبد الإله: ١٥
بليتزر، ولف: ١٣٤
بن أهارون، يوسي: ٧٥، ٨٢-٨٣، ٨٦-٨٩، ٩٢-٩٥، ١٠١، ١٠٣، ١٠٨
بن غوريون، ديفيد: ١٩٥، ٢٦٥
بوتو، بنظير: ٣٥، ٢٠٨-٢٠٩
بوتو، ذو الفقار علي: ٣٥
بوتو، نصرت: ٣٥
بوش، جورج (الأب): ٣٨، ٤٣-٤٤، ٤٧-٤٨، ٥٠، ٨٥-٨٦، ٩٩، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٧، ١١٢، ١٥٥، ٢٨١
بوش، جورج (الإبن): ٦٥، ١٧٥
بيرنز، نيكولاس: ١٩٨
بيرو، روس: ٩٩، ١٠٤-١٠٥، ٢٢١
بيريز، شمعون: ١١١، ١١٤، ١٨٧-١٩١، ١٩٥-١٩٨، ٢٠٠-٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٨، ٢١٣، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٣٩، ٢٥٤
بيسميرتنيخ، ألكسندر: ٦٣-٦٤
بيغن، مناحيم: ١٩٨، ٢١٦

بيكر، جيمس: ١٦، ٣٧، ٤٠، ٤٣، ٤٥-٤٦، ٤٩، ٥٢، ٥٤-٥٩، ٦١-٦٢، ٦٥-٦٧، ٧٤، ٧٧، ٧٩، ٨٤، ٨٦، ١٠١، ١٠٣، ١٠٥، ١١٧، ١٥٦، ١٦٠، ٢١١، ٢٢٩، ٢٨١-٢٨٤

- ت -

تانغي، كنزو: ١٦١
تحرير جنوب لبنان (٢٠٠٠): ١٩، ٦٧، ٢٧٠
ترومان، هاري: ١٨١
تشرشل، ونستون: ٢٣
التطبيع مع إسرائيل: ٧٥، ١٠٤، ١٣٣، ١٤٩، ١٥٦
تفاهم نيسان (١٩٩٦): ١٩٣، ١٩٨، ٢٠٢، ٢١٣-٢١٧
تفجير انتحاري (تل أبيب، ١٩٩٤): ١٥٨، ١٦٥
تمكين المرأة: ٢٤٩

- ث -

الثورة الإسلامية (إيران، ١٩٧٩): ٢٦٠
الثورة العربية (١٩١٦): ١٨٥

- ج -

جائزة نوبل: ١٠٨، ١٨٧
جبران، جبران خليل: ١٩١
الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين: ١١٥، ١٤٩
الجزار، محمد: ٧٤
جعجع، سمير: ٦٦
جمعية المعلوماتية السورية: ١٣٦
الجميل، أمين: ٨٩
جميل، ناجي: ٢٥
جواد، بثينة: ٢٧٧
جواد، خليل: ١٠٠
جواد، رضا: ٣٠، ٢٧٥
جواد، نازك: ٣٠، ٧٣، ٩٣، ٩٥، ٢٧٤
جواد، ناهد: ٣٠، ٧٣، ٩٣، ٩٥، ٢٧٤
جونسون، ليندون: ١٠٦، ٢٢١
الجويجاتي، رفيق: ٧٤، ٩٢

- ح -

حدود الرابع من حزيران/ يونيو (١٩٦٧): ١٩، ٤٨، ٥١، ١٣١، ١٤٧، ١٥١، ١٥٣، ١٥٥، ١٦٣-١٦٤، ١٧٧، ١٧٩، ٢٢٢، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٤١، ٢٤٥، ٢٥١، ٢٦٥، ٢٩٧-٣٠٠
الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥ - ١٩٩٠): ٣٨، ٦٦، ١١٦، ١٢٦، ٢٧٠
الحرب الباردة: ٤٠
حرب البوسنة (١٩٩٢ - ١٩٩٥): ١٢٧
حرب الخليج الأولى (١٩٨٠ - ١٩٨٨): ٤١-٤٢، ١٣٢، ٢٦٠
حرب الخليج الثانية (١٩٩٠ - ١٩٩١): ٢٠، ٣٥، ٣٧-٣٨، ٤٠، ٤٣، ٥٠، ٦٥، ٦٨-٦٩، ١١٢، ٢٦٠، ٢٨٣
الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥): ١٢٥، ١٧١
الحرب العربية - الإسرائيلية
- (١٩٤٨): ٣٦، ٤٨، ٩٣، ١٨١، ١٨٧
- (١٩٦٧): ٣٦، ٤٣، ٥١، ٦٨، ٧٣، ٩٣، ١٧١-١٧٢، ١٨١، ١٩٢، ٢٢٤، ٢٥٠، ٢٥٢
- (١٩٧٣): ٣٩، ٦٨، ٧٣، ٩٣، ١٢٨، ١٥١، ١٧١، ١٧٣، ١٩٢، ٢٤٢
- (لبنان، ١٩٧٨): ٩٠، ١٩٨
- (لبنان، ١٩٨٢): ٧٣، ١٩٩، ٢١٦
- (لبنان، ١٩٩٦): ١٩، ١٩٧، ٢٠٠، ٢١٣، ٢١٦

- (لبنان، ٢٠٠٦): ١٩، ٦٧، ٢١٧
حركة أمل: ١٩٨، ٢١٢
حركة تشارتية: ٢٧٤
حركة الجهاد الإسلامي: ١١٥، ١٤٩، ١٩٥-١٩٦، ٢٢٤
حركة حماس: ١١٥، ١١٩، ١٤٩، ١٩٥-١٩٦، ٢٢٤، ٢٦٠
الحريري، رفيق: ١٢٧، ١٩٩، ٢٠١، ٢١٢-٢١٣
حزب العمل الإسرائيلي: ١٨٧
حزب الله: ٦٦-٦٧، ١٥٩، ١٩٠، ١٩٧-٢٠٣، ٢٠٥-٢٠٦، ٢١٢-٢١٤، ٢١٦، ٢٢٨، ٢٧٠
حزب البعث العربي الاشتراكي: ٥٥، ١٧١، ٢٤٩، ٢٦٩، ٢٧١
الحزب الجمهوري (الولايات المتحدة): ٣٧
الحزب الديمقراطي (الولايات المتحدة): ٩٩
الحزب السوري القومي الاجتماعي: ١٩٨
حزب شاس (إسرائيل): ٢٣٧، ٢٥٣-٢٥٤
الحزب الشيوعي السوري: ٢٤٩
الحزب الشيوعي اللبناني: ١٩٩
حزب العمل الإسرائيلي: ١٠٣، ٢٢٣
حزب الليكود: ٥٣، ٥٧، ١٠٣، ٢٢٣، ٢٣٢، ٢٥٣
حسين، صدام: ٣٥-٣٧، ٤٠-٤٢، ٥٠، ٦٥، ٦٩، ٧٣، ١١٢، ٢٦٠
الحسيني، فيصل: ١١٣
حق تقرير المصير: ٦٠
حق العودة: ١١٢
حقوق الإنسان: ١٣١
حقوق المرأة: ٢٤٩
حميدي، إبراهيم: ٢٥٤

- خ -

خضور، محمد: ٧٤
الخطيب، فوزي: ٧٤
الخميني، روح الله الموسوي: ٤٢
خوان كارلوس (ملك إسبانيا): ٧٩
خوري، كلوفيس: ٧٤
خوري، كوليت: ٣٠

- د -

داوودي، رياض: ٧٤، ٢٤٦
دبلوماسية النساء: ٢٤٨
دجيرجيان، إدوارد: ٤٧، ٥٦، ٥٨، ٨٥، ٩٠-٩١، ١٢٤
دعبول، محمد ديب: ٢٧
دول، بوب: ٥٣، ٢٢١
ديان، موشيه: ٢٣٩

- ر -

رأي عام: ١٧، ٥٥، ٧٥، ٨٠، ١٠٤، ١٤٦، ١٥١
رأي عام إسرائيلي: ١٥٥، ١٧٩، ٢٥٤
رابين، إسحاق: ٨٢، ٩٤، ١٠٣، ١٠٧-١١٠، ١١٤، ١١٦-١١٧، ١٢٧-١٣١، ١٣٤-١٣٥، ١٤٤-١٤٥، ١٤٧-١٥٧، ١٦٢-١٦٣، ١٦٩-١٧٠، ١٧٣، ١٧٦-١٨١، ١٨٦-١٨٩، ١٩٧-١٩٨، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٣٧-٢٣٨، ٢٤١، ٢٤٥، ٢٤٨، ٢٥١-٢٥٢، ٢٥٤، ٢٨٦، ٢٩١
رابين، ليا: ١٩٧
رابينوفتش، إتامار: ١٠٨، ١٤٩، ١٦٩، ١٧١، ١٨٩، ٢٣٩
رامسفيلد، دونالد: ٤٢

الربيع العربي: ٢٧٥
رزق، إلياس: ٧٤
روث، ألن: ٢٢٦
روس، دنيس: ١٦، ١٩، ٥٨، ٦١، ١١٤، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٨، ١٣٤، ١٤٣-١٤٦، ١٤٩-١٥٠، ١٥٣-١٥٥، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٢-١٦٣، ١٦٥، ١٦٩، ١٧٧-١٧٨، ١٨٠-١٨١، ١٨٦-١٩٠، ١٩٨، ٢٠١، ٢٠٣-٢٠٤، ٢٠٦-٢٠٧، ٢١١-٢١٤، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٤٦-٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٥، ٢٦٤-٢٦٥، ٢٦٧-٢٦٩، ٢٨٨-٢٨٩
روس، كريستوفر: ١٩، ٥٨، ٨٥، ١٠٣، ١٢٣، ١٨٦، ١٩٠
ريغان، رونالد: ٣٨، ٤٢، ٦٠، ٩٢، ١٠٥، ١٧٧، ٢٢٦

- ز -

زرداري، آصف علي: ٢٠٩
الزعبي، محمود: ٢٥٩
الزعيم، حسني: ١٨١
زيارة السادات للقدس (١٩٧٧): ٦٤، ١٤٨
زيارة كلينتون لدمشق (١٩٩٤): ١٥٩، ١٦٥، ٢٣٠

- س -

السادات، أنور: ٤٠، ٥٧، ٦٤، ٧٣، ٧٨، ١٤٨، ٢٤١، ٢٦١
ساغوي، يوري: ٢٤٤
سبكتر، آرلن: ٢٧٦
ستيفانوبولوس، جورج: ١٩٦
السعداوي، خليل: ٢٦
سنقر، صالحة: ١٣٦
سيل، باتريك: ٢١٦، ٢٣٩-٢٤٠

- ش -

شابيرا، شمعون: ٢٢٥
شارون، آرييل: ١٩٨، ٢٣٢، ٢٥٣
شاليش، ناعسة: ١٣٢
شاليط، جلعاد: ١١٩
شامير، إسحاق: ٤٨-٥٠، ٦١، ٧٥، ٧٩-٨٢، ٨٦-٨٧، ٩٢، ١٠١-١٠٣، ١٠٧، ١٠٩، ١١٧، ٢٢٧، ٢٣٩، ٢٤٥، ٢٥٤
شاهاك، أمنون: ١٩٨
شرابي، هشام: ٤٣
الشرع، فاروق: ٢٨، ٣٥، ٤٧، ٦٦، ٨١، ٨٥، ١١١، ١٢٥، ١٣٢، ١٥١، ١٦٢، ١٨١، ٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٢٤، ٢٤٠، ٢٤٤، ٢٥١، ٢٥٤، ٢٦٤، ٢٦٨-٢٧٠، ٢٧٢، ٢٩٤، ٢٩٧
شعبان، بثينة: ١٥، ١٧، ٢٥، ١٣٣، ١٣٦، ١٥٧، ١٦١، ١٧٤، ١٩٠، ٢٤٣، ٢٤٩-٢٥٠، ٢٦٤، ٢٦٨-٢٧٠، ٢٧٢
شكور، يوسف: ٢٤٢
الشهابي، حكمت: ١٥١، ١٧٠-١٧٤، ١٧٦، ١٨٠، ٢٧٥
شوايد، باري: ١٣٤
شولتز، جورج: ٣٨
شيخ قروش، باسم: ١٧١
شيراك، جاك: ٤٠-٤١، ٢٠١، ٢١٢
شيفردنادزه، إدوارد: ٦٣
شيلي، بيرسي بيش: ٢٧٤

- ص -

الصالح، نجم الدين: ٢٧٧
الصباح، جابر الأحمد الجابر: ٣٦
الصباح، فهد الأحمد الجابر: ٣٦

الصراع العربي – الإسرائيلي: ١٥-١٦، ٢٠، ٣٠، ٤٥-٤٦، ٦٢، ٧٥، ٧٧، ٨٠، ٨٤، ١١٠، ١٧٠، ١٩١، ١٩٧، ٢١٦، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٧٦، ٢٩١
صلاح الدين الأيوبي: ٣٩، ٢٦١

- ط -

الطباع، فاروق: ٧٤
طلاس، مصطفى: ١٥١
طيارة، عدنان: ٧٤

- ع -

عباس، محمود: ١١١
عبد الشافي، حيدر: ٩٠، ١١١، ١١٣، ١١٥
عبد المجيد، عصمت: ٥١
عبد الناصر، جمال: ٢٣
عدوان، كمال: ١٧٠
عرفات، ياسر: ١١٠-١١٩، ١٣٥، ١٤٦-١٤٧، ١٨٧، ٢٢٤، ٢٢٨، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٧، ٢٦٠، ٢٧٦
عرنوس، أحمد: ٧٤
عريقات، صائب: ٩٠، ١١١، ١١٥
عزيز، طارق: ٤٢
عشراوي، حنان: ٩٠
العظمة، ليلى: ١٨٥
العظمة، يوسف: ١٨٥-١٨٦، ١٩٢
العلاف، موفق: ٧٤-٧٥، ٨١-٨٣، ٨٧-٩٥، ١١١، ١٧٦، ١٨٧
العلاقات السورية - الأمريكية: ٣٨، ٤٠، ١٠٦، ١٢٤-١٢٥، ١٣٤، ١٦٠، ٢٧٠، ٢٩٦
العلاقات السورية - العراقية: ٣٦
العلاقات السورية - اللبنانية: ١٢٧
العلاقات العراقية - الأمريكية: ٤١
العلاقات العراقية - الفرنسية: ٤١
العلاقات اللبنانية - الفرنسية: ٢١٢
علاقة سورية بحزب الله: ١٩٠
علوش، رسلان: ٧٤
العمر، إبراهيم: ١٧١، ٢٤٤
عملية السلام السورية - الإسرائيلية: ٣٠، ٤٠، ١٦٤، ١٧٣، ١٨٩، ١٩٥، ٢٣١-٢٣٣، ٢٣٧، ٢٤٥، ٢٥٠-٢٥١، ٢٥٤، ٢٥٩، ٢٦٣، ٢٧٣، ٢٧٥-٢٧٧، ٢٨٦، ٢٩١، ٢٩٨
عملية السلام العربية - الإسرائيلية: ١٠٦، ٢٨١، ٢٩٢
عملية السلام اللبنانية - الإسرائيلية: ٢١٢
عوكر، ماري روز: ٥٨
عيش مشترك: ٢٧٧

- غ -

الغارة الإسرائيلية على لبنان (١٩٧٣): ١٧٠
غزو أمريكا للعراق (٢٠٠٣): ٦٥
غلاسبي، أبريل: ٣٥
غور، آل: ١٠٥
غورباتشوف، ميخائيل: ٥٧، ٧٩
غولدستاين، باروش: ١٤٦

- ف -

فالدهايم، كورت: ٨٢
فورد، جيرالد: ٥٣

- ق -

قباني، صباح: ٢٣٩
قرار إرسال جنود سوريين إلى لبنان (١٩٧٦): ٢٦٠
قريع، أحمد: ١١٣
القضية الفلسطينية: ٦٠، ٧٤، ١١٧، ١٤٦

قمة جنيف (١٩٩٤): ١٢٥، ١٤٣، ١٤٦، ١٥٧
قمة جنيف (٢٠٠٠): ٢٧٦
قمة كامب ديفيد (٢٠٠٠): ٢٤١

- ك -

كاتز، أورلي أزولاي: ١٨٨
كارتر، جيمي: ٣٩، ٥٢، ٦٠، ٧٨، ١٠٥-١٠٧، ١٥٥، ١٥٨، ١٧٥، ٢١٦، ٢٦٩
كرتزر، دانيال: ١٤٦
كريستوفر، وارن: ١٦، ١٠٦-١٠٨، ١١٢، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٧-١٢٩، ١٤٧-١٤٨، ١٥٠-١٥١، ١٥٥-١٥٧، ١٦٢-١٦٣، ١٦٥، ١٧٠، ١٧٣، ١٨٠، ١٩٠-١٩١، ١٩٦، ٢٠١، ٢٠٣-٢٠٦، ٢٠٨-٢١٤، ٢١٦، ٢٢١، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٧٥، ٢٨٧-٢٨٩، ٢٩١-٢٩٣
الكسم، عبد الرؤوف: ١٢٥
كلينتون، بيل: ١٦، ١٩، ٣٠، ٤٠، ٦٨، ٧٥، ٧٨، ٩٧، ٩٩، ١٠٤-١١٠، ١١٤، ١١٨، ١٢١، ١٢٣-١٣٥، ١٣٧-١٣٩، ١٤٤-١٤٧، ١٥٥، ١٥٧-١٦٦، ١٦٩، ١٧٢-١٧٧، ١٨٠، ١٨٧-١٨٨، ١٩٥-١٩٦، ١٩٨، ٢٠٠، ٢١١، ٢٢١-٢٢٧، ٢٢٩-٢٣١، ٢٣٣-٢٣٤، ٢٣٨، ٢٤٠-٢٤٦، ٢٥٠-٢٥٥، ٢٥٩-٢٧٠، ٢٧٣، ٢٨٥، ٢٨٧-٢٩٤، ٢٩٦-٣٠٢
كلينتون، هيلاري: ١٦١، ١٧٤، ٢٢٢
كوزيريف، أندريه: ١١٢
كويل، دان: ١٠٥
كيسنجر، هنري: ٣٨-٤٠، ٥٢، ١٢٨، ١٥٥، ١٩٢، ٢٤٩
كِيللي، فرجينيا كاسيدي: ١٣٢
كينيدي، جون: ١٢٣

- ل -

لارسن، تيري رود: ١١٣-١١٤
لاودر، رونالد: ٢٢٤-٢٢٦، ٢٢٨-٢٢٩، ٢٣١-٢٣٤، ٢٣٧-٢٣٨
لحود، إميل: ٢٧٠
لنكولن، أبراهام: ٢٤٢
لوقا، إسكندر: ٤٧، ١٢٥
لوينسكي، مونيكا: ٢٢١-٢٢٣
ليك، أنتوني: ١٢٥

- م -

مؤتمر مدريد (١٩٩١): ١٥، ٢٠، ٤٤، ٥٠، ٦٧، ٦٩، ٧٣، ٧٥، ٧٨، ٨٠-٨١، ٨٤-٨٦، ٨٩، ٩١، ٩٥، ١٠٢، ١٠٧، ١١١، ١٩٦، ٢٣٨، ٢٤٥، ٢٧٦
مؤتمر هلسنكي (١٩٧٥): ٥٤
مؤتمر وزراء الخارجية لمنظمة المؤتمر الإسلامي التاسع عشر (القاهرة،١٩٩٠): ٣٥
مالي، روب: ٢٦٨
مانديلا، نلسون: ٢٣
مبارك، حسني: ٦٣، ١٣٨، ١٩٦، ٢٦٢، ٢٨١
مبدأ الأرض مقابل السلام: ٤٨، ١٦٤، ٢٨٣، ٢٨٩
المجتمع الدولي: ٨٤، ٩٠، ١٠٥، ١٣٧، ١٥٢، ١٦٢، ١٩٢، ١٩٧، ٢٧٧
مجزرة قانا (لبنان، ١٩٩٦): ١٩٧
محادثات السلام: ١٤٦
محادثات سورية - إسرائيلية: ٩٣، ١١٨، ١٦٩
محادثات لبنانية - إسرائيلية: ٢٤٥
محور المقاومة: ٢٧٠
مخزون إسرائيل المائي: ١٨١

مخلوف، أنيسة: ١٣٧، ٢٧١
مخلوف، عدنان: ١٣٦
مذبحة الخليل (١٩٩٤): ١٤٦
مرصد حقوق الإنسان: ٢٠٠
مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت): ١٥
معاهدة السلام الأردنية - الإسرائيلية (١٩٩٤): ٢٧٤
معركة ميسلون (١٩٢٠): ١٨٥-١٨٦
المعلم، وليد: ٧٤، ١١٨، ١٦٩-١٧٠، ١٧٦، ٢٢٤-٢٢٥
مفاوضات شبردستاون (٢٠٠٠): ٢٣٥، ٢٤٠-٢٤٥، ٢٤٧-٢٤٨، ٢٥١، ٢٥٣-٢٥٥، ٢٥٩، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٦٨، ٣٠٠-٣٠٢
مكماهون، هنري: ١٥٤
مليشيا لحد: ٦٦
منظمة التحرير الفلسطينية: ١١١-١١٤، ١١٦، ١٣٠، ٢٩٠-٢٩١
منظمة المؤتمر الإسلامي: ٣٦
موردخاي، إسحاق: ٢٢٥، ٢٣٢
ميرو، محمد مصطفى: ٢٥٩-٢٦٠
ميلر، آرون ديفيد: ١٠١، ١٤٦، ٢٥٥

- ن -

نادر، جورج: ٢٢٦
ناصر، كمال: ١٧٠
نتنياهو، بنيامين: ١١٧، ٢٢٣-٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٧-٢٣٨، ٢٤٠، ٢٦٣
النجار، محمد يوسف: ١٧٠
نصر الله، حسن: ١٥٩، ١٩٧
نظرية المؤامرة: ٦٧
نور الدين، ساطع: ٢٦٩
نوفيك، نمرود: ٢٥٤
نيكسون، ريتشارد: ٣٩، ٥٢، ١٠٧، ١٥٨

- هـ -

الهاشمي، الحسن بن طلال: ١٣٨
الهاشمي، الحسين بن طلال: ٧٨، ١١٦، ١٣٥، ١٤٧، ١٧٨، ٢٨١
الهاشمي، حسين بن علي: ١٥٤
الهاشمي، فيصل الأول بن الحسين: ١٨٥
الهراوي، إلياس: ٦٦، ٧٨، ٨٩، ١٤٧، ١٩٦
هلال، جمال: ١٢٥، ٢٦١، ٢٦٣-٢٦٤

- و -

الوحدة العربية: ٤، ٢٤٩
وديعة رابين: ١٣١، ١٤٧-١٤٨، ١٥٠-١٥١، ١٥٤، ١٦٢، ١٧٧، ١٧٩-١٨٠، ٢٤١، ٢٤٥، ٢٤٨، ٢٥١-٢٥٢، ٢٥٤، ٢٦٢، ٢٩٥، ٢٩٧-٢٩٨
وسيط: ١٩، ٢٢٥، ٢٣٤
وفاة باسل الأسد (دمشق، ١٩٩٤): ١٣٦
وفاة الرئيس حافظ الأسد (١٠ حزيران/ يونيو ٢٠٠٠): ٢٧١-٢٧٢
ولايتي، علي أكبر: ٢٠٨

- ي -

ياتوم، داني: ٢٦٥
ياناي، شلومو: ٢٤٤
يلتسن، بوريس: ١٢٦

هذا الكتاب

«**عشرة أعوام مع حافظ الأسد**»، كتاب مثير يجمع بين رواية المذكّرات وتوثيق المادَّة التاريخية لمرحلةٍ شديدة الحساسيّة في الحياة العربية المعاصرة، وهي مرحلة محادثات السلام العربية ـ الإسرائيلية في العقد الأخير من القرن الماضي.

الدكتورة بثينة شعبان، هي مستشارة ومترجمة رئيسية للرئيس الراحل حافظ الأسد، تشركنا بوثائق ووقائع من المصدر الأساسي عن العلاقات الأمريكية ـ السوريّة في الحقبة التي شهدت تلك المحادثات، وتقدّم وثائق تنشر للمرَّة الأولى تساعد حتماً على مزيدٍ من تعميق فهم أسباب الصراع المستمرّ في الشرق الأوسط.

مركز دراسات الوحدة العربية إذْ يقدِّم هذا الكتاب إلى القارئ العربي فهو على يقين أنه سيثير نقاشاً سياسياً وتاريخياً مهماً، كونه الرواية الأولى عن محادثات السلام التي تكتبها شخصية سورية من الداخل.

الدكتورة بثينة شعبان

- أستاذة الأدب الإنكليزي في جامعة دمشق منذ العام ١٩٨٥.
- مترجمة رئيسية للرئيس الراحل حافظ الأسد، ومستشارة سياسية وإعلامية للرئيس السوري بشار الأسد.
- توّلت مناصب وزاريّة وسياسيّة وإعلاميّة في بلادها. وصدر لها باللغة العربية: **الشعر والسياسة: شيلي وشعراء الحركة التشارتية** (دمشق: دار طلاس، ١٩٩٣)؛ **مئة عام من الرواية النسائية العربية، ١٨٩٩ ـ ١٩٩٩** (بيروت: دار الآداب، ١٩٩٩)؛ **المرأة في السياسة والمجتمع** (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٨)؛ **بنت الأرض** (٤ أجزاء) (دمشق: دار الفكر، ٢٠١٢).

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص.ب: ٦٠٠١ - ١١٣
الحمراء ـ بيروت ٢٠٣٤ ٢٤٠٧ ـ لبنان
تلفون: ٧٥٠٠٨٤ ـ ٧٥٠٠٨٥ ـ ٧٥٠٠٨٦ ـ ٧٥٠٠٨٧ (٩٦١١+)
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت
فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (٩٦١١+)
e-mail: info@caus.org.lb
Web site: http://www.caus.org.lb

الثمن: ١٦ دولاراً
أو ما يعادلها

ISBN: 978-9953-82-751-3